

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية أصول الدين
والشريعة والحضارة الإسلامية
العقيدة ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية

قسنطينة - الجزائر - قسم :
شعبة : مقارنة الأديان

رقم التسجيل :

رقم التسلسلي :

مكانة البابا في الكنيسة الكاثوليكية

مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجستير في مقارنة الأديان

* إشراف الأستاذ الدكتور

محمد بوالروايح

* إعداد الطالبة :

بوليفة هاجر

- لجنة المناقشة -

الاسم واللقب	الصفة	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية
1 -			
2 - أ.د محمد بوالروايح	مشرفا ومقررا	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
3 -			
4 -			

السنة الجامعية : 2010 م / 2011 م

1431 هـ / 1432 هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ
مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ
مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ
مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ

مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ
مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ
مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ
مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ
مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَالنَّجْمِ

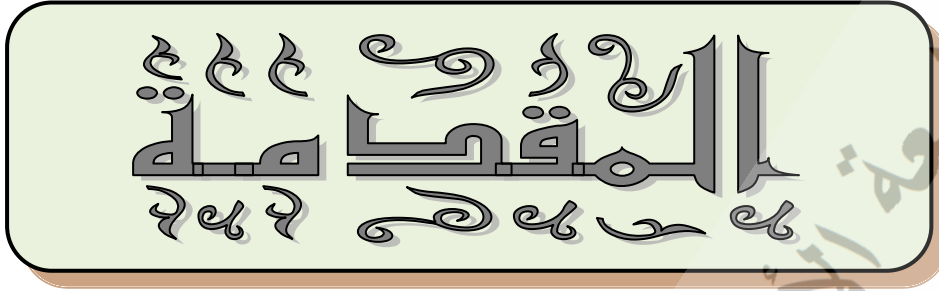
أشياء

- إلى من أسرتني بنور قلبها ورعتني بدعائها الصادق، إلى التي أفنت عمرها في تربية أولادها، إلى التي أتمنى أن يكون مقامها في الجنة من مقام رسول الله - ﷺ - - كافل اليتيم - "أمي الغالية".
- إلى "أبي الغالي" القدوة الحسنة - رحمه الله - واسكنه فسيح جنانه.
- إلى زوجي رفيق عمري تقدير التضحياته وعونه الصادق خلال رحلة بحث طويلة.
- إلى أكبر نعمة وهدية من الله فلذة كبدي ونور عيني "أنس".
- إلى أخي الوحيد "إسماعيل" أدعوا الله أن يطيل عمره.
- إلى أخواتي وحبيباتي "شفاء"، "خولة"، "شيماء".
- إلى هؤلاء جميع أهدي هذا العمل.

شكرًا وتقديرًا

الحمد لله رب العالمين فالق الحب والنوى الواحد الأحد، رافع السّماء
بلا عمد حمدًا كثيرًا، لا نحصي له عددًا سبحانه اللهم خير من علم.
لا يسعني في البداية، إلا التّوجه بكل آيات الشكر الجزيل والتّقدير
البالغ إلى الأستاذ الدكتور "محمد بوالروايح" الذي تكرم بقبول
الإشراف على هذا البحث، ومنحه كل العناية والاهتمام منذ البداية،
وزودني بتوجيهاته العلمية الدّقيقة وملاحظاته القيّمة العميقة
وأني ملقّدر له أجل التقدير والشّكر والثناء في الضّمير، وجزاه الله خير
الجزاء. إنّه سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

كما أشكر أعضاء لجنة المناقشة الذين سيتفضلون لمناقشة بحثي.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

■ المقدمة

تعد فترة العصور الوسطى من أهم الفترات في تاريخ أوروبا، لأنها شهدت أحداثاً متميّزة، فظهور الكنيسة، وتزايد صلاحياتها في الجانبين الديني والسياسي وبرزها كقوة منافسة للدولة، وصراع القوتين ساهم في توجيه تاريخ أوروبا، خاصة هذه الفترة التي كانت بمثابة فترة انتقالية من العصور القديمة إلى العصور الحديثة.

وما ميّز أوروبا أيضاً في مستهل العصور الوسطى هو ظهور بعض المؤسسات التي لعبت دوراً كبيراً في المجتمع الغربي المسيحي، ومن بين هذه المؤسسات : البابوية التي كانت سبباً في الانشقاق داخل الكنيسة، فظهرت الحاجة إلى زعامة روحية يمكن الرجوع إليها في حالة حدوث أزمات أو اختلافات حول أية قضية تواجه العالم المسيحي ؛ وذلك للمنطق السائد وقتذاك في أن يكون للكنيسة رأس أعلى كما للإمبراطورية إمبراطور.

ولدراسة هذا الموضوع لابدّ من طرح الإشكال الآتي :

— ما هي أهم المراحل التاريخية التي مرّت بها الكنيسة ؟

— ما هي الأسباب التي أدّت إلى ظهور البابوية ؟

— وفي أيّ عصر كانت سيادتها على الكنيسة في بلدان العالم المسيحي ؟ وهل دامت

تلك السيادة أم انحطت ؟ وما سبب انحطاطها ؟.

— وهل كان دور البابا في الكنيسة ديني محض أن تعدى ذلك (دنيوي) ؟ وكيف كان

الصراع بين السلطتين الدينية الدنيوية -على مرّ العصور-.

■ أسباب اختيار البحث :

ذاتية :

— رغبتى الملحة في معرفة تاريخ الكنيسة وأهم المراحل التي مرّت بها.

— معرفة الإستراتيجية الفكرية التي يتبعها البابا داخل الكنيسة.

موضوعية :

- معرفة أهم العثرات التي واجهت الكنيسة في مرحلة صعودها ومن ثم تدهور مكانة البابا، وهل حظي البابا على مكانة رفيعة في الوقت الحالي أم لا ؟
- معرفة ما ميّز السّلطة البابوية، من خلال الحقب التاريخيّة التي مرّت بها الكنيسة.

الأهداف :

- الإسهام في إعطاء المسلمين نظرة حول مكانة ومهام البابا داخل الكنيسة الكاثوليكية، وبما أنّ البابا هو أعلى سلطة دينيّة في الكنيسة يوازي عندنا المسلمين الإمام في المسجد ممّا يترك هنا المجال للمقارنة.
- محاولة الكشف عن الظروف والملابسات التي كانت وراء نشأة البابوية.
- الكشف عن دور البابا عبر العصور إلى يومنا هذا - كما هو معروف ديني أم غير ذلك-.
- الوقوف على المعوقات التي واجهت البابوية في الكنيسة الكاثوليكية عبر التاريخ.

■ الدراسات السابقة (أو نقد المصادر والمراجع) :

- كان الاعتماد على مجموعة من مصادر ومراجع عربية وأجنبية :
- بالنسبة للمصادر والمراجع العربية : المسيحية منها كتاب "المسيحية نشأتها وتطورها لشارل جنبيز" فقد أفادني في النشأة الأولى للكنيسة (العصور الأولى) أيضا كتاب "دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة لجان كمبي" الذي دلّني كثيرا في كافة مراحل البحث، حيث تناول تاريخ الكنيسة من نشأتها الأولى إلى القرن العشرين بما فيها البابوية. بالإضافة إلى موسوعات ومعاجم تاريخية :
- أمّا المصادر والمراجع التاريخيّة التي تناولت تاريخ الكنيسة أو بالأحرى تاريخ المسيحية. "قصة الحضارة لـ : ول ديورانت"، كتاب حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى " لأنّ طبيعة الموضوع تفرض الرّجوع إلى مثل هذه الكتب (مثلا : الحرب العالمية الأولى والثانية)، إلى غيرها من مراجع تاريخية أخرى.

أما الكتب الأجنبية مثل كتاب : " Juan daron Dictionnaire des papes " . الذي ساعدني في تتبع التسلسل الزمني للأحداث من خلال دراسة تاريخ البابوات.

وهناك كتاب " histoire du catholicisme : Jean baptiste " . كذلك رجعت إلى بعض الرسائل الجامعية منها، رسالة الدكتور "حايبي مسعود"، حوار الأديان : الإسلامي المسيحي نموذجاً، فقد تطلعت على بعض العناصر منها : المبحث الأول من الفصل الثاني : الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية.

أما بخصوص الدراسات السابقة ؛ فحسب مطالعتي البسيطة فإني لم أعر على دراسة خاصة لهذا الموضوع إلا أحداث متناثرة في الكتب. فحاولت جمعها لإعطاء صورة أو نظرة بسيطة حول النشأة الأولى للبابوية إلى يومنا هذا.

■ الصعوبات :

من الطبيعي أن يواجه الباحث في عمله عراقيل التي تتمثل في صعوبة الحصول على المصادر والمراجع المتعلقة بموضوع الدراسة.

أما العائق الآخر فهو عملية ترجمة المادة العلمية من الكتب الأجنبية، لأن الدراسات القيمة في مقارنة الأديان جلتها بلغات أجنبية متعددة، مما يستغرق لذلك الكثير من الوقت.

■ المنهج :

وللإجابة عن الأسئلة والإشكالات السابقة، ولتحقيق الغرض من دراسة هذا الموضوع، فضلت إتباع المنهج التاريخي الوصفي، حيث تتبعت تاريخ الكنيسة، وبالخصوص تاريخ البابوية، فوقفت عند أهم محطاتها قديماً وحديثاً، مستعينة بالمنهج التحليلي في الكشف عن دوافع البابا في إنشاء الكنيسة الجامعة وتوضيح مكانته والدور الذي لعبه من عصر إلى آخر.

■ الخطة :

ولإتمام هذا البحث أتبع خطة مكونة من ثلاث فصول، مقدمة أبرزت فيها أهمية الموضوع وطرح الإشكال حوله بالإضافة إلى باقي العناصر التي تتطلبها المقدمة.

–الفصل الأوّل : تطرقنا للكنيسة في العصور الأولى من القرن 01 م إلى 05 م.

ويتكون من ثلاث مباحث :

المبحث الأول : نشأة الكنيسة.

المبحث الثاني : الكنيسة في الإمبراطورية المسيحية.

المبحث الثالث : التنظيم الكنسي والروابط بين الكنائس وكل مبحث يحتوي على مطالب.

–الفصل الثاني : تحدثت عن البابوية في العصور الوسطى من القرن 06 م إلى 16م.

وهو أيضا يتكون من ثلاث مباحث :

المبحث الأول : الرهبانية والديرية في العصور الوسطى.

المبحث الثاني : عهد الزعامة البابوية.

المبحث الثالث : البابا والحروب الصليبية.

–أما الفصل الثالث والأخير فهو بعنوان : البابوية في العصور الحديثة من القرن 16 م إلى يومنا هذا يتكون من أربع مباحث.

يتكون من أربع مباحث :

المبحث الأول : حركة الإصلاح الديني.

المبحث الثاني : البابا قبل المجمع الفاتيكاني الثاني.

المبحث الثالث : البابا في المجمع الفاتيكاني الثاني.

المبحث الرابع : البابا بعد المجمع الفاتيكاني الثاني.

وكل مبحث يحتوي على مطالب تشرح فحوى الموضوع إضافة إلى خاتمة كانت

حوصلة لما توصلت إليه من خلال دراستي وبحثي في هذا الموضوع.

وأخيرا نرجو من الله التوفيق، فإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان، وإن أصبنا

فبفضل الله وعونه ثم الأستاذ المشرف جزاه الله كل خير.

الفصل الأول

الكنيسة في العصور الأولى من القرن 1 م إلى 5 م.

■ المبحث الأول : نشأة الكنيسة.

- المطلب الأول : الإمبراطورية الرومانية.
- المطلب الثاني : زمن الرّسل.
- المطلب الثالث : الكنيسة في الكتاب المقدس

■ المبحث الثاني : الكنيسة في الإمبراطورية المسيحية

- المطلب الأول : عصر قسطنطين.
- المطلب الثاني : ما بين المجمع النيقاوي والخلقيديوني
- المطلب الثالث : نشأة الحياة الرّهبانية.

■ المبحث الثالث : التنظيم الكنسي والروابط بين الكنائس

- المطلب الأول : الأساقفة والمطارنة .
- المطلب الثاني : البطريركيات الخمس.
- المطلب الثالث : تأكيد الأولوية الرومانية.

الفصل الأول

المنهجية في العصور الأولى من القرن 1 م إلى 5 م

إن التاريخ ذاكرة الجماعة البشرية، تسجّل حركة الإنسان وحركة الحياة. إنها حلقات مترابطة، فليس هناك حضارة نشأت من فراغ، وليس هناك أمة لم تبني نهضتها، وقد أفادت من الأمم التي سبقتها أو التي عاصرتها. لهذا نجد أن هناك توافقاً بين بدء الإمبراطورية - سنتطرق إليها لاحقاً - وظهور المسيحية، لأن الإمبراطور مرقس أوريليوس المعروف بالفيلسوف يذكر أنه ولد يسوع في عهد أوغسطس¹ قيصر، وبشرقي عهد طيباريوس، فالكنيسة والإمبراطورية تلتقيان في سبيل غني متبادل.

فالمسيحية ليست عقيدة خارج الزمن، فبعد أن أخذت ما أخذت من العالم السامي الكتابي، ها هي تتأمل بعمق في العالم الروماني الذي أصبح أو حقل للتبشير منذ أن ظهر بولس.

المبحث الأول : نشأة الكنيسة.

- المطلب الأول : الإمبراطورية الرومانية.

- الفرع الأول : نبذة عن تاريخ روما.

تأسست روما، المدينة الإيطالية، سنة 753 ق.م، وأخضعت كل بلدان الحوض المتوسط في القرن الأول قبل المسيح فاحتل مبيوس (Pompée) أورشليم سنة 63، وأنهى يوليوس قيصر احتلاله لغاليا حوالي سنة 50؛ وضم أقتافيوس قيصر مصر إلى الإمبراطورية سنة 30. ولم تكن الجمهورية الرومانية بادئي ذي بدء سوى دويلة، ولم تكن قوانينها صالحة لإدارة هذه الأراضي الواسعة الإمبراطورية سنة 27 ق.م، وعلى رأسها المواطن الأول (Princeps) الذي يحفظ وينقل ألقاب الإمبراطور (كلمة إمبراطور تعني قائد منتصر) يليه القيصر (أبوه بالتبني).

إن الإمبراطورية تجمع عدّة شعوب تحافظ على عاداتها ولغاتها وثقافتها².

وكان مسيحيون فلسطين الأوائل يتكلمون الآرامية، لغة يسوع. وكان غيرهم يستعمل لغات سامية قريبة منها كالسريانية. وفي إفريقيا لهجات بربرية، ولكن في مجمل الإمبراطورية لغتان

1 - سيأتي التعريف به لاحقاً.

2 - جميل مدبك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ط []، دار كريس أنترنا شيونال، 2000، ص 28.

فرضتا وجودهما.

1. اليونانية وقد كانت في الأصل لغة بعض المدن، ولكنها فيما بعد أصبحت لغة كل الشرق المعتمدة¹.

وكانت اليونانية هذه، التي حلت محل عدّة لهجات تدعى "الشائعة".

و لم تكن لغة الثقافة فحسب، بل لغة التجار الدولية أيضا. وقد انتشرت في روما ومدن الغرب.

فالكتابات اليونانية في مدينة ليون كثيرة، وهي كالإنكليزية اليوم، يُقال أن اليونانية صفي لغة الكنيسة الأولى، والمسيحيون يستعملون الترجمة اليونانية للكتاب المقدس المعروفة بالسبعينية، والعهد الجديد كُتب باليونانية، وكذلك الكتب المسيحية، حتى القرن الثالث في روما.

2. اللاتينية : هي لغة روما، ثم لغة الغرب، كانت في البدء أقل انتشاراً من اليونانية. لكنها بقيت لغة الإدارة والحقوق في الإمبراطورية كلها. واستعملت في الكنيسة كلغة عادية في إفريقيا أولاً منذ نهاية القرن الثاني، ثم في روما، ومن ثم في كل الغرب المسيحي في القرن الثالث.

بمقدار ما استعمل المسيحيون هاتين اللغتين، دخلت في الكنيسة أساليب تفكير. فالفلسفة اليونانية استعملت كتهيئة لعلم اللاهوت، أما اللغة اللاتينية، فقد استعملت في الحقوق الرومانية لخلق إطار قانوني للجماعات الغربية، وعند تحديد المجال الحيوي لكل من اليونانية واللاتينية في القرن الرابع، تطوّرت في الكنيسة كل من الثقافتين في ناحية مختلفة، حتى وصلا إلى الانفصال².

وكانت اللاتينية اللغة القديمة لإيطاليا واللغة النموذجية لمعظم مناطق الإمبراطورية الرومانية، واللاتينية التي لا زالت تدرس اليوم في بعض المدارس، كانت اللغة النموذجية لشيرون³، ويطلق اليوم اسم اللاتين على المسيحيين الكاثوليك الذين يستعملون اللغة اللاتينية في ممارسة طقوسهم

1 - مجموعة من كبار الباحثين. بإشراف ط.ب مفرّج : موسوعة عالم الأديان، كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في

العالم، كنيسة روما، ج10، ط [1 ، 2]، بيروت، Nobilis، 2004، 2005، ص 8.

2 - جان كُمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ط []، بيروت، المشرق، ت []، ص 39.

3 - شيرون أو فيقرون : (106 - 43 ق.م) : أكبر خطيب وكاتب مفكر عرفته روما، تعاطى السياسة من أشهر مؤلفاته :

دفاعه عن مورينا وميلو ومرافعاته ضد كاتيليانا وفريس، وخطبه ضد أنطوينوس المعروفة بـ "الفيليبك"، وكتبه : "في الدولة"، "في الشيخوخة".

الكنيسة، وإذ لا تزال لاتينية الآباء المسيحيين اللغة الرسمية للطقوس الدينية في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، لذلك سُميت الكنيسة اللاتينية¹.

- عبادة الإمبراطور :

هناك تقليد روماني مكرّس، يرى في الإمبراطور، الحبر الأعظم أو الكاهن الأعظم. فقد حرص أوغسطس². الحرص كله، وهمه كثيرا ألا يُهمل أو ينتقض قط، من قيمة هذه الوظيفة التي تلازمه مدى الحياة. فلم ينتزعه عنوة من صنوه ومنافسه ليينس، بل لبث طويلا ينتظر وفاته عام 12 ق.م ليُطال به ويشتهه لنفسه، وحرص خلفاء أوغسطس من بعده، على التمتع بهذه الرتبة والوظيفة عند اعتلائهم أريكة العرش، فالخبرية العظمى تولي حاملها وصاحبها سلطات دينية غاية في الأهمية، وقد أعطى أوغسطس المثل في ممارسته لمهام هذه الوظيفة بدقة واهتمام زائدين، وهو مثل حرص خلفائه من بعده على اقتفاء أثره.

فالإمبراطور عضو بارز في مجمع كبار الكهنة والأخبار، بحيث يراقب نشاطهم ويهيمن على انتقائهم واصطفائهم وتعيينهم في مراكزهم، ومن بين هذه الرتب الكهنوتية، رتبة يباهي بالانتساب إليها والنهوض بأعبائها، وهي رتبة العرفاء أو العائق، وذلك بالنظر للدور الذي يلعبه هؤلاء الكهّان في الكشف عن الفأل واستطلاع الطالع، وقد رمزوا إلى هذه الرتبة بالعصا المعقوفة المعروفة عندهم باسم litno التي أصبحت، فيما بعد، من الشارات المميزة للإمبراطورية.

وهكذا يبرز الإمبراطور على رأس الحياة الدينية، ويكون رئيسا لجميع الأخبار، ويصبح بالتالي، الوسيط بين الدولة والآلهة، فهو يرأس شخصيا أهم الاحتفالات الدينية ويضفي حضوره على أبسط الأعمال مهابة الطقوس الدينية ومراسمها. فهو المسؤول الأول عن بناء المعابد والهيكل.

وموجز القول، فالاسم الذي يحمله "أوغسطس" مشتق من أقدم المراسم الدينية وأعرقتها اصطلاحا عندهم، هي رتبة العرافة Augure، وهي رتبة تضيئي عليه شيئا من الجلال وتجليه بمالة من التقوى والخشوع وبهذه الصفة يستمطر على الشعب الروماني عطف الآلهة، ويستمد منها

1 - مجموعة كبار الباحثين بإشراف ط.ب مفرّج : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 9.

2 - أوغسطس : (63 ق.م 14م) : أول أمبراطور روماني، هو ابن بنت أخت يوليوس قيصر الذي تبناه وجعله وريثه دون علمه، اسمه أصلا أولتافيوس وبعد التبني 44 ق.م أومتافيانوس على شأنه في روما عقي مقتل قيصر، كوّن مع أنطونيوس وليبدوس الحكومة الثلاثية "الثانية خلفه على العرش تيباريوس ابن زوجته.

الرعاية والهداية، فالتعدي على سلطته أو مسّ شخصه، هو التّجني بالذات على الدين¹.

كانت عبادة الإمبراطور أكثر عبادات الدولة قوّة وانتشاراً يومذاك، وهي العبادة التي أنشأها الإمبراطور أوغسطس الذي عاصر يسوع، وأصبحت تعبيراً مادياً للعرش².

لذلك فالعلاقة بين الإمبراطور والشعب هي علاقة تقديس.

أت عبادة الإمبراطور من الشرق حيث نماها الملوك الهيلنّيون، لكنّها ظهرت في الغرب كحركة جديدة، حين حاول الأباطرة الرومان تعميمها في سائر أنحاء الإمبراطورية، فهي ديانة في خدمة السياسة وفي الولايات الشرقية، كان الإمبراطور مؤملاً في حياته، وفي روما كان يؤلّه بعد موته فقط³.

فالدولة نفسها تشيء عبادة خاصة في عبادة الإمبراطور الراحل، وعملية التأليه هذه يقرّها مجلس الشيوخ، فيرفع الإمبراطور إلى مصاف الآلهة، ويكفي لذلك أن يتقدّم شاهد للشهادة، ويؤكد يمين مغلظة أنّه شاهد، أثناء الاحتفال بجنازة الأمبروطو وحرقت جثمانه، روحه تطير أجنحة نسر، وهكذا يحتفظ مجلس الشيوخ بطريقة يرفض معها تكريم أباطرة، سيئي السيرة والسرية. وعلى كل حال، فالاصطلاح الذي سار عليه أوغسطس في ما لقيصر، واتبعه تيباريوس في ما لأوغسطس، وكرسه العرف والاستعمال، هو أن الإمبراطور الراحل لا ينادى إلهاً بل إلهي، فهو لا يؤلّه، إنّما يكرّم كآلهة، ومع ذلك لم يحتلّ هذا دون تشييد معبد للراحل الإلهي، ولا دون إنشاء مجمع كهنوتي أو رهينة خاصة تنقطع لتكريمه، تحمل اسمه، ينتخب أعضاؤها من بين أغني طبقات المجتمع⁴.

وكانت المشاركة في أفعال عبادة روما أوغسطس تعدّ ولاءً سياسياً ولم تصبح عبادة الإمبراطور إلزامية إلا في القرن الثالث. قبل ذلك الوقت، كان الحكام والجنود يتشاركون فيها وحدهم. ولما كان المسيحيون يُجبرون على تقديم العبادة للإمبراطور، كانوا يرفضون أن يُعطوه

1 - أندريه إيمار، جانين أو بوايه: تاريخ الحضارات العالم، روما وإمبراطوريتها، نقله إلى العربية: يوسف أسعد داغر وفريدم.

داغر، ج1، ط1، بيروت، لبنان، منشورات عويدات، 1964، ص 301.

2 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب مفرّج: موسوعة عام الأديان، كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العام،

نشوء المسيحية واضطهادها وانتشارها، ج8، ط [1 ، 2]، بيروت، Nobilis، 2004-2005، ص 46.

3 - جان كُمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 40.

4 - أندريه إيمار، جانين أو بوايه: تاريخ الحضارات العالم، روما وإمبراطوريتها، ج2، ص 304.

لفي "سيد" الذي كانوا يخصّونه بالله وبالمسيح¹.

لذلك نلاحظ أن العلاقة بين الإمبراطور والشعب هي علاقة تقديس.

- الفرع الثاني : الإمبراطورية والإنجيل.

-/1- اليهودية والمسيحية :

وقفت الإمبراطورية الرومانية موقف عدائي، من ديانتى اليهودية والمسيحية، بعد الموقف اللين، العطوف الذي وقفته من الديانات الشرقيّة الأخرى. فبعد أو وقفت من اليهودية والمسيحية موقفا متساهلا في بادئ الأمر، عادت فقلبت لهما ظهر الجن ولجأت إلى القوّة والعنف الحد من انتشارهما.

فالظنّ الوحيد أن ما امتازت به هاتان الديانتان من طابع التوحيد هو الذي جعلهما غير مقبولتين لدى الوثنيّين المشرك، فقد كان يسلم بألهو غير الآلهة التي يعبدها شريطة أن يسلموا هم بالآلهة التي يؤمن بها هو².

من ناحية ثانية، فإن ديانات الأمم، على العموم، لم تكن مجرد عقيدة نظرية يُعترف بها، ولكنها كانت ممارسة يومية من قبل الفرد والجماعة، تداخلت فيها الشؤون الحياتية في العمل واللهو وفي ظروف الحياة العامة والخاصة، فلقد كانت أمور الحرب والسّلام تبدأ وتختتم بتقديم القرابين، بخلال احتفالات رسمية طقسية كبرى، وكانت المشاهد العامّة جزءاً أساسياً من عبادة الوثنيين "المرحة" بالإضافة إلى ما كان يجري في تلك المجتمعات من حفلات إباحية، لا بدّ أنّها كانت تشكّل للإنسان العاديّ المتنفس الوحيد للحياة، وبخاصة تلك الاحتفالات الموسمية التي كانت تشهد أشد مظاهر الابتهاج والإباحية³.

وعُدّ اليهود في الرومانيين هم أنّهم يعبدون إله آبائهم، فكان تمسكهم العنيد بالناموس وبشرعيتهم، هو مثار فخارهم عبر التاريخ الذي ربطهم بروما منذ القرن الثاني قبل الميلاد، فقد عرف زعماءهم أن يؤذوا لهم خدمات تذكر وأن يظهرها وراءهم في الوقت المناسب لقيصر أولاً ولأوغسطس ثانياً، خلال الحرب الأهلية التي مزّقت البلاد، فقدّر لهم أوغسطس موقفهم هذا وبدا

1 - جان كمي : المصدر السابق، ص 40.

2 - أندريه إيمار، جاني أو بوايه : المصدر السابق، ص 416.

3 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب مفرّج : موسوعة عالم الأديان، ج8، ص 47.

نحوهم متسامحا، إلا أن خلفاءه من بعده احتلوا بلادهم واضطلعوا فيها بمسؤولية الإدارة¹. إذا كانت الديانة اليهودية بكل ما كان لها من تمييز لشعب الله المختار عن سائر الشعوب، قد جعلت أتباعها يتشبثون بقوانينها ومفاهيمها رغم اعتناقهم المسيحية لأن هؤلاء اعتبروا مجيء المسيح متمما لتلك الديانة، فـ "المسيح" ابن داود إنما هو مخلص شعب الرب من مظالم سائر الشعوب، ولا يمكن بالتالي أن يكون مخلصا لجميع الأمم، بما فيها تلك التي كان إسرائيل يسعى للتخلص من حكمها، فإن الديانة الوثنية، على تفرعاتها، قد شكلت هي الأخرى، عوائق حجة في نفوس أتباعها الأولين أمام المسيحية².

وبعد الاضطرابات التي حدثت بين الرومان واليهود وتحذير الرومان من القيام بأي دعوة أو دعاوة للدين اليهودي.

وهذه الدعوة كان قد امتنع عليهم القيام بها أمام التوسع والانتشار الذي حققته ديانة جديدة أطلت على العالم من بين قُمت اليهودية فطرح جانبا طقوسها المتعارفة وقطعت كل صلة لها أو نسب مع إسرائيل³.

فالمسيحية تحتفظ من اليهودية بميزة أساسية هي عدم التساهل، ليس عدم التساهل "العرقى" بل الديني، ومنذ وقت مبكر توقف ناشرو العقيدة المسيحية (أو أكثرهم على الأقل) عن الإصرار على أن يكون المؤمن بالمسيح محتونا وعلى أن يقطع علاقته بغير المؤمنين، ولم يستطع المسيحيون أن يتصوروا أن الخلاص ممكن بغير ممارسة الإيمان المسيحي إن إلههم يرشق بالحرم كل من لا يدعن لدينهم وهذا يخالف كل التقاليد الدينية في روما.

والمسيحية عقيدة شمولية تفرض خيارات ميتا فيزيقية على ما يبدو للمفكرين الوثنيين كطروحات مشكوك فيها، وتفرض نوعا للممارسة الأخلاقية لم تكن مثيرة للشكوك بالنسبة إلى "الإنسان الشريف". فلو عرفها هذا لوجد فيها مفاهيم كان قد ألفها منذ وقت طويل مثل التعاون وحبّة الناس بعضهم لبعض، ضرورة الاعتدال ورفض العنف في العلاقات الخاصة، وممارسة العدل (فضيلة اعتبرها المفكرون الرومان خاصية أساسية). ولكن ليس هذا المظهر المطمئن هو الذي تراءى للرومان في بداية الأمر. فأول إشارة عن المسيحيين أي تلاميذ المسيح وُجدت عند

1 - أندريه إيمار، جانين أو بوايه : المصدر السابق، ص 417.

2 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب مفرّج : المصدر السابق، ص 45.

3 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب مفرّج : المصدر نفسه، ص 45

سويتون¹ تقول إن كلوديوس طردهم من روما لأنهم "مثيروا شغب" وربما كان ذلك في الجاليات اليهودية².

اعتبر المتعمقون في دراسة تاريخ شعوب المنطقة أنه لا بد من أن تكون المسيحية قد بدت للمواطن الروماني، المتوسط، حتى أواخر القرن الأول للمسيح، كمذهب يهوي غامض، وأنها من الفلسفات الكثيرة الأخرى التي كانت تنتشر من الشرق الأدنى خاصة وأن نواة المجتمعات المسيحية الأولى كانت مؤلفة من اليهود.

وعندما أعلنت المسيحية تحديها للديانات القديمة، قام الكتاب اليونان واللاتين يحاربون الدين الجديد، وكانت الأديان القديمة بالنسبة لهؤلاء الكتاب تقترن بالأعجاب الماضية للتاريخ القومي، وكانت بالنسبة للرومان، بصورة عامة، رموزا للسلطة الإمبراطورية.

كان على الإنسان الوثني، أن يتخلى عن المباح، لكي يتبع الدين الجديد ذلك الدين الذي وعد بحياة أبدية بعد الحياة الدنيا الفانية. إلا أنه ليس من السهل على الإنسان أن يتخلى عما يعتبر فردوسا معاشا أملا بفردوس موعود، لذلك، لم يكن الوثنيون الأوائل الذين اعتنقوا المسيحية من أولئك الذين كانوا يتمتعون على الأرض بما اعتبروه فردوسا. بل كانوا من المنبوذين والمقهورين والفقراء والمساكين، تماما مثلما كان أوائل المسيحيين من اليهود.

لقد حملت المسيحية في عمقها، بموازاة تعاليمها الروحية ودعوها للمحبة والإخاء ما يمكن تسميته "ثورة". تلك الثورة المسالمة النابعة من مناهل المحبة والإخاء والمساواة، من الطبيعي أن تلاقي الترحاب إلى درجة التعلق من قبل الفقراء والمساكين وأبناء الطبقات الدنيا سواء كان ذلك في المجتمع اليهودي أو في المجتمعات الوثنية ذات النظم الطبقيّة.

وما لا بد من أخذه بعين الاعتبار عند مقارنة أحوال الشعوب في تلك الحقبة من التاريخ، هو أن أبناء البلاد، أي بلاد كانوا على العموم مواطنين من الدرجة الثانية، فيما كان الرومان واليونان محتكرين المراتب السامية في طبقات المجتمع، ما يعني أمام هذا الواقع، أن أهل البلاد الأصليين كانوا مهينين لقبول المسيحية بكل حماس، وأن الرومان واليونان كانوا، كما العشارين والكهنة والكتبة عند اليهود، مناهضين لتلك التعاليم التي تنادي بالمساواة بين السيد والمسود.

1 - Suétone : كاتب سيرة لاتيني (70-128).

2 - بيار غريمال، جاك بيارمبوت ومارسيل ياكو : موسوعة تاريخ أوروبا العالم، أوربا، بيروت، باريس، منشورات عويدات،

وحَتَّى ذلك التاريخ، لم يكن قد ظهر، سوى المسيحية، خاصة في الوسط الهلنستي، كعقيدة اتخذت المحبَّة فلسفة أساسية لها، ولو كانت الرواقية وحدها لسارت، أو حاولت السير في ذلك الاتجاه.

فقد رأى الرواقيون أن الحقيقة مادّية تسودها قوة توجهها هي الله، وما دامت الطبيعة تسير وفق العقل، فمن الحكمة أن يسير الإنسان وفق الطبيعة، منصرفاً عن ميل العواطف والأفكار التي تحيد عن جادة القانون الطبيعي، وحرية الإنسان مرهونة بأدائه لواجبه في اختفاء الطبيعة وقوانينها. وإذا كان زينون¹ قد ارتقى في فلسفته الرواقية إلى ما تميّزت به من مفاهيم سامية مقتبسا الكثير من أرسطو² وهيرقليطس³ وأفلاطون وأرسطو، فقد بقيت فلسفته طبقية في جوهرها، ولم تعرف أيّ عقيدة سابقة للمسيحية، تقول بأن هناك إلها.

فالمسيحية قرنت الحياة الأخلاقية بالدين، بصورة وثيقة، فأصبح الإحسان عندئذ من أعمال الإيمان بدلا من أن يكون من أعمال العدل، وأعطى الدين الجديد للمضطهدين وعديمي الحظ الأمل في حياة ثانية تقدّم للأبرار المسرّات التي حرّموا منها في هذه الحياة الدنيا.

وكان اليونان والرومان يمنحون الخلود لمن كان محسنا لشعبه فقط، أو لمن أدخل في إحدى ديانات الأسرار، التي كانت آلهتها بالأصل آلهة نبات، ثم اصطبغت في هذا العصر بالهلينية تماما، وتبنّاها اليونان والرومان، وكان ديونيسوس، إله الخمر من أقدم الآلهة، فهو روح النبات بوجه عالم، وكانت إيزيس المصرية أرفع الآلهة المؤنثة شأنًا، وقد اعترف كاليجولا، الإمبراطور الروماني (37-41) بها بين العبادات الرومانية الرسمية⁴.

فأما هذه المنافسة الدينية في المجتمعات الوثنية في العصر الميلادي الأول، كانت المسيحية، ذلك الدين الجديد في مجموعة أفكاره وتعاليمه الأخلاقية، المطالب للروحانية الفكرية والاجتماعية

1 - زينونا لرواتي : (366 - 264م)، معروف أيضا باسم زينون القيسيوني فيلسوف يوناني فينيقي الأصل، ولد في قبرص، مؤسس الفلسفة الرواقية، تأثر بالكليين وحاول أن يضع لمذهبه الأخلاقي الأساس الميتافيزيقي والنطقي، أصيب بمرض تعدّر عليه علاجه فانتحر، ينسب إليه القول المأثور "إنما العيش مع الطبيعة".

2 - هي مدرسة الكليين الفلسفية اليونانية ومذهبها أن الفضيلة هي وحدها الخير، فكل ما عداها من مال وشرف وحرية جدير بالازدراء.

3 - هيرقليطس : (535 - 347 ق.م) : فيلسوف يوناني من أفسس، اعتبر أن الحقيقة هي في التغير، وأن الدوام وهم، وكل شيء يحمل معه ضده، فالوجود والعدم موجودان معاني كل شيء، وأن النار هي الجوهر الأول الذي منه نشأ الكون.

4 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب مفرّج : موسوعة عالم الأديان، ج8، ص 48، 49.

التي كان المتنورون غالبا يتطلّبونها من دياناتهم التقليدية في كل مكان من دون أن ينجحوا في الحصول عليها.

كان اليونان والرومان يعتقدون بألهة متعدّدة، وكانوا بوجه عام متسامحين في موقفهم تجاه معتنقي الديانات الأخرى، والواقع أنهم ذهبوا إلى حدّ إضافة آلهة جديدة مستوردة إلى مجموع آلهتهم الوطنية، وقد سمحوا، حتى في عاصمة امبراطوريتهم، بالعبادة المصرية الغربية، والشعائر اليهودية وأباحوا تمثيل المسرحيات ليس باللغات اللاتينية واليونانية فحسب، بل اللغات العربية والفينيقية والآرامية أيضا، وكانت سياستهم في شؤون الدين : عش ودع الآخرين يعيشون".

في هذا الوقت، وكما أن المسيحيين كانوا موحدّين، فإنّهم لم يتمكنوا من التساهل وكانوا نشيطين متحمّسين في بحثهم عن إتباع جدد لديانتهم. وامتنعت جماعاتهم الأولى عن الاشتراك في الاحتفالات الدينية والرسمية في مدّتهم، ومثل هذا الموقف غير المتسامح تجاه جميع العبادات الوثنية بالإضافة إلى جهدهم المستمر في كسب الأتباع، كان لابدّ من أن يؤدّي إلى الاصطدام ... فالاضطهاد¹.

2- / الاضطهاد :

لقد بدأ اضطهاد الموحّدين من المسيحيين منذ عهد مبكر، وكان المسيح -عليه السلام- هو ضحية هذا الاضطهاد الذي انتهى بالحادث المزعوم حادث الصّلب "كما يدّعون" وقد نزل بأتباعه في عهده ومن بعده ما نزل به من العنف والظلم، وكان اليهود مصدر هذه القسوة، لأن أتباع المسيح كانوا يريدون نشر عقيدة التوحيد، الأمر الذي لم يقبله اليهود، ولكن المسيحية بدأت على الرّغم من اليهود وغلبتهم على أمرهم، وحينئذ تقدم أباطرة الرومان لاضطهاد المسيحيين².

يقول الآشلي عن سبب الاضطهاد : « إن هؤلاء الأباطرة كانوا لا يعرفون الأمر الديني الجديد إلاّ أنّه امتداد لليهودية، وكانت هذه موضع كراهية من الوثنيين³، ويبدو أنّ اليهود كان لهم في كل واد فعلة، الأمر الذي جعل الأباطرة يحدروهم حتّى ولودعوهم إلى وحدانية الخالق.

1 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب. مفرّج : المصدر نفسه، ص 51.

2 - عبد المنعم فؤاد : المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، ط1، الرياض، مكتبة العبيكان، 2002، ص 110.

3 - أحمد شليبي : مقارنة الأديان، المسيحية، ج2، ط8، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1988، ص 71.

وهناك سبب آخر وهو أنه مما أثار حقد الرومان على المسيحية أنها أخذت من اليهودية تعصّبها، فأعلنت - حتى في عهود ضعفها - أنها تناصب العقائد الأخرى العدا، وأنها ستعمل على إبادة المذاهب الفكرية الأخرى، وعلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية عندما تنهياً لها الفرصة. لكن يبدو من وجهة نظرنا أن هذا السبب غير دقيق، لأن المسيحية حينما نعمت بطيب العيش، وتزلت عليها سحائب الاطمئنان، لم تحطم الإمبراطورية الرومانية ولم تُبد المذاهب الفكرية، وإنما قبلتها وارتمت في أحضانها، وخضعت لها في كافة شعائرها وعقائدها، وسوء هذا الرأي وافقه الصواب أم لا. إلا أننا نرى أنفسنا بسبب هذا الاضطهاد أمام تحوّل خطير للعقيدة المسيحية جعل منها ديانة جديدة من نوع وثني روماني.

أن السبب الديني أيضاً ظلّ لمدة قرون عديدة السبب البارز في ظهور الحروب والاضطهادات، لأنّ الدين في الغالب وخاصة الدين الوثني يولّد لدى أتباعه من الحقد والعنصرية ضد الكافرين لهذا الدين، فهو ينظر إليهم دائماً على أنهم أقوام بجنسية لا يستحقون الحياة، ومن ثم يحي محاربتهم والقضاء عليهم، بأية وسيلة ممكنة شرعية كانت أم غير شرعية. فقاموا بعدة مجازر رهيبة دافعها الأول هو الدين، وبمباركة رجاله الذين كانوا يعتبرون القتل شيئاً محموداً إذا كان ضد وثني.

وكان السبب القومي أيضاً من أسباب الاضطهاد حيث ظهرت فكرة الشعبوية في عهد الدولة الرومانية، حيث كان يعتقد الجنس الروماني والفراسي أنه أفضل الأمم، وأن باقي الشعوب الأخرى ما هي إلاّ حثالة ليس لها الحقّ في الحكم، ومهمتهم الوحيدة هي خدمة الدولة الرومانية فقط¹.

إن أشهر أنواع الاضطهاد التي وقعت للمسيحيين عامة والأقباط خاصة بدأت من منتصف القرن الأوّل إلى أوائل القرن الرابع هي الأربعة التالية :

- 1 - اضطهاد يبرون سنة 64. 2 - اضطهاد ترجان سنة 601. 3 - اضطهاد ديسيوس سنة 249 - 251 م. 4 - اضطهاد دقلديانوس سنة 302م².

1 - فحور عنتر : الاضطهاد الديني المسيحي للمسلمين (محاكم التفتيش نموذجاً)، (رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في مقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، الجزائر)، 2006-2007، ص 14، 15.
2 - عبد المنعم فؤاد : المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص 111.

اضطهاد ينرون طبيعي أن تحتاج الحكومة إلى بعض الوقت لتستطيع التمييز بين المسيحيين واليهود فقد اختلط الأمر على الإمبراطور كلوديوس نفسه، عام 49، إذراج يأمر بنفي اليهود من روما وإبعادهم عنها لما « يستبوه فيها من الاضطرابات بسبب المدعو المسيح »، أمّا خلفه ينرون فقد كان أكثر إحاطة بالأمر وإطلاعا عليه، ربّما عن طريق مخطيته پوپيه Popée التذي تزوجها فيما بعد، والتي قُبِضَ للمؤرخ قلا فيوس يوسيفوس أن يلقاها في إحدى وفاداته إلى روما، ووصفها بأنّها "تبارك الله" أي أنّها على عادات اليهود، كما هو مرجّح، فقد عرف ينرون أن يميّز المسيحيين لما هم عليه من وضع متميّز، حتّى جعلهم مسؤولين عام 64، عن الحريق الذي شبّ في المدينة، والتهم جانبا كبيرا منها، وشهرة الحادث بعينه لا تمنع من بقائه غامضا جدّا. فكلّ محاولة لإلقاء بعض الأنوار الكاشفة عليه، لا تفيد شيئا. فالجماهير كانت تحمل البغضاء للمسيحيين لأنّها كانت تجهل عنهم كل شيء، كانت تحمل البعض ذاته لليهود الذين لم يكونوا أحسن وضعاً بالنسبة لها.

راح الإمبراطور ينرون تفاديا لنقمة الشعب وغضبه من جرّاء الحريق الذي التهم روما، والذي أتهم به هو نفسه، ينسب هذه التهمة لأقل هذه الفئات عددا، فإذا لم تأت المبادرة من الجماهير فقد عرف أن يستغل البغض الذي يجيئ به ضدّهم.

ومن الثابت أن الاضطهاد الذي أعلنه إنّما اقتصر على روما وحدها الذي أصاب عددا غفيرا ممّن اکتونوا بلهيب هذا الاضطهاد الدّامي، وهو أول اضطهاد يُعلن عن سابق قصد وتصميم، وينفّذ بمنهجية، تميّزت بأساليب التعذيب وأفانين العذابات التي أخضعوا لها المسيحيين، وهل من بأس في الأمر، بعد أن أصدر الإمبراطور مرسوما اعتبر جناية تستوجب الموت، مجرد اعتناق المسيحية.

فكان ينرون يضع بعض المسيحيين وهم أحياء في جلود الحيوانات ويطرّحهم للكلاب تنهشهم ويطلّي بعضهم بالقار، وكان يتمتّع نفسه بمنظر أطفالهم والوحوش تمزّقهم وتلتهم أشلاءهم¹.

وهكذا فقد كان قرار ينرون فاتحة عهد وبدء تاريخ طويل مديد، من التعصب الدّيني عبر الأجيال².

1 - عبد المنعم فؤاد: المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، ص 111.

2 - أندريه إيمار، جانين أو بوايه: تاريخ الحضارات العالم، روما وإمبراطوريتها، ج2، ص 422.

أمّا ترجان : فكان يعتبر المسيحيين أبحاسا لا يسمح لهم بدخول الحمامات العامة، وكان يأمر ولأثمهم يمنع المسيحيين من صلاتهم، وتجعلهم يُترلون بهم أشدّ أنواع العذاب، وقد أمر ترجان بمنع الاجتماعات السّرية للمسيحيين، لأنّهم كانوا لا يدينون بدين القيصر¹.

أمّا ديسبوس : إنّه في فترة من فترات عهده قتل عشرة آلاف دفعة واحدة حتّى أن السيوف من كثرة ما استعملت في ذلك اليوم تكسّرت ولم تعد تقطع، ويقول القديس ديونسيوس الرّابع عشر وبطريق الإسكندرية آنذاك، يقول عن ذلك الاضطهاد : (إنّه كان من القطاعة حتّى لقد كان كفيلا بأن يزعزع أكثر المؤمنين استمساكا وثباتا).

وكان موقف دقلديانوس تجاه المسيحيين فإننا نجده أدهى من سابقة (فقد بلغت قسوته بهؤلاء المسيحيين أنّه لأقسم ألا يكفّ عن قتلهم حتّى تصل دماؤهم إلى ركبة فرسه، وفعلا نفذّ عزمه وراح يطوف بفرسه في بحر دماء الشّهداء.

ولقد استمرّ البلاء يتزل من قياصرة الرّوم على المسيحيين حتّى جاء عهد قسطنطين².

3- أثر الاضطهاد على العقيدة المسيحية :

يرى المسيحيون أنّ الاضطهادات الدّائمة التي أنزلها بهم الرّومان تُلقي نوراً ساطعاً عليهم، فالنخبة بين المسيحيين كانت تنظر إلى العذابات التي يتلونها بها، نظرهما إلى معركة يخرج منها الشّهاد ظافراً، مكلّلاً بإكليل المجد، لأنّه "فاز برضوان الله" ونال الغفران الكامل من كل خطاياها، فهناك بينهم من يجودون راضين بأرواحهم في سبيل هذا الشّرف المؤثّل، أمثال هؤلاء المسيحيين الذين تقدّموا في عهد كومود من الحاكم الرّوماني، في آسيا، بأعداد غفيرة للشهادة، حتّى إذا ما حكم بالإعدام على فريق منهم، ردّ الآخرين بعنف، داعياً لهم إلى تشنق أنفسهم وإلى الانتحار، أمّا في نظر الذين لم يعتنقوا بعد المسيحية، فالاستشهاد وبذل الحياة رخيصة في سبيل الدّين³.

فهذه الاضطهادات التي صاحبت العقيدة المسيحية في بداية تكوينها دلّت على أن المضطهدين كانت عقيدتهم هي العقيدة المسيحية، وكان المسيحيون يتمسّكون بها حتّى ولو أدّى ذلك إلى فدائها بالمهج والأرواج. ولما طردوا من أوطانهم بسببها بلغ من عشقهم لهذه العقيدة أن

1 - رؤوف شلي : بأهل الكتاب تعالوا، ط []، م []، دار التوحيد، ت [] .

2 - عبد المنعم فؤاد : المرجع السّابق، ص 112.

3 - أندريه يمار، جانين أو بوايه : تاريخ الحضارات العالم، روما وإمبراطوريتها، ج2، ص 423.

ينادوا بها بين أهل الرومان ولكن الآخريين كانوا لا ينظرون إليها على أن أصحابها يهود أو من بلاد اليهود، ومن ثمّ فإنّهم أهل مكر وخداع ولا يقبل أن يؤخذ الدين من ماكر وخداع، بيد أن المبشرين الجدد تناسوا هذا الحقد من قبل الرومان.

وبدأوا يقبلون كلّ الشعائر الوثنية لتقريب الرومان إليهم¹. فيقول روجيه: "أن هؤلاء المبشرين كانوا حسني النية، وقد رأوا أن هذه هي الطريقة الوحيدة لتقريب الديانة المسيحية إلى أذهان الوثنيين، ومع مرور الزمن ستتطهر وتعود إلى صفائها... ولكن الواقع الأليم أن الذي حدث هو العكس، فقد تغلّبت الوثنية وطمست رسالة المسيح"².

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنّنا نرى أن هذه الاضطهادات كانت ذات أثر واضح على المصادر المسيحية بعد المسيح، فقد كُتبت الأناجيل ورسائل بولس في هذه العهود المظلمة، الأمر الذي أدى إلى فقدان سندها المتصل برسول المسيحية عيسى - عليه السلام -، وعن ضياع هذا السند يقول شارل جينيبيز: "إن أولى الصعاب التي تعترض الأناجيل نجدها في النصوص التي تمتاز عن سائر النصوص الأخرى بضعف السند والاضطراب وعسر التحقيق"³.

واعترف القساوسة أنفسهم بانقطاع هذا السند، لأنّها دونت في هذه العهود، فيقول الشيخ رحمه الله الهندي: "طلبنا مرارا من علمائهم الفحول السند المتصل بما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم، فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى ثلاث مئة وثلاث عشرة سنة، وتفحصنا كتب الإسناد لهم فما رأينا فيها شيئا غير الظن لا يغني شيئا، فما داموا لا يأتون بدليل ساف وسند متصل فمجرّد السمع يكفيننا، وإيراد الدليل في ذمتهم لا في ذمتنا"⁴.

ومّا سبق نقول، إن تزعر العقيدة المسيحية يرجع إلى سماح المسيحيين بدخول الشعائر الوثنية إليها فأدّى ذلك إلى اختفاء عقيدة التوحيد ومن ثمّ ضعف سند كتبهم المقدّسة لأنّها سُجّلت في غرفات مظلمة ولأنّ النفس لا تقبل عقيدة سُجّلت في الظلام، ولكن يوجد عند المسلمين الدليل الواضح على عقيدة المسيح، وهو القرآن الكريم ذو السند المتصل بالرّسول - عليه السلام -.

1 - عبد المنعم فؤاد: المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، ص 113.

2 - روجيه أرندلير: رسل ثلاثة لإله واحد، وديع مبارك، ط []، بيروت، منشورات عويدات، 1988، ص 84.

3 - شارل جينيبيز: المسيحية نشأها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، ط3، القاهرة، دار المعارف، 1988، ص 23.

4 - رحمة الله الهندي: إظهار الحق، تحقيق أحمد حجازي السقا، ص 114.

- المطب الثاني : زمن الرّسل .

للحديث عن "رسولية" الكنيسة لا بدّ أن نبرز أولاً الصّلة بين "الرّسل" و "التلاميذ الإثني عشر". فهل "الرسل" هم "التلاميذ الإثني عشر" الذين اختارهم يسوع ؟. من المحتمل أن يسوع نفسه لم يطلق على التلاميذ الإثني عشر "رسلاً". وإن لفظة "الرّسل" واردة 69 مرّة في العهد الجديد على النّحو التّالي. 34 مرّة عند بولس ؛ 34 مرّة عند لوقا ؛ مرّة واحدة في رؤيا يوحنا (20/18).

ويعتبر لوقا أنّ الرّسل هم الإثني عشر، أمّا يهوذا، لم يطلق اسم "رسول" بل "شاهد"، غير أنّه "يقوم بالخدمة والرّسالة"، ولقد ضُمّ إلى الرّسل الأحد عشر، وأمّا بولس، فيعتبر نفسه "رسولاً" - رغم أنّه لم يكن ضمن الإثني عشر - لأنّه شاهد المسيح القائم فكلفه بنشر الإنجيل كما كلف بذلك الإثني عشر، أو بالأحرى الأحد عشر¹. والرّاجح أنّه، في بداية الأمر، لم يكن المقصود بكلمة "رسول" "الإثني عشر"، بل رُسلًا للرّسالة والخدمة (مثلاً : 2 قور : 23/8، قل : 25/2، 1 قور : 28/2، أف : 11/4، أغ : 4/14 - 14)، وبعد ذلك انحصرت كلمة "رسول" في "الإثني عشر" علاوة على بولس، في حين أن مدلولها في البداية كان يشمل أكثر من "الإثني عشر". فلم تعرف كلمة "رسول" امتداداً، بل عرفت بالعكس انحصاراً في المعنى.

ويمكن أن نتساءل أيضاً - حسب اعتقاد المسيحيين - هل أراد يسوع "رسلاً" لكنيسة يقومون بمهمّة خاصة في داخلها، أم المسيحيّون، أم المسيحيّون جميعهم رسل ؟ ولتقضي ذلك لا بدّ أن نتتبّع أثر العهد الجديد (أنجيل، أعمال الرسل، رسائل بولس).

في الأنجيل : يقول مرقس إن يسوع : « دعا الذين أرادهم، فاقبلوا إليه، فأقام اثني عشر يصحبونه فيرسلهم »².

فمن الواضح أنّه قصد بعض النّاس - لا الجميع - وذلك لهذين : مرافقته من جهة، وقيامهم بالرّسالة من جهة أخرى، ولم يقل مرقس إنّه طلب ذلك إلى الجموع، بل إنّ، "دعا" بعضهم بمحض إرادته.

1 - فاضل سيداروس : من أنت أيتها الكنيسة ؟، ط3، بيروت، دار المشرق، 2005، ص 212.

2 - مر : 13/3 - 14.

وفي لوقا : قال يسوع لتلاميذه الإثني عشر، ليؤيدهم في هذه الرسالة الخاصة بهم :
« من سمع إليكم سمع إلي، ومن أعرض عنكم أعرض عني، ومن أعرض عني أعرض عن الذي
أرسلني »¹.

وفي صلاته الكهنوتية، قال لأبيه : « لا أدعو لهم وحدهم، بل أدعو أيضا سيسمعون
كلامهم فيؤمنون بي »². فيذكر فاضل سيداروس في كتابه من أنت أيتها الكنيسة ؟ يُرجع يسوع
إيمان المؤمنين به إلى كلام رسله الذين اختارهم وأقامهم ليذهبوا ويعلنوه. فلقد أراد يسوع هكذا
نوعا من التطابق بينه وبين رسله الذين هم إلى حد ما امتداد له في غيابه عن العالم حتى مجيئه
الثاني. ثم يضيف فاضل أنه يُذكر في أعمال الرسل : وهذا أمر مهم للغاية، إذ إنه يبيّن كيف أن
الكنيسة قد تفهمّت منذ نشأتها خاصة، متميزة، لا عن سائر المؤمنين فحسب، بل عن سائر الخدم
أيضا، كالشمامسة، والشيوخ، والأساقفة.

أمّا في رسائل بولس : بولس ينادي بأنّه رسول من الله لا من البشر، في شركة مع سائر
الرسل³، وكان يُطالب بسلطة منحه إياها الرّب نفسه، فكان يتصدّق بموجب هذه السلّطة⁴.

يذكر جان كمي في كتابه "دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة" : أن حياة الكنيسة ابتدأت في
أورشليم حوالي السنّة الثلاثين، يوم العنصرة - اثنا عشر رجلا يحملون البشرى لمواطنيهم : إنّ
يسوع الناصري، الذي أرسله الله والذي صُلب كَلِّص، هو حي. لقد أقامه الله. وهو المسيح
المخلّص الذي، ينتظره شعب العهد القديم منذ أجيال⁵.

يبدأ تاريخ الكنيسة إذن بالأحداث التي يرويها العهد الجديد : أعمال الرسل، رسائل
بولس، رؤيا يوحنا ... فحوالي سنة الثلاثين، يوم العنصرة⁶ في أورشليم، أمام الحجاج اليهود
الاجتمعين لمناسبة العيد، يعلن بطرس⁷ : « إنّ يسوع الناصري، ذاك الرجل الذي أيده الله لديكم بما

1 - لو : 16/10.

2 - يو : 20/17.

3 - غل : 9/2.

4 - 2 كو : 4/3 - 6.

5 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 22.

6 - يدل لفظ عنصرة "Pentecôte". على العيد الذي يحتفل به بعد الفصح بخمسين يوما، وقد تطور موضوع هذا العيد :

كان أولا عيدا زراعيا. ثم أخذ يعني فيما بعد، ذكر حادث العهد التاريخي، وأخيرا أصبح عيد هبة الرّوح معلنا إنشاء
العهد الجديد على الأرض.

7 - يأتي التعريف به لا حقا.

أجرى عن يده بينكم ... قتلتموه، إذ علقتموه على خشبة بأيدي الكافرين، قد أقامه الله ... ونحن بأجمعنا شهود على ذلك. فلمّا رفعه الله يمينه، نال من الآب الروح القدس الموعد به فأفاضه ... قد جعله الله ربّا ومسيحا¹. فقال السّامعون: « ماذا نعمل »؟ أجابهم بطرس: « توبوا وليعتمد كل منكم باسم يسوع لغفران خطاياكم، فتنالوا موهبة الروح القدس ». فاعتمد ثلاثة آلاف نفس. هكذا وُلدت الكنيسة.

أعضاء الكنيسة الأولى هؤلاء كانوا يهودا، مثل يسوع، وهم يتكلّمون الآرامية، اللّغة السّامية الأكثر استعمالا في الشّرق الأوسط، وظلّوا يعيشون عيشة اليهود الأتقياء، يصلّون في الهيكل، يخضعون لشريعة المآكل المحرّمة، يبدون بدعة يهودية جديدة من بدع كثيرة كالفريسيّين والصّدوقيّين، فهم "النّصارى".

وما يميّزهم هم العماد باسم يسوع ومواظبتهم على سماع تعاليم الرّسل وكسر الخبز (الأفخارستيا)². وتكوين جماعات أخوية³.

ويعلّق فليسان شالي على ذلك بقوله: « لقد كانت المسيحية "حركة فقراء" في الأصل، وكانت الكنيسة الأولى يجمع فقراء ... ». وأسرة من الإخوة البسطاء المتحدّين.

والكلمة التي كانت تطلق على المسيحيين الأوائل، هي كلمة الفقراء، وقد وصفت أعمال الرّسل هذه الجماعة: « كان جميع المؤمنين معاً، وكان كل شيء مشتركاً بينهم، وكانوا يبيعون أملاكهم وأمتعتهم ويوزّعونها على الجميع على حسب حاجة كل واحد. ويلازمون الهيكل كل يوم بنفس واحدة، ويكسّرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج ونقاوة قلب مسمّين الله ونائلين خطوة لدى جميع الشّعب.

وكان لجمهور المؤمنين قلب واحد، ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول عن شيء يملكه إنّه خاصّ به، بل كان كل شيء لهم مشتركاً.

ولم يكن فيهم محتاج، لأنّ كل الذين يملكون ضياعاً أو بيوتاً كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان

1 - أ ع : 22/2، ... 36.

2 - الأفخارستيا أو القربان المقدّس : الكلمة من اليونانية ؛ وهي سدّ حضور يسوع المسيح حضوراً حقيقياً بجسده ودمه ونفسه ولا هوته تحت إعراض الخبز والخمر -عند المسيحيين- (أنظر : بولس إلياس اليسوعي، خلاصة الدّين المسيحي، تعليم مسيحي للصفوف العليا وإلى معيّين، ط2، بيروت، لبنان، منشورات دار المشرق، ش.م.م، 1987، ص 127).

3 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 24، 25.

المبيعات، ويلقونها عند أقدام الرّسل فيوزّع لكل واحد حسب احتياجه»¹. فقد اهتم سفر أعمال الرّسل بالإشارة إلى الملامح التي كانت تميّز الجماعة الأولى من وحدة، وإجماع، ومشاركة ومقاسمة الأملاك والأموال.

يعتقد المسيحيون أن يسوع خلال حياته الأرضية، قام بجمع تلاميذ "كشفت لهم عن أسرار الملكوت"². فهم، منذ الآن "القطيع الصّغير"³.

وقام يسوع أيضا بتقريب تلاميذه الإثني عشر إليه كأصدقاء حميمين، وجعل منهم الخلايا الأساسية والرؤساء لإسرائيل الجدد⁴.

فهو يدرّبهم على رتبة المعمودية⁵، وعلى الكرازة، وعلى محاربة الشياطين، وعلى شفاء المرضى⁶، ويعلمهم كيف يفضّلون الخدمة على أماكن الصّدارة⁷، ويعطون الأولوية للخراف الضّالة⁸.

وكان معظم المؤمنين بالمسيح في بادئ الأمر من اليهود، سكان فلسطين الناطقين بالآرامية، ثم لم يلبث أن انضم إليهم جماعة أخرى من اليهود المغتربين الذين عادوا من المهجر واستقروا في المدينة المقدّسة، وكانوا يتكلمون اليونانية. نشأ خلاف بين اليهود المنتصرين الفلسطينيين واليونانيين، وسببه عدم الإنصاف في توزيع الحسنات على أرامل المغتربين⁹.

فكان الإثني عشر مسؤولين عن الجماعات العبرية الأصل¹⁰، وعرض الرّسل على الجمهور أن يختاروا سبعة من المسيحيين الممتازين بالتقوى ليساعدوهم على تدبير شؤون الكنيسة من النّاحية المادّية، فاختاروا سبعة رجال أتقياء في مقدّماتهم¹¹ وإسطفانس والذي أطلق إنّها مات ضدّ

1 - أع : 44/2، 46 - أع : 32/4، 34، 35، فليسان شالي : موجز تاريخ الأديان، ترجمة عن الفرنسية : حافظ الجمالي،

ط1، دمشق، أوسترداد المزة، 1991م، ص 256.

2 - مت : 10/13 - 17.

3 - لو : 32/12.

4 - مر : 13/3 - 19.

5 - يو : 2/4.

6 - مر : 7/6 - 13.

7 - مر : 35/9.

8 - مت : 6/10، معجم اللاهوت الكتابي، ط5، بيروت، دار المشرق، ش.م.م، 2004م، ص 673، 674.

9 - نهي نجار : موسوعة الأديان السّماوية والوضعية، ج6، ط1، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1995م، ص 144.

10 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 25

11 - نهي نجار : موسوعة الأديان السّماوية والوضعية، ج6، ص 144.

يهود أورشليم، ودان الطقوس والميكل، لأن يسوع أُيكرو قُتل على يد يهود أورشليم، ومن جهة ثانية بشر بين الوثنيين ولا عرض ديانة شاملة، لكنّه أعطى توجيهها جديدا للجماعة. ففي نظره، ليس الإنجيل سوى الدين اليهودي وقد تطهّر، خطابه سبب له الرّجم كمجّد فهو أوّل من اقتدى يسوع في الأمّة وموته¹. هذا على حدّ قول جان كمي.

يقول شارل جينيبيز² في كتابه "المسيحية نشأتها وتطوّرها": «ويجب ألا ننسى أنّ أصحاب عيسى، وإنّ رجلوا من القدس في رعب وحيرة، بعد أن خاب ما كانوا يتوقعونه، وبعد أن نزلت بهم الضربة العنيفة المفاجئة القاصمة لآمالهم، فلعلّهم لم يستسلموا لليأس كل الاستسلام، وكان إيمانهم الاضطراب ورجعوا إلى تلك البيئة التي عاشوا فيها معه واستمعوا إليه، عاد تأثير حديثه قويا، بالغ القوّة. كانت دعوة عيسى لديهم مرتبطة بشخص عيسى نفسه، فإنّ هم أقرّوا باختفائه إلى الأبد، كان ذلك إقرارا بالتخلي عن كلّ أمل لهم في تحقيق كلمته. وتبلور إيمانهم وركّز على فكرة واحدة ثابتة هي قولهم لأنفسهم: «لا يمكن أن يكون عيسى قد تنكر لنا، ولا يمكن أن يكون موته أمراً نهائياً». وكانت النتيجة المحتومة لمثل هذا التبلور والتّركيز - لدى أمثال هؤلاء السّذج المتحمّسين في أملهم وترقبهم - أن يروا الرّؤى ويصدّقوا بها. وهكذا قدر لبطرس. أن يرى عيسى، ثمّ رآه من بعده حواريون آخرون في الصّورة نفسها التي وصفها لهم. وسواء أراجع الأمر إلى التّهيّؤات والأحلام أم إلى تفسير محموم لظواهر حسّية معينة، فالنتيجة واحدة: وهي أن الصّيادين من أهل الجليل لم يكونوا يستطيعوا تحليل ما حدث لهم، بل استسلموا كلّ الاستسلام إلى ما ظنّوه من وحيّ الله، وفكرة بعث عيسى فرضت عليهم الإيمان بأنّه خرج من قبره بعد ثلاثة أيّام من مواراته الأرض، أو في اليوم الثالث، وعلى أساس عقيدة أصحاب عيسى هذه رسخت أسطورة البعث، ثمّ نمت وتطوّرت على الأخصّ في ربوع اليونان».

ثمّ يصرح شارل أن فكرة أو موضوع البعث (بعث يسوع) من أكبر مشاكل التّاريخ المسيحي غموضا وإيهاما: «فقد تلاقى هؤلاء الحواريون بالجليل، بين أحضان ذلك الإقليم الذي

1 - أع: 7. جان كمي: دليل قراءة تاريخ الكنيسة، ص 25.

2 - شارل جينيبيز نشأ مسيحيا من أب مسيحي وأم مسيحية، ونشأ في بيئة مسيحية كاثوليكية متعصبة. تعلم إلى أن نال الدكتوراه، تعمّق في المسيحية حتى أصبحت المسيحية تخصّصه المتخصّص. فحينما يتكلّم أو يبحث في هذا الموضوع إنّما يتكلّم فيه عالما من علماء التاريخ، وليس عالما من علماء الدين: أي أنّه لا يتكلّم باسم الإيمان، وإنّما يتكلّم باسم المؤرخ، لأنّ المؤرخ يدرس الموضوع بحسب الواقع التاريخي، غير متأثر في أحكامه بالعقيدة المسيحية، ووصل شارل في نهاية دراسته إلى نتائج اطمأن إليها، وهذه النتائج يتفق بعضها مع ما قرّره القرآن.

يعرفونه والذي عاشوا فيه مع أستاذهم، وظنوا أنهم رأوه هناك ثم أيقنوا أنه بعث من بين الأموات.

تلك هي الوقائع. أمّا تفاصيلها فليس لدينا بها علم، ولم يكن للأساطير بدّ من أن تحاول تفسير الوقائع، فصنعت منها نسيجاً بالغ التعقيد والغموض، اختلط فيه العجب العجيب من الأحداث الخيالية المستحيلة، وتغدر بعد ذلك استخلاص الحقيقة منه لتضارب النصوص وتباين رواياتها.»

ثم يتساءل شارل حول هذا البعث : هل العقيدة الأساسية للمسيحية تعتمد عليه ؟. وبعد ذلك يوضّح بقوله : « ولو لم يكن إيمان الحواريين يبعث أستاذهم، "لما كانت المسيحية"، وعلى أساس من هذه الفكرة قيل (أنظر كتب ولها سن) إن عيسى "لولا موته" لما دخل قط في سجل التاريخ »¹. وكما قال القديس بولس في أوّل رسالة له إلى أهل كورينثوس : « إن لم يكن المسيح قد بُعث، فإيماننا لا سبيل له »².

- المطلب الثالث : الكنيسة في الكتاب المقدس

- الفرع الأول : معان الكنيسة.

إن للكنيسة عدّة معان، فالبعض لا يخرجها من دائرة البناء المكوّن من أشخاص متّحدين في العقائد والعبادة والبعض الآخرين أنّها تحمل معانٍ أوسع وأشمل فيقولون أنّها : « عبارة عن شيء إلهي لا يمكن فهمها بالعقل البشري وهذه الكنيسة غير مرئية »³.

ومن المعاني المتضمنة لمفهوم الكنيسة من وجهة نظر الكتاب المقدس :

أولاً - هيكل الكنيسة وأعضاؤه :

يورد الكتاب المقدّس هيكل الكنيسة على أن بناء حجارتها هم المؤمنون ورد هذا في : (كونوا أتم أيضاً مبنيين - كحجارة حية - بيتاً روحياً، كهنوتاً مقدساً، لتقديم الذبائح روحية مقبولة عند الله في الروح)⁴.

1 - شار جينيبيز : المسيحية نشأتها وتوّرها، ص 63، 64، 66.

2 - كو : 17/15.

3 - نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ط []، دمشق، دار الفكر، 1982م، ص 60.

4 - بط 1 : 5/2.

نجد الهيكل عند المسيحيين هو مكان لعبادة الله وهو محلّ محلّ الكنيسة اليوم ونستطيع أن نقول أن الكنيسة هي عائلة وأفرادها هم المسيحيون - وقد ورد هذا في المواضيع التالية :

(إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف، بل أخذتم روح التنبّي الذي به نصرّح : (أيها الآب أبانا) الرّوح نفسه أيضا يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله...، لأنّ الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشاهدين صورة ابنه، ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين)¹.

(احترزوا إذا لأنفسكم ولجميع الرّعية التي أقامكم الرّوح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه)². يفهم من هذه الفقرة أن روح المسيح وضعت الكنيسة في أعناق الأساقفة كوديعة، يعلمهم فيها كيفية الصّلاة ويقدّسهم.

وكذلك فقد وردت علاقة المسيح مع كنيسة فقد شبه هذه العلاقة بالعريس والعروس. (فإني أغار عليكم غيرة الله، لأني خطبتكم لرجل واحد، لأقدم عذراء عفيفة للمسيح)³.

لكن يبقى سؤال يتراد إلى الأذهان : هل المسيح أسس الكنيسة ؟ وقد أجاب على هذا السؤال كل من فاضل سيداروس، وشارل جينيبيز : فيقول فاضل سيداروس : « إن يسوع لم يؤسس الكنيسة - بتمام معنى الكلمة وكما هي اليوم - في أيام حياته الأرضية، بل إنّه أرسى قواعدها وبنى أسسها ». ثم يقول : « بذرت بذور الكنيسة في وعي يسوع وقد أدرك تدريجيا أن فترة ما بين الموت الذي ينتظره ومجيئه الثاني، ستكون فترة زمن الكنيسة، ثم يعترف بعدم التأكيد على حصول هذه الفكرة والإيمان بها من طرف الجميع بقوله : « لا يتفق جميع المفسرين واللاهوتيين على هذه النقطة من حيث وعي يسوع لما سيكون من بعد »⁴.

أمّا شارل جينيبيز فكان تحليله لهذه المسألة أن المسيح لم ينشئ الكنيسة ولم يُردها : ويؤكد أن التّصوص الإنجيلية لم تنسب قط إلى المسيح تعبيرًا مثل : "كنيسة"، و "كنيسة الأب"، إلا في مناسبة واحدة « إنك أنت -لبطرس- (بطرس -صخرة)، وعلى هذه الصّخرة سوف أبنى كنيسة »⁵. يقول : « ولكن هذا الحديث المشهور، والذي استغل أقصى الاستغلال، لا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد على صحته ؛ إلا إن أعلننا أن المسيح، في ساعة من ساعات الغفلة

1 - أف : 21/2 - 22.

2 - روف : 8/15 - 16، 29.

3 - 2 كو : 11/02.

4 - فاضل سيداروس : من أنت أيتها الكنيسة، ص 110.

5 - مت : 16/18 - 19.

والتيه، قد تنكر لتعاليمه، ولعلمه، ولرسالته، بل لذاته أيضا».

ثم يضيف إلى ذلك: « يجب علينا لأن لا ننسى أنه لم يؤسس شيئا: لم يأت بدين جديد، ولا حتى بأي طقس جديد من طقوس العبادة. لم يأت إلا بتصور شخصي فريد للتقوى في إطار الديانة اليهودية، تلك الديانة التي لم يزعم قط أنه يبغى التغيير من معتقداتها أو من شرعها وشعائرها. واعتمدت تعاليمه على فكرة حلول مملكة الله التي آمن بها هو كما آمن بها سائر مواطنيه، إلا أنه فهمها وعبر عنها بطريقته الخاصة، ويجذبنا الإشارة إلى أن هذه الطريقة الخاصة نفسها قد لا تكون أصيلة لديه، بل لعله أخذها عن غيره من سابقه. أما أن تنسب إليه إرادة تأسيس كنيسة تكون كنيسة هو... كنيسة اختصّ بالعبادات والطقوس التي يعينها لها والتي يظهر فيها رضاه عنها... كنيسة يمهد لها فتح الأرض جميعا. فهذا قول لا يقره واقع الأحداث، ولا صريح التسلسل التاريخي.

ولن تتعدى الحق إذا أضفنا: "أن كل ذلك لا يمكن اعتباره إلا تحريف"¹، وبعد تحليله استنتج أنه يمكن القول أن فكرة الكنيسة نشأت من انتقال الأمل المسيحي من فلسطين إلى ربوع العالم اليوناني.

فالمسيح لم ينشئ الكنيسة وهذه القضية اعتبرها شارل من أكثر الأمور المحققة ثبوتا لدى أي باحث يدرس النصوص الإنجيلية في غير تحيز.

من المعاني أيضا التي يوحى بها لفظ "الكنيسة": أنه في العالم اليوناني تدل كلمة "Ekklesia" التي تشتق منها الكلمة الفرنسية "Eglise" والتي ترجمت بالعربية "كنيسة"، على اجتماع الشعب "Demos" كقوة سياسية - هذا المعنى العام يعطي الخليفة للمعنى الديني، عندما يتحدث بولس الرسول عن الكنيسة في حالة اجتماعها. أما في الترجمة السبعينية، فإن الكلمة تدل على جماعة مدعوة لأداء شعائر دينية، تتخذ غالبا صورة العبادة، فهي تقابل اللفظ العبري "قاهل" المستخدم خاصة في مدرسة التثنية، للدلالة على جماعة حوريب³، وأحراش مؤاب⁴، أو أرض

1 - المؤلف العالم المسيحي صاحب المركز العلمي الممتاز لا يعتبر المسيحية الحالية إلا تحريف لفكرة السيد المسيح. فالتحريف الذي قصده شارل هو المسيحية الحالية.

2 - شارل جينبيز: المسيحية نشأتها وتطورها، ص 62 - 166، 167.

3 - تث: 10/4.

4 - تث: 30/31.

الميعاد¹. لقد استخدم أيضا صاحب أخبار الأيام هذا اللفظ². دلالة على اجتماع إسرائيل الطقسي في زمن الملوك أو بعد السبي. ولكن إن كان لفظ "Ekklesia" تطابق دائما لفظ "قاهل"، إلا أن هذا اللفظ الأخير يترجم أحيانا بمفردات أخرى، وخاصة بكلمة "Synagoge"³، التي تعبر في أكثر الأحيان عن معنى اللفظ الكهنوتي "عدت". فالكنيسة والجمع لفظان مترادفان تقريبا⁴، ولن يصبحا متعارضين إلا عندما سيخصّ المسيحيون أنفسهم باللفظ الأول، مطلقين الثاني على اليهود المقاومين لهم ولا شك أن اختيار لفظ "Ekklesia"، كما أنه يرجع إلى اشتقاقه اللغوي من فعل "Ekkaléo" ومعناه "أدعو"، ويفيد هذا اللفظ بذاته أن إسرائيل، شعب الله، ما هو إلا اجتماع أشخاص مدعويين بمبادرة إلهية، وكان يوازي تعبيراً كهنوتياً يستدل به على فكرة الدعوة، الترجمة الحرفية للعبارة: "ميقرا قوديش" أي فعل مقدّس⁵.

إن كثيرين من لا يتجاوزن، يتصوّرهم للكنيسة، حدود الجانب الإنساني، أي لا يرون فيها إلا جماعة بشرية منظمة أحسن تنظيم، ومكوّنة من أشخاص متّحدين في العقائد والعبادة، إلا أن الكتاب المقدّس يقدمها لإيماننا، بمثابة سرّ ظلّ مكتوبا في الله مدى الأزل، وقد كشف الآن عنه، ولكنّه تحقّق جزئياً⁶. فهي سرّ شعب مازال حاطئا، ولكنّه حائز على عربون الخلاص، لأنّه امتداد لجسد المسيح وموطن المحبة - على حد زعم المسيحيين - وهي سرّ مؤسسة بشرية وإلهية معا، يستطيع الإنسان أن يجد فيها الثور، والغفران، والتعمة "للتسييح بمجد الله"⁷. وهذه المؤسسة الفريدة في تصميمها قد أطلق عليها المسيحيون الأولون الناطقون باليونانية، تسمية مستعارة من الكتاب المقدّس "Ekklesia" أي كنيسة، فهي مع دلالتها على الاستمرارية بين إسرائيل والشعب المسيحي، جديرة بأنّ تشحن بمضمون جديد⁸.

وما سبق كان من المعاني الواردة في معجم اللاهوت الكتابي.

1 - قض : 2/20.

2 - 1 أخ : 8/28.

3 - تث : 22/5.

4 - يع : 2/2.

5 - خر : 16/12، معجم اللاهوت الكتابي، ص 670.

6 - أف : 9/1 - 10.

7 - أف : 14/1.

8 - معجم اللاهوت الكتابي، ص 671، 672.

- الفرع الثاني : الكنيسة العالمية.

عند الاطلاع على الكتاب المقدس نجد أنه قد ذكر ميزتين أو خاصيتين للكنيسة وهي كنيسة عالمية وكنيسة محلية، أما الكنيسة العالمية فهي تطلق على المسيحيين ويراد بها مجموعة من المؤمنين المسيحيين أينما كانوا وفي أي وقت : (وأنا أقول لك أيضا، أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها)¹، إن المسيحيين يعتقدون أن لحمل المسيح على الصليب هو أساس كل مبنى (الذين إذ تأتون إليه، حجرا حيا مرفوضا من الناس ولكن مختار من الله كريم، كونوا أنتم مبنيين - كحجارة حية - بيتا روحيا، كهنوتا، مقدسا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح لذلك يتضمن أيضا في الكتاب : (هأنذاك أضع في صهيون حجر مختارا كريما والذي يؤمن من به له يخزي)².

أولا - أعضاء الكنيسة العالمية ووحدها :

الكنيسة العالمية مكونة من أعضاء كثيرين مع اختلاف أجناسهم وأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم فكل من يؤمن بالروح القدس فهو عضو في الكنيسة وللإلتناء للكنيسة يجب قبول الخلاص والإيمان بيسوع المسيح الذي بفضله يحو خطايا الشعب ويقدمهم ويطهرهم ونستدل من الكتاب المقدس : (بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده، من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش وأمام الحروف متسرلين بثياب بيض، وفي أيديهم سعف النحل)³.

إن الكنيسة في نظر المسيحيين عالمية في كل الأرض وفي كل الأزمنة فهي تحي في جسد روحي غير مرئي فهي العائلة الروحية لله، والروح القدس يعمل على وحدتها من خلال وحدة الإيمان ووحدة الرب والمعمودية... على الرغم من اختلاف وتنوع المهام داخل الكنيسة.

ثانيا - مهمة الكنيسة العالمية وهدفها النهائي :

يمكن تلخيص مهمة الكنيسة في ثلاث نقاط :

1. تمجيد الله : يجب على جماعة المؤمنين المسيحيين أن يمجّدوا الله ويسبّحوه تقديراً وعرفانا بفضله عليهم كما هو مذكور في الكتاب المقدس : (لكي تمجدوا الله أبا ربنا يسوع المسيح

1 - مت : 18/16.

2 - 1 بط : 04/2 - 06.

3 - يو : 09/07.

بنفس واحدة ولسان واحد)¹.

2. تعرّف الآخريين على الله وإرادته ويسوع المسيح وعمله الخلاص على الصليب : (وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدّسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب)².

3. التّمو للوصول إلى القمّة التي يريدّها الله سواء في العدد أو التّوعية : (فأذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الأب والابن وروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر آمين)³.

فلقد كان هدف الكنيسة في نهاية المطاف هو اتخاذها عند رجوع المسيح ولقد شبّه الكتاب المقدس هذا الاتحاد يسوع المسيح كعلاقة العريس بعروسه. (أيها الرجال أحبّوا نساءكم كما أحبّ المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدّسها مطهرا إياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يحضرها لنفسه كنيسة محيطة لأدنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدّسة ولا عيب)⁴.

- الفرع الثالث : الكنيسة المحلية.

"الكنيسة المحلية" هي كنيسة الله المؤسسة في مكان واحد، في الارتباط بأسقف في الخلافة الرّسولية وشعب مؤمن مندمج في أرض ما، في الاعتراف المشترك بإيمان واحد. ففي البروتستانتية⁵. تدلّ على "الكنيسة المحلية" عادة على الرّعيّة بما فيها من ملحقات أو مناطق انتشار في الكنيسة الكاثوليكية تسمى الأبرشيات تارة كنيسة خاصة، وتارة كنيسة محلية ويُدلّ أحيانا بعبارة "كنيسة محلية" على مجموع أبرشيات ولاسيما في أحد البلدان وفي الكنيسة الأرثوذكسية⁶. تسمى الكنائس المستقلة كنائس محلية أيضا⁷.

1 - رو : 06/15.

2 - 1 بط : 09/02.

3 - مت : 19/28 - 20.

4 - أف : 25/05 - 27، صبحي محوي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي، ط1، بيروت، دار الفكر، 1994م، ص 403.

5 - سيأتي التعريف بما لاحقا.

6 - سيأتي التعريف بما لاحقا.

7 - صبحي محوي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي، ص 404، 405.

ولقد ورد هذا المعنى في الكتاب المقدّس : (إلى كنيسة الله التي في كورنتس المقدّس في المسيح يسوع، المدعوين قديسين مع جميع الذين يدعون باسم ربّنا يسوع المسيح في كل مكان لهم ولنا) ¹.

كما تدلّ على مجمع من المسيحيين منظم في مكان محدّد، فمهما تفرّقوا في أرجاء العالم سيظلّون عند الله الصّفوة المختارة من أمته، ولهذا نحدّثها في الوجه المرئي للكنيسة العالمية التي تشمل كل المؤمنين.

أولاً - الاشتراك في الكنيسة العالمية وأماكن الاجتماع فيها :

الله أراد أن يكون المسيحيون جسدا واحدا، وهذا يعني أن المؤمنين يجب أن يجتمعوا ولا يعيشوا إيمانهم معزولين عن بعض منذ البدء كل من بشرّ بإنجيل كانوا ينشرون على أن المؤمنين من المدينة الواحدة والمنطقة الواحدة عليهم أن يجتمعوا ولهذا تكونت الكنيسة المحلية وتمّ تنظيمها ². فقبل المسيحيون كلامه بفرح، واعتمدوا، وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاث آلاف نفس، وكانوا يواظبون على تعليم الرّسل، والشركة وكسر الخبز والصلوات وصرف الحزن في كل نفس وكانت عجائب وآيات كثيرة تجري على أيدي الرّسل.

نجد الكتاب المقدّس في كل مرة يذكر علاقة الشعب المسيحي مع الله وعالمية هذه العلاقة أي عدم انحصارها في مكان محدّد أو زمان.

ثانياً - دور الكنيسة : - يبيّن برنار سيسبويه أن -

الكنيسة المحليّة هي التي تقوم بالتطبيق الفعلي لما أوكله الله للكنيسة العالمية للوصول إلى هذا الهدف من الواجب أن يكون :

1. مجمعا للمسيحيين منظم يهدف إلى مساعدة النصارى على التّحلي بالفضائل عن طريق الوعظ والإرشاد وكيفية ممارسة الطقوس والقّداس (لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى وأنتم بكل كلمة معلّمون ومنذرون بعضكم بعضا، بمزامير وتساويح وأغاني روحية بنعمة مترنّمين في قلوبكم للرّب) ³.

1 - 1 كو : 02/01.

2 - مجلس أساقفة كنيسة ألمانية : المسيحية في عقائدها، نقله من الألمانية إلى العربية، المطران كيرلس سليم بسترس، ط 1، بيروت، منشورات المكتبة البولسية، 1998م، ص 304.

3 - 1 كو : 16/03.

2. كما نجد الكنيسة تستقبل الشعب واستفساراتهم لأجل معرفة الله بصدر رحب ولأجل هذا كان رجال الدين ينظّمون جماعات يعلّمون التلاميذ المسيحيين كل أنواع العبادات والطقوس.
3. كما نجد أنها كانت تقوم بالحملات التبشيرية في كل أرجاء العالم وخاصة المناطق المجاورة لها لأجل بناء الكنائس الجديدة، وتحقيق ما أراده يسوع المسيح.
4. لقد كانت الكنيسة تقدّم المساعدات الروحية والمادية والمعنوية للمحتجين من الفقراء والضعفاء والأرامل ... وكل من المرسلين والمبشرين والقساوسة ... يسعون لأجل تحقيق هذا.
5. كما أنّها تعمل على زيادة المحبة بين الشعب أو الجماعات المسيحية وتوطيد العلاقة فيما بينهم بالرغم من اختلاف الطبقات الاجتماعية وهذا تحقيقا لمبتغى يسوع المسيح لأنّهم يحبهم يُعرفون بأنّهم تلاميذ المسيح.
6. فكل المواهب التي في الكنيسة المحلية والمهام وُضعت لأجل المحافظة على الديانة المسيحية وأقيات أعضائها ، ولكن هذه المواهب والمهام محدودة الفوائد لأنّ الكل فوق كل شيء¹. ومن خلال ما سبق نستنتج أن برنارسيبويه جعل الكنيسة معجزة تخلو من كل عيب.

- الفرع الرابع : العلاقة بين الكنيسة العالمية والكنيسة المحلية.

فبعد أن عرضنا معنى الكنيسة العالمية (الجامعة) والكنيسة المحلية نأتي إلى بيان العلاقة بين الكنيسة المحلية والجامعة كما وضّحها "فاضل سيداروس" فيقول : « نودّ إظهار العلاقة بين الكنيسة المحلية والجامعة ؛ فقد شدّد بولس في الأولى على العلاقة بين المؤمنين كأعضاء في الجسد الواحد بناء على علاقتهم بالمسيح، بيد أنّه شدّد في الثانية على العلاقة بين المسيح / الكنيسة، كالرأس / الجسد، بما يترتب عليه وحدة ومحبة بين المؤمنين. فهناك تكامل بين النظرتين : إنّ الأولى أشدّ تركيزا على علاقة الجسد بين أعضائه، وهو أمر واقعي، يختصّ بالكنيسة المحلية في أعضائها ؛ وأمّا الثانية فتركز على علاقة الجسد بالرأس، وهو أمر أكثر شمولية وكيانا، يختصّ بكيان الكنيسة وأساسها ويجمع جميع الكنائس، وكنيسة المسيح هي الاثنان معا : هي في علاقة رأسيّة مع الله وأفقية مع البشر عامّة وبين أعضاؤها خاصة.

1 - برناز سيبويه : الإنجيل الحي في الكنيسة، تعريف : الأب جرجس المارديني، ط3، بيروت، دار المشرق، ش.م.م، 1997م،

ففي الكنيسة المحليّة تظهر وتحضر الكنيسة الجامعة الوحيدة، وكل كنيسة محليّة تتخذ بالكنائس الأخرى لأنّها بحاجة إليها¹.

وأما الكنيسة الجامعة الوحيدة، فهي تفترض الكنائس المحليّة ولا وجود لها إلاّ في الكنائس المحليّة².

المائة ذهب إلى الأمير وأخيره قائلاً : « أنظر ما ذا أنت مززع أن تفعل، لأنّ هذا الرّجل روماني، فجاء وقال له : قل لي أنت روماني؟ فقال : نعم. فأجاب الأمير : أمّا أنا فبمبلغ كبير أقيت هذه الرّعوية فقال بولس : أمّا أنا فقد ولدت فيها، وللوقت ثمن عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه، واختشى الأمير، لما علم أنّه روماني ولأنّه قيده³.

وتميزنا مجموعة "أعمال الرّسل" بأنّ المكان الذي تمّ فيه تحوّل بولس إلى المسيحية كان على طريق دمشق، وأن دمشق كانت مركز نشاطه الأوّل⁴. وفجأة، وهو على أبواب دمشق، شاهد في وضح النهار برقًا وسمع صوتًا يناديه مع الرّعد : (لماذا تضطهدني؟ وأبرق حوله نور السّماء، فسقط على الأرض)⁵.

ومنذ تلك اللحمة، ولد بولس ولادة ثانية، دخل دمشق وتعمّد على يد أسقفها، وبعدها نال عن جدارة لقب رسول الأمم، وكان ذلك سنة 35 ب.م، وقام برحلات تبشيرية⁶. لكن شارل جينيبيز يذكر أنّ بولس لم يتدرّب على التبشير بالمسيحية في القدس أو على أيدي الحواريين الإثني عشر، وأنّه لم يعدّ نفسه تابعا لهم. لقد أيقن أن عيسى نفسه، المسيح الممجد، نصبه حوارياً بإرادته الخاصة، فهو لذلك يرفض أن يشكك أحد في هذا التّشريف، كما يشعر بأنّه في غير ما حاجة إلى إرشاد أو نصح من بشر أيا كان.

وهذه بعض تصريحاته المترفعة الواردة في "الرّسالة إلى أهل غلاطية" :

« ... هل أنت أبشر الإنسان أو الله؟ أو هل أريد أن يعجب بي الإنسان؟ لو أنّي ظللت إلى الآن موضوع إعجاب الإنسان، لما كنت خادماً للمسيح. أوكد لكم إذن يا إخواني، أنّ

1 - كور : 21/12.

2 - فاضل سيداروس : من أنت أيتها الكنيسة؟، ص 114.

3 - أع : 25/22 - 29.

4 - شارل جينيبيز : المسيحية نشأتها وتطورها، ص 130.

5 - أع : 3/9.

6 - محمد عبد الحميد الحمد : التوحيد والتثليث في حوار المسيحية والإسلام، ص 92.

الإنجيل الذي أبشّر به ليس من الإنسان، فإني لم أتعلّمه من الإنسان بل ألهمه إياي عيسى المصلوب»¹.

«... عندما شاءت إرادة الذي اصطفاني، يوم كنت في بطن أمي، وناداني بفضله، أن يظهر ابنه في ذاتي، حتى أبشّر بالنبأ الطيب (لمجيئه) في ديار المشركين، عندئذ لم أشاور اللحم والدم (بمعنى: لم أشاور أي إنسان)، ولم أصعد إلى القدس نحو (هؤلاء الذين كانوا) حواريين قبلي ... لم أصعد إلى القدس للتعرف على بطرس إلاّ بعد ثلاث سنوات»².

ففي أعقاب ثلاث سنوات رأى بولس أن يصعد إلى القدس، فلم يجد في مجتمع الحواريين المحدود بها سوى نظرات التشكك والخدر؛ ولولا برنابا كما استطاع حتى الاتصال بهذا المجتمع. فقد أعجب هذا الحواري بحماسة بولس وقوة يقينه، فسار به إلى بطرس ويعقوب اللذين رأيا استقباله والاعتراف برسالته³.

وعندما حاول اليهود قتله، هرب إلى قيصرية فلسطين، ومنها قام برحلة بحرية إلى مسقط رأسه (طرسوس) وأنطاكية سنة 45م وعمل بولس مع الرسولين بطرس وبرنابا⁴، حتى جاء يوم سُمي فيه هؤلاء، الحواريون باسم المسيحيين في أنطاكية، وكلمة المسيحية نسبة إلى المسيح المصلوب، وهي كلمة يونانية في الأصل ترجمة لكلمة المسيح أو الممسوح عند العبريين. لكن المسيحيون ظلوا مرتبطين بدينهم القديم وهو لكي تكون مسيحيا لا بد أن تكون يهوديا أولا. ثم جاء بولس ليبني معمدا جديدا يناسب الاسم الجديد "المسيحية" لقد أعلن أنه ليس دينا خاصا باليهود وحدهم، بل الرسالة للأُمميين أيضا⁵.

ذهب بولس إلى بلدة أفسس (قرب إزمير)، وأسس فيها كنيسة أصبحت قاعدة للإيمان المسيحي، وعاد إلى أورشليم عام 58م، ولنشاطه المرموق، ثار عليه اليهود وقبضوا عليه وأرسلوه إلى قيصرية فلسطين لمحاكمته من قبل الحاكم الروماني وهو "فيلكس"⁶. ثم فستس واغريباس.

1 - غل : 10/1.

2 - غل : 15/1 - 18.

3 - شارل جينبيز : المسيحية نشأتها وتطورها، ص 130، 131.

4 - محمد عبد الحميد الحمد : التوحيد والتثليث في حوار المسيحية والإسلام، ص 93.

5 - عبد الجليل شلي : عظماء قادة الأديان، ص 115.

6 - محمد عبد الحميد الحمد : التوحيد والتثليث في حوار المسيحية والإسلام، ص 93.

وقف بولس أمام جموع اليهود وبراً نفسه رغم معارضة الكثيرين. لم ينعم بولس بحريته. فقد أخذ مع الأسرى إلى روما في سفينة وانكسرت السفينة قرب مالطا، ومكث فيها فترة يدعو إلى طريق الرب. ووصل إلى روما في ربيع عام 61م.

وفي روما نشط بولس في التبشير، وكثر أتباعه. لمهارته في الخطابة اللاتينية واليونانية وصار قطب الشباب وعلية القوم، فقبض عليه في سنة 63م ثم أطلق سراحه، وعاد إلى المشرق، وزار جزيرة كريت والساحل الغربي لآسيا الوسطى، وكتب من مدينة أفسس عدّة رسائل إلى روما. صور بولس حقيقة تتضمن ثلاثة أشياء، أو ثلاثة حقائق روحية: أبوة الله، ونبوة عيسى له، وإخاء الإنسان، -وأعلن أن الإله إله واحد، هو الذي تحدّث عنه أنبياء بني إسرائيل، وهو الأب للجنس الإنساني، إننا نؤمن بإله واحد لا يوجد إله غيره والآب -خالق كل شيء، وهو يتضمّن كل شيء.

بولس يؤمن بالله الآب، وبعيسى الابن، وليس عيسى فقط ابن الله، بل هو أيضاً معن الله وكاشفه للناس، كاشف لرحمة الله من خلال المعاناة التي كابدها هو، وبولس - مثله العبريين القدامى-، فبدلاً من أن يضحى الإنسان بنفسه قربانا لله - كما في قصة إبراهيم وابنه - ضحى الولد بنفسه لأجل الإنسان. توفي بولس سنة 67م¹.

لكن هذه المسيحية التي ابتدعها بولس، وهي بيقين بعيدة كل البعد عن المسيحية التي جاء بها المسيح -عليه السلام-، وهو ما يؤكدّه محمد أبو زهرة الذي يعطي بعض اللمحات المميّزة التي تفرق بينه أي بين بولس وبين المسيح -عليه السلام-، من حيث المباحث الدينية وطرق الدعوة، وقد تميّزت طريقة المسيح (بطابع السمو والبساطة حتى يفهمها لأول وهلة - الزارع والصانع والمثقف والأمي والرجل، والمرأة دون أدنى إجهاد للذهن، وعندما سئل المسيح من أحد الناس كيف نرت الحياة الأبدية؟ أجاب المسيح -عليه السلام-: « إن الدين هو حياة وقوة، وليس مجرد تعاليم، فالدين هو أن يعيش المرء في إطار أقسام الشرع لا يتعدى أوامر الله ولا يقترب نواهيته².

1 - عبد الجليل شليبي: عظماء قادة الأديان، ص 118 - 122.

2 - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، تبحث في الأدوار التي مرّت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم ومجامعهم المقدّسة وفرقهم، ط [1، 2، 3]، مصر، دار الفكر العربي، 1949-1961م، ص 88.

أما أسلوب بولس المدعو رسولا، فإنه يعبر عنه في هذا النص : « فأني، إذا كنت حرًا من الجميع استبعدت نفسي للجميع لأريح الأكثرين فصرت كيهودي لأريح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأريح الذين تحت الناموس، صرت للضعفاء كضعيف لأريح الضعفاء، صرت لكلّ كلّ شيء لأخلص على كلّ حال.

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إنه أشاع فكرة التمييز العنصري أيضا وهي تناقض مبادئ المسيح، وهاهو نداء بولس، إلى أهل غلاطية : " أطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن حرّة، "أيها الإخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد حرّة" ¹، فأين هذا من قول المسيح ² : "أحبّوا عداءكم باركوا لا عينكم" ³.

فيرى إبراهيم خليل أحمد أن انتشار المسيحية في ربوع الإمبراطورية الرومانية كان ثمرة من ثمرات رحلات بولس الرسول، يقول إبراهيم خليل : « يرجع الفضل في انتشار المسيحية في ربوع الإمبراطورية الرومانية إلى رحلات بولس المدعو رسولا في آسيا وأوروبا وإلى كتاباته التي تحتلّ المكانة الأولى بين كتابات الحواريين » ⁴.

1 - غل : 30/4 - 31.

2 - محمد بو الروايح : مختصر تاريخ الأديان، ط []، د []، قسنطينة، 2007م، ص 136، 137.

3 - مت : 44/5.

4 - إبراهيم خليل أحمد : محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، ط []، م []، دار المنار، 1989م، ص 137.

المبحث الثاني : الكنيسة في الإمبراطورية المسيحية

في بداية القرن الرابع، عقب فشل الاضطهادات التي قام بها ديوكلسيان، استطاعت الدولة أن تدرك أن المسيحيين أصبحوا كثرة لا جدوى للعنف في القضاء عليها، ومن ناحية أخرى كانت المشكلة، قد اتخذت وضعاً يختلف في نظر الدولة عن وضعها خلال القرن الثاني. ذلك أن المسيحية لم تعد في هذا العصر دين صغار الناس والطبقات الدنيا من المجتمع. فلقد انضم إليها أشخاص من مختلف المستويات الاجتماعية وبازدياد جماهير المؤمنين نشأ نوع من التوازن المطمئن في رحاب الكنيسة.

وكانت جماعة المسيحية تظهر للدولة في صورة نشر الناظرين، صورة الهيئة الموحدة المنتظمة، كما تظهر لديها الروح السياسية. فقد تلاشت شيئاً فشيئاً الآراء المسبقة التي شاعت بين العامة خلال القرنين الأول والثاني ضد الحياة المسيحية، وأصبح من المحتمل بعد ذلك أن يفكر الناس في سبل التوفيق بين أطراف النزاع¹.

- المطلب الأول : عصر قسطنطين :

- الفرع الأول : لمحة عن حياة قسطنطين.

وهيأت الظروف -حسب قول شارل جينيبيز- الحل الوسيط، كما ساعدت على الإسراع به : فقد انتهى الأمر - عام 311م، أن تكشف له عقم جهوده فاضطر إلى التراجع أمام العقبات التي أثارها لحكمه عناد الكنيسة الهائل، واستسلم لفكرة التسامح مع المسيحيين، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة، ورأى المسيحيون أن تصريحه بالتسامح كان إعلاناً لانتصار جماعتهم، ثم أصبح موته مجالاً لتنافس عدد كبير من طالبي الحكم الذين حاول كل منهم استرضاء الأنصار، وكانت تلك فرصة ذهبية للكنيسة تستطيع أن تبيع تأييدها، معتمدة على ما تملكه من قوى وعلى عالميتها التي تجعل منها يعتز به كل طالب للحكم، وكان أحد المتنافسين على العرش²، وهو قسطنطين الأكبر³،

1 - بيار غريمان وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 227.

2 - شارل جينيبيز : المسيحية نشأتها وتطورها، ط3، ص 216 - 217.

3 - ولد سنة 280م في سيس (كواتيا و صربيا اليوم) وهو ابن قسطنطسيوس كلورس، وكان إمبراطوراً متسامحاً، هيلاته الزوجة المسيحية (جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة)، ص 90.

الذي حكم من سنة 306-377م¹، وعن قسطنطين هذا يقول ابن قيم الجوزية : « كان (أبو) قسطنطين دينًا يبعث الأصنام محبًا للنصارى، فخرج إلى ناحية الجزية والرّها. فترل في قرية من قرى الرّها، فرأى امرأة جميلة يقال لها (هيلانة)، وكانت قد تنصّرت على يد أسقف الرّها، وتعلّمت قراءة الكتب فخطبها قسطنطين من أبيها فرّوجه إياها، فولدت من قسطنطين -الذي تولى حكم الإمبراطورية- فترّبى بالرّها، وتعلّم حكمه باليونان، وكان جميل الوجه قليل الشرّ محبًا للحكمة ... »².

اعتنق قسطنطين المسيحية في 321م. أمّا ظروف اعتدائه، ومضمون إيمانه، فليست واضحة حتّى اليوم - كما صرّح جان كمبي - كانت عائلته تميل إلى وجه من وجوه التوحيد والأسطورة التي نشأت حول معركة جسر "Milvius" ميلفيوس، تمكّنا من التأكيد أن شيئًا ما قد جرى، وأنّ الإمبراطور اعتبر نفسه مسيحيًا بعد ذلك اليوم، متمنيًا أن يصدّق المسيحيين الذين أكّدوا له أنّ المسيح هو الذي أنعم عليه بالانتصار³.

لكن تاريخ الكنيسة يروي لنا بأنّ قسطنطين قد تراءى له ليلة الحرب صليبا في السّماء مكتوبا عليه (انتصر بهذا الشعار). وفي الثامن من أكتوبر سنة 321م، بدأت الحرب وانكسر جيش ماكسينوس وهرب الأخير، إلا أنّه غرق في نهر التّيبير، فأصبح قسطنطين بعد هذه الموقعة إمبراطورًا للإمبراطورية الرّمانية جمعاء.

وكان أول مرسوم يصدره أثناء توليه العرش قد صدرت في ميلانو سنة 313م. اعتبر المسيحية إحدى الأديان المسموح بممارستها⁴.

ومع ذلك، فلم يستطع قسطنطين أن يتخلّص من وثنيته القديمة، والدليل على ذلك أنّه في سنة 321م، قرّر جعل يوم الأحد عيدًا أسبوعيًا وسماه يوم الشّمس، ومؤكّدًا بذلك قدسيته للشّمس، وظلت المعابد الوثنية في عهده مفتوحة للعبادة العامة في نفس الوقت الذي أصدر فيه

1 - محمود محمد حمودة : التبيان في الفرق والأديان، ط1، عمّان : مؤسسة الوراق للنشر، 2001م، ص 245.

2 - ابن قيم الجوزية : هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ط 3، المدينة المنورة، مطبعة الجامعة الإسلامية، []، ص 204.

3 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 90.

4 - Kinper, BK. The church in history, Michigan, 1964. P 24 - 25.

- سعدون محمود الساموك : موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج2، ط1، الأردن، دار المناهج، ص 254.

مرسومين ضدّ بعض الفرق المسيحية التي كانت تنعتها الكنيسة بالهرطقة مخافة الانقسام في الدولة¹.

وهذه الأمور هي التي جعلت ول ديورانت يتساءل قائلاً: « لا تُرى هل كان قسطنطين حين تحوّل إلى المسيحية مخلصاً في عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة وثنية؟. أم كان هذا العمل حركة بارعة أملتتها حكمتها السياسية.

ثم يجب كذلك قائلاً: « أكبر الظنّ أن الرأى الأخير هو الأصوب »². ونحن نرى مع ديورانت أنّ هذه الإجابة قد حالفها الصواب من خلال الواقع العملي الملموس لهذا الملك الذي أحاط نفسه بجماعات من الفلاسفة الوثنية، وقلّما كان يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس³، ولم يكن يتردّد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية، وكان يعامل الأساقفة على أنّهم أعوانه السياسيين⁴، وسرى ذلك داخل مجمع نيقية الذي أصدر العقيدة الجديدة للملأ، ولو كان قسطنطين مسيحياً حقاً لكان مسيحياً أولاً، وحاكماً سياسياً ثانياً، ولكن الآية انعكست كما يقول صاحب قصة الحضارة فكانت المسيحية وسيلة لا غاية⁵.

ثم سار قسطنطين لمقابلة ليقينيوس، الذي كان قد عقد معه تحالفاً سرّياً قبل ذهابه لمحاربة مكسينتوس، فتقابل الإمبراطوران في مدينة ميلانو حيث تقوى تحالفهما بالاقتران ليقينيوس بابنة قسطنطين⁶. علماً بأن في 313، كان قسطنطين يملك في الغرب، وليقينيوس (Licinius) في الشرق⁷. عندئذ أمكن لقسطنطين أن يؤثر على ليقينيوس ليوافق على إلغاء جميع أوامر الاضطهاد التي أصدرها ديوكليسيان، وإذ وافق ليقينيوس على هذا وصدر مرسوم عام باسم قسطنطين وليقينيوس معاً في سنة 313م في صالح المسيحيين⁸. ولكن ما لبث الإمبراطوران أن اختلفا، وأخذ ليقينيوس يضطهد المسيحيين، ذلك لأنّ الحسد وحبّ السيادة والطمّوح إلى امتلاك ناصية السّلطة المطلقة على الإمبراطورية الرومانية، كل هذا لم يسمح لهما بالتمتع بالسّلام طويلاً، ولما زحف

1 - ول ديورانت: قصة الحضارة، ج3، مجلد 3، ترجمة: محمد بدران، بيروت: دار الجيل، ت []، ص 787.

2 - عبد المنعم فؤاد: المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، ص 156.

3 - ول ديورانت: المصدر السابق، ص 387.

4 - برنار سيسبويه: الإنجيل الحي في الكنيسة، ص 106.

5 - ول ديورانت: المصدر السابق، ص 387.

6 - أندروملر: مختصر تاريخ الكنيسة، ط4، مصر، مكتبة الإخوة، 2003، ص 147.

7 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 94.

8 - أندريه إيمار، المصدر السابق، ص 147.

قسطنطين إليه، بدأ أنه شن حرباً مقدّسة للدفاع عن الكنيسة، فهُزم ليقينيوس وقُتل سنة 324م¹، ويذهب بعض إجراءات ليقينيوس هذه، إنّما هي محاولته كسب تأييد وثني الغرب من جهة، وتخوّفه من تعاون مسيحيّ الشرق مع قسطنطين على ليقينيوس والوثنية متجهة أخرى واستتبّ الأمر لحامل لواء المسيحية الذي أصبح الإمبراطور الأوحد في 324م².

فبذلك يمكن اعتبار هذا التاريخ البداية الحقيقيّة للإمبراطورية المسيحية". فيقول عبد المجيد الشرقي، ومهما كانت دوافع قسطنطين الحقيقية وسواء اعتنق الدين المسيحي عن إيمان أو لغايات سياسية بحتة، فإنّه قد لعب ورقة المسيحية منذ سنة 313م³، وكان المسيحيون يعترفون بأفضاله عليهم، لأنّه كان يهب لهم مباني رسمية وقصوراً لتُستعمل استعمالاً دينياً، كما أمر ببناء أماكن رائعة للصلاة، ككنيسة القديس بطرس في الفاتيكان، وكنيسة القبر المقدّس، وكنيسة بيت لحم، وجميع كنائس القسطنطينية⁴. مدّ أسقف قرطاج بمبالغ مالية هائلة في الدولة، فجعل بالخصوص من أوسيو القرطبي مستشاره في الشؤون الدّينية، وأوكل تربية أبنائه إلى كاتب مسيحي معروف هو لاكتانسيوس، وصادر أحكاماً لفائدة الكنيسة تسمح لها بالوراثة، وتعترف بالمحاكم الأسقفية⁵، واعتبر حكم الأسقف مبرماً غير قابل للإستئناف، ومن أقواله لرجال الكنيسة: أنتم أساقفة على من هم داخل الكنيسة، وأنا أسقف بمشيئة الله على من هم في الخارج⁶، وأمر أن نجعل من يوم الأحد عطلة إلزامية 320م⁷، وظهرت الرّموز المسيحية منذ سنة 315م على النقود في حين اختفت آخر النقوش الوثنية سنة 323م⁸.

وكانت الجماعات المسيحية تستطيع أن تقبل الهبات بالوصايا، فجمعت الكنيسة ميراثاً

1 - أندريه إيمار، وآخرون: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ج2، ص 562.
2 - مجموعة من كبار الباحثين بأشراف، ط.ب مفرّج: موسوعة عالم الأديان، ج8، ص 111.
3 - عبد المجيد الشرقي: الفكر الإسلامي في الرد على النصراني إلى نهاية القرن 14، ط2، بيروت، لبنان: دار المدار الإسلامي، 2005م، ص 106.

4 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 95.
5 - عبد المجيد الشرقي: المرجع السّابق، ص 106.
6 - مجموعة من كبار الباحثين: المصدر السّابق، ص 114.
7 - أندريه إيمار وآخرون: تاريخ الحضارات العالم، ج2، ص 564.
8 - عبد المجيد الشرقي: المرجع السّابق، ص 106.

ضحما، وحصل رجال الإكليروس على امتيازات قانونية واعتُبر الأساقفة مساوين للحاكم¹. ويتبين لنا من خلال ما سبق أن مثل هذه التدابير تتخطى إطار الاقتناع الشخصي. وليس لها من تفسير سوى الرغبة في جعل الكنيسة جهازاً رسمياً وإشراكها في حياة وسير الدولة، وتقوية الدولة بما لرؤساء الكنيسة من تأثير على المؤمنين، وهكذا فإن الديانة المسيحية، بفعل انقلاب الوضع انقلاباً غريباً وشبه محتوم، أصبحت تدريجياً دين دولة بعد أن كانت في الأمس القريب دينا محرّماً.

فقضي على الوثنية التي أن زالت عملياً خلال القرن الخامس.

- الفرع الثاني : تأسيس مدينة القسطنطينية.

كان انتصار قسطنطين على منافسيه إيذاناً بحدثين أساسيين سوف يطبعان المرحلة المقبلة من التاريخ في الشرق والغرب.

الحدث الأول هو انتقال العاصمة الرومانية إلى الشّرق : إلى القسطنطينية، والحدث الثاني هو تحوّل أنطاكية إلى عاصمة أساسية للمسيحيين².

قرّر قسطنطين أن يبقى في الشّرق ويؤسّس عاصمة جديدة للإمبراطورية، فاختار مدينة صغيرة تُدعى بيزطية كانت على اليوسفور، وشيّد فيها مقرّ الحكم³، فأصبح اسمها القسطنطينية - وهي اليوم إسطنبول - صارت مدينته في عداد الأماكن الهامة التي يدعى كنيستها أحد البطاريك⁴، وهي التي كان قد أسّسها الإغريق الأقدمون في القرن السّابع قبل الميلاد⁵، ويقال أن الله هو الذي أوحى إليه بهذا الموقع في الحلم، وتمّ الاحتفال بالتأسيس في 11 أيار (مايو) 330، في رتبة اتّسمت في الوقت نفسه بالطابع الوثني والطابع المسيحي، -ثمّ يضيف جان كمبي- وكالتغيير العاصمة هذا نتائج هامة أثّرت في الإمبراطورية وفي الكنيسة، إذ أنّ مركز الثقل انتقل إلى الشّرق، وأخذ الأباطرة يقلّلون من اهتمامهم بالغرب، وفضلاً عن ذلك، ادّعت القسطنطينية أنّها روما الثانية في الكنيسة، واستقطبت حولها جميع المسيحيين ذوي الثقافة اليونانية، ولكن تأسيس العاصمة الجديدة

1 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 96.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج8، ص 117.

3 - جان كامبي : المصدر السابق، ص 94.

4 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ط []، بيروت، دار المشرق، 1992م، ص 89.

5 - مجموعة من كبار الباحثين : المصدر السابق، ص 117.

كان يحتوي على بذرة تقسيم الكنيسة الذي تمّ فيما بعد¹. ومن ثمّ ظهور الأولوية الرومانية ومنه ظهور البابوية.

أمّا الحدث الثاني هو أنّ أنطاكية التي كانت قد اشتهرت قبل ذلك التاريخ بتاريخ التّرف والخلاعة، حتّى أنّه لم يُعرف مكان في سورية الرومانية ظهر فيه التّمتع بالحياة كهدف رئيسي للسّكان، يأتي بعد هدف الواجب، مثلما كان عليه الوضع في أنطاكية من شمال سوريا - حسب تعبير موسوعة عالم الأديان - فقد غدت في نهاية القرن الأوّل، ثالث مدينة في الإمبراطورية بعد روما والإسكندرية، وفي بداية القرن الرابع كانت بيوت أنطاكية مجهزة بشبكات المياه وشوارعها مضاءة بالمصابيح، ما جعل مؤرخي تلك الحقبة يصفونها بملكة العرائس.

أنطاكية هذه، كانت من الناحية الإدارية تشكّل قاعدة لإقليم ينتسب إليها ويتضمّن خمس عشرة مقاطعة بانتقال عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية، أصبحت العاصمة الكبرى للمسيحيين في العالم، وإنّ كونها قاعدة لذلك الإقليم الشّرقى الكبير هو الذي سيجعل بطاركتها فيما بعد يلقّبون ببطريك أنطاكية كمدينة أو منطقة وسائر المشرق².

ومن هنا نرى اليوم أنّ أكثر الكنائس المسيحية في الشرق، سواء كانت تابعة للكنيسة الغربية أو الشّرقية، يحمل بطاركتها لقب بطريك أنطاكية وسائر المشرق، ذلك أنّ خلف التّعّد في الكنائس والانتماءات سبباً واضحاً ألا وهو الانقسامات التي بدأت في روما يوم كانت كنيستها متقدّمة على سواها من كنائس الإمبراطورية، فلقد كانت كنيستها متقدّمة على سواها من كنائس الإمبراطورية، فلقد كان أسقفها هو أسقف عاصمة الدّولة، وممثّل الكنيسة الجامعة، لكن لما غدت أنطاكية متقدّمة على روما بعد قسطنطين انتقل مركز الصّراع إليها.

- الفرع الثالث : المباحثات الدوناتية والآريوسية وموت قسطنطين.

أولا - الدوناتية :

رأينا فيما سبق أفضال الإمبراطور، لكن الأمر الذي ستكون له أوجع العواقب فيما بعد، هو تدخل الإمبراطور المباشر في شؤون الكنيسة الدّاخلية بطلب منها يقول الشّرقى : « فعلا سعى قسطنطين إلى حلّ النزاع المترتب على اضطهاد سنة 303م، في إفريقيا، ذلك أنّ الحزب المتشدّد

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 95.

2 - مجموعة من الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ص 119.

الذي كان يتزعمه دوناتس قد قدم سنة 312م في انتخاب سيسيليانس أسقفا لقرطاج لأنّ الأساقفة الذين ساموه كانوا سلّموا إبان الاضطهاد الكتب المقدّسة إلى السّلطة، وعندما عرض المشكل على الإمبراطور أو كل البثّ فيه إلى أسقف العاصمة الإمبراطورية، فعقد أسقف روما مجمعا سنة 313 أيد انتخاب سيسيليانس¹، كان المجمع مؤلفا من نحو عشرين أسقفا، وصادر حكمه في صالح كاسيليان الذي شرع على أثر ذلك في الدّعوة إلى الصّلح، وقدّموا طلبا إلى الإمبراطور عرضوا فيه أنّ مجمعا مؤلفا من عشرين أسقفا لا يكفي لنقص حكم قد أقرّه سيكون أسقفا بإدانة كاسيليان. فأمر الإمبراطور بعقد مجمع آخر حضره عدد كبير جدّا من الأساقفة من إفريقيا وإيطاليا وصقلية وسردينيا، ولكن الأغلبية كانت في بلاد الغال، وكان هذا أكبر مجمع إكليريكي انعقد حتّى ذلك اليوم (على حدّ قول أندروملر - والتأم المجمع سنة 314م، فأقرّ تعيين كاسيليان مرة ثانية :

توسل الوناتيون إلى الإمبراطور مرّة ثانية طالبين منه أن يبعد النظر في مسألتهم، لكنه أصدر قوانين ضدّهم، ما لبث أن ألغاهما خشية النتائج الخطرة التي قد تنجم عن وسائل العنف والشّدّة، ورغم ذلك سبّبوا انشقاقا عظيما في الكنيسة². ممّا اضطر قسطنطين إلى استدعاء مجمع في آرل لم يكن هو أيضا لفائدة دوناتس. وبما أنّ المعارضة لم تهدأ التجأ الإمبراطور إلى اضطهاد الدونانيتين عام 316م³، وأمر قسطنطين الجيش بإخراجهم من الكنائس التي كانوا يحتلّونها. باعتبارهم خارجين عن الكنيسة الكاثوليكية الحقيقيّة⁴. فكانت تلك سابقة خطيرة يلتجئ فيها مسحيون إلى السّلطة المدينة للقضاء على مسيحيين آخرين، لكن قسطنطين تراجع سنة 320 في ملاحقة الدونانيتين ممّا أدّى إلى استمرار هذه الفرقة كامل القرن الرّابع⁵. ذلك لأنّ الإمبراطور لم ينجح في إعادة السّلام، منح الجميع حرّية التدين، وقدّم نالاً للكاثوليك ليشيدوا كنائس أخرى⁶.

ثانيا - الأريوسية :

ولمّا تدخل الإمبراطور في الأزمة الدوناتية، فإنّه تدخل كذلك في الأزمة الأروسية. فيرى جان كمبي في تدخله أنّه لم يكن في إمكان الإمبراطور أن لا يهتم بالقضايا الدّينية لاسيما إن

1 - عبد المجيد الشرقي : الفكرة الإسلامي في الرّد على النّصارى، ص 106.

2 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 153.

3 - عبد المجيد الشرقي : المرجع السابق، 106.

4 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 96.

5 - عبد المجيد الشرقي : المرجع السابق، ص 106.

6 - جان كمبي : المصدر السابق، ص 96.

كانت تعرّض للخاطر نظام الإمبراطورية الداخلي، ومن جهة أخرى، كان المسيحيون يرفعون دعواتهم للإمبراطور بصفته حكماً في خلافاتهم¹.

يشير أندروملر إلى نشوب النزاع الآريوسي فيقول: « ما لبثت الكنيسة أن تمتعت بالسلام الخارجي بواسطة منشور ميلانو حتى تعكر صفو السلام بسبب المنازعات الداخلية، فيعد اتساع الشقاق الدوناتي، في إفريقيا بوقت قصير، بدأ النزاع الآريوسي الذي نشأ في الشرق وامتد إلى جميع أنحاء العالم، وهو أول ما فرق شمل المسيحيين، ونظم في جميع أنحاء العالم أحراباً متعادلة، تقاوم بعضها بحقد وغيظ عظيمين. ظهرت في الكنيسة قبل اتحادها وارتباطها بالحكومة بدع تحاكي في طبيعتها بدعة آيوس. لكن تأثيرها قلما تعدى المكان أو الزمان على خلاف البدعة الآريوسية. لأن قسطنطين الذي تبوأ أريكة عرش العالم، اعتبر نفسه الرئيس المطلق الوحيد المتصرف في شؤون الكنيسة². ستورد بعض تفاصيل هذه الأزمة لاحقاً في مجمع نيقية.

يعلق أبو زهرة على تدخل قسطنطين الذي اعتنق المسيحية دون أن يعرف أصولها الصحيحة يتدخل في مسألة في صميم العقيدة لينحاز إلى رأي ويقره، فقد أيد رأي بولس رغم أن أنصار هذا الرأي هم القلة³. ونرى أن قسطنطين وإن كان قد استطاع أن يحمي .. الكنيسة، لكنه عجز أن يمنحها السلام رغم أنه أعطى حرية التصرف.

ثم يعلق أيضاً كتاب "تاريخ الحضارات العام" عن اتحاد الكنيسة بالدولة: « فلا ريب من ثم أن مساندة الدولة القويّة قد خدمت انتشار الديانة المسيحية التي ما كانت، لولا هذه المساندة لتنتصر بمثل هذه السرعة، وهل كان من المقتدر أن تنتصر يا ترى؟ فقد رغبت الدولة، بشخص قسطنطين، في توطيد سلطتها إن لم يكن بالوحدة الأدبية التي قد يوفرها لرعاياها في أجل قريب، انتصار إيمان لحل محل الوثنية الخائرة⁴.

وهكذا نلاحظ أن الدولة، بتحالفها مع الكنيسة، قد أوغلت في الخلافات الدينية، وأن في تاريخ القرن الرابع لدلالة كافية على أنها في عملها هذا، قد زادت في الاضطرابات التي هزّت

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 96.

2 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 154.

3 - محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية، ص 125.

4 - أندريه إيمار وآخرون : تاريخ الحضارات العام، ج2، ص 566.

الإمبراطورية وخير دليل على ذلك الأزمة الآريوسية التي أدت إلى عقد مجمع نيقية 325م. كما القضية الدوناتيّة التي سمّت حياة الكنيسة في إفريقيا طوال القرن الرابع. فسنة 313 إذن سنة فاصلة بين عهدين وفتحة صلات متينة بين الكنيسة والإمبراطورية الرومانية.

ثالثا - صوت قسطنطين :

ثم حدث بعد وفاة قسطنطين 337م أن قسّمت الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة¹، وهم قسطنطين وقسطنطينوس وقسطانس، وكان هؤلاء قد تربّوا تربية مسيحية، وتهدّبوا في إيمان الإنجيل، وكان والدهم يلقبهم بالقيصرة²، لكنّ أستطاع أحدهم -هو قسطنطينوس- توحيدها مرّة أخرى سنة 350م تحت حكمه الذي استمر حتّى سنة 361م وعلى الرّغم من ذلك فإنّ الإمبراطورية الرومانية سرعان ما أخذت تتعرض للانحلال السّريع في النّصف الأخير من القرن الرابع، عندما ازداد الفساد الإداري وتضاعف عبء الضرائب وتفاقم الخلل الاجتماعي بعد أن تكاثرت عدد العبيد المنشغلين بالزراعة والصّناعة وتناقص عدد الأحرار، وانحطت أحوال المدن يوجد عام، وهكذا سهل على دارس أحوال الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع أن يدرك أنّها كانت تعاني عندئذ آلام الموت البطيء، وبالتالي فإنّ العصور القديمة أمست في طريق الزوال وباتت الأحوال ممهدة لأنّ تنتقل أوروبا إلى طور جديد من أطوار تاريخها أكثر ارتباطا بالعصور الوسطى.

ويشبه بعض المؤرخين -على حدّ قول سعيد عبد الفتاح عاشور- الإمبراطورية الرومانية بشجرة ضخمة امتدت جذورها القويّة في مختلف الاتجاهات، ممّا يجعلها أقوى من أن تنهار نتيجة لعامل واحد، لذلك يرجعون انهيارها إلى عدّة أسباب³.

ومن هنا يجب أن نعتزف بأنّه لم توجد دولة أو حكومة في التّاريخ استطاعت الخلود والبقاء على حال واحدة من الرفعة، وأنّ الدّول تتفق مع الكائنات الحيّة في خضوعها لسنة الموت والبعث.

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى، التاريخ السّياسي، ج 1، ط 10 القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1986م، ص 44.

2 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 163.

3 - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السّابق، ص 45، 46.

- المطب الثاني : ما بين المجمع النيقاوي والخلقيديوني :

إنَّ الكنائس صغيرة كانت أم كبيرة، لم تكن منعزلة فير حياتها الخاصة، التي يشرف عليها أساقفة يتمتعون بسلطة مطلقة، فهي، من حيث مرور كافة علائقها الخارجية بالأساقفة، تعي انتماءها إلى جسد واحد هو الكنيسة. أجل لقد جمع بينها، منذ القديم، الاتحاد في الإيمان - كما يزعم المسيحيون- ولكن العهد الإمبراطوري الثاني قد أتى بشيء جديد هو إحداث تنظيم تدريجي. لم تُجمع القوانين بصورة نهائية بعد، ولا يزال سير الآلة طرية العود عرضة لصعوبات كثيرة، غير أن التطور التنظيمي قد ابتداءً، مهما كان من غموضه ومن تقلب اتجاهه¹.

وكما جرت العادة ومنذ بداية التاريخ المسيحي أن يجتمع القادة الروحانيون « من القساوسة والأساقفة - والبطارقة » بين آونة وأخرى لتقرير قواعد "الإيمان القويم"، وذلك بتحديد ما يجب الاعتقاد به، ولا يجوز الجهل به، وتقديم تأويلات تفسر العقائد، تجاوزا للاختلافات في الآراء والمعتقدات، وبغية الوحدة العقديّة بين النصارى، وعرفت مثل هذه الملتقيات الدينيّة بالسّينودس (المشتق من الكلمة اليونانية سندوس ؛ والتي تعني : الاجتماع من أجل المناقشة في القضايا اللاهوتية للوصول إلى اتفاق عام حولها، ومصطلح سيوند Syond دلّ في غالب الأحيان على ملتقيات دينية محلية ضيقة، يشارك فيها أبناء كنيسة واحدة أو طائفة دينية مسيحية بعينها، وعلى رغم ذلك فالكلمتين تستعملان بدلالة واحدة ومتماثلة².

فسلكت الكنيسة طريقاً سلوكها منذ القدم ؛ هي طريق المجامع : لذلك يقول بيير كاميللو وبيير مارافال : « إنَّ المجامع في تاريخ الكنيسة وحياتها، أمر تقليدي تماماً، ودون الرجوع لإبلا "مجمع أورشليم"³. فإننا نرى أنه في آسيا، عام 175، اجتمع "مؤمنون" ليحاكموا على تلاميذ مانتان ويدينونهم، بعد بضع سنوات، قام أسقف روما، فكتور، بالدعوة إلى سينودس أوّلاً في روما في إيطاليا ... لمحاولة حل مشكلة تاريخ الفصح.

وفي السّنوات الأخيرة التي تلت الاضطهاد الكبير الأخير رديوقلز يانوس رجاليريوس، (303 - 305) وتوبة قسطنطينوس (321)، نرى في روما انعقاد مجامع، لم تصبح بعد اجتماعاً

1 - أندريه إيمار ، جانين أو بوايه : تاريخ الحضارات العالم، ص 621.

2 - عرفان عبد الحميد فتاح : التصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ط1، عمّان، دار عمّار، 2000م، ص 81.

3 - أ ع : 15.

للكنائس كلها "لكل الأرض المسكونة" ولكنها حققت بالرغم من ذلك تمثيلا كبيرا للكنائس¹.

أولا - معنى الجمع :

يذكر رؤوف شليبي أنه بعد أن ترك السيد المسيح - عليه السلام - تلاميذه يرى أنهم عقدوا مجمعا في أورشليم بعد الّيد المسيح باثني وعشرين سنة، وفي هذا الجمع قرّر التلاميذ² - حسب معتقد المسيحيين-.

1. عدم التمسك بالختان.

2. عدم التمسك بشرائع التّوراة، وما وليها من سائر أسفار العهد القديم المقدّس عندهم، وحول هذا يقول سفر لعمال الإصحاح الخامس عشر : أنهم سنّوا للمسيحيين طريقة جمع المجمع لدراسة ما يّصل بمسائل العقيدة والشريعة.

وإذن : فمعنى الجمع على هذا هو : المشاورة التي ينعقد لها جمع من علماء الدّين المسيحي للّنظر في المسائل المتعلقة بالعقيدة أو الشريعة على السّواء، فهو بالعبارة الموجزة هيئة تشريعية في الدّين³.

فابن منظور يعطينا المعنى اللّغوي لكلمة "جمع" فيقول : « كلمة جمع من الفعل اجتمع، يجتمع، اجتماعا ومجمعا، والجمع من الفعل جمع كقولنا : جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعا، وأجمعه فاجتمع، وكذلك تجتمع، والتجمع والمجموع وهو ما جمع من هنا وهناك، ونقول : استجمع السّيل بمعنى اجتمع من كل موضع، والجمع اسم للموضع الذي يجتمعون فيه. والأمر الجامع هو ما يجمع النّاس، أمّا إذا قلنا المجمع، فهي ما اجتمع من الرّمال، وهي المجمع⁴.

1 - بيير كاميللو، بيير مارافال، بول كريستوف : المجمع المسكونية، الألفية الأولى والثانية، نقله إلى العربية : السيّد بولس عطا الله، إشراف : الأب الدكتور كاميللو باللين، ط1، القاهرة، شرقيات للنشر والتوزيع، 2005م، ص 7.

2 - رؤوف شليبي : أضواء على المسيحية، دراسات في أصول المسيحية، ط []، صيدا بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1975م، ص 94.

3 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التّصراية، ص 111.

4 - ابن منظور : لسان العرب، ج1، ط []، القاهرة، دائرة المعارف، ت []، ص 678.

أمّا إذا حدّدنا كلمة مجمع من الناحية الاصطلاحية نجد أنّها تعني حفل اليهود، ومكان اجتماعهم، وأصل هذه الكلمة يرجع إلى جلاء بني إسرائيل من بابل، وذلك في القرن السادس قبل الميلاد، ثمّ انتشرت بعدها إلى جميع أنحاء العالم، منها فلسطين¹.

فالمجمع في المسيحية عبارة عن جماعة من الأساقفة يجتمعون بشكل رسمي من أجل النظر في قضايا تخصّ العقيدة المسيحية².

أما المجمع الأرثوذكسي³، فيضمّ أساقفة الكنائس الأرثوذكسية كلها من بطريك⁴.

وفي المقابل نجد المجمع الكاثوليكي هو الذي يضمّ أساقفة الكنائس الكاثوليكية، وهذا بدعوة من البابا في روما⁵.

ثانيا - أهمية دراسة المجمع :

أهمية دراسة المجمع المسيحية تتّصل بقضية التثليث في العقيدة المسيحية، ويرهن على ذلك رؤوف شلي و يرجع السبب إلى : « لأنّ عقيدة التثليث على النّظام الموجود حاليا الذي تتّصف به الديانة المسيحية حاضرا لم يكن من التّعالم التي جاء بها السيّد المسيح، بل ولا من تعالم الإنجيل في حدود نصوصه الدينيّة، ولكنّه كان من تفسيرات القساوسة والأساقفة في المجمع التي انعقدت خاصة لمثل هذه التّأويلات في العقيدة الدينية المسيحية، ومجمعا بعد مجمع، وطائفة بعد طائفة، ولذلك الذي يسميه المسيحيون اليوم بالأقانيم

1 - إيميل يعقوب : بسام بركة وآخرون : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، ط 1، بيروت، دار المعارف للملايين، ت []، ص 345.

2 - صبحي حموي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي، ص 437.

3 - كلمة اليونانية : معناها استقامة الرأى تطلق على الفكر الالهوتي والكنائس الشرقية غير متحدة بروما (صبحي حموي : معجم الإيمان المسيحي، ص 28).

4 - "Patriarche"، لقب أطلق على الأسقفيات المسيحية الأربعة الكبرى : روما، الإسكندرية، القسطنطينية، أورشليم، وذلك في القرن 04م، (صبحي حموي : معجم الإيمان المسيحي، ص 56).

5 - René Mety : Histoire des conciles, Presses universitaires, des Frances, Vord double saint germain, Pris, 1964, p 5

فهذه المجامع أضفت على وجودها مسحة من الأخفية في التشريع الديني بما لا يوجد له نص واحد من نصوص الأناجيل، بل إنَّ الرِّسائل التي تعتبر المصدر الوحيد للطقوس الدينيَّة لم يُعترف بها إلاَّ في بدء القرن الرابع الميلادي¹.

إذن فأهمية دراسة المجامع من ناحية ؛ تحديد بدء الاتفاق على القول بالتثليث، وتحديد بدء إدخاله في الديانة المسيحية كنظام ديني، كذلك تحديد الفاعلين، والقائلين بهذا التثليث وأدلتهم على ذلك باعتبار أن التثليث هو أساس إيمان الكنيسة وبالأحرى المسيحيين بصفة عامَّة. ونحن هنا بصدد دراسة بعض المحطات من تاريخ الكنيسة النَّاحية وحب علينا ذكر بعض عقائدها والأطوار التي مرَّ بها، أما من النَّاحية الأخرى أنَّ في الحديث عن نشأة البابوية لا بدَّ من الرجوع إلى فترة ما قبل مؤتمر نيقية (والذي سنأتي على ذكره) الذي عقد سنة 325 للميلاد، فكان نقطة تحوُّل في تاريخ الكنيسة، وتوالت المجامع الأخرى بعده وما انطوت عليه من خلافات عقائدية وسياسية والتي كانت سببا في نشأة وظهور البابوية.

ثالثا - أنواع المجامع وعددها :

1 - أنواعها :

والمجامع عند المسيحيين قسمان : مجامع عامَّة أو على حدِّ تعبيدهم مجامع مسكونية، أي تجمع رجال الكنائس المسيحية في كل أنحاء المعمورة². وهي التي نحن بصدد التطرُّق إليها، فلفظة "مسكونة" : تدلُّ على الأرض المسكونة، وهي تخصُّ ممتلكات الإمبراطورية الرومانية في القرنين الرَّابع والخامس للميلاد. صفة مسكونة في الكنيسة كانت تطلق على لقاءات الأساقفة من أجل البحث في اهتمامات وانشغالات الكنيسة³.

كما أنَّ المجمع المسكوني يعبر عن إيمان الكنيسة كلِّها، ويتَّخذ قرارات في شأن العبادة أو النَّظام، والكنيسة الكاثوليكية تعترف بواحد وعشرين مجمعا مسكونيا⁴.

1 - رؤوف شلي : أضواء على المسيحية، ص 93.

2 - مصطفى شاهين : النَّصرانية تاريخا وعقيدة ومذاهب، دراسة تحليلية ومناقشة، ط []، م []، دار الاعتصام، ت []، ص 259

3 - روبر كليمان اليسوعي : تاريخ الحركة المسكونية الأولى قبل المجمع الفاتيكاني الثاني، ترجمة : صبحي حموي اليسوعي، ط1، بيروت، دار المشرق، 1991م، ص 17.

4 - صبحي حموي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي، ص 458.

والقسم الثاني : الجامع الخاصة، وهي تنقسم إلى قسمين :

أ - الجامع المليّة : الخاصة بملة واحدة.

ب - الجامع الإقليمية : والتي تجمع مذاهب وملل موضع محدد¹.

ومن هذا التّقسيم يظهر لنا أن حاجة الدّراسة إنّما تختصّ بالجامع العامّة، وخصوصا الجامع التي كانت في القرون الأولى للمسيحية لأنّها هي التي رسمت المسوح والتقاليد الكنيسية القائمة في الكنائس والتي من خلالها يظهر دور ومكانة البابا عبر مختلف العصور من ناحية النّمو والتّراجع.

2 - عددها :

يقول المؤرخون : إن الإحصائيات التي أجريت لمعرفة عدد الجامع التي انعقدت بين المدة من القرن الأوّل المسيحي إلى عام 1869م تساوي عشرين مجمعا، هكذا يروي نوفل نعمة الله بن جرجس في كتابه "سوسنة سليمان"، مع الاختلاف والإنكار لعمومية بعضها أو لصحة قراراتها².

وأبرز هذه الجامع أربعة هي :

أ - مجمع نيقية الأول المنعقد في 325م.

ب - مجمع أفسس المنعقد في 431م.

ج - مجمع خلقيدونية المنعقد في 451م.

أما الجامع الأخرى فهناك :

- مجمع القسطنطينية الثاني المنعقد في 553م.

- مجمع القسطنطينية الثالث المنعقد في 680م.

- مجمع نيقية الثاني المنعقد في 787م.

- مجمع لاتران الأوّل المنعقد في 1123م.

- مجمع لاتران الثاني المنعقد في 1139م.

- مجمع لاتران الثالث المنعقد في 1179م.

- مجمع لاتران الرابع المنعقد في 1215م

- مجمع ليون الأوّل المنعقد في 1245م إلى غير ذلك

1 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التّصراية، ص 111.

2 - رؤوف شليبي : أضواء على المسيحية، ص 95.

وسوف ندرس هذه المجامع من نقاط أربع : أسباب انعقادها جملة الحاضرين، أهم القرارات، الملاحظات.

وسنبداً بأعظم هذه المجامع، وأبعدها أثراً -لدى المسيحيين- وأكبرها شأنًا، وأولها وجوداً وأعظمها ذكرًا.

- الفرع الأول : مجمع نيقية سنة 325م.

انصبَّ اهتمام الفكر المسيحي منذ القرن الثاني في اتجاهات عديدة ليصون في الوقت ذاته الاعتراف الإيماني بالثالوث. وكان بعضهم يحسبون أن الله هو في الوقت عينه أب وابن، وأنه يمكن القول بأن الآب تألم أيضا كما تألم الابن، وآخرون ألحوا على التمييز بين الآب وابنه، الآب هو الله، لكن ليس له الوضع الأنفسي، (والابن اللوغس) : الكلمة يخضع إذا للآب، وقد يكون يسوع إنسانا ألهة الله وتبناه.

كانت المنازعات -قبل حصول الكنيسة على السلام- يمكن أن تبقى في نطاق محلي¹. وذلك في بداية القرن الرابع، حيث عرفت الكنيسة -كما جاء في كتاب المجامع المسكونية- في عهد الإمبراطور ديوقلزيانوس، وخلفائه المباشرين جاليريوس ومكسيميانوس، أشد الاضطهادات ضراوة منذ أن ظهرت (303 - 311)².

أمّا بعد سنة 313م، فقد صارت المنازعات تنتشر سريعا في كل أرجاء الإمبراطورية³، لأننا نعرف أنه منذ اهتداء قسطنطينوس (321م) وإجراءات تهدئه الأوضاع التي اتخذها (313م) بحيث عاشت الكنيسة في عهد من السلام والرخاء.

ولكن سرعان ما اضطرب هذا السلام في مدينة من أهم مدن الإمبراطورية، وكذلك في الكنيسة. كانت الإسكندرية مركز الهيلينية⁴، مركزا للثقافة اليونانية، وكذلك للثقافة المسيحية⁵.

أ - سبب انعقاده :

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 118.

2 - بييركا ميللو وآخرون : المجامع المسكونية، ص 11.

3 - جان كمي : المصدر السابق، 118.

4 - هي النهوض بالحضارة الإغريقية.

5 - بيير كاميللو : المصدر السابق، ص 11.

فكيف كان ذلك؟ وكيف جرت الأمور؟ لنجيب عن هذين السؤالين "نورد ما جاء في كتاب "الإنجيل الحي في الكنيسة: "كان أحد الكهنة اسمه آريوس¹. خوري رعية ميناء الإسكندرية في مصر، يلقي على شعبه عظة عن الإنجيل، ككل راع غيور، وكان يحاول أيضا -وهو في ذلك على حق- أن يطبع عظته بطابع من الواقع اليومي، على ما تقتضيه ثقافة سامعيه². ولذلك فقد أخذ يفسر لهم كلمات من قانون الإيمان³.

ثم يكمل القس حنا جرجس الخضري التعريف بآريوس وأهم إنجازاته بقوله: « ولقد أجمع الكتاب على أن آريوس كان عامًا مثقفًا، وواعظًا، زاهدًا ومتقشفًا، وعالمًا في التفسير. فاستطاع هذا الشاب المتقشف الزاهد أن يجذب حوله جماعة من أهل الإسكندرية، على الأخص من الرهبان والراهبات الذين وجدوا في أسلوبه الوعظي والتعليمي تجديداً وابتكاراً يختلف عن العظات التي تعودوا على سماعها.

وكان آريوس يهاجم في عظاته تعاليم سابليوس التي كانت تهاجمها كنيسة الإسكندرية، ولكنه بدأ يهاجم أيضا عقيدة أزلية الابن وانبثاق جوهره من الآب⁴.

هذه العقيدة التي ابتكر فيها آريوس ذكرها لنا "فاضل سيداروس" في قوله: « يطرح آريوس سؤال بُنوة يسوع الإلهية على المستوى الثيولوجي منطلقاً من ناسوته الذي لا يشك فيه، ليصل إلى مصدره: هل هو إله؟ لا يشك آريوس في ناسوت المسيح، بل في ألوهيته، متسائلاً: هل المعقول أن يكون هذا الإنسان الذي تألم ومات إلهًا؟ ولكن هناك فرقا بين آريوس ومن شك من قبله في لاهوت المسيح: فالاعتراف بألوهية المسيح يخالف، في نظره، توحيد الله، وهذا مالا يقبله اليهود واليونانيون (والمسلمون أيضا)، فلا يمكن اعتبار المسيح إلهًا، لشدة إيمان آريوس

1 - ولد نشأ في عائلة مسيحية أم وثنية، لا نعلم عن ذلك شيئا؟ وكل ما هو معروف هو أنه ليبي الجنسية، درس اللاهوت في مدرسة أنطاكية على يد المعلم لوقيانوس ثم جاء بعد ذلك إلى الإسكندرية ورُسم هناك شيخا في كنيسة بنكليس أوكاهنا (انظر: حنا جرجس الخضري: تاريخ الفكر المسيحي، يسوع المسيح عبر الأجيال، مجلد 1، ط []، القاهرة، دار الثقافة، ت []، ص 218، 219.

2 - كان هذا القانون معروفا من نهاية القرن الثاني.

3 - برنار سيسبويه: الإنجيل الحي في الكنيسة، ص 41.

4 - القس حنا جرجس الخضري: تاريخ الفكر المسيحي، مجلد 1، ص 219.

بتسامي الله وتعاليه (Monarchie transcendante) وتوحيده فلا يمكن لأيّ إنسان أن يكون الله، لأنّ الله واحد ومتعال حدًا¹.

ثم يضيف القس حنا جرجس الحضري ما توصل إليه أريوس بدقة :

1. ولذلك فقد علم بأنّ الله إله واحد غير مولود، أزلي، أمّا الابن فهو ليس أزليا، إذ أنّه وجد وقت ما لم يكن الابن موجودا فيه، صحيح أنّ وجود الابن سبق خلق العالم، ومع ذلك فهو ليس أزليا.
2. إنّ هذا الابن غير أزلي وغير مولود من جوهر الآب خرج من العدم مثل كل الخلائق الأخرى بحسب قصد الله ومشيتته.
3. إنّ المسيح الذي يعبدّه المسيحيون ليس إلهًا، ولا يملك الصفات الإلهية المطلقة : كلّ العلم، كلّ المقدرة، عديم التّغيير... الخ.
4. إنّ معرفة الابن محدودة وليست مطلقة، ولا يستطيع أن يعلن لنا الآب بطريقة كاملة.
5. إنّ الله خلق الكلمة، الابن لأجلنا، لأنّه عندما أراد أن يخلقنا، خلق كائنا يدعى الكلمة، أو الحكمة لكي نكون على صورته.

فلو أراد أن يخلقنا لأصبح وجود الابن مستحيلا. فلا بن مخلوق مثل كل الخلائق، متغيّر، غير أزلي، ليس كلّ العلم، ولقد كان حرّا أن يظلّ صالحا كما خرج من بين يدي الله، أو أن يرتدّ إلى الشرّ مثل الشيطان. ولهذا فقد منحه مجدا إلهيا، وهذا المجد الإلهي ما هو إلاّ هبة من الله، وعن طريق هذا المجد الممنوح ارتفع الابن فوق كل الخلائق².

ومن هنا نلاحظ أنّ مبتغى ومعنى ما أراد أريوس أن يقوله هو ما دلّ به ابن حزم في الفصل بقوله : « إنّ أريوس كان يقول بالتوحيد الجرّد، وأنّ عيسى - السّكّيني - عبد مخلوق، وأنّه كلمة الله تعالى التي بها خلق السّموات والأرض، وكان في زمن قسطنطين الأوّل الذي بنى القسطنطينية، وأوّل المتحضّرين من ملوك الرّوم ».

1 - فاضل سيداروس : يسوع المسيح في تقليد الكنيسة، دراسات لاهوتية، محاضرات ألقيت في معهد الدّراسات اللاهوتية

- السّكاكيني- ط3، مزيد عليها، بيروت، دار المشرق، ش.م.م. 1999م، ص 48.

2 - القس حنا جرجس الحضري : تاريخ الفكر المسيحي، ص 619، 620.

وحاول بطريك الإسكندرية ألكسندر مقاومة ما يطرحه آريوس¹. فنحن نرى أن آريوس بما أنه كان واحد من العلماء حاول استخدام عقله أجلى استخدام، وبتفكره ملياً في خلق السموات والأرض؛ في الأخير هداه عقله إلى ما يمليه ديننا الحق.

لكن جون لوريمر يأتي بدافع مموه لآراء آريوس اللاهوتية فيقول: « من الواضح أن الدافع لآريوس هو الحفاظ على كمال الله الآب، وسر مديته وألوهيته [أي أزليته] وفي الوقت نفسه نسب آريوس دوراً هاماً للمسيح الابن بفرزه عن الآخرين، على أن آريوس لم يستطع أن يقبل وجود تغيير أو انقسام في الآب الذي كان الجوهر النهائي»².

حسب قول لوريمر نجد أنه معترف بأن الآب كان في الوقت السابق جوهر نهائي لكنه الآن قسم إلى ثلاثة: آب ابن، روح قدس، أما قوله بأن آريوس نسب المسيح دوراً هاماً وفرزه عن الآخرين، ما هو عندنا -المسلمين- التوبة؛ وهي أن عيسى نبي ورسول وهو أعلى مرتبة عند الله من سائر البشر، ذلك بأنه تعالى اصطفاهم وأعطى لهم العصمة من الخطأ.

وكذلك فإن ابن البطريق أيضاً يعترف بأن ما قاله آريوس كان معروفاً من قبل فيقول في بيان مقالة آريوس: « كان يقول أن الآب وحده الله والابن مصنوع، وقد كان الآب إن لم يكن الابن».

ولم يكن بدعا في القول بهذه الفكرة بين المسيحيين، بل إنها كانت معروفة مشهورة من قبله، كما يقول المسيحيون أنفسهم³. كان ألكسندروس هو أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت، ويقال أنه كان شيخاً ضعيفاً ومريضاً، ولو لم يكن بجانبه الشاب اثناسيوس، لمّرت الأمور دون أن يُعربها أحد اهتماماً كبيراً. لكن ألكسندروس لم يقبل فكر آريوس اللاهوتي⁴، وناصبه العدا، ومنعه من دخول كنيسة الإسكندرية⁵، وقام بفصله هو وعشرة من أنصاره من شركة الكنيسة سنة 318م، وكما هو متوقع - كما يقول جان كمبي - لم يقبل آريوس هذه الإدانة فطاف بأنصاره، وهم عديدون في الشرق، إذ اعتبر كثيرون أن مواقفه تقليدية.

1 - ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم النصر عبد الرحمان محميرة، ط 1، شركة عكاظ، 1982م، ص 52.

2 - أندروملر: مختصر تاريخ الكنيسة، ص 121.

3 - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 113.

4 - القس حنا جرجس الخضري: تاريخ الفكر المسيحي، مجلد 1، ص 620.

5 - محمد أبو زهرة: المصدر السابق، ص 113.

اندلعت المشاغبات في الإسكندرية وتبادل أهلها المجادلات اللاهوتية في المسارح والميادين، وقام آريوس بكتابة المؤلفات، بل الأناشيد والترانيم أيضا لنشر آرائه¹.

في وسط كل هذه النزاعات استقر قسطنطين بعد انتصاره على ليقينيوس -والذي صار سيّد الشرق كلّه- في نيقوميديا (القسطنطينية تأسست عام 324 ولن تفتتح قبل عام 330م)، وبعد أن حقق وحدة الإمبراطورية، أمسك بيده موضوع آريوس وخصمه ألكسندروس. لكن تبين أن قسطنطين ليس على بينه بأهمية الموضوع، ولا يرى فيه سوى² مشاحنات كلامية، ويكفي أن يبذل كل طرف جهده لتتمّ المصالحة.

فلما استمرّ الهياج³، وأهام الخطر الذي تعرّضت له الكنيسة والإمبراطورية، سبب هذه البدعة - كما جاء في كتاب الإيمان الكاثوليكي - بالإضافة إلى المناقشات التي كانت تلقى بالبلبة فيهما⁴، دعا قسطنطين إلى عقد أول مجمع عام (مسكوني) عُرف بمجمع نيقية⁵.

لكن الآراء تضاربت حول من هو الذي دعا لعقد هذا المجمع، فيقول حنا جرجس :
« فهارنك يعتقد بأن الذي أخذ مبادرة اجتماع مجمع مسكوتي هو الأسقف هو سيوس نفسه إلا أن البعض الآخر يظنّ بأن الذي فكّر في عقد مجمع مسكوتي، هو أسقف الإسكندرية ألكسندروس أمّا المؤرخ الكنسي أوسايبوس فهو يعتقد بأن الذي دعا لاجتماع مجمع نيقية هو الإمبراطور قسطنطين نفسه. على أي حال لقد أمر الإمبراطور بعقد هذا المجمع بعد أن ولدت فكرته⁶ ».

كما أن الآراء اختلفت على تحديد من هو الذي أخذ بالمبادرة لعقد مجمع نيقية، فلقد اختلفت أيضا في تعيين رئيس هذا المجمع العظيم الذي وإن لم يكن أوّل مجمع في تاريخ الكنيسة، إلا أنّه أول مجمع مسكوني. فلقد ظنّ البعض الآخر بأن الذي رأس المجمع هو الأسقف هو سيوس صديق الإمبراطور ومستشاره، وخصوصا أن اسمه كان أول الموقعين، ورأى البعض الآخر في

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 119.

2 - بيير ميللو وآخرون : المجمع المسكونية، ص 13.

3 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 119.

4 - الجرفيه دوميج اليسوعي : إيمان الكاثوليكي، نصوص تعليمية صادرة عن السّلطة الكنيسة، نقل أهمها إلى العربية :

صباحي حموي اليسوعي، ط1، بيروت، لبنان، دار المشرق، ش.م.م. 1999م، ص 18، 19.

5 - تقع نيقية في آسيا الصغرى، وهي اليوم أزيق التركية.

6 - حنا جرجس الخضري : تاريخ الفكر المسيحي، مجلد 1، ص 625.

أسايوس المؤرخ الكنسي رئيساً لهذا الجمع. ويتساءل هارنك قائلها : من هو الذي رأس هذا الجمع ؟ أهو فستاثيرس أو أسايوس القيصري أو هو سيوس. لا نعلم بالضبط إلا أنه من الواضح الجلي أن هو سيوس كان يحتل مركزاً هاماً جداً، وقام بدور حاسم في مجمع نيقية¹.

ب - عدد المجتمعين :

في شهر يونيو سنة 325 بدأ الجمع في مدينة نيقية (نيس) في بيشينية، وكان مؤلفاً من نحو ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، ومن جمع غفير من الكهنة والشمامسة، وكما قال يوسيبوس : « إن زهرة خدام الله من جميع الكنائس المنتشرة في أوروبا وإفريقيا وآسيا كانت مجتمعة في ذلك الجمع »².

يُذكر في "كتاب أضواء على المسيحية"، يروي ابن البطريق : أن عدد الحاضرين في مجمع نيقية (318) أسقفاً فيقول : « وضع الملك للثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطه، وأخذ خاتمه وسيفه وقصيبه فدفعه إليهم، وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوه مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين ». فمن هذه الرواية يتضح أن عدد الحاضرين (318) أسقفاً من التابعين لرأي قسطنطين³.

ج - القرارات :

جاء في كتاب "مناظرة بين الإسلام والنصرانية"، أنه كان المجتمعون عامّة قبل المجلس الخاصّ الذي عقده قسطنطين (2048) أسقفاً من جميع أنحاء العالم وذلك لتحديد من هو المسيح، وقول في كتاب "تاريخ الكنيسة" للمؤلفه هيستنج : إن المجتمعين تناظروا معاً وكان بينهم آريوس واحد من العلماء، وقد قال : إن المسيح -العليّ- رسول الله ونبي الله هو إنسان وعبد من عباد الله، وقد تبع آريوس (1731) من الأساقفة المجتمعين، ولكن اثناسيوس الذي كان أصلاً شماساً بكنيسة الإسكندرية انتهز هذه الفرصة، فأراد أن يتقرّب إلى قسطنطين الوثني، وأعلن أن المسيح هو الإله المتجسد، لقد اتبع اثناسيوس (318) عضواً فقط من أعضاء الجمع، وبعد أن استعرض قسطنطين الآراء، وكان لا يزال على وثنيته فإنه مال إلى رأي اثناسيوس، لما فيه من عقيدة وثنية تؤمن

1 - حنا جرجس الحضري : المصدر نفسه، ص 626.

2 - André Beaugé : Les évangiles oubliés sur les dualismes de Platon l'harmattan, Paris, 1997, p. 28, 29.

3 - رؤوف شليبي : أضواء على المسيحية، ص 98.

بتجسيد الآلهة ونزولها من السماء، فأقرّ مقالة اثناسيوس، وطرده الأساقفة الموحدين وعلى رأسهم آريوس، وبهذه الأقلية صدرت القرارات التالية :

1. قضى قسطنطين بحبس الكتاب المقدس فلا يسمح بتداوله بين الناس.
2. أن يقتصر تعليم الدين على ما يقوم القساوسة بتلقينه للناس ومن عجب أن استمرت هذه البدعة الخطيرة سائدة في النصرية ولم يخرج الكتاب المقدس من حبسه إلى في عام 1516م، على أيام لوثر¹.
3. بعد النقاش الطويل استقرّ الرأي على قبول مقالة اثناسيوس التي تقول بقانون الإيمان "ويسمى عادة بقانون نيقية²، وهو كالأتي : « نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل خالق كل الأشياء، ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله المولود من الأب، المولود الوحيد، أي من جوهر الأب، إله من إله، نور من نور، إلى حق من إله حق، مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء في السماء وعلى الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل وتجسد وتأنس وتألم، وقام أيضا في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وسيأتي من هنا ليدين الأحياء والأموات. وبالروح القدس، وأمّا الذين يقولون إنه كان زمان لم يوجد فيه، وإنه لم يكن له وجود قبل أو ولد وإنه خلق من العدم، أو إنه من مادة أخرى أو جوهر آخر، أو إن ابن الله مخلوق أو إنه قابل للتغيير أو متغير فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية³ .
4. طرد كل من يخرج عن هذه العقيدة⁴ حرق كتب آريوس ونفيه⁵.
5. الكنيسة الرسولية تحرم القول بأن الزمن قد خلا من ابن الله بتلثا، وهو ما ذكره صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية، قال : « إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من لا شيء، أو من يقول أن

1 - مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية، مناظرة بين الإسلام والنصرانية، ط 1، الإمارات، مكتبة الصحابة، 2007م، ص 193.

2 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 159.

3 - حنا جرجس الخضري : تاريخ الفكر المسيحي، المجلد 1، ص 631.

4 - رؤوف شليبي : أضواء على المسيحية، ص 99.

5 - حنا جرجس الخضري : المصدر السابق، ص 631.

لابن وجد من مادة أو جوهر غير الآب، وكل من يؤمن أنه خلق، أو من يقول أنه قابل للتغيير، ويعتريه ظلّ دوران¹.

د - الملاحظات :

1. اتخذ المجمع قراره بأقلية مغلوبة على أمرها.
2. كان للملك قسطنطين اليد الأولى في ترجيح مذهب بولس الرسول الذي انتهى إليه المجمع.
3. كيف يُؤخذ برأي قسطنطين في ترجيح مسألة في العقيدة مع ملاحظة أنه ليس قسيساً، ولا قدسياً، ولا مسيحياً، فما زال حتى انعقاد المجمع محايداً يعطف فقط على المسيحيين؟²
يقول المؤرخ أوسابيوس -الذي تقدّس كلامه الكنيسة، وتسميته سلطان المؤرخين- : « إن قسطنطين عمّد حين كان أسير الفراش، وأنّ الذي عمّده هو ذلك المؤرخ نفسه، وقد كان له صديقاً ».
- والتعميد إعلان دخول المسيحية، إذن فقسطنطين - كما يقول من حقّه أن يحكم بفلج هؤلاء، ويسوع لنا أن نقول أنه كان له في هذا أرب خاص، وهو تقريبتها من وثنيته أو على الأقل عندما كان له في هذا فريق كان يرجح ما هو أقرب إلى وثنيته أو على الأقل عندما رجح رأي عقيدة، فلم تكن الحجّة القويّة في جانب ترجيحه على هذا الاعتبار، أم ذاك متّهما في ترجيحه بناء على الاعتبار الأول، وساء أكان هذا أم ذاك، فهو قد رجّح ما هو أقرب إلى الوثنية لوثنيته³.
4. ما هي سلطة المجمع الدينيّة في الأناجيل لتُحل أو تحرّم من غير الرجوع إلى النصوص في الأناجيل؟
5. يمكن تفسير موقف أحد الأساقفة الذين اتبعوا الملك في القول بالوهية عيسى ثمّ عندما سمحت له الفرصة عارضها وندّد بها، وراح يدعو إلى مذهب آريوس؟ ذلكم هو الأسقف : أوسابيوس ؛ الذي تقرب إلى قسطنطين حتى عينه بطريركاً للقسطنطينيّة، فانقلب وراح يدعو ويروجّ مذهب آريوس، وأظهر ذلك في "مجمع صور". فهذا الحدث يعطينا دليلاً على أن المجمع الأول في "نيقية" قد قرّر قرارات يرضى عنها جانب من الحاضرين⁴.

1 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصرانية، ص 116.

2 - رؤوف شلي : أضواء على المسيحية، ص 99.

3 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصرانية، ص 118.

4 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 161.

أما عن مجمع صور، يذكر ابن البطريق أن أوسابيوس أسقف نيقو ميديّة كان موحدًا من مناصري آريوس في المجمع العام قبل أن تبعده عنه كثرتة، ولعن من أجل هذا، وأراد أن يتقرّب من قسطنطين، فأظهر أنّه وافق على قرار الثمانية عشر والثلاثمائة فأزال عنه اللعنة قسطنطين وجعله بطريك القسطنطينية، فما أن ولي هذه الولاية حتّى صار يعمل للوحدانية في الخفاء، فلما اجتمع المجمع الإقليمي في صور حضره هو وبطريك الإسكندرية الذي كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو إليها، وينفرد من بين البطارقة في المبالغة في الدّعوة إليها والحث عليها، ولعن كل من يقاومها¹.

ثم يضيف جون أندروملر : وانتهاز أوسابيوس فرصة ذلك الاجتماع، وأثار مقاله آريوس، ورأيه في المسيح وإنكار الأوهيته، وكان في ذلك المجمع كثيرون من الموحدّين المستمسكين به، إذ لم يتناطوا بإبعادهم، كما فعلوا في المجمع العام بنيقية، واشتدّ النقاش بين رئيس كنيسة الإسكندرية وبين المجتمعين، ولم يكتفوا بالنقاش القولي، بل امتدت الأيدي إلى بطريك الإسكندرية وعمدت إلى رأسه لإخراج الوثنية منها، فضربوه حتّى أدموه، وكادوا أن يقتلوه، ولم يخلصه من أيديهم إلاّ ابن أخت الملك الذي كان حاضرًا ذلك الاجتماع، ولكن لما بلغ ذلك قسطنطين كرمه².

كما يصرّح كتاب "المجامع المسكونية" أن المجمع لم يكن نيته أن يقدم قانونا كاملا لحياة الكنيسة، ولكن مجرد أن يردّ على بعض المسائل التي كانت مطروحة في ذلك الوقت. فمثلا، بالنسبة لبنية الكنيسة أكد المجمع على أهمية الأسقف المعترف به، ويجب سيامة الأسقف على يد ثلاثة أساقفة على الأقل. لكن توجد إشارة لسلطة روما على الكنيسة كلّها.

أيضا فالكنيسة لم يعد لزاما عليها مواجهة حكومة وثنية معارضة لها، ولكن عليها أن تهدي العالم الذي ما زال وثنيا وتدعوه للأخلاق المسيحية³. من خلال ما سبق يمكننا القول : أن المجمع يعتبر حادثا تاريخيا هامًا جدًا في تاريخ العقيدة المسيحية. لأنّه قرّر أن الابن مساو وللاب في الجوهر، ويعتبر أيضا هامًا جدًا بالنسبة لكنيسة الشرق بنوع عام وبالنسبة لكنيسة مصر وبنوع خاص، إذ فيه استطاع أسقف الإسكندرية ألكسندر وشماسه التقى المتحمّس مع كل الوفد

1 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصرانية، ص 119.

2 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 162.

3 - بيير كاميللو وآخرون : المجامع المسكونية، ص 17.

المصري إعلان الحق الإلهي، إذ يشير أحد المؤرخين إلى هذه الحقيقة بقوله: « لقد كان مجمع نيقية الخطوة الأولى التي أخذها أسقف الإسكندرية، والذي به أظهر أولوية الشرق على الغرب ».

كذلك لما حرم هذا المجمع المسكوني آريوس وأتباعه، وتنفس الإمبراطور قسطنطين الصعداء، وظن أن الخطر، الذي كان يهدد الإمبراطور من الناحية الدينية قد أنزاح. كما أن الكنيسة وخصوصا كنيسة مصر، شعرت بأن هذا العقاب الذي أنزل بآريوس ومشايخه عقاب إلهي، وأنها انتصرت لكن كثير من الأساقفة والآباء الذين اشتركوا في أعمال هذا المجمع بعد عودتهم بدأوا من جديد ينادون بالتعاليم التي كانوا يعملون بها من قبل هذا المجمع، ولقد سبب هذا الأمر اضطرابات كثيرة ومعارك جديدة واجتماعات محلية ومسكونية. فلم يستطع إذن مجمع نيقية أن يحل المشكلة حلاً نهائياً - كما ذكر حنا جرجس الحضري -.

كذلك نجد من خلال ما ذكره المؤرخين المسيحيين أنه بالرغم من أن مجمع نيقية كان للشرقيين أغلبية ساحقة، فإن المجمع مثل الاسقفية الشاملة المجتمعة، وأراد أن يتحدث باسم الكنيسة كلها، "الكنيسة الكاثوليكية والرّسولية"، وأن يصدر للكنيسة كلّها حكماً نهائياً كما أراد قسطنطين أن يحقق الوحدة في الكنيسة كما في الإمبراطورية المتحدة تحت سلطته.

فترى أن مجمع نيقية كان سببا في ظهور فكرة الكنيسة بشكل رسمي على يد قسطنطين ومن ثم وحدة الكنيسة الجامعة الرّسولية والكاثوليكية.

إضافة إلى ذلك نلاحظ أن المجمع ستتابع بعده لتبحث في طبيعة المسيح وغير ذلك، فقرارات كل مجمع ينعقد تكون إحدى الأسباب الرئيسية التي تؤدي لانعقاد مجمع آخر بعد، وهذا الأجل تقرير عقيدة مسيحية كاتبة تتفق عليها كل الأطراف المعنية. فمجمع نيقية أيضا كان سببا في انعقاد مجمع آخر يسمى خلقيدونية الذي نشأ عنه الانشقاق الكبير بين الشرق والغرب، ومن ثم نشأة البابوية - والذي هو موضوع بحثنا -.

- الفرع الثاني : المجمع القسطنطيني الأول سنة 381م.

أ - سبب انعقاده :

لم يعرض مجمع نيقية الذي عقد عام 325م، للعنصر الثالث من عناصر الألوهية في العقيدة المسيحية الحاضرة وهو (الروح القدس). ولم يبين حقيقة طبيعة، أهو إله أم مخلوق، ومن ثم نشأ خلاف بين المسيحيين حول هذا الموضوع، فظهرت فرق تقول بأن روح القدس ليس بإله.

وإنما هو محدث مخلوق، وكان من أشهر هذه الفرق أتباع (مقدونيوس) الذي كان بطريك القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، فاجتمع من أجل ذلك في القسطنطينية سنة 381م، مجمع آخر اُشتهر باسم المجمع القسطنطيني الأول¹، وحسب ما يذكره "حنا جرجس" أن الإمبراطور "تيودوسيوس" هو الذي دعا لعقد هذا المجمع المسكوني².

رُوِّجت مقالة مقدونيوس وشاعت، فلقبت في المجتمع نوعين من الناس :

1. الموحدّين أصحاب آريوس، وأوسابيوس، فتقبلوها بقبول حسن، ونشروها ورؤجوها.
2. الوثنيين المؤهلين فخالفوها وحاربوها، وعلى رأس هذا الفريق بما له من سلطة دينية عند الملك وأوعزوا إليه بعقد مجمع يقرّر فيه أنّ الرّوح القدس إله³.

ب - عدد المجتمعيين :

اتفق جميع الواصفين والمتحدّثين عن عدد الأساقفة الحاضرين في مجمع القسطنطينية أمثال : حنا جرجس الخضري، جان كمبي، وفرانكو، فيقول فرانكو : « يعتبر هذا المجمع من أهمّ المجمع التي عقدت في القرون الأولى بالقسطنطينية، فقد انعقد في 30 تموز 381م في عهد البابا مازيوس⁴، والإمبراطور تيودوسيوس الأكبر وحضره ما يقارب مائة وخمسون أسقفاً⁵.

ويقول حنا جرجس الخضري : « اجتمع في القسطنطينية خمسون ومئة (150) أسقفاً وتولى رئاسة جزء من هذا المجمع الأسقف غريغوريوس التريتي أسقف القسطنطينية⁶ ».

ثم يعلّق محمد أبو زهرة حول عدد المجتمعيين بقوله " « ويظهر أنّ ذلك لم يكن ممثلاً لكلّ الكنائس، ولكلّ الأقاليم، ولذلك كان اعتباره مجمعا عاما من الأمور التي ثارت حولها الأقوال.

1 - سعدون محمود الساموك : موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج2، ص 278.

2 - حنا جرجس الخضري : تاريخ الفكر المسيحي، م1، ص 664.

3 - رؤوف شليبي : أضواء على المسيحية، ص 100.

4 - تولى الحكم ما بين 366-384م، بابا روماني واجه أشد الصعوبات في روما، عقد عدة مجامع، وكان أول من أعاد النظر في ترجمة الكتاب المقدّس، (صبيحي حموي : معجم الإيمان، ص 209).

5 - Franco Bolgiani m Dieu Revel dans l'esprit, les quatre fleuves, cahier 9, p 32 - 33.

6 - حنا جرجس الخضري : تاريخ الفكر المسيحي، م1، ص 664.

فيقول في ذلك صاحب كتاب سنوسة سليمان : « قال الرهبان البندكتيون أن المجمع الذي لم يكن أربابه إلا مئة وخمسين أسقفًا لا ينظم في سلك المجامع المسكونية إلا بعد أن تقرره جميع الكنائس »¹.

ج - القرارات :

1. إثبات أن الروح القدس هي روح الله، وهي حياته، فهي من اللاهوت الإلهي².
 2. لعنة مقدنيوس وأشياعه، وكل من يخالف هذا القرار من البطارقة وغيرهم...³.
 3. أن الأساقفة ليس من حقهم التدخل في شؤون الكنائس الغربية عنهم.
 4. يستعيد قانون نيقية السادس الذي اعترف بنوع من الصدارة لأساقفة الإسكندرية وأنطاكية وكذلك أورشليم، ولكنه أعطى لأسقف القسطنطينية أولوية الكرامة بعد أسقف روما. ونجد هنا جذور المنافسة بين روما والقسطنطينية بسبب : « لأن هذه المدينة (روما) هي روما الجديدة، فقد أصبحت مدينة بيزنطيوم الصغيرة مدينة القسطنطينية المدينة الإمبراطورية على قدم المساواة مع روما القديمة قصادرة كرسي أسقفي لا يتم نتيجة لأصله الرسولي، ولكن بسبب أهمية المدينة السياسية - حسب ما جاء في كتاب المجامع المسكونية-⁴.
- وسيكون القانون رقم 28 الخلقيدوني علامة أخرى لتلك المنافسة، وسيؤدي ذلك في النهاية، بعد مشاجرات متتالية، إلى اشتقاق عام 1054م. وبالتالي نشأة الأولوية الرومانية - البابوية-.

د - الملاحظات :

1. لقد اكتفى مجمع نيقية بدراسة فكرة ألوهية المسيح، لذا يمكن القول أن التثليث لم يكتمل تماما في هذا المجمع لأنه أله الآب والابن ولم يعترض للروح القدس أهو إله أم روح مخلوق ؟⁵. بهذا المجمع

1 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصراية، ص 122.

2 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 122.

3 - حنا جرجس الخضري : تاريخ الفكر المسيحي، م1، 665.

4 - بيير كاميللو وآخرون : المجامع المسكونية، ص 67.

5 - صابر طعيمة : الأسفار المقدسة قبل الإسلام، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1985م، ص 225.

القسطنطيني في عام 381م، أي في أواخر القرن الرابع الميلادي اكتملت فكرة التثليث كعقيدة للمسيحية، بعد جدال عنيف بين الطوائف.

2. هذه الفكرة التي اتخذها المجمع، لم تقرّر بأغلبية عامة مطلقة كما هو الشأن في المجمع والمؤتمرات العامة، ولكنها اتخذت بالأغلبية المغلوبة على أمرها. بل بالمخالفة للقرارات التي انتهى عليها¹.

3. في قرارات هذا المجمع خروج على ما قرّره مجمع نيقية بالزيادة وحول هذا جاء في كتاب الإيمان الكاثولوكي: «لم تتضح تماما حتى اليوم مسألة أصل قانون الإيمان الذي أقرّ في القسطنطينية. ولا يمكن القول بأن الآباء اكتفوا بإلحاق بعض الإضافات بقانون إيمان نيقية. لم يحرّروا هم أنفسهم نصًا جديدًا، بل الراجح أنهم استعملوا صيغة معروفة، أي قانون إيمان كنيسة شرقية، رأوا أن تلك الصيغة جديدة بأن تؤكد مرّة أخرى إيمان كنيسة شرقية، رأوا أن تلك الصيغة جديدة بأن تؤكد مرّة أخرى إيمان المجمع النيقاوي، وفي 451م "صرّح المجمع الخلقيدوني بأنها" إيمان الآباء المائة والخمسين الذين اجتمعوا في القسطنطينية»².

ويقول مؤرخ المسيحية ابن البطريق: «زادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا في نيقية، الإيمان بروح القدس، الربّ المحي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن يُسجد له يُمجّد معاً، الذي تكلم بالأنبياء، وبكنيسة واحدة، مقدّسة، جامعة، وبرسولية.

وثبتوا أن الآب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وتوحيد في تثليث، وتثليث في توحيد، إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة»³. فحركة الانبثاق شرط للولادة -على حد قول لأب هنري اليسوعي-⁴.

فنحن هنا نتساءل: من أين لهم هذا؟ مع رغبتنا منهم بالجواب الشافي يصرّح حنا جرجس بأنه بعد إنشاء مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني أعماله تنفّس الإمبراطور تيودوسيوس وقادة الكنيسة الصّعداء، وشعروا كما شعر الإمبراطور قسطنطين وقادة الكنيسة بعد قبول الإيمان النيقاوي في سنة 325م بسرور وارتياح عظيم، لأنهم ظنّوا بأن مجمع نيقية استطاع أن يستأصل

1 - رؤوف شلي: أضواء على المسيحية، ص 101.

2 - جرفية دوميغ اليسوعي: الإيمان الكاثولوكي: ص 20.

3 - ابن البطريق: تاريخ ابن البطريق، نقلا عن كتاب رؤوف شلي: أضواء على المسيحية، ص 101.

4 - الآب هنري بولاد اليسوعي: منطق الثالث (موسوعة المعرفة المسيحية)، ط2، بيروت، دار المشرق، 1993م، ص 38.

المعاصرة من جذورها وأن يعيد الوحدة إلى الإمبراطورية وإلى الكنيسة المهددتين للانقسام والاضطراب¹.

إن نلاحظ أن الإمبراطورية والكنيسة لم يستطيعا الوصول إلى هذه الوحدة المنشودة بعد المجمع المسكوني الأول، وكذلك لم يستطيعا تحقيق هذه الوحدة المنشودة بعد مجمع القسطنطينية أيضا والتي هي أساس قيام الكنيسة الكاثوليكية التي ترأسها فيما بعد بابا روما.

- الفرع الثالث : مجمع أفسس الأول سنة 431م.

وهكذا كان مطلع القرن الخامس يحمل تيارات جديدة سرعان ما ظهرت بين أساتذة المدرسة الأنطاكية بزعمارة تيودوسوس المصيبي وأصبح نسطوريوس² البطريرك القسطنطيني رائدها الأكبر³.

أ - سبب انعقاده :

يطرح لنا هنا فاضل سيداروس يسوع، وكان السؤال : إلى أي مدى هذا الإنسان هو الله ؟، فأقرّ المجمع بأن هذا الإنسان هو الله، وهكذا فإن لاهوت مجمع نيقية "لاهوت تصاعدي" إذ إنه ينطلق من الإنسانية ليصل إلى الألوهية.

أمّا لاهوت مجمع أفسس فهو، على خلاف نيقية "لاهوت تنازلي" إذ أنه ينطلق من ألوهية يسوع المسيح التي أقرّها نيقية، ويتساءل : ما معنى أن يصبح ابن الله إنسانا ؟ كيف تمّ هذا الاتّحاد بين الألوهية والإنسانية ؟ فألوهية المسيح لا شك فيها (نيقية)، وإنسانيته كذلك (ما سبق في نيقية)، ولكن السؤال هو "كيفية" الاتّحاد بين الحقيقتين وبين الطبيعتين⁴.

ثم يوضّح برنار سيسبويه محتوى حركة أفسس فيقول : « وأما حركة أفسس فهي حركة إنجيل يوحنا في قوله : "الكلمة صار بشرا"، صار شخصا جسدا، أي إنسانا، بالمعنى الذي جعل من ناسوت ناسوته، متّخذا إياه من الولادة بحسب الجسد، فكلمة الله هو هذا الإنسان يسوع،

1 - حنا جرجس الحضري : تاريخ الفكر المسيحي، م1، ص 666.

2 - ولد في مرعش بسوريا في نهاية القرن 04م، ومات في صعيد مصر سنة 450م، صار بطريركا على القسطنطينية سنة 420م.

3 - ماكس توريان : مريم أمّ الرّب ورمز الكنيسة، ط []، بيروت، دار المشرق، 1987م، ص 85.

4 - فاضل سيداروس : يسوع المسيح في تقليد الكنيسة، ص 60.

ويسوع هو هذا الله الكلمة، ولكي تغدو هذه الوحدة في الكائن حقيقية يجب أن تبدأ قال كل بدء¹.

ويذكر كتاب المجامع المسكونية مذهب الفريقين الذين بسببهما انعقد مجمع أفسس ما يلي :
 « مذهب نسطوريوس : رفض بشدة التسمية " Theotopos " "أم الله"، والتي أحببت التقوى المسيحية -ومنذ فترة طويلة بالفعل (أوريجانوس)- أن تمنحها للعدراء مريم، أم يسوع، وقرّر نسطوريوس أيضا أن هناك أقتوما وطبيعة فأقوم الألوهية من الآب، ونسبة الألوهية تكون إلى الآب، وطبيعة الإنسان وهو مولود من مريم، وإذن فمريم أم الإنسان، وليست بأم الله، والمسيح الذي ظهر بين الناس متّحد بالمحبة مع الابن، والعلاقة بين الله وبين ابنه المحبة، والمسيح الظاهر ليس إلهًا، ولكنّ مبارك بما وهبه الله من الآيات والتّقدّيس².

ويتضح لنا من هذا أن نسطور لا يقول بألوهية المسيح، ولا يقول أنّه هو ابن الله وذلك من خلال استنتاجه من قولهم أن المسيح متّحد مع الابن بالمحبة، ويقال إنّ الله وابن الله ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة.

ثم ينقل لنا جون لوريمر رأي المذهب الآخر الذي تزعمه كيرلس أسقف الإسكندرية. فقد إنهم نسطور بأن اعتقاده في التّجسد غير صحيح، وبني كيرلس وأتباعه ذلك على معارضته لتعبير "والده الإله". فيقول جون لوريمر : « ولقد كان المعنى الذي قصده معلمي اللاهوت من هذا التعبير في القرن السّابق ليس أن العدراء ولدت الطبيعة الإلهية للمخلص، بل أن اللاهوت والنّاسوت كانا متّحدين في شخص واحد، وقصدوا أن يثبتوا أن الطفل المولود كان هو الله المتّجسد وقد نسبوا إلى نسطور أنّه يعتقد بأن الفادي هو مجرد إنسان، وأنّ الرّوح القدس سكن فيه كما سكن في الأنبياء قديما، ولكن نسطور ظل طوال حياته يقاوم هذه الأفكار، ويعلم براءته منها، والحقيقة أنّه يظهر أن نسطور لم يكن يعتقد بهذه الأفكار، وإنّما خصومه قد رموه بذلك بالنّظر لرفضه التعبير والده الإله»، ولبعض عبارات أخرى استعملها في خطابته الجمهورية في هذا الموضوع³.

1 - برنار سيسبويه : الإنجيل الحي في الكنيسة، ص 51.

2 - بيير كاميلو وآخرون : المجامع المسكونية، ص 29.

3 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 187.

وكان من أتباع كيرلس أيضا أسقف رومية، ودارت بينهما مكاتبات بشأن عقد مجمع للَنظر في بدعة نسطور، فاتفقوا على عقد مجمع في أفسس لبحث هذا الموضوع.

ب - عدد المجتمعين :

يخبرنا رؤوف شليي بأن المراسلات جرت بين : أسقف رومية، وبطريك الإسكندرية، وأساقفة أنطاكية.

غير أن نسطور امتنع عن الحضور لما علمه من النيّة حول لعنه وطرده، واتّخاذ قرار ضدّ مذهبه، وكذلك تبعه أساقفة أنطاكية، فبقي من المتراسلين لعقد الاجتماع بطريك الإسكندرية، وأساقفة رومية، ثبت المقدس، وفي أفسس عام 431م، انعقد المجمع بقوة (200) مئتي أسقف لا غير¹. فقد أعطتنا جميع المصادر نفس النتيجة هذه حول عدد الحاضرين في المجمع.

ج - القرارات :

1. مريم العذراء أم الله - كما يقول في ذلك كتابهم الذي وقّعوه- أن مريم القديسة العذراء ولدت إلهنا يسوع المسيح الذي مع أبيه في الطبيعة ومع الناس في الناسوت والطبيعة².
2. أقرّوا بطبيعتين للمسيح : واحدة لاهوتية، والأخرى ناسوتية بشرية³.
3. لعن نسطور نفيه إلى مصر⁴.

د - الملاحظات :

1. ما نلاحظ من المجمع : أن المجمع ذاته لم يكن شاملا لكل أطراف النزاع لغياب أساقفة أنطاكية ونسطور نفسه.
2. أن المجمع زاد في تفسير مفهوم الآب الذي وضعته الجامع السابقة، حيث قال : إن الابن، وهو الله، له طبعان : وحدة لاهوتية إلهية، والأخرى ناسوتية بشرية.
3. إنّ المناقشات في موضع العقيدة لم ينل حظها من التأييد بالنصوص من الأناجيل.

1 - رؤوف شليي : اضواء المسيحية، ص 103.

2 - فاضل سيداروس : يسوع المسيح في تقليد الكنيسة، ص 64.

3 - برنار سيسبويه : الإنجيل الحي في الكنيسة، ص 52، 53.

4 - بيير كاميللو وآخرون : الجامع المسكونية، ص 32.

4. نجد أن جون لوريمر كشف لنا غرض كل من الأسقفين نسطور وكيرلس من وراء هذه المنازعات فيقول: « ولكن أجمع كل المؤرخين على اتهامه بعدم نزاهة الغرض، فرموه بأنه كان مدفوعا بعامل الغيرة بالنظر لازدياد سلطة أسقف القسطنطينية وقوته، وأنه كان متصلقا متكبرا متقلقا في طرقة، كما كان أيضا شديد النعمة على المهرطقة كما على نسطور، وهو طرد اليهود من الإسكندرية، وقد يكون الدافع لهذين الأسقفين العظيمين إلى هذا الصدراع هو الغيرة التقوية، ولكنها لم تكن ممتزجة بروح الاعتدال والتبصر اللائق بالمسيحية بل العكس امتزجت بميول الطبيعة البشرية الشريرة»¹.

ومن هنا يتضح لنا أن هذه الأسباب مثل الغيرة كانت الجذور في منبع وظهور البابوية وإحساس كل طرق بالأسبقية والأولوية على الآخر وأن صفات عدم النزاهة كانت موجودة في أول عهد المسيحية أيضا.

5. يطرح فاضل سيداروس فكرة هذا المجمع العامة فيقول: « كان مجمع نيقية قد صرح بالوهية المسيح، ومجمع القسطنطينية الأول بالوهية الروح القدس، وأما مجمع أفسس فكان -أكثر ما كان- لاهوتيا وتفسيريًا لما سبق من المجمع، اعتمادًا على الكتب»².

جاء في كتاب المجمع المسكونية: « في بداية عام 433م، اقترح يوحنا الأنطاكي على كيرلس إعلانا يعبر عن إيمان الشرقيين المشترك؛ إنها الرسالة التي كانوا قد أرسلوها عام 431م، اعترفوا فيها باتحاد الطبيعتين بلا امتزاج فقبل كيرلس مع ابتعاد يوحنا الأنطاكي عن إيمان نسطور»³. ويعتبر هذا الاتفاق بين الكنيستين صورة مشرقة للجدل اللاهوتي إذ حافظ على وحدة الإيمان وقبل تعددية التعبيرات اللاهوتية وسيصبح هذا الاتفاق نواة مجمع خلقيدونية كما سنراه -على حد قول فاضل سيداروس-⁴.

1 - أدرو ملر: مختصر تاريخ الكنيسة، ص 187.

2 - فاضل سيداروس: يسوع المسيح في تقليد الكنيسة، ص 73.

3 - بيير كاميللو وآخرون: المجمع المسكونية، ص 34.

4 - فاضل سيداروس: يسوع المسيح في تقليد الكنيسة، ص 74.

- الفرع الرابع : مجمع خلقيدونية سنة 541.

يعتبر المؤرخون مجمع خلقيدونية من أهم المجمع "المسيحانية" فإنه لخص وجمع المجمع السابقة وأضفى صيغة متجانسة على الإيمان "المسيحي"، واستندت إليه المجمع اللاحقة مقشّرة وموضّحة إياه من هنا تبرز أهمية هذا المجمع.

وُسب إليه أوّل انشقاق كنسي، إذ إنّ ثلاث كنائس لم تعترف به، وهي كنائس الإسكندرية وأنطاكية وأرمينية¹.

أ - سبب انعقاده :

يذكر كتاب "المجمع المسكونية" : « أنّه بعد مصالحة 433م، لم يكن كل شيء قد انتهى بعد. بعيدا عن ذلك إلقد تمكّن كيرلس ويوحنا، بكل أمانة، من الاتفاق على صيغة للإيمان، ولكن هذا الاتفاق ترك عدّة مسائل قائمة، مسائل لغوية إن لم تكن مسائل عقائدية ؛ فالطبعان اللتان أكدهما الشرقيون ألقنا الكرّسيين² .»

رأينا فيما سبق أن مجمع أفسس شدّد على وحدة شخص يسوع المسيح إلى حدّ بعيد، ولكنّه لم يميّز بالدقّة نفسها بين الطبعتين الإلهية والإنسانية، فيقول فاضل سيداروس : "وبالتالي، سيهتم مجمع خلقيدونية بالتشديد على التّمييز مستندا إلى الوحدة التي اكتسبها مجمع أفسس على وجه نهائي. بهذا المعنى يكمل خلقيدونية أفسس، فإن أفسس كان يستدعي خلقيدونية منطقيا، وما توصل إليه أفسس من إظهار وحدة الشخص كان يستدعي ازدواجية الطبعتين.

ومن ضمن الظروف التي أوصلت الكنيسة إلى عقد مجمع خلقيدونية عدم وضوح المصطلحات اللاهوتية - لاسيما شخص (Prosopôn) وطبيعة (Ousia) - وضوحا كافيا، وذلك رغم "فعل الوحدة"، بين الكنيسة الأنطاكية والإسكندرية سنة 433م³.

لكن المجمع لم يحسم الخلاف في المسألة اجتماع العنصر الإنساني والعنصر الإلهي في المسيح، فلم يُقضى على نحلة نسطور قضاء مبرما، بل نمت نحلته بعد ذلك في المشرق، بل إن كنيسة الإسكندرية قد خرجت هي الأخرى برأي جديد وهو أنّ المسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها

1 - فاضل سيداروس : يسوع المسيح في التقليد الكنيسة، ص 80.

2 - بيير كاميللو وآخرون : المجمع المسكونية، 37.

3 - فاضل سيداروس : المصدر السابق، ص 82.

اللاهوت بالناسوت، وانعقد لأجل هذا المجمع أفسس الثاني تسمية الكنيسة الكاثوليكية "مجمع اللصوص"، وفي هذا المجمع أعلن هذا الرأي، وعارضه بطريك القسطنطينية معارضة شديدة، وانسحب وأعلن عدم احترامه لقرارات المجمع، فأمر رئيس المجمع بحرمانه وطرده، وحدث لذلك شغب وصخب وعراك شديد وعنيف وبرزت أفكار دينية¹ حول :

1. صحة انعقاد مجمع أفسس الثاني.
 2. مدى سلطانه التشريعي، ومدى الاحترام الذي تناله قراراته.
 3. وقيمة القرارات الحرمانية التي يصدرها : هل يُحترم وتُعتبر نافذة المفعول، أو ملغاة ؟
- لكل هذا عم البيئة المسيحية نزاع وعراك وفوضى فكرية ودينية فأرادت ملكة الرومان وزوجها إنهاء ذلك الشغب²، فدعت حكومتها إلى عقد مجمع في مدينة خلقيدونية (اليوم كادي - كوني) عام 451 في بازيليك القديسة الشهيدة أوفيمية³، والتي تقع في مواجهة القسطنطينية على الضفة الأخرى لمضيق اليوسفور، ثم يقول جان كمبي : « كانت المرة الأولى التي فيها يرأس أسقف روما مجمعا مسكونيا، وسوف يصبح هذا الوضع، فيما بعد، شرطا مطلوباً للاعتراف بأية بمسكونية⁴ ».

ب - عدد المجتمعيين :

يقول الكاتبون المسيحيون : إن مجمع خلقيدونية المنعقد في أكتوبر عام 451م، (520) عشرون وخمسمائة أسقف، تحت إشراف زوج الملكة، أمّا كتاب "المجامع المسكونية" فيذكر فيه أن عدد الأساقفة في المجمع الخلقيدوني يزيد عن ثلاثمائة أسقف⁵.

وقد ساد اجتماع هذا المجمع صخب وفوضى ولدته مشكلة اقتراح إخراج ديوسكوروس بطريك الإسكندرية بتهمة أنه عقد مجمع أفسس الثاني بغير إذن من الكريسي الرسولي المقصود به (بابا روما)، ولكن مندوبي الحكومة رفضوا هذا الاقتراح، فوقع بسبب ذلك ألوان عديدة من المشاجرات والمنازعات⁶.

1 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصرانية، ص 126.
 2 - رؤوف شلي : أضواء في المسيحية، ص 105.
 3 - بيير كاميللو وآخرون : المجامع المسكونية، ص 40.
 4 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 128.
 5 - بيير كاميللو وآخرون : المصدر السابق، ص 40.
 6 - رؤوف شلي : المصدر السابق، ص 105

ج - القرارات :

1. تأييد قرارات مجمع أفسس الأوّل، فالمسيح طبعتان وأقنوم واحد ووجه واحد.
2. خضوع الرّاهب للسلطة الأسقفية¹.
3. لعن نسطور، ولعن ديوسكوروس، وكل من يشايحهم في مقاتلهم².
4. لعن وإبطال قرارات مجمع أفسس الثاني الذي كان قد عقده ديوسكوروس بطريرك الإسكندرية، والذي قرّر فيه أن للمسيح طبيعة واحدة التقى فيها اللاهوت والناسوت³.
5. نفي بطريرك الإسكندرية ديوسكوروس إلى فلسطين⁴.
6. أعيدت الوحدة بين روما والقسطنطينية، ولكن لكم من الوقت⁵ ؟

د - الملاحظات :

نلاحظ جملة من الملاحظات أبرزها :

1. كان الجو الذي ساد المجمع عنيف الخصومة غير مهذب، وكان لا يجدر بأساقفة ورجال الدين -لدى المسيحيين- أن يأتوا مثل هذه الأعمال الشائنة، بل يجب أن يكونوا قدوة للشعب في الهدوء والحكمة.
2. تمسك كل فريق برأيه، وهدم آراء الآخر، فقد تمسكت الكنيسة المصرية بالإسكندرية بيطريركها، ورفضوا قرار المجمع الذي ينصّ على نفيه وطرده، ورفضوا كل رئاسة دينية تبعث بها الحكومة الرومانية.
3. ظهور مذهب جديد، وهو مذهب يعقوب البرادغي، وفيه يدعو إلى مذهب الكنيسة المصرية التي ترى أن المسيح له طبيعة واحدة على خلاف ما قرّره المجمع الرابع الذي انعقد في خلقيدونية عام 451م وذلك في خلال القرن السادس الميلادي.
- وبهذا فقد بدأ انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية - كما جاء في كتاب التبيان في الفرق والأديان-⁶.

1 - La rousse la grand encu clopide, compresseur design, 6 Libraire, p 3178.

2 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 128.

3 - برنار سيسوييه : الإنجيل الحي في الكنيسة، ص 55.

4 - فاضل سيداروس : يسوع المسيح في تقليد الكنيسة، ص 83.

5 - بير كاميللو وآخرون : الجامع المسكونية، 43.

6 - محمود محمد جمّودة : التبيان في الفرق والأديان، ط1، عمان : مؤسسة الورّاق للنشر، 2001م، ص 254.

4. وقد حاولت الكنيسة الوصول إلى صيغة موحّدة تلزم بها الجميع فهذه العقيدة -حسب رأي ابن حزم- تضيف على الآب والابن وروح القدس شيئاً رابعاً، وهو الكلمة المتحدة عندهم بالإنسان الملتحمة به¹.

يشير برنار سيسبويه إلى نتائج المجمع الخلقيدوني الإيجابية رغم من احتوى عليه من انشقاق فيقول: « إن تحديد المجمع الخلقيدوني للعقيدة، وإن في وقته إلى انشقاقات لا تزال قائمة، فإنّه اليوم غدا قاعدة هامة المسكونية بين الشرق والغرب، ثمّ إنّ في الوقت نفسه صار أحد المعالم الأساسية للعلوم المتعلّقة بالمسيح في قلب الغرب الممزّق، وهو حالياً، غدا موضوع تحليل انتقادي على نمط جديد² ».

في حين نجد جان كمبي يصرّح بفشل المجمع أو بالأحرى نقيّة المجمع فيقول: « لم يحلّ مجمع خلقيدونية السّلام بالرّغم من صياغته المتوازنة. وعلى كل حال، ما استطاع مجمع أبداً أن يسوّي كل المشكلات تسوية نهائية. ونحن نلاحظ حظ هذا جيّداً في أيامنا الحاضرة. استمرت الرّسمية، إذ فكّرت الكنائس المونوفيزية أنّها تبقى أمية للقديس كيرلس بالقول بطبيعة واحدة في المسيح. وأرادت الكنائس التّسبورية الحفاظ على ثنائية الإنسان والله في المسيح³ ».

فهناك تناقض كبير بين قولي الشخصيتين رغم أن كليهما أتى بنتائج هذا المجمع في العصر الحالي.

ومن خلال ما سبق نستنتج أن تعريف خلقيدونية هو إعلان قويّ الإيمان الكنيسة في شخص المسيح الوحيد في طبيعتين، -وكما جاء في المجمع المسكونية- وعقيدة الطبيعتين تشير ردّة فعل عند الكرلسيين الذين تمسّكوا بالطبيعة الواحدة، وولدت الانشقاق، ومن جانب آخر، في مقابل إدعاءات، كرسي القسطنطينية المؤسسة على الأهمية السّياسية لـ "روما الجديدة" تأكّدت سلطة أسقف روما المؤسسة على كلمة المسيح لبطرس. كان القديس ليون حازماً جداً في هذا الموضوع. فلو أنّ العلاقات بين روما والقسطنطينية في هذا الوقت أصبحت أسهل من قبل، فإنّها ستدهور قريباً حتى تبلغ انشقاق عام 1054، والذي مازال هو أيضاً قائماً.

هذه هي أهم المجمع التي لها الخطر الأكبر في حياة المسيحية كعقيدة ونظام ودين وخلق،

1 - ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء، ص 53، 54.

2 - برنار سيسبويه: الإنجيل الحي في الكنيسة، ص 55.

3 - جان كمبي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 130.

فهي لم تنه خلافات، لا حول العقيدة ولا حول الوحدة المسيحية البشرية، ولكنها ولدت خلافات جديدة ولدت على إثرها موضوع بحثنا -البابوية-.

- المطب الثالث : نشأة الحياة الرهبانية.

إن من الأمور المتصلة بالكنيسة الحديث عن الرهبنة والأديرة خاصة وأن المسيحية عانت في عصورها الأولى من ويلات الاضطهاد والتعسف والقسوة، وكان كل هذا قد أدى بالمسيحيين إلى حبّ الفداء والتضحية؛ ولهذا رغب كثيرون في إتباع الكمال المسيحي بالابتعاد عن ضجيج الحياة والحرمان وتعذيب الجسم بالجوع والعطش وعدم الزواج، والعكوف عن العبادة، وهذا تقديرا للسيد الذي بذل نفسه من أجل البشر فتركوا العالم وتوغلوا في البراري والقفاز تستساغوا الحياة المنعزلة وانقادوا إلى التأمل والصلاة، فلم يعودوا إلى ديارهم عندما عاد السلام إلى الكنيسة.

- الفرع الأول : الرهبانية.

أولا - الرهبانية : لغة .

الرهبنة أصلها من الرهبنة أي الخوف، يقال : رهب يرهب رهبة أي خاف، والراهب هو المتعبّد في صومعة من النصارى، يتخلّى عن أشغال الدنيا وملاذها زاهدا فيها، معتزلا أهلها، ومصدره الرهبة، والرهبانية¹.

والرهبانية منسوبة إلى الرهبنة بزيادة الألف، وهي كالإختصاص، واعتناق السلاسل، وليس المسموح وترك اللحم وما أشبه ذلك ممّا كانت الرهبانية تتكلّفه.²

قال ابن الأثير : هي من رهبة النصارى، قال : وأصلها من الرهبنة أي الخوف، كانوا يترهبون بالتخلي عن أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعمد مشاقها، حتّى إن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه، وغير ذلك من أنواع التعذيب.³

فمدلول الكلمة يعني الخوف والرهبنة، وهي أطلقت على النصارى وقصد بها عيشة انعزالية في خلوة كاملة، تاركاً أشغال الدنيا زاهدا فيها، متكلّفا في ترك ملاذ الدنيا وطبيعتها متعمدا في تعذيب النفس والجسد.

1 - ابن منظور : لسان العرب، ج1، ص 1748، 1749.

2 - أحمد أبو حاققة : معجم النفاثس الوسيط، ط1، بيروت، دار النفاثس، 2007م، ص 491.

3 - الفيروز آبادي : القاموس المحيط، ج1، ط []، م []، دار الكتاب العربي، ت []، ص 89.

ثانيا - الرهبنة في اصطلاح النصارى :

الرهبنة عند النصارى لا تخرج عن المعاني السابقة غير أنهم أضافوا أن المقصود من التعذيب الذي يقوم به الراهب العبادة، والطاعة.

جاء في كتاب موسوعة عالم الأديان : « "الرهبانون" هم الذين سيكونون أساس ما سيُعرف "بالرهبنة"، "بالرهبانية". فإن جذر "رهب" الشامي المشترك يفيد الخوف والقلق والرعب والمهرب والرهبنة. وفي العربية "رهب" : خاف، "وأرهب" خوفاً، و "ترهب" : صار راهباً، و "الراهب" هنا، كلمة دخلت إلى العربية جديدة نسبياً ؛ أي أنها دخلت إليها بعد أن أصبح هناك رهبانيات ورهبان، وهي أيضا : من اعتزل من الناس إلى دير طلباً للعبادة»¹.

يقول عرفان عبد الحميد فتاح : « الرهبانية ؛ وهي الحركة التي أطلق على أتباعها أوصاف متعدّدة، فسُمّوا وعُرفوا في القبطية " Remnouth"، وفي السريانية " Ihadaya" وفي اليونانية "Apotaktitai"، وفي اللاتينية " Sarabtai". فهي رياضات روحية يُرجى بها سلوك طريق التطهر والفضيلة. ممارسة حياة الفقر، والتّقشف والروبية، واعتزال المجتمع مما اعتبر بادئ الأمر شذوذاً عن جوهر المسيحية وتعاليمها»².

وجاء في كتاب (تاريخ الأمة القبطية) : « الرهبنة في نذر التبتل إلى الله مع اختيار الفقر طوعاً واعتزال العالم»³.

وجاء في كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية « أن الرهبانية هي هبة تناولها الكنيسة من سيدها، كحال حياة ثابتة للمؤمن الذي يدعو الله في نذر المشورات الإنجيلية، وهكذا تستطيع الكنيسة أن تُظهر المسيح وأن تُظهر نفسها عروساً للمخلص. فهي تمتاز عن سائر صورها المكرّسة بمظهر العبادة، والشهادة على إتحاد المسيح»⁴.

1 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج8، ص 181.

2 - عرفان عبد الحميد فتاح : التصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ص 100، ص101.

3 - لجنة التاريخ القبطي : تاريخ الأمة القبطية، ج2، ط2، القاهرة، د []، ت []، ص 50.

4 - التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية : عرّب به عن الطبعة اللاتينية الأصلية : المتروبوليت حبيب باشا، المطران كيرلس سليم بسننرس، المطران يوحنا منصور، الأب حنا الفاحوري، ط []، لبنان، المكتبة البوليسية جونبة، 1999م، ص 289.

وكذلك ورد في كتاب الإيمان المسيحي لجماعة من أساقفة فرنسا في تعريفهم للرهبنة قولهم : « أما حياة الرهبنة هذه فهي هبة من الله يقدمها لكنيستته، وهي علامة تشير إلى التضامن مع البشرية، فتواجه تحديات العالم بجرأة، وتذكر جميع أعضاء الكنيسة بدعوتهم الملحة إلى تحقيق مزيد من القداسة، زد على أنها شهادة ساطعة تقدّم في لحمة الحياة البشرية بما تنطوي عليه من اختيارات قطعية أنها شهادة تنطق بحياة يقضيها المؤمن انسجاماً مع روح التطويبات¹.

- الفرع الثاني : نشأة الرهبانية المسيحية :

منذ نشأة الكنيسة، كان اختيار البتولية والعفة من أجل الملكوت مكرّماً في الجماعات المسيحية، وكان هذا الاختيار مبنياً على مثال يسوع وبولس وتعاليمها (متى : 21/19 و 29)، وقد تكون مجموعات الأرامل التي ورد ذكرها في 1 تيموثاوس 5. وبنات فيلبس العذارى اللواتي كنّ يتبنأن (أعمال الرّسل : 8/21-9) الأدلة الأولى على حياة مكرّسة.

وأما في القرنين الثاني والثالث، فقد تكاثرت الشهادات على الرجال والنساء الذين كانوا يختارون طريق ترويض النفس والعفة²، وذلك حينما كانت الخلافات تعصف بالكنيسة وتحدث تلك الانشقاقات التي أثّرت في المسيحية سلباً، وكان بعض كبار رجال الدين بينما كان الأباطرة في أكثر الأحيان يحاولون فرض وحدة الكنيسة من خلال التّدخل المباشر، كانت المسيحية تتلمّس دربا أصيلاً لتحقيق ذاتها ولتؤدّي رسالتها السماوية في الحقل البشري الذي كثر فيه المعتنقين للمسيحية، وكان فعلته الحقيقيون ... قليلين.

ومن بين أولئك الفعلة من اعتبروا المسيحية سيراً على خطى المسيح ؛ أولئك هم النّسّاك والزّهاد الذين اشتهر بعضهم بأفعال شهدت من الزّهد ما يصعب على إنسان اليوم تصوّره³. فكان بدء الرهبانية (Monachisme) التي كانت في الأصل كما يقول "نور الدين حاطوم" : « حركة زهد وتقشف وانعزال عن الدّنيا الفانية، والباعث لها هو القول الدّي يتملك المرء ممّا في

1 - ليفيف أساقفة فرنسا : الإيمان المسيحي، ترجمة : أنطون موصللي اللعازاري تنسيق الآب غرييل دوفيل من الآباء البيض، ط []، باريس، مطبوعات دار باريس، 2001م، ص 228.

2 - جيميل مدبك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ص 64.

3 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج8، ص 181.

الحياة من فساد، فيذهب به إلى رد فعل سلبي يدفعه الدّين بالتّبتل والصّلاة والتأمّل والتفكير والتّقوى والتّمسك والتّعزي باللجوء إلى الله»¹.

جاء في كتاب التّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية أنّ الحياة الرّهبانية ظهرت في الشرق في عصور المسيحية الأولى². لكن الروايات اختلفت حول تاريخ النشأة، فهناك من يُرجع نشأتها إلى النّصف الثاني من القرن الثالث، وآخرون يرجعونها إلى أوائل أو أواخر القرن الرابع أو الخامس. لكن عرفان عبد الحميد فتاح يذكر أنّه في النّصف الثاني من القرن الرابع تحدّدت بصورة أدق دلالة المصطلح بفضل كتاب أتناسيوس (269-373) (زعيم مدرسة الإسكندرية والمدافع الصّارم عن قانون الإيمان الصادر عن مجمع نيقية)³.

بعد ذلك نتساءل: هل الرهبانية من اختراع المسيحية؟

لقد ادّعى البعض أنّ للرهبانية المسيحية سوابق في الدّيانات الوثنية، عند البوذيين مثلاً، وفي البلاد اليهودية بواسطة شيعة الأسنين.

يجيب ألبير أبونا في كتابه: «لا نكير أنّ بين هذه الطرق وبين هذه الطرق الرهبانية المسيحية بعض أوجه الشبه، ذلك لأنّ الإنسان التّواق إلى الكمال قد وُجد في مختلف الأجيال طريقه إلى هذا الكمال - حسبما فهمه - في الإماتات وضبط النّفس وقهر الحواس.

إلا أنّ الرهبانية المسيحية نشأت انطلاقاً من حاجة الإنسان إلى تلبية نداء المسيح الدّاعي إلى التّجرّد عن كل شيء في سبيل الحياة الأبدية، وجاءت ظروف عجّلت في تحقيق الرّغبة الكامنة في قلب الإنسان، فحينما بدأ المسيحيون ينعمون بالرّاحة والطمأنينة، قرّروا نبذ العالم والابتعاد عن فساد»⁴.

إنّ ما أورده ألبير سابقاً يتفق مع ما وصل إليه عرفان عبد الحميد فتاح بأن مصطلح الرّهبنة مسيحي الوضع والنشأة رغم ما يوجد بينه - المصطلح مسيحي - وبين الدّيانات الأخرى من تشابه فيقول: «وعلى الرّغم من وجود وجوه مماثلة بين حركة الزّهد المسيحية والتّراث اليهودي

1 - نور الدّين حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص 71.

2 - التّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص 289.

3 - عرفان عبد الحميد فتاح: النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ص 100.

4 - ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السّريانية الشرقية، من انتشار المسيحية حتى مجيء الإسلام، ج 1، ط3، بيروت، دار المشرق،

1992م، ص 150.

والدّبانات الأخرى القديمة، فإنّ الدلائل التاريخية تُرجع انبثاق الحركة الزّهدية من داخل المسيحية ذاتها، باستقلال عن التأثيرات الخارجية، رغم اقتباسها من بعد مظاهر معينة من ذلك التراث الديني المتراكم والسّابق عليها¹.

دَلّل المسيحيّون على مسيحية الرّهبانية - في النشأة- بأقوال للسّيد المسيح - ~~الكنيسة~~ - في الأناجيل، تجبذ الفقر الإداري، وحياة العزوبية، من ذلك قوله: « إذا أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع ما تملكه ووزّع ثمنه على الفقراء، فيكون لك كثر في السّموات، وتعالى اتبعني². وهو ما يسمى عندنا في الإسلام بالزهد -البيع- في الدّنيا للخطي بحب الله في الآخرة -إتباع المسيح في السّموات- « وفيهم من لا يتزوّج من أجل ملكوت السّموات³.
وصدروا عن هذه الأقوال وتكريسا لها في الواقع، فقد أكّد القديس بولس وشجع على العزوبية بقوله في رسائله: خير للرجل أن لا يمس امرأة.

كما اعتبر المسيحيّون أساس الرّهنية: (العفة والفقر والطّاعة) فالعفة تتمثل في عدم الزّواج أي التبتّل، وعن هذا تحدّث السّيد المسيح بقوله: « فقال لهم: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطي لهم، لأنّه يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات، من استطاع أن يقبل فليقبل⁴.

والزّواج -في نظرهم- هو المعوق للوصول إلى الطّهارة الدّاخلية والكمال الرّوحي، وعليه فعدم الزّواج من الأمور الواجبة على الرّهبان، فالراهب والراهبة يأمران بعدم الزّواج باعتبار أنّه مناف لباب التّقرب إلى الله، وترك التّكاح -عندهم- من جملة المناسك والقربات. يقول فليسان شالي: « هكذا وقد فرضت الكنيسة على القساوسة والرّهبان العزوبة وعدم الزّواج منذ وقت طويل.

ففي أوائل القرن الرابع الميلادي أُصدر قرار بتحريم الزّواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة، وفي أواخر القرن الحادي عشر أصدر البابا "جريجوري السّابع" أمراً بوجوب العزوبة وتحريم الزّواج على جميع القسوس والرّهبان كبارهم وصغارهم.

1 - عرفان عبد الحميد فتاح: التّصراية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ص 102.

2 - مت: 21/19.

3 - مت: 21/19.

4 - مت: 11/19 - 12.

ومع أن هذا القرار قد لاقى في مبدأ الأمر معارضة شديدة في كثير من المناطق المسيحية فإنه لم يكد ينتهي القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان نظاما مقرراً في الكنيسة الكاثوليكية على جميع القسوس من الرجال والرهبان من النساء»¹.

يُرجع جميل مدبك اختيار العفة نفورا من الفساد السائد، وأن البتولية عند النساء كانت وسيلة للتخلص من الخضوع الاجتماعي في الزواج ونقطة الانطلاق في تحرر المرأة.

وكانت العذارى المكرسات يواصلن العيش في عائلاتهن ويشاركن في حياة المؤمنين جميعا، وكان يُطلب إليهم القيام بأعمال الرّحمة، وزيارة الفقراء والمرضى، والتأمل في الكتاب المقدس².

في حين يرى القرافي في كتابه "الأجوبة الفاخرة" أن الحكمة لا تأتي عن طريق البتولية بل ربّما تكون سببا في الفساد، ويذكر أن المسيحيين -بمبدئهم هذا- يعرضون الرجال والنساء للزنا والفساد، ويسدّون باب الذرية يمكن أن تكون صالحة تعبد الله وتعظمه وتقدّسه³.

أمّا محمد عزت الطهطاوي في كتابه.

فقد نبّه إلى أمر آخر بقوله : « أنّهم إذا كانوا يدعون إلى عدم الزواج ويعتبرونه معوّقا للكمال الرّوحي، فلماذا إذاً ينادون الآن بكثرة النسل؟ فهم يهتمون بكثرة النسل ويحاربون تحديده، ويزيد اهتمامهم به في البلاد التي يكونون فيها أقلية أو مساوين بغيرهم في التعداد.

ولذلك نشرت مجلة الوثائق الكاثوليكية في عددها رقم 1271 سنة 1958م نص ما قاله البابا بيوس الثاني عشر في الاتحاد الإيطالي لجمعيات العائلات الكثيرة وهو : « أن خصب الزواج شرط لسلامة الشعوب المسيحية ودليل على الإيمان بالله والثقة بعنايته الإلهية ومجلبة للأفراح العائلية»⁴.

فما سبق من آراء القرافي والطهطاوي كان نقدا جليّ، للمسيحيين الذين كانوا يفضلون العذرية والتّعفف على الحياة الرّوحية، حتى إن البعض بلغ الأمر حد إدانتهم الزواج، الأمر الذي شكك وأقلق المجتمع المؤسس على استقرار العائلة. والحقيقة أن إدانة شاملة لحياة جنسية لم

1 - فليسان شالي : موجز تاريخ الأديان، ص 259.

2 - جميل مدبك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ص 64.

3 - القرافي : الأجوبة الفاخرة، ط []، بيروت، دار الكتب، 1986م، ص 338، 339.

4 - محمد عزت الطهطاوي : التصرانية والإسلام، في مقارنة الأديان، ط []، مصر : مكتبة النافذة، 2004م، ص 75، 76.

يدعمها الدّين، ذلك يعني نهاية الجنس البشري أو على الأقل - كما يخطّطون- الكنيسة نفسها، فهذا تناقض بين نهاية الجنس البشري والتبشير ونشر المسيحية.

أمّا المبدأ الثاني، من مبادئ رهينة المسيحية فهو الفقر أو التّقصّف؛ فهو يعني -عندهم- تعذيب البدن بالجوع والعطش وحسن اللباس، وضنك التّفرد بعيدا عن النّاس. أو حرمان الجسد من أطيب المأكولات والمشروبات ومن فاخر الثّياب فقد أعاده المسيحيون إلى الإقتداء بالسّيّد المسيح في زهده واحتماله الآلام.

أمّا الطّاعة، وهي المبدأ الثالث: فيقصّدون بها طاعة الرّؤساء في كل ما يأمر به وفقا للكتب المقدّسة، وهذه الطّاعة واجبة على الرهبان، ويرجعونها إلى قول المسيح، مع كونه ابنا تعلّم الطّاعة -على حد قول أحمد شلبي- كما نص عليه الكتاب المقدّس: ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل، وعلى حقويه منطقة من الجلد، وكان طعامه جراد وعسلا برّيا¹.

وهي تعني أيضا الإنفراد والعزلة والسّكوت والصّمت وسكنى الأديرة أو الجبال وملازمة الدّير أو القلاية وعدم مغادرتها إلاّ للصّلاة أو للضرورة القصوى².

لكن نرى أن المسيحيين بهذا يعطلّون القوى الإنسانية التي أعطها الله للإنسان وميّزه بها، هذا إلى جانب أنّها لا تتفق مع كون الإنسان خليفة لله في الأرض.

وقد انتشرت الحياة الرهبانية انتشارا سريعا، لاسيما في الشّرق³. ولم يكن انتشارها في أجزاء العالم المسيحي في القرن الرّابع وليد تأثيرات صدرت عن أرض النيل فحسب. على الرّغم من أنّ الأرض المصرية كانت بمثابة الأصل والمثل المقتدى من قبل أقاليم حذت حذوها، ذلك أن النماذج المتميزة للرّهينة في تاريخ صدور المسيحية قد انبثقت تلقائيا في مناطق متعدّدة، شكّلت في مجموعها أنماط حياتية، ومن ثمّ جاز تسميتها بالرهبانية، ويذكر أيضا "عرفان عبد الحميد فتاح": بل تولدت أنماط من الرهبانية لا يستها صور من الشّدوذ والانحراف، فكانت بهذه المثابة تشكّل أنماط مدانة ومرفوضة من الكنيسة⁴. وقد اشتهر في مصر بين كبار الرهبان أمونيوس الاسكندري⁵. والقديس مكاريوس الكبير¹.

1 - مت : 4/3.

2 - أحمد شلبي: مقارنة الأديان، ج2، ص 246.

3 - ألبيز أبونا: تاريخ الكنيسة السّريانية الشرقية، ج1، ص 153.

4 - عرفان عبد الحميد فتاح: التّصراية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ص 106.

5 - ولد 294، ومات 356م.

أمّا سوريا، فإنّ الرّهينة فيها تميّزت بترعتها الإختلافية إلى حدّ التّطرف والمغالاة وبمظاهر سلوكية كانت غريبة عن الرّهينة المصرية، ومن أشهر نساكها مارون² النَّاسك الذي قضى حياته منفرداً قرب قورش، وقد اجتمع حوله بعض التلاميذ فاتبعوا طريقته في الحياة النّسكية وممارسة الفضائل، وأشهر أيضا النَّسك القديس العمودي³ نسك على رأس عمود بين حلب وأنطاكية، فأصبح عموده مجمع النَّاس يأتونه من كل جهة⁴.

أمّا عن فلسطين فأتخذت حياة الرّهبانية مظهرها خاصا عاش الرّهبان هناك عيشة ليست بالعيشة النّسكية المنعزلة ولا بالعيشة الرّهبانية المشتركة، فالراهب الفلسطيني كان ينطوي خمسة أيام في حوملة بعيدة يشتغل ويصلّي ثمّ يقبل إلى الدّير، وأوّل من أدخل الحياة الرّهبانية في فلسطين القديس إيلاريود الكبير الذي عاش في صحراء غزة حوالي سنة 328م⁵.

أمّا في الغرب : فنفي أثناسيوس⁶ رئيس الأساقفة الاسكندرية إلى الغرب فعرف الغربيون أثناء منفاه في النّصف الأوّل من القرن الرّابع بالحياة الرّهبانية بيد أن الأب الحقيقي للرّهبانية في الغرب هو بندكت⁷. كان لا يزال شاباً لما انتحى منطقة جبلية معزولة قرب روما ليعيش فيها متوقّدا منصرفاً إلى رهبان الغرب. فشاعت الرّهبانية في أقاليم من إيطاليا وبلاد الغال وإسبانيا، وشمال إفريقيا⁸.

كما ميّز "عرفان عبد الحميد فتاح" بين الرّهبانية العربية اللاتينية والرّهبانية الشرقية بخصائص :

1 - إنّما ظلّت على الرّغم من أخذ أتباعها أنفسهم بمنهج الفرار والاعتزال، تمثل على وجه العموم ظاهرة حضارية واجتماعية، فقد نشطت في مراكز المدن أو على مشارفها.

1 - مات عام 392. ألبير أبونا : المصدر السابق، 153.

2 - راهب قديس زاعم حيث فضائله فأصبح منسكه مزاراً، كتب سيرته (ثيودوريطس)، توفي 410 إليه ينتسب الموازنة، (صبحي حموي اليسوعي، معجم الإيمان المسيحي، ص 424).

3 - ولد بقرب من أنطاكية كان رئيساً لدير مئراس وقضى في الدّير عشر سنين قضى حياته في التّعب على رأس عمود بالقرب من حلب (صبحي حموي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي، ص 272).

4 - نهي نجار : موسوعة الأديان السّماوية والوضعية، ج6، ص 134.

5 - نهي نجار : المصدر نفسه، ص 135.

6 - بطريك الاسكندرية وأحد آباء الكنيسة أسهم بشخصيته وذكائه في حمل الجمع النيقاوي، من مؤلفاته، "رد على الوثنيين" (صبحي حموي : معجم الإيمان المسيحي، ص 17).

7 - مبارك التّرسى أبو متوحّدّي ومشرّعهم الأوّل (480-547)، ولد في نرسى، ودرس في روما (صبحي حموي : معجم الإيمان المسيحي، ص 115).

8 - نهي نجار : المصدر السابق، ص 135.

- 2 - إنها مثلت قوة استدعاء وإثارة وجذب لأبناء الطبقات الأرستقراطية ممن تنازلوا عن ثرواتهم طواعية ثرواتهم طواعية وسخروا غناهم لإقامة الرهبانيات على مقاطعاتهم التي يملكونها.
- 3 - إن الرهبانية في الغرب اللاتيني ظلت منذ البداية مرتبطة بوثاق متين بالمؤسسة "الكنيسة"، فالقائمون على الرهبانيات ورعايتها كانوا أصلاً وأكثروا على وجوب أن يحيا رجال الدين عامة حياة رهبانية أساسها الفقد وقوامها العزوبية¹.

- أسباب ظهور الرهبنة :

ذكر المؤرخون أن أسباب ذبوع النزعة الرهبانية بين المسيحيين متعدّدة، منها ما يعود إلى أسباب اقتصادية، ومنها ما يعود إلى أسباب دينية، ومنها ما يعود لفشل في الحياة أو للاضطهاد، أو للتظاهر بالزهد والتقوى والتشبه بحياة بعض القديسين سعياً وراء شهرة أو مكسب.

كانت الظروف الاقتصادية عاملاً أساسياً من عوامل انتشار الرهبانية بين المسيحيين، فلقد فرضت الدولة الرومانية، -وهي تعاني من متاعبها- ضرائب باهضة، وكان هذا سبباً في أن ترك الناس أراضيهم وأعمالهم وممتلكاتهم وهربوا إلى الصحراء، لأنهم عجزوا من أن يدفعوا ما فرض عليهم، وأصبحت الضرائب عبئاً ثقيلاً زاده ثقلاً وقسوة حتى إن عدداً كبيراً من صغار المزارعين تنازلوا عن أراضيهم لكبار الملاك أيضاً، وأن القانون الذي أصدره قسطنطين بإعفاء غير المتزوجين من الضرائب أغرى الكثيرين بالامتناع عن الزواج، وكان الرهبان يُعفون أيضاً من الخدمة العسكرية في مدّة حكم قسطنطين².

ولكن الواقع أن عادة الهروب من السّطات إلى الصّحراء نتيجة العجز عن دفع الضرائب كانت أمراً عادياً لدى المصريين القدماء.

ذلك، أنه في القرن الأوّل قبل ولادة المسيح، ظهرت في صحراء مصر، شيعة يهودية من النّسك، كانوا يوحّدون الله في تأمل وطهارة قلب، وقد انفصلوا عن حياة المدن والقرى، وعندما وصلتهم بشارة يوحنا الرسول، آمنوا بدعوة السيّد المسيح، فباعوا ممتلكاتهم، وقدموا أثمانها ليوحنا الرسول.

وفي تعبدهم اليومي قسّموا اليوم إلى ثلاث مراحل :

1 - عرفان عبد الحميد فتّاح : التّصراية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ص 108.

2 - أحمد علي عجيبية : موسوعة العقيدة والأديان، ج 6، ط 1، القاهرة، دار الآفاق الغربية، 2004م، ص 66.

– المرحلة الأولى : من قبل بزوغ الفجر حتى الصّباح، يقضونها في الصّلاة وقراءة الكتب المقدّسة.

– المرحلة الثانية : يقضون بقية اليوم إلى العصر في العمل الزراعي والأعمال الحرفية كصناعة السّلال وغزل الكتّان ونسجه.

– المرحلة الثالثة : قبل الغروب يعودون إلى صوامعهم لتناول العشاء، المكوّن من النباتات والبقول، ولا يذوقون الخمر ولا اللحم إلّا في أوقات معينة من الشهر¹.

وتمثّل العامل الآخر في آثار الاضطهاد الذي مارسته السّلطات الرومانية على المسيحيين²، الذي أربّه المؤمنين إيماناً حقيقياً بالمسيحية، وجعلهم أمام ثلاث خيارات : إمّا الموت، أو نكران المسيحية، أو الهرب إذا أمكن، فقد اختار بعض "الرهبانيين" الفرار إلى البراري والقفار³ حيث لا تنالهم يد البطش.

وكتيراً ما يُقدّم هذا الاضطهاد على أنّه متواصل، شامل لجميع المسيحيين وعام في حكم الأباطرة إلى أيام قسطنطين⁴.

لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق، فقد رأينا أن السّلطات الرومانية لم تكن في العقود الأولى من تاريخ المسيحية تميّز بين اليهود والمسيحيين وتعتبر هؤلاء فرقة يهودية لا غير، ثمّ حاولت عند التّفطن إلى مميّزاتها وأبعادها أن تحدّ من انتشارها.

ويتّصل بالاضطهاد أمر آخر – كان سبباً من أسباب الرّهبة في نظر المسيحيين –.

فالرّهبة في نظر –أحد المؤرخين المسيحيين– تولّدت لدى بعض المسيحيين، حينما رأوا تقدير الناس لمن ماتوا نتيجة الاضطهاد والتعذيب، فرغبة منهم في نوال هذا التّقدير والاحترام نزعوا إلى الرّهبة⁵؛ وهذا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق بالدين بقدر ما يتعلّق بالرّغبة في مدح النّاس لهم وتقديرهم.

1 – محمد عبد الحميد الحمد : الرّهبة والتصوف في المسيحية والإسلام، ط 1، دمشق، مديرية الرقابة في وزارة الإعلام، 2004م، ص 50.

2 – عبد الحميد الشّرفي : الفكر الإسلامي في الرّد على التّصاري، ص 102.

3 – مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عام الأديان، ج8، ص 181.

4 – عبد الحميد الشّرفي : الفكر الإسلامي في الرّد على التّصاري، ص 102.

5 – أحمد علي عجيبة : موسوعة العقيدة والأديان، ج6، ص 70.

أمّا العامل الثالث يتمثل في عدم الرضى عن الكنيسة، حيث يعلّل بعض المؤرخين ظاهرة التّمسك لدى المسيحيين - كما ذكر ول ديورانت في كتابه- بأنّها عبارة عن احتجاج على ما طرأ في العقيدة المسيحية من آراء دخيلة، وعلى انغماس بعض رجال الدّين في شؤون الدّنيا، إذ بدت الرّسالة الدّينية عند بعض وكأنّها دنيوية، لذا التجأ بعض الأفراد إلى العزلة في الصّحاري أو على قمم الجبال، أو في المغارات والمقابر للانقطاع والتأمل والعبادة¹.

فلقد أحسّ بعض المسيحيين بعدم الرضى عن الكنيسة، لأنّهم رأوا أنّ رجال الدّين سيطرت عليهم الأهواء وأصبحوا رجال دنيا، هذا بالإضافة إلى أنّ الكنيسة - لم تعد في نظرهم- تشبع رغباتهم الرّوحية.

ثم يعلّق شارل جينبيز على ذلك بقوله: « لقد ظلّت الكنيسة المعقل الوحيد لمبدأ الوحدة والمركزية الرّوماني (...) الذي ساعد كثيرا على نمو كاثوليكيّتها ». إلا أنّ هذا النفوذ الجديد الذي اكتسبه في المجال السّياسي سوف يورّدي إلى تعلقها أكثر فأكثر بأمور "الحياة الدّنيا" وإلى ابتعادها عن "المثل" الأولى. ولن تفيد عقيدتها ولا أخلاقها الاجتماعية -على الأخص- من ذلك شيئا (...). وعلى إثر ذلك ظهرت تيارات عميقة من الزّهد المتشدّد، وبذلك نشأت رهبنة منّظمة، وفتحت أبواب الأديرة واسعة لترحب بكل مسيحي يرفض التّراجع عن مثله أمام متطلّبات الدّنيا، ويبحث عن الوسيلة التي تمكّنه من تسيير حياته -عملا وفكرا- حسب الأخلاق المسيحية الأصيلة².

أيضا يذكر أحمد شلبي أنّ الرّهبنة لم تنشأ فقط بسبب الرّغبة في التضحية والفداء بعد أن توقف الاضطهاد، بل إنّ المسيحيين ينسبون أسسها إلى السيّد المسيح الذي احتقر المال والعتاد والتّمسك بالأسرة³.

فيروى عن السيّد المسيح في ذلك قوله: « من ترك بيوتا أو حقولا من أجل اسمي يأخذ مئة رأسه »⁴.

1 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج3، مجلد3، ص 390.

2 - شارل جينبيز : المسيحية نشأتها وتطوّرها، ص 243، 244.

3 - أحمد شلبي : مقارنة الأديان، ج2، ص 245.

4 - مت : 21/19.

فارجع المسيحيون ترك البيوت والحقول وكل أماكن المتعة واللّجوء إلى الجبال والبراري من سمات المسيح، فاقتدوا واقتبسوا منه ذلك.

لكن محمد مجدي مرجان يردّ على ذلك بقوله: « إن هذا الرأي فيه تجاوز شديد، فالقول بأنّ المسيح كانت من تعاليمه الدّعوة إلى الرّهبانية فيه مغالاة شديدة خاصة وأنّ الأناجيل المسيحية تنسب إلى المسيح أنّه كان يحبّ اللّهُ والمرح والمتعة والصّخب، وتنسب إليه أيضا أنّه كان يستمتع بالطّعام الجيّد لدرجة أنّه وُصف بأنّه أكل وشرب¹.

يقول متى: « جاء ابن الإنسان -المسيح- يأكل ويشرب فيقولون هوذا إنسان أكل وشرب خمر محبّ للعشارين والخطاة².

وأشارت الأناجيل المسيحية أيضا إلى أنّ المسيح كان يحضر الأفراح وشارك النّاس سعادتهم، بل وفي بعض الأحيان - كما تروي الأناجيل - يشرب الخمر³، يقول العقاد: « لقد قبل المسيح إنفاق الدّنانين في عطر تمسح به قدماه، وقبل أن يشهد الأعراس، وضرب المثل لأتباعه في أفراح الحياة، وفي براءة كل فرح يأتي من القلب ويسرّ الجسد، ولا يحزن الرّوح⁴.

وقد ذكر بعض المسيحيين أنّ الرّهبانية لم تكن من تعاليم المسيح ولم يدع إليها.

هذا عن قولهم بأنّ الزّهّد وهجر العالم واللّجوء إلى البراري مأخوذة من حياة المسيح وتعاليمه.

أمّا بالنسبة لادّعائهم أنّهم استمدوا مبدأ البتولية من المسيح فهو أيضا فيه نظر، ذلك أن الفقرات التي استشهدوا بها من الأناجيل على أنّها أقوال المسيح ليس فيها ما يوجب ترك الزّواج. لذلك يقول المؤرخ المسيحي جون لوريمر في تعليقه على الفقرات محل الاستشهاد لدى المسيحيين: « ومعنى كلام يسوع هو أنّ عدم الزّواج مفضل لكنّه ليس ضروريا⁵.

1 - دون كوييت، ميكائيل غولدر: أسطورة تجسّد الإله في السيّد المسيح، تحرير: جون هل، ترجمة: نبيل صبحي، ط []،

الكويت، دار القلم 1985م، ص 16.

2 - مت: 9/11

3 - راجع يوحنا: 10-1/2.

4 - العقاد: حياة المسيح، ط []، القاهرة، دار الكتاب المصري، ت []، ص 138.

5 - جون لوريمر: تاريخ الكنيسة، ج 2، دار الثقافة المسيحية، 1985م، ص 132. نقلا عن كتاب ل: أحمد علي عجيبية:

موسوعة العقيدة والأديان، ج6، ص 107.

وكذلك أيضا يفهم من أقوال بولس : « أن الزواج حسن وأن عدم الزواج أحسن، من زوج فحسنا يفعل ومن لا يزوج يفعل أحسن »¹.

هذا إلى جانب أنه قد ثبت أن رجال الكنيسة في عصرها الأول كانوا متزوجين²، فقد جاء على لسان بولس نفسه نص يستفاد منه إباحة الزواج لرجال الدين يقول بولس : « أعلنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقي الرسل وأخوة الرب وصفا - بطرس - »³.

وهكذا يتبين لنا أن القول بأن الدعوة الرهبانية أخذت من تعاليم المسيح فيه مجافاة للحقيقة وبعد عن الصواب.

ولذلك ذهب فريق من المؤرخين المسيحيين وغيرهم إلى أن الرهبانية المسيحية استمدت من مصدر آخر غير تعاليم المسيح وحياته، وهو الأديان الوضعية، والفلسفات الوثنية التي كانت منتشرة قبل ظهور المسيحية، والتي كانت تعتقد بالتنسك والرهبانية.

يقول المؤرخ المسيحي أندروملر⁴ : « ويظهر أن الآباء قد فاهم أن مبدأ الزهد نشأ عن الفلسفة الوثنية لا الديانة المسيحية، ولكنهم لم يتصفحو الكتاب المقدس لمعرفة فكر الله في هذه الموضوعات »⁵.

وأشار إلى ذلك أيضا الجاحظ قائلا : « وأنت إذا سمعت كلامهم في العفو والصّفح وذكرهم للسياحة، وزرايتهم على أكل اللحمان، ورغبتهم في أكل الحبوب، وترك الحيوان، وتزهيدهم في التّكاح، وتركهم وطلب النّسل وتعظيمهم الرّؤساء علمت أن بين دينهم ودين الرزندقة نسبا وأنهم يحنّون إلى ذلك المذهب »⁶.

1 - 1 كور : 38/7.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ص 172.

3 - 1 كور : 5/9.

4 - وُلد بقرية كيلمورز بمقاطعة إيرشاير بإنجلترا في يناير عام 1810. وانتقل إلى لندن حيث لاقى نجاحا كبيرا في عمله الزماني، وكان في ذات الوقت راعيا لإحدى الكنائس الطائفية بها، وقد كان مؤرخا مميّزا كما كان أديبا وشاعرا، مات في يونيو عام 1883م.

5 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة من البداية إلى القرن العشرين، ج 1، القاهرة، مكتبة كنيسة الأخوة، 1971م، ص 327. (نقلا عن كتاب لـ أحمد علي عجيبة : موسوعة العقيدة والأديان، ج 6، ص 109).

6 - الجاحظ : المختار الرد على النصارى، تحقيق ودراسة : عبد الله الشرقاوي، ط 1، القاهرة، دار الصحوة، 1984م، ص 92.

ومما سبق يتبين أن :

المسيحية تأثرت بالأديان الهندية والمصرية والفارسية وبعض الفلسفات اليونانية، ولهذا يمكن القول أن الرهبانية المسيحية وليدة هذا التأثير بتلك الأديان والفلسفات الوثنية.

- نشأة الديرية :

شقّ على الرهبان المسيحيين الالتزام بنظام التّوحد والإنفراد التّام، ولذا تآقت نفوسهم إلى نظام أقل مشقّة وأكثر أماناً.

فلقد ذكر المسيحيون أن الرّاهب المسيحي كان في مبدأ الأمر يختار لسكناه بناية خربة أو قبرا مهجورا خارج المدن أو كهفا منحوتا في القفر أو الجبل ويظلّ هكذا متوحّدا لا يرى أحداً ولا يراه أحد.

ولكن هذا التّمط من الحياة كان شاقاً على كثيرين ممّن اختاروا حياة الرّهبة، ولذا بدأ هؤلاء الرهبان يختارون كهوفا متجاوزة يحقق عنهم تجاورها قسوة التّفرد والانقطاع.

وبعد أن ازدهرت الرهبانية وتوافرت الإمكانيات بدأ الرهبان في بناء القلالي من الحجارة التي عمرت بهم¹.

فالدير هو مجموعة يعمل أعضاؤها على خلاص نفوسهم بشكل جماعي، في حياة مشتركة دائمة بقيادة رئيس دير يوطد اتحادهم، لهذا يعيشون معا².

أمّا صبحي حموي اليسوعي فقد عرفه بقوله : « فكان عبارة عن مسكن للرهبان يعيشون فيها عيشة مشتركة ويجاهدون بالخضوع للقوانين لرئيس³ ».

ظهرت الأديرة في آخر القرن الرّابع حيث وُجدت بكثرة ؛ وكان يضمّ الواحد منها مئات من الرهبان والراهبات، وما لبثت هذه الحركة أن امتدت إلى بلدان الشّرق الأدنى وبلغت الغرب الأوروبي، وأصبحت ذات أهمية تاريخية⁴.

1 - أحمد علي عجيبة : موسوعة العقيدة والأديان، ج6، ص 76.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 261.

3 - صبحي حموي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي، ص 218.

4 - نور الدّين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص 73.

إنّ مؤسس الأديرة هو باخوميوس¹، فقد استقطب حوله رفقاء وتلاميذ وبنى تسعة أديرة في مصر، وتعددت في عفتون قرنين الخامس والسادس ولا يزال بعضها باقيا حتى اليوم في صحراء النظرون جنوب الإسكندرية في صعيد مصر².

يذكر جان كمبي : « أن القديس أنطونيوس³ مفتح الطريقة النسكية⁴ الذي اختار الصحراء الشرقية في مصر مقراً له، وسكن مغارة هناك مدة تسعين سنة وهو يقتات بنصف رغيف يحمله إليه غراب كل يوم⁵ .

وأنة أبو النساك أو الحبساء الذين عاشوا في براري مصر، وقد سار في خطى أنطونيوس جمهور من المسيحيين، وورد ذكره في اعترافات القديس أوغسطينوس⁶.

أمّا القديس أوغسطينوس⁷ فكان معتنقا للمانوية ثمّ أعنتق مذهب الأفلاطونية المحدثة، ثمّ

عاش

الكاثوليك فصادق أكثر من واحد، فلمّا أنهى أشغاله أعاد النظر في حياته كلّها واعتمد، فكان اهتداؤه إلى الكتلكة حدثاً صاعقاً⁸.

ولما صار أسقفاً أراد أن يتخذ رجال إكليرسه أهم ملامح الحياة الرهبانية، فقرّر الرّحيل إلى إفريقيا ليضع مشروعه حيز التنفيذ، وفي سرّية تامة⁹. كانت هناك نقطة انطلاق اتجاه جديد ؛ وهي التقارب بين الكاهن والراهب، فكانوا يميلون إلى اختيار الكهنة من بين الرهبان¹⁰.

1 - هو مؤسس الحياة الرهبانية المشتركة بعد أن تمرّس بالنسك، بنى أول دير في صعيد مصر سنة 323م، وأعطى جماعته مجموعة قوانين تنظّم حياتهم اليومية من عمل وصلاة، مات سنة 346م.

2 - نهي نجار : موسوعة الأديان السماوية والوضعية، ج6، ص 132.

3 - ولد في مصر سنة 251م، في حصن عائلة مسيحية ثرية، توفي والده وهو لم يتجاوز 18 من عمره، حقق انطونيوس اتحاد للنساك" وأخذت مجموع تتوافد عليه، وافته المنية في 17 كانون الثاني 356م، وعمره 105.

4 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 109.

5 - ألبير أبونا : تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، ج1، ص 151.

6 - جان كمبي : المصدر السابق، 109.

7 - أوغسطين : ولد لأب وثني وأم مسيحية، ولد سنة 254م، في مدينة ما يسمونها اليوم "سوق أهراس"، وضع آداب وقواعد الرهبنة أصبحت مثالا للرهبنة مات في 28 أوت 430 في هيبوت (عنابة اليوم).

8 - الخوري يوحنا الحلو : اعترافات القديس أوغسطينوس، ط []، بيروت، دار المشرق، 1996م، ص 03، 04.

9 - Louis Bertrand : Saint augustin, paris : dit, Fayard, 1913, p 200.

10 - جان كمبي : المصدر السابق، ص 111.

وجاءت "قوانين القديس أوغسطينوس" مجموعة نصائح عامة للحياة الرهبانية. من أفكار أوغسطين: إشكالية الشر / الخطيئة: « الرب لم يخلق ملكا واحدا ورجلا واحدا الذي كان يعلم مسبقا بأنه سيكون شريرا، وإذا لم يعرف جيدا أيضا إلى أي مدى استطاع أن يخدم الخير »¹. لما أصبح أوغسطين مسيحيا، راهبا، ثم أسقف احتذى مثاله هذا، قسم معهم من مفكري العصر الوسيطي².

أيضا يقسم أوغسطينوس الفلسفة إلى فلسفة طبيعية عرضها الطبيعية، وإلى منطق أو علم عقلي يمد بالوسائل التي تكفل معرفة الحق، وإلى علم في الأخلاق أو العادات³.

كانت رهبنة كل من أنطونيوس وأوغسطينوس في الغرب، فكان طراز الرهبنة فيه أشقها وأكثرها عزلة وقد حاول أصحابه أن يمارسوا أقصى شعائره في جو غير رحيم، وكانت أديرة الغرب تعود التعاون في العمل والتجسد في العلوم أكثر مما تعلمهم التعب في عزلة، ولم تلبث أن صارت مدارس لتعليم أصول الدين، وكان لها أبلغ الأثر في أفكار الغرب⁴.

- الفرق بين النسك والترهب :

لا يمكن للباحث أن يفصل بين الترهّب والنسك في القرون الثلاثة الأولى التي ظهرت فيها الرهبانيات⁵. فكهما ظهرا في مصر في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، وعرفا في البداية بنجاح عظيم في الشرق. ليس من السهل تحليل أصولهما وأسباب انتشارهما، بيد أنه يستحيل ألا نرى فيهما نتيجة لحرارة صوفية راسخة⁶.

إن تأسيس الرهبانيات الذي بدأ على أنه جمع للنسك المتوحدين في مؤسسة نسك جماعية، لم يمهّن النسك التوحدي إلا فرادى بشكل ملحوظ فقد بقي النسك الإفرادي منتشرا في نواحي الشرق بشكل ملحوظ فقد بقي النسك الإفرادى المدوّنات بين أخبار النسك وأخبار الرهبان، إلى

1 - Saint Augustin : la cité de dieu, 7 place, st - pierre, maison Aubanel père, 1930, p 18.

2 - إدوارد جولو : الفلسفة الوسيطة ترجمة علي زيغود، ط [ا، 2، 3]، بيروت، لبنان، دار الأندلس 1984، 1992، ص 32.

3 - لويس غرديه، ج.قنواي : فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، نقله إلى العربية : صبحي الصالح، فريد جبر، ج 1، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1967م، ص 219.

4 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة : محمد بدران، ط []، بيروت لبنان، دار الجيل، ت []، ص 117.

5 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج 8، ص 191.

6 - أندريه إيمار : جانين أو بوايه : تاريخ الحضارات العالم، ج 2، ص 617.

حدّ يصعب معه فصل إحداهما عن الأخرى بشكل دقيق، وغالبا ما اعتبر المجتمع آنذاك، كما اعتبرت الدولة النّسك والرّهبان أسمى مسمى واحد¹.

أشار محمد ضياء الرحمن الأعظمي أن نجاح تاريخ الرهبة على مدى تاريخ المسيحية إنّما يعود إلى فلاح هؤلاء القلّة من الرّهبان، الذين ارتضوا عن اختيار العيش على هوامش الحياة، ومع ذلك مثلوا قوة عالمية، استهدفت إعادة صياغة الحياة البشرية، التي استغرقتها النوازع المادية والاسترسال مع الثروات والشهوات، وفقا لتعاليم السيّد المسيح ونمط حياته البسيطة².

إنّنا نلاحظ وجوه التناقض البادية الرهبة خاصة في الغرب اللاتيني فالقديس أوغسطس الراهب الذي اختار الفرار والانفصال عن الآخرين، كان هو نفسه الإنسان الذي كان في انسجام وتوافق مع كلّ الناس الذين اعتزلهم باختياره ابتداء فهو في الوقت نفسه معتزل منفصل عن المجتمع، ولكنّه أيضا في انسجام ووثام كاملين مع أفرادهم.

كما أن الفرار من الدّنيا والاختلاء سرعان ما وُلد أيضا شعورا عميقا بالمسؤولية نحو المجتمع الإنساني، كذلك فإنّ من مظاهر هذا التناقض أيضا، أنّ حركة الرّهبة التي مثلت أصالة نزعة لا عقلانية والاعتقاد بشخصيات ملهمة قد تطوّرت إلى أن تكون مؤسسة حفظت وأعدت صياغة القيم الفكرية والاجتماعية الموروثة عن العالم القديم.

ولقد كشف القرآن الكريم سوء أخلاق أولئك الرّهبان حتّى يعلم أتباعهم أنّهم غير

جديرين بتقديسهم لهم والأخذ عنهم، فهم يأخذون من هؤلاء الأتباع الضّرائب باسم الكنائس، ويستولون عليها لشهواتهم وأغراضهم يكتفون بذلك بل يصدون أتباعهم ويمنعونهم عن الدّخول في الدين الإسلامي، وإتباع ما أرسل به النبي - ﷺ - من عقيدة وأحكام.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَبْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾³.

1 - مجموعة من كبار الباحثين: موسوعة عالم الأديان، ج8، ص 191.

2 - محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ط []، المملكة العربية السعودية، مكتبة

الرّشد، 2003م، ص 109.

3 - سورة التوبة: الآية 34.

المبحث الثالث : التنظيم الكنسي والروابط بين الكنائس

لقد أقام المسيح رئيساً أعلى لكنيسة يسوسها ويدبرها باسمه ألا وهو سمعان بطرس ويتضح ذلك من إجراءات وتصريحات عديدة منها كلامه له في قيصرية فيليس : « أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السموات »¹.

وقد أراده ليس فقط الحجر الأساسي في بناء الكنيسة بل الصخرة عينها التي تمنح البنيان الوحدة والسمود والبقاء، ثم قلده سلطان الحل والربط "مفاتيح ملكوت السموات". ومن المعلوم أن المفاتيح ترمز إلى السلطة على البيت، وأخيراً بعد قيامته من الأموات لما قال له ثلاثاً : « ارع، ارع خرافي، ارع نعاجي »².

لما كان القديس بطرس قد بشر بالإنجيل في روما حاضرة الإمبراطورية في ذلك الزمن، وأسس الكنيسة فيها³ إلى أن قتله "نيرون" خامس القياصرة⁴.

كان على الرسل أن يجتهدوا في حفظ الإيمان القويم، رغم الاضطهاد القطيع الذي كانوا يتعرضون له، وراح المهتدون ينضمون إلى جماعات، ما لبث سفر أعمال الرسل أن سماها كنائس،

1 - مت : 18/16.

2 - يو : 21 / 15-18.

3 - بولس إلياس اليسوعي : خلاصة الدين المسيحي (تعليم مسيحي للصفوف العليا والجامعين)، ط 3، بيروت، لبنان، دار الشرق، 1978، ص 113، 114.

4 - عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1993م، ص 183.

لم يُحل عددها الكثير دون سيرها على طريقة واحدة، فصارت فيما بعد كلمة "كنيسة"¹ تدل على مجموعة الكنائس.

وكان من الطبيعي أن تبرز داخل الكنائس جماعات من المؤمنين تقوم بأعمال خاصة، وكان هذا في البداية شأن الرّسل الإثني عشر، وعلى رأسهم بطرس، وكان لهم في أورشليم وخارجها منزلة فريدة، وقد تجاوز دورهم رسالتهم الأساسية، وهي أن يكونوا شهودًا وحدّامًا للكلمة، فإنّ وجودهم في أورشليم قد مكّن الجماعة الأولى (كنيسة أورشليم) من أن تكون مركزاً منظّمًا، فالرسل هم الذين أقاموا الشّماسية². بعد أن طغت عليهم الأعباء، فأراحوا أن يحفظوا أهمّهم. ومن جهة أخرى، فإنّ يسوع نفسه قد عهد إلى بولس برسالة، إن لم تكن على قدر رسائل الرّسل، فقد كانت مع ذلك أساسية، فجعلت منه مؤسسًا ومسؤولًا عن كنائس.

لذلك يتّضح، أنّه كان للكنيسة (والكنائس) في القرن الأول شبه بنية، أصبحت تشمل إضافة إلى الرّسل، الأساقفة³ والشيوخ، ثمّ الشّماسية⁴.

- المطلب الأول : الأساقفة والمطارنة ...

لما قتل بطرس هناك في روما، كان من البديهي أن يخلفه أسقف روما البابا، وقد يشهد التاريخ على أنّ أساقفة روما البابوات قد مارسوا حقّهم في تدبير شؤون الكنيسة بأسرها، لأنّ الكنيسة منظّمة تهدف إلى توحيد البشر حول شخص المسيح تحقيقًا لعمل خلاص نفوسهم، فهي تحتاج بعد صعود المسيح إلى السّماء إلى رئيس منظور يربط أعضائهم ببعضهم ببعض ويسيرهم بسلطانه نحو الهدف المنشود.

والبابا هو الرّئيس المنظور الذي يقوم مقام المسيح، ويوحّد ما بين جميع المؤمنين المنتشرين في العالم قاطبة، وهو صورة حيّة مجسّدة لوحدة الكنيسة، القطب الذي تدور حوله القلوب تستجديه

1 - الكنيسة : معرّبة عن كنوشتا الآرامية، وعناها الآرامي الحرفي "الجمع والجامعة"، صارت تعني عند المسيحيين "محل العبادة" وتُطلق أيضًا على "جماعة المؤمنين"، وقد تعدّدت الكنائس بحسب المذاهب فيما بعد، فأصبح لكل مذهب كنيسة من حيث الإكليروس والطقس وجماعة المؤمنين.

2 - الشّماس : كلمة سريانية ومعناها الأصلي الخادم.

3 - الأسقف : لفظ يوناني مركب Episcpos معناه الرقيب أو الناظر، وهو مركّب من Epi أي على، Skopein أي لاحظ وراقب.

4 - أ.ع. 22/15 - 23 و 28.

دفع الإيمان، وتوجه إليه العقول لتستنير بنور تعاليمه، فيتولى البابا رئاسة الكنيسة عن طريق الانتخاب، فبعد وفاة البابا يلتئم مجمع الكرادلة وينتخبون واحد منهم بثلاثي الأصوات¹.

والبابا من أصل كلمة "POPE" اللاتينية، ويقال في اليونانية Patriarche، بترياك.

ويقول عالم في تاريخ كنيسة روما: "إن المسيح كان له سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية وسلطة قضائية، ونقل هذه السلطات الثلاثة إلى تلاميذه، وهم بدورهم نقلوا إلى خلفائهم فتجمعت لدى البابوات جميع هذه السلطات"².

ويأتي الكاردينال بعد البابا، وهو في الأساس المساعد الأول للبابا بصفته بطريرك الكنيسة في الغرب، والبابا هو من يختار ويعين الكرادلة في مناصبهم، وفيما بعد ترقى الكرادلة في الإيرارخية الكنيسة أي في تراتبية السلطة، وأوكلت إليهم مهمة إدارة الكنيسة الكاثوليكية في العالم، وفي الفاتيكان حاليا يترأس كل لجنة أو مجمع في الكنيسة كاردينال³.

ثم البطارقة: وهو لقب أطلق منذ القرن الخامس على أساقفة كراسي المسيحية الخمسة الكبرى: وهي روما، القسطنطينية والإسكندرية وأورشليم وأنطاكية، وصار يستعمل مع الوقت لتعريف كبار الأساقفة في كنيسة ما، بمعنى أنه بين إخوته في منطقة جغرافية معينة يشكّلون معا مجمع أساقفة.

الكلمة بالأصل تعني رئيس عائلة أو قبيلة، وقد وردت في العهد القديم للدلالة على أجداد الجنس البشري قبل الطوفان، وفيما بعد على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأبناءه الإثني عشر، وعلى خلفائهم فيما بعد⁴.

يُنتخب البطريرك شرعا في سندوس أساقفة الكنيسة البطريركية، والبطريرك هو أسقف له سلطان على جميع الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وعلى المؤمنين من الكنيسة البطريركية التي يرأسها، والبطاركة هم متساوون في السلطة فيما يترأس بينهم بطريرك أو أسقف روما، ويقال له المترس متساويين Primisuter Paris في اللغة اللاتينية⁵.

1 - بولس إلياس اليسوعي: خلاصة الدين المسيحي، ص 114.

2 - محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان المعتد، ص 466.

3 - فليسان شالي: موجز تاريخ الأديان، ص 259.

4 - محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في اليهودية والمسيحية، ص 470.

5 - فليسان شالي: المصدر السابق، ص 251.

أمّا المراكز الأسقفية التي انفصلت حقا، أي تلك أُطلق على أساقفتها اسم "البطاركة"، فمدينة بنفوذها وأولويتها إلى أسباب أخرى.

فكان الباعث إلى ذلك في أغلب الأحيان، أهمية المدينة المادية، وإشعاعها على منطقة كاملة، وقدم كنيستها، وتأسيسها على يد أحد الرسل، ولكن الرجال كان لهم أثرهم أيضا. فإنّ أسقف قرطاجة الذي لم يقرّ قط بلقب "البطريك" قد مارس مع ذلك سلطة لا جدال فيها على إفريقيا¹. ثم المطارنة، ويقال الأساقفة: الأسقف كلمة تعود إلى اليونانية، وتعني ذلك الذي يراقب، وينظر من علّ، ولفظ المطران هو إيجاز لكلمة يونانية تدلّ على المسؤول عن "أم المدن"، "متروبوليس"، يتحدث العهد الجديد عن الأسقف أربع مرات، ويذكره قبل الشّمس².

هناك أسقف واحد بالمدينة، وهو الرّاعي الأوّل في الكنيسة المحليّة وممثّلها في علاقاتها مع سائر الكنائس، هو يقف في خطّ الرّسل، لم يكن شاهدا مثلهم للقيامة، ولكنه يتمتع مثلهم بسلطة تعود إلى يسوع المسيح، في التراتبية يقف الأسقف في قمة الهرم وقبل الكاهن والشّمس. هو وحده يمنع سرّ الكهنوت للشّمس فيصير كاهنا، كما يُعطى له أن ينظّم المنطقة التي يقيم فيها والتي تسمّى الأبرشيّة، والتي تضم عدد من الرعايا.

يعمل الأسقف مع الكهنة على المستوى المحليّ ويمكنه أن يعمل مع سائر الأساقفة، فيما يسمّى سنودس أو مجمع يحدّد العقيدة المسيحية وينظّم أمور الكنيسة³.

إنّ الأساقفة، بشكل، كانوا يملكون حرية عظيمة، كانوا يجتمعون على مستوى الإقليم أو المملكة فيعودون من هناك بالانقسامات بين الأقاليم وبين الممالك، ويتنافس الأرستقراطية، وكان قادتها منغمسين في الخصومات المحلية والخلافات السياسيّة⁴.

والأساقفة، أساسا، هم كما يدلّ اسمهم، "مشرفون"، معيّنون على الجماعات للسّه عليها. وفي البداية كان الكهنة هم الذين "يشرفون" جماعيا على كل كنيسة. لأنهم كلفوا برعاية قطع

1 - أندريه إيمار، جانين أو بوايه: تاريخ الحضارات العالم، روما إمبراطوريتها، ج2، ص 622.

2 - أبو ظلال الفعالي، سامي ريحانا: موسوعة معارك العرب منذ ما قبل التاريخ وحتى حروب الخليج، ط []، بيروت: دار نوبليس، 2007م، ص 80.

3 - المرجع نفسه، ص 86.

4 - بيار غريمان، جال بيارميوت ومارسيل ياكو: موسوعة تاريخ أوروبا العام، أوروبا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر، ج1، ص 274.

الله على مثال المسيح، نموذج الرّعاة وراعي النفوس وحارسها. ولكن الرّسائل الرّعوية تبين أن على كل جماعة أسقفا واحدا ينبغي أن يُختار بكل عناية¹.

لخص كتاب التّعليم المسيحي الوظائف والخدم الكهنوتية بأنّ الكنيسة كلّها شعب كهنوتي، المؤمنون كلّهم، بنعمة المعمودية، يشتركون في كهنوت المسيح هذا الاشتراك تسمية "كهنوت المؤمنين العام". على أساسه وفي خدمته يقوم اشتراك آخر في رسالة المسيح، ينبع من سرّ الكهنوت، ومهمته الخدمة الكهنوتية يؤدّيها الكاهن وسط الجماعة باسم المسيح الرّأس وبشخصه. ثمّ يذكر الاختلاف بين كهنوت الخدمة وكهنوت المؤمنين العام بأنّه يختلف عنه اختلافا جوهريا، لأنّه الأوّل -يولّي صاحبه سلطانا مقدّسا لخدمة المؤمنين- الخدمة المرسومون يمارسون خدمتهم لشعب الله بالتعليم (مهمة التّعليم)، وإقامة الشّعائر الإلهية (المهمة الليترجية والولائية الرّعائية (مهمة الإدارة)².

كما أخضع المجمع النيقاوي أساقفة كل ولاية لأسقف مركز هذه الولاية، "رئيس الأساقفة"، غير أنّ هذه الدّرجة لم ترتد طابع الأهميّة آنذاك، بسبب تجزئة الولايات، وقد استطاع أسقف مركزه هنا وهناك أن يحظى ببعض التّفوذ، وقد أطلق عليه أحيانا، في الشّرق، اسم "إكسارخوس"³، بيد أنّ كل ذلك لم يخرج في الواقع على نطاق المصادفات والملائمات.

يذكر كتاب التّعليم المسيحي بعض المهام للأسقف: "ينال السقف ملء سرّ الكهنوت الذي يولّجه في الهيئة الأسقفية ويجعل منه الرّئيس المنظور للكنيسة الخاصة التي وكلت إليه. إنّ الأساقفة بصفتهم خلفاء الرّسل وأعضاء الهيئة الأسقفية، لهم نصيب في المسؤولية الرذسولية والرّسالة التي تضطلع بها الكنيسة كلّها، بإمرة البابا خليفة القديس بطرس⁴.

كذلك فإنّ هيئة الأساقفة تزاوّل السّلطات على الكنيسة كلّها وبصورة رسمية في المجمع المسكوني، ولا يكون البتّة مجمع مسكوني إن لم يثبتّه أو على الأقل يقبله خليفة بطرس على أنّه بهذه الصّفة.

1 - معجم اللاهوت الكناي، ص 302.

2 - التّعليم المسيحي للكاثوليكية، ص 475.

3 - أندريه إيمار وآخرون: تاريخ الحضارات العالم، ج 2، ص 622.

4 - المصدر السابق، ص 476.

الأساقفة يسوسون الكنائس الخاصة كنواب ومنتدبين للمسيح، فإنهم يتدبرون سلطاتهم المقدّس، الذي يجب أن يزاولوه للبيان، بروح الخدمة الذي هو روح معلّمهم، وسلطاتهم هذا يجب أن يمارس في شركة الكنيسة كلّها بإشراف البابا¹.

كما أن العصمة يتمتّع بها الحبر الروماني، رئيس هيئة الأساقفة، بحكم مهمته بالذات، بصفة كونه راعيا ومعلّمًا أعلى لجميع المؤمنين ومكلّفًا تثبيت إخوته في الإيمان، والعصمة التي وعدت بها الكنيسة مستقرة أيضا في هيئة الأساقفة عندما تمارس سلطاتها التعليمي الأعلى بالاتحاد مع خليفة بطرس، ولاسيما في مجمع، وهذه العصمة تمتدّ بامتداد وديعة الوحي الإلهي نفسها².

ثم الكاهن : لقط يعود إلى العربية "كهن" بما في الفعل من معنى وثني : تحدّث بالغيب، وفي المسيحية : هو من نال درجة الكهنوت، فسُمع له أن يمارس الأسرار مثل : المعمودية والتوبة والزواج، ... في الترتيب الحالي، يقف الكاهن قبل الشماس، ويخضع للأسقف أو المطران، ويكون مسؤولا عن رعية من الرعايا "مجموعة من المؤمنين" ؛ أو عن عمل كنسي يكلفه به الأسقف أو رئيسه المحلي³.

إن رئيس الكهنة قديما هو رئيس كنيسة الإمبراطور، وهذا اللقب يخوّله تعيين الكهنة للقيام بالخدمات الطقسية ومعاونة الملك، بالإضافة إلى مهمتهم الكنيسة، يحررون الوثائق الرسمية وأعمالا أخرى للإمبراطور ويشكّلون فريقا من المحرّرين الكتبة لهذه الغاية، فرئيس الكهنة الذي ينتمي بالضرورة إلى سلك الإكليروس يحقّ له أن يطلب ساعة يشاء مقابلة الإمبراطور وله الكلمة المسموعة لديه، وهو، بفضل المنصب الذي يشغله، يهتم بكل ما يعنى الكنائس والأساقفة في جميع أنحاء الإمبراطورية، وهو وحده يستطيع التّدخل بانتظام في القرارات التي تشمل الدولة بكاملها، وهو جدير أكثر من أيّ إنسان أن يكون نظرة إجمالية عن الغرب الكاثوليكي.

إن عمل رئيس الكهنة الأساسي يقوم على ترؤس محكمة القصر وإصدار الأحكام باسم الإمبراطور الذي ترفع إليه عملية محصورة وتمارس عند الضرورة، أما سائر الموظفين فهم أقل نفوذا، وإن كان لهم من نفوذ فذلك لأنّ الإمبراطور يستشيرهم. إنهم يديرون الأعمال الخاصة، كل واحد منهم يتفرّد بقطاع خاص⁴.

1 - المصدر نفسه، ص 282.

2 - المصدر نفسه، ص 281.

3 - فليسان شالي : موجز تاريخ الأديان، ص 266.

4 - بيار غريمان، جاك بيار ميوت ومارسيل ياكو : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 297.

ويُمنح سرّ الكهنوت بوضع الأيدي، يليه صلاة تكريس احتفالية تلتمس من الله للمرتمس ما يلزمه من نعم الرّوح القدس للقيام بخدمته، وتُترك الرّسامة في المرتمس وسما سرّيًا لا يلي.

كما أنّ الكهنة يتحدون بالأساقفة في الكرامة الكهنوتية، ولكنهم يخضعون لهم، في الوقت نفسه، في ممارسة مهامهم الرّعائية. إنهم مدعوّون إلى أن يكونوا للأساقفة معاونين فطينين، ويؤلفون حول أسقفهم أسرة أسقفية، تحمل معه مسؤولية الكنيسة الخاصة. ويتسلمون من الأسقف مهمّة العناية بجماعة رعية أو بوظيفة كنيسة معيّنة¹.

كما يضيف أيضًا كتاب التّعليم المسيحي للكاثوليكية أنّ الكنيسة لا تمنح سرّ الكهنوت إلا رجالًا معمدّين يملكون من المؤهلات للقيام بخدمتهم ما تمّ التثيت منه بطريقة قانونية، وللسلطة الكنيسة وحدها ترجع المسؤولية والحقّ في الدّعوة إلى الكهنوت².

ثمّ الشّماس، مشتقة من كلمة سريانية، وتعني "خادم" هي في الاستعمال المعاصر في الكنائس الكاثوليكية إحدى الرّتب الكنيسة الرّئيسية الثلاث، مطران، كاهن، شماس، والشّماس في الكنيسة يعاون الكاهن أو المطران، لكن لا يستطيع إقامة الخدم الصّلوات الطّقوسية الكنسية لوحده، فيما يعهد له ببعض الوظائف ذات الطّابع الإداري أو الاجتماعي³، والشّمامسة خدمة مرسومون للقيام بأعباء الخدمة في الكنيسة، يتولون وظائف هامّة في خدمة الكلمة والشّعائر الإلهية، والإدارة الرعية، وخدمة المحبة، وهي مهام يضطلعون بها تحت سلطة أسقفهم الراعوية⁴.

ثمّ يذكر توماس ميشال أنّ هذه الرّتب الكنيسة الرّئيسية الثلاث مطران، كاهن، شماس هي الدّرجات المقدّسة، وهذه الدّرجات المقدّسة هي السّر الرّابع من أسرار المسيحية، وبهذا السّر يكرّس المرء حياته لخدمة الجماعة المسيحية، ومن خلالها جميع بني البشر.

أمّا الألقاب الكنيسة البابا، الكاردينال، البطريرك فهي وظائف معيّنة في الجماعة، ولا

مدلول لها على صعيد الأسرار⁵.

1 - التعليم المسيحي للكاثوليكية، ص 475.

2 - التعليم المسيحي للكاثوليكية، ص 475.

3 - بولس وهبة : ص 139.

4 - المصدر السابق، ص 475.

5 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 82.

بالإضافة إلى أن المسيحيين قالوا : "بأنه منذ العهود الأولى مُنح الكهنوت ومُورس على درجات ثلاث : الأساقفة والكهنة والشمامسة. هذه الخدم التي تتم بالرّسامة الكهنوتية لا بدليل منها للكنيسة في تكوينها البنيوي : فبدون الأساقفة والكهنة والشمامسة، لا وجود للكنيسة¹. لكن يمكن القول ؛ أن المتبّع لأنجيل المسيحية وما ألحق بها من رسائل يتّضح أنّه لا يوجد في أيّ موضع لقب كهنة أو قساوسة على الخدام كما لم يطلق على الرّسل. والدليل على ذلك قول شارل جينييز : أستاذ تاريخ المسيحية في جامعة باريس : "إنّ فكرة الكنيسة انطوت على فكرة الاجتماع الأخوي، وفي هذه الحالة سمّى أتباع المسيح أنفسهم بالقدّيسين، وظلّت الكنيسة في نشأتها بهذا المفهوم الذي لم يتعدّ طور الأخوة بين المؤمنين المحليين بالمسيح دون أن يظهر ما يسمّى بكنيسة الله في كيان مادي ملموس²."

- المطب الثاني : البطريركيات الخمس.

الفرع الأول : أصل البطريركيات الخمس.

لعبت بعض الكراسي الأسقفية، منذ بدايات الكنيسة، دوراً خاصاً أوسع مدى من دور كرسي عاصمة الإقليم (المطراية أو المترو بوليس)، وهي كراسي المدن الرئيسة في الإمبراطورية، وكانت في الوقت ذاته نقطة الانطلاق للبشارة : أي رومة والإسكندرية وأنطاكية، ومعها أيضا قرطاجة. فكان أساقفة هذه المدن يسيطون سلطتهم على مناطق أوسع بكثير من حدود الإقليم الذي يقيمون فيه، من أجل عقد المجامع أو تثبيت الأساقفة... إلى غير ذلك³.

ويذكر محمد ضياء الرحمن الأعظمي ؛ أنّه في عام 425م، كان عدد البابوات في العالم المسيحي خمسة، أربعة منهم في الشرق، وهي القسطنطينية وأورشليم وأنطاكية وإسكندرية، والخامس في روما⁴.

جمعت الأقاليم التي تعقد فيها المجامع -بدء من عهد ديوقليانوس- في دوائر أوسع (أقطار) دعيت إبيارشيات أو أبرشيات (بلغت خمسة عشر في نهاية القرن الرابع). وفي الجزء الشرقي من

1 - المصدر نفسه، ص 475.

2 - شارل جينييز : المسيحية نشأتها وتطورها، ص 168.

3 - محمد ضياء الرحمن الأعظمي : دراسات في اليهودية والمسيحية والإسلام، ص 465، 466.

4 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 132.

الإمبراطورية، لعبت أساقفة عواصم الإيبارشيات -الذين دعوا أحياناً اكسرخس (رئيس أساقفة)- دوراً مميزاً كما كانت حال الإسكندرية وأنطاكية. فكان يُعترف لبعض رؤساء الأساقفة بحق تكريس المطارنة، أساقفة عواصم الأقاليم.

وهذا هو مدلول القانون السادس لمجمع نيقية والقانون الثاني لمجمع القسطنطينية. تمسكت القسطنطينية -مستندة إلى الترتيب القائم على الدور السياسي- بأولية الشرق بعد أسقف روما (القانون الثالث لمجمع القسطنطينية). ولم يكن هذا القرار موجهاً ضد روما، بل ضد الإسكندرية التي ظلت لزمان طويل المدينة الثانية في الإمبراطورية وفي الكنيسة، وقد أظهرت لنا الجمع المذكورة أنفاً حماسة أساقفة الإسكندرية ضد أساقفة القسطنطينية، وبالتوازي طلب كرسي أورشليم أيضاً أن يحظى بتلك الامتيازات الخاصة استناداً إلى مكانته الدينية¹.

وقد جسّد القانون الثامن والعشرون لمجمع خلقيدونية وضع القسطنطينية الجديد بمنحها الولاية على أراضٍ شاسعة: إيبارشيات البنطس وآسيا (الصغرى) وتراقيا الثلاث، والأراضي الحديثة التبشير².

تحدّدت هكذا الولايات الشرقية الأربع: القسطنطينية وأنطاكية وأورشليم والأسكندرية، وأضيفت إليها ولاية روما في الغرب، فصارت البطريركيات الخمس، التي استمدت وضعها القانوني في حكم إسطنبول منتصف (القرن السادس)، وقد تحدّث بعضهم أحياناً عن "بنتارخية"، أي حكم خماسي للكنيسة³.

أمّا القانون الثامن والعشرون للمجمع الخلقيدوني، فقد اخترنا بعض المقتطفات منه وذلك من كتاب جان كمي: "وفقاً في كل شيء لقرارات الآباء القديسين، وإقراراً بقانون المئة والخمسين أسقفاً (بالمجمع القسطنطيني) الذي قرئ تَوّاً، فإننا نتخذ ونجيز ذات القرارات المعلّقة بامتيازات كنيسة القسطنطينية المقدّسة روما الجديدة، وقد منح الآباء في الواقع، كرسي روما القديمة امتيازاته، لأنّ روما هي المدينة الإمبراطورية، وللسبب عينه منح الأساقفة الجزيلو الوقار، المئة والخمسون امتيازات متساوية لكرسي روما الجديدة المقدّس (...). لكونها الثانية بعدها، فيخضع مطارنة إيبارشيات البنطس وآسيا وتراقيا وحدهم، وأساقفة الأجزاء التابعة لهذه

1 - جميل مدّبك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ص 82.

2 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 133.

3 - جميل مدّبك : المصدر السابق، ص 83.

الإبيارشيات والواقعة في مناطق البربر، ورسامون بواسطة الكرسي المقدس لكنيسة القسطنطينية الجزيل القداسة"¹.

– الفرع الثاني : الصّراع بين الأسقفيات الكبرى.

اشتد الصّراع بين مراكز المسيحية الكبرى في الإمبراطورية الرومانية حول رئاسة العالم المسيحي، والسّعي إلى الهيمنة على شؤون المسيحيين في شتى المجالات، وتركز ذلك التّنافس بين الإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وروما، حيث ادّعت كلّ واحدة منها لنفسها حقّ توجيه العالم المسيحي، وبدأ كل مركز من مراكز المسيحية يستغل تلك الخلافات لتضمن لنفسها السيادة العليا².

1 – الصّراع بين أنطاكية والإسكندرية :

راحت الإسكندرية وأنطاكية تخطوان سريعة باتجاه الرّفعة في عالم المسيحية. وتتسابقان نحو ميدان الزّعامة الكنيسة في وقت كانت فيه روما لا تزال تمثل معقل الوثنية ومستقرّ أباطرة الرومان، وكنيسة القدس لا تزال متخفية عن دورها القيادي في التبشير بالمسيحية³.

كما يضيّق الأب ألبير أبونا بقوله : « وهكذا ظهر خلاف بين مدرستي الإسكندرية وأنطاكية، وأخذ يتفاقم كان هذا الخلاف في جوهره خلافاً فكرياً فلسفياً بين المدرستين »⁴. فقد كانت الإسكندرية تعتبر نفسها بلا منازع مركز الفكر اليوناني والثقافة في حوض المتوسط الشرقي، والمعرفة الإنسانية بمختلف فروعها يقصدها الدّارسين من مختلف ولايات الإمبراطورية حتّى من فلاسفة اليونان أنفسهم.

وقد ذهبت مدارسها الفلسفية بشهرة واسعة فلما جاءتها المسيحية لم يكن لها أن تتخلى في ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق، ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة امتزجت فيها المسيحية بالتراث الفكري المسيحي. فقدّر لها بذلك أن تؤدّي دوراً بارزاً في المسيحية انتشاراً وفكراً وقدّمت لعالم هذه العقيدة الجديدة أشهر آباءه في اللاهوت ويأتي في مقدّمهم كليمنت " Clemens " حوالي 150-215م، وأورجان

1 – جان كمي : المصدر السّابق، ص 133، (نص منشور في مجمع خلقيدونية).

2 – إبراهيم أحمد العدوي : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ط []، القاهرة، دار المعرفة، 1961م، ص 50.

3 – رأفت عبد الحميد : بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، ط 1، مصر، الناشر عن الدّراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، 1997م، ص 58.

4 – ألبير أبونا : تاريخ الكنيسة السّريانية الشرقية من انتشار المسيحية حتّى مجيء الإسلام، ج 1، ص 59.

185-285م، وديونسيوس Dionysius، الذي تولى أسقفية الإسكندرية فيما بين عامي 246-258م، وأضحى الثغر المصري مركز نمو الفكر اللاهوتي في الشرق، وأحرزت كنيسة شهرتها في العالم المسيحي، بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث في أدقّ المشاكل في الدين إلى الحدّ الذي دفع واحد من المؤرخين إلى القول بأنّه ليس هناك بلد من البلاد أثر في تطوّر العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر، بل ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحي بصورة أشدّ عمقا من الإسكندرية وإذا كانت روما تفاخر بأنّ مؤسس كنيستها هو بطرس فإنّ الإسكندرية راحت تعلن أن واضع أسقفيتها القديس مرقس¹.

ثم يقول رونالد: « ولا ينقص من قدرها أنّ مرقس كان تلميذ للقديس بطرس، ومترجما وابنا له بالتبني وأنه واضع إنجيله بناءً على رغبة الأخوة في روما، ثمّ جاء ليبشّر به الإسكندرية ومن ثمة فهي تعتبر نفسها كنيسة رسولية بالانتساب إلى بطرس ممثلاً في شخص مرقس².

ولم ينس الإسكندرية في خضم هذا الصّراع أن تذكر الجميع دائماً أنّها كانت لثلاثة قرون حلت قبل الميلاد عاصمة إمبراطورية البطالمة أصحاب السيادة البحرية في شرقي المتوسط إبان تلك الفترة³.

أمّا أنطاكية فلم تكن تعتبر نفسها أقلّ شأنًا من قريبتها. فقد كانت حاضرة سوريا السلوقية زمنا ليس باليسير.

كما أنّها كانت هي الأخرى إحدى مراكز الفكر الفلسفي اليوناني في الشرق اشتهر من بينها الفيلسوف الوثني لبانيوس " Libanius " 314-393م، الذي كان أستاذا للإمبراطور جوليان ويوحنا ذهبي الفم 347-407م، اللاهوتي الأنطاكي الشهير، وأسقف القسطنطينية 393-403م، ونسطور Nestorius الراهب الذي تولى أسقفية القسطنطينية في القرن الرابع وأذاع آراءه الشهيرة حول العذراء أم المسيح، ورخصت كنيسة أنطاكية على أن تقدّم من خلال مدرستها اللاهوتية في صورة عقلانية متّبعة في عرضها إياه النهج الأرسطي وعدتّ نفسها كنيسة رسولية لا تقلّ

1 - رأفت عبد الحميد : بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، ص 75.

2 - Ronald frohlich : Histoire de l'église panorama et chronologie, t4, bibliothèque d'histoire de christianisme des clé, p41.

3 - السيّد الباز العربي: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ط []، بيروت، لبنان: دار النهضة العربية للنشر، 1968م، ص 61.

مكانة، حيث أن القديس بطرس كان قد أسس كنيستها قبل أن يشرّ بالعتيدة المسيحية في روما حيث أمضى هناك سبع سنوات تقريبا فيما بين 34-42م¹.

ثم بيّن ألبير أبونا أنه في هذه الظروف انضمت كنيسة القسطنطينية إلى أنطاكية وذلك خوفا من انفراد الإسكندرية بالسيادة العليا في قوله: «أيّد بطريك القسطنطينية آراء رجال الدّين في أنطاكية، وقد زاد تدخّل القسطنطينية الأمور تعقيدا إذا اتّخذت طابعا سياسيا باعتبارها عاصمة الإمبراطورية الجديدة، وهكذا كان مطلع القرن الخامس يحمل تيارات جديدة سرعان ما ظهرت بين أساتذة مدرسة أنطاكية بزعامة تيودوروس، واصبح نسطوريوس البطريرك القسطنطيني رائدها الأكبر يدافع عنها دفاعا مستمينا².

2 - الصّراع بين الإسكندرية والقسطنطينية :

لقد أدّى انضمام القسطنطينية إلى أنطاكية، إلى ظهور صراع جديد بين الإسكندرية والقسطنطينية، فالإسكندرية كانت تطالب بالزّعامه للأسباب السّالف ذكرها³.

أمّا القسطنطينية فرغم أنّها حديثة إذا ما قورنت بالإسكندرية وروما وأنطاكية فقد احتفل بافتتاحها في 11 ماي 330م بعد أن بدأ الإمبراطور قسطنطين بوضع حجر الأساس في بنائها عام 324م، فلهذا وجدت نفسها وقد فقدت الأصالة التاريخيّة، ولكنها سرعان ما استعاضت عن ذلك بإعلانها أن هذه المدن الثلاث نشأت أصلا مدنا وثنية بينما بُنيت القسطنطينية منذ اليوم الأوّل لها مدينة مسيحية، وأنه إذ كانت روما الإسكندرية وأنطاكية تتفاخر بأنّها كانت حواضر الإمبراطورية الرومانية، ودولتي البطالمة والسّلوقين على التوالي.

أمّا القسطنطينية فهي عاصمة الإمبراطورية الرومانية الآن، وهي مستقرّ الأباطرة ومقامهم، وأنّها قلعة مسيحية.

لكن كنيسة القسطنطينية كانت تشعر بقصر قامتها إزاء الأسقفيات الأخرى التي أرسى قواعدها رسل المسيح، إذ أنّ نشأتها الحديثة لم تتح لها أن تحضى بمثل هذه الأهمية غير أنّ القسطنطينية لم تكثر لذلك بحيث تتوفر لها الأسانيد الكفيلة بدفعها للمزاحمة على مركز الزّعامه ووجدت ضالتها في إنجيل يوحنا الذي ينفرد عن بقية الأناجيل الثلاثة الأخرى.

1 - رأفت عبد الحميد : المرجع السابق، ص 75.

2 - ألبير أبونا : المصدر السّابق، ص 60.

3 - ألبير أبونا : المصدر السّابق، ص 61.

سبق تعرّف القديس أندراوس إلى المسيح قبل أخيه بطرس، ولما كانت الروايات، تُنسب إلى أندراوس كنيسة بيزنطة حيث ألقى على عاتقه مهمة التبشير في منطقة سكيثيا "Scythia" الأوروبية (شمال البحر الأسود وما بين نهر الدانوب وتاني Tanias) و تم نقل رفاتة إلى القسطنطينية في عهد الإمبراطور قسطنطين II- سنة 357م.

ولما كانت القسطنطينية قد بُنيت على أطلال بيزنطة المدينة الإغريقية القديمة وكنيستها تعدّ امتداد لها فإنّها تفتقر بذلك إلى المرئية الأولى بين الكنائس الرسولية، وإن كانت كنيسة القسطنطينية لم تحظ بلقب رسولي¹.

ويذكر محمد أبو زهرة أنّه في بداية القرن الخامس ظهرت خلافات وصراع بين مدرستي القسطنطينية والإسكندرية حول الزّعامة الدّينية حول تزعم وتوجيه العالم المسيحي خاصة بعد انضمام مدرسة أنطاكية إلى القسطنطينية².

وأما هذا الهجوم على كنيسة الإسكندرية بادر أسقفها إلى الاستعانة بالكنيسة في روما حيث أرسل إليه البابا يؤيده ودعا إلى عقد مجمع في أفسس عام 449م، تعتبر أنّ روما لم تلبث أن خشيت علو مكانة الإسكندرية لاسيما إن خالفتها القسطنطينية، وأصدر البابا في روما هوليون الأول كتاب خالف فيه آراء الإسكندرية خاصة الدّينية منها³.

3 - الصّراع بين روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية :

في القرن الرابع ظهر اتجاهان مختلفان عن الأسباب التي جعلت لبعض الكنائس من الأهمية ما يزيد عن الكنائس الأخرى، فمن جهة كان ثمة رأي يدعو إلى أهمية المقرّ الدّيني (الكنيسة)، مستمدة من أهمية مركزه في الإدارة الإمبراطورية، ومن جهة أخرى كان الرأي الثاني يعتبر أهمية المقرّ الكنيسي، يتوقف على قوّة تقاليد الرّسولية وأهمية منشئه ومؤسسه، وكلا الرأيين يصحّ تطبيعهما على المراكز الكبرى الثلاثة "أنطاكية والإسكندرية وروما". إذ أنّ هذه الكنائس الثلاث

1 - رأفت عبد الحميد : بيزنطة بين الفكر والدّين والسياسة، ص 67.

2 - محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية، تقديم عمار طالي، تصدير محمد الغزالي، ط []، قسنطينة، الجزائر : شركة

الشهاب، 1989م، ص 219.

3 - Théo-nouvelle encyclopédie catholique droyuet, arddant Fayard, 1989, p 324.

زعمت أن مؤسسها القديس بطرس سيّد الرسل¹، سواء قام بذلك بشخصه مثلما هو الأمر في روما وأنطاكية، أو بإعانة الرسول مرقس مثلما جرى في كنيسة الإسكندرية والمعروف أنّ هذه المدن الثلاثة تُعتبر من المراكز الإدارية الهامة بالإمبراطورية.

فأنطاكية كانت حاضرة إقليم Diocèse الشرق الشاسع، أما الإسكندرية فكانت عاصمة مصر، وكانت روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ومع ذلك فإنّه كان من العسير على الكنيسة من التّاحية العلمية أن تقبل عن طيب خاطر أيّ الرّأيين، فإذا كان نظام الكنيسة يطابق فعلاً نظام الدولة فسوف يترتب على ذلك أن مكان الكنيسة يطابق فعلاً نظام الدولة فسوف يترتب على ذلك أن مكان الكنيسة من مجتمع لاهوتي، إنّما جرى قيامه ليتلاءم مع إطار عالم الإمبراطور الدنيوي، يضاف إلى ذلك أنّ ما حدث من تغيّرات في نظام الإمبراطورية لا بدّ أن يتبعه أيضاً تغيّرات في نظام الكنيسة، وكان من أثر هذا الرّأي أن أعلن مجمع القسطنطينية الذي انعقد في 381م أنّ لأسقف القسطنطينية الصّدارة بعد أسقف روما لأنّ هذه المدينة هي روما الجديدة، إذ نقل إليه قسطنطين مقر الإمبراطورية، وحوث بذلك خصائص روما القديمة وروما الجديدة ولذلك كتب يوحنا بطريرك القسطنطينية في أواخر القرن السادس: «إني أتولى أقدس كنيسة روما القديمة والجديدة واعتبرهما واحدة، وأعتبر كرسي القديس بطرس كرسي العاصمة وكرسي الإمبراطورية كرسي واحد»².

وبهذا فالكراسي الرّسولية الأربعة روما - الإسكندرية - أنطاكية - القسطنطينية صارت لها الرّعاية في الكنيسة دون منازع ثم يعلق السيّد الباز على ذلك بقوله «على الرّغم من ظهور منافسين في كنيسة بيت المقدس وكنيسة ميلان لهذه الكنائس إلا أنّها صارت لها الرّعاية. على أنّ السؤال الذي لا يزال قائماً هو كيف انتظمت العلاقات بين كل هذه الكنائس أو لأحداها الصّدارة والرّعاية على الأخرى؟ وإن حدث ذلك فأيهما تكون لها الرّعاية؟»³.

5 - تدخل الإمبراطور في حسم الصّراع بين الأسقفيات الكبرى.

1 - Françoise Ladoues : brève histoire de l'église catholique petite encyclopédie moderne de christianisme de clé, France, 1988, p 27.

2 - السيد الباز العربي: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 159.

3 - السيد الباز الغربي: المرجع نفسه، ص 160.

في خضم هذه الصراعات بين الأسقفيات الكبرى حول الزعامة الدينية أراد الإمبراطور مارسيان وضع حد لهذه الخلافات وأمر بعقد مجمع في 451م بخلقيدونية حضره كثير من رجال الدين وحاول المجتمعون كسب تأييد الإمبراطور ليضمنوا النصر لأرائيمهم الدينية وأقرّ المجمع وجهة نظر البابوية، وهياً لروما الفوز على الإسكندرية، وصار لرجال الدين في روما مركز الصدارة على العالم المسيحي، غير أن البابا لم يهنأ بهذا الفوز الذي انتصر في مجمع خلقيدونية هو الإمبراطور الذي آزر القساوسة المعارضين لرجال الدين في الإسكندرية، ولذا جنح رجال الدين في روما إلى الاستقلال بكنيستهم، في حين لم يستطع قساوسة القسطنطينية للاستقلال، وذلك لخضوعهم مباشرة لرئاسة الإمبراطور، وهكذا نجحت كنيسة روما في أن تتجنب المصير الذي خضعت له كنيسة القسطنطينية في الشرق، كما أخذت شخصية البابا تعلقو تدريجياً وتصبح عنصر هاماً من عناصر المجتمع الوسيط¹.

- المطلب الثالث : تأكيد الأولوية الرومانية.

الفرع الأول : مبدأ الأسبقية "أسبقية كنيسة

لا يمكن الكلام عن البابوية، ولا عن مفهوم "البابا" - بالمعنى الحالي- حتى القرن السادس. فقد كان لفظ "بابا" لقباً جارياً يمكن استعماله لأيّ أسقف، وكان يعنى به دوره الأبوي². ويقول جان كمبي إثر ذلك : "ودون الدخول في التفاصيل، لنقل إن أسقف روما كان يلعب في الغرب اللاتيني دوراً شبيهاً بالدور الذي كان يلعبه أسقف الإسكندرية مثلاً، في مصر وفي المدن الغربية الخمس (ليبيا). ومع هذا، فمنذ البداية، احتلت روما مكانة استثنائية في الكنيسة الجامعة، وذلك بفضل حضور واستشهاد الرّسولين بطرس وبولس فيها، وبفضل موقعها كعاصمة للإمبراطورية، فقد تدخل أساقفة روما في حياة الكنائس الأخرى : فذكر اقليمنضس الروماني سنة 96 كنيسة قورنتس بضرورة الوحدة والنظام، وحرّم فكتور أساقفة آسيا الصغرى الذين لم يتبعوا عادات روما والإسكندرية في الاحتفال بعيد الفصح (نحو سنة 190) ووبّخ اسطفانس الروماني قيريانس بخصوص معمودية الهرطقة... إلى آخر ذلك"³.

بالإضافة ؛ أن كل من جميل مدبك وجان كمبي اتفقا على أن مجمع خلقيدونية قد أبرز قيمة الدور العقائدي لأسقف روما، فيذكر أنه حين صرّح الآباء : "تكلم بطرس بقم لاون"

1 - إبراهيم أحمد العدوي : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ص 52.

2 - جميل مدبك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ص 84.

3 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 134.

والتحديد -وفقا لما أعلنه من قبل مجمع روماني سنة 382- ارتكز القديس لاون الكبير على متى : 18/16-19 في سبيل تنمية فكر لاهوتي للأولية. فأقرّ لنفسه حقّ وواجب قيادة الكنيسة في جملتها، بصفته خليفة بطرس الرسول. وما الأساقفة الآخرون إلاّ "مشاركون في مهمته الراعية، لا في ملء سلطانه". فأسقف روما في نظر الأول، يبدو أسقفا كونيا (جامعيا)، أو أسقف الأساقفة، ومصدر السلطة الأسقفية، واعتبر غريغوريوس الكبير، فيما بعد، البابا، بالأحرى، أسقفا بين الأساقفة. فما هو إلاّ الأول بينهم¹.

كذلك نجد أن فليسان شالي قد أشاد بدور أسقف روما فيقول : « ولما ضعفت الكنائس الشرقية لأسباب عدّة زاد نفوذ كنيسة روما حتى صار أسقفها ممثلا لجميع الكنائس الكاثوليكية بحجة أنّه مجاور لمقبرة بطرس الذي قُتل في روما »². وأنّه هو رأس الكنيسة³.

ثم يضيف جان كمي أن أسقف روما ورث وعودا قطعت لبطرس فيذكر منها : « أختير بطرس وحده، دون المسكونة، ليتولى دعوة كلّ الشعوب، وهو وحده وُضع على رأس جميع الرسل وجميع آباء الكنيسة، وهكذا الأمر في شعب الله. فرغم أنّ الكهنة كانوا عديدين، والرعاة كثيرين كان بطرس يحكم، بصفة شخصية، ويكونه رئيسا لجميع الذين يحكمهم المسيح، وفي عنايته الإلهية (...). قيل لبطرس : سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات (...). فمن المؤكد أنّ حقّ ممارسة هذا السلطان فقد انتقل أيضا إلى باقي الرسل، وامتدّ التأسيس الذي نشأ من هذا الوعد إلى جميع أمراء الكنيسة (...). فإن كان هذا السلطان -في الواقع- قد سلّم إلى بطرس بصفة شخصية، فهذا يعني أنّ وضع بطرس يمتد إلى جميع رؤساء الكنيسة⁴.

ولكننا نلاحظ أنّه ليس بالضرورة إذا أعطي لبطرس السلطان أنّه يمتد إلى رؤساء الكنيسة الآخرين، لأنّه نفترض وجود أوصاف لدى بطرس أهله لامتلاك مفاتيح ملكوت السموات، فهذا لا يتوفر بالضرورة لدى الرؤساء الآخرين وليكون سببا لاستحواذهم على الإرث في السلطة أو أي شيء آخر.

لقد كان مشكل الأسبقية موجودا من حوالي 220م، حيث ادّعى أساقفة روما مبدأ الأسبقية على الكنائس الأخرى، وذلك للأسباب التالية :

- 1 - كل من جان كمي وجميل مدبك في كتابيهما، ص 84، ص 134.
- 2 - فليسان شالي : موجز تاريخ الأديان، ص 115.
- 3 - كاريستيان الحلو : موسوعة الأديان الميسرة، إشراف : سعد السّهراي، ط2، بيروت : دار النفائس، 2002م، ص 485.
- 4 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 135

1 - الأسباب الدنيوية :

لقد تقدّمت الكنيسة الكاثوليكية "كنيسة روما" وأصبحت ذات امتيازات عليا معترف بها كسلطة دينية، وقد أكّدت كرسيتها الرسولي، من خلال كون كنيستها لها قدسية خاصة حيث أنّها أعظم وأقدم كنيسة عرفها العالم أسّسها اثنان من أجل القديسين قدرا وهما بولس وبطرس¹. وعلى هذا طلب أسقف روما بأن يكون على رأس الكنيسة، وذلك بناء على أن مؤسس الكنيسة هو بولس وبطرس بالدرجة الأولى، وقد تسلّحوا بالنظرية البطرسية والتي مفادها ؛ أن الأسقف الذي يشغل كنيسة روما يرث بطرس أول الحواريين وخليفة المسيح².

وقد استدلت النظرية البطرسية على ما ورد في إنجيل متى الإصحاح 16، حيث جاء فيه :
"وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"³.

كذلك أسند أساقفة روما ادعاء السلّطة من قول المسيح في إنجيل يوحنا الإصحاح 21 : "يا سمعان بن يونا أتجني أكثر من هؤلاء؟ قال له : نعم يا رب أنت تعلم أنني أحبك، قال له : ارع خرافي"⁴.

كما ذكر الكثير أن يسوع خوّل للقديس بطرس رئيس الحواريين السلطة -ومنهم جون بارتست وجون ماري- حيث ذكر يسوع : "أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة"⁵. هذه النظرية البطرسية دعا إليها لأول مرة القديس سريان 248-258م ولن تلبث أن ذاعت وانتشرت في الغرب، فما حدث من اعتراف مجمع سردريكا المنعقد في 343-344م بحق استئناف قرارات المجامع الإقليمية المحلية إلى أسقف روما، زاد فعلا من دعاوي روما باعتبارها الحكم الأعلى للكنيسة⁶.

1 - Marcel simon, André Benoit : Le judaïsme et le christianisme Antique, presses universitaires de France, Paris, 1968, p 178

2 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، 486-1500، ط []، بيروت، المكتبة العصرية، 1967م، ص 59.
3 - مت : 16/18-19.

4 - Encyclopédie universals, vil 01 rédition a paris matière papauté.

5 - Jean Bartiste duroselle, Jean Marie moyen : Histoire du catholicisme, presses universitaire de France, 1999, p 14.

6 - Jean bartiste duroselle + Jean Marie moyeur : Histoire du ctholicisme, p 14.

واعترف بالبابوية رسمياً في مجمع انعقد بروما تحت رئاسة البابا دماسيوس الأول سنة 382م لما لها من صدارة لمقتضى التقليد البطرسي حين رد على مجمع القسطنطينية سنة 381م، بأن صدارة روما لا تستند إلى قرارات صادرة من سينوت "مجمع" سنة 383م، بل تتركز على ما بذله المسيح من وعد للقديس بطرس، وبعدها قام نوع من ترتيب الكراسي الرسولية البطرسية، والتي تعتبر روما الأولى في هذا الترتيب¹.

وقد تميّزت كنيسة روما في هذه الفترة بوحدة صفها وعقيدتها بتمسكها المجالس العالمية الدينية الأولى، لذا قاومت البدع الدينية بدون هوادة بخلاف رجال الدين في الكنائس الشرقية الذين مزقتهم الاتجاهات المذهبية المتصارعة، ولعل تلك الوحدة الدينية لاتباع كنيسة روما من جملة العوامل الهامة التي مكنتها فعلا من الجهر بالسيادة الرومانية على سائر الكنائس^{2,3}.

2 - الأسباب السياسية :

يذكر محمد الشيخ أنه في الوقت الذي خضع فيه رجال الدين في الشرق "القسطنطينية والإسكندرية" لسلطة الأباطرة وأسلموا لهم قيادتهم واحتفظ فيه الأباطرة بحق الدعوة للمجامع الدينية لبحث شؤون المسيحية حسب ما استنته قسطنطين من سابقة الدعوة إلى المجامع، ولم تر الأمر اختلف عن ذلك كثيرا في الغرب الأوروبي، فقد أدى تقسيم الإمبراطورية الرومانية وضعف أباطرتها في الغرب وقصور مهمتهم في فرض سلطتهم على رجال الدين في نفس الوقت بروز أهمية الكنيسة الغربية وانفرادها، ولهذا استطاع رجال الدين في روما الرقي بكنيستهم والوصول بها إلى مركز الصدارة في العالم الغربي⁴.

ضف إلى ذلك أن السلطة في روما أبعدت الكنيسة الرومانية عن التأثيرات السياسية المباشرة لأباطرة الرومان، مما جعل لها كيانا متميزاً ازداد استقلالاً منذ أواخر القرن الرابع بخلاف ما هي عليه كنيسة القسطنطينية التي هيمن عليها الأباطرة⁵.

1 - السيد الباز العربي: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 160.

2 - Jean bartiste duroselle + Jean Marie moyeur : Op. Cit, p 15.

3 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 60.

4 - محمد محمد مرسى الشيخ : التّظّم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط []، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1996م، ص 155.

5 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 59.

بالإضافة إلى هذا التفوذ السياسي لروما في الإمبراطورية حيث كانت دائما مكان سلام خاصة في وحدة الكنيسة¹.

3 - أسباب أخرى :

وهنا نشير إلى أسباب وعوامل أخرى ثانوية ساعدت على تحقيق سيادة البابوية "كرسي روما"، منها : ازدياد الالتجاء إلى أساقفة روما لاستئناف الأحكام القضائية التي أصدرتها المجمع الإقليمية، أو صغار الأساقفة مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحاكم الأكبر والسيد الأعلى². وتأييد الأباطرة لما وجهته كنيسة روما من حملة لمناهضة الوثنية والهرطقة لما فرضوه من إجراءات أمنية، وبما أقرّوا من تعيين الأساقفة وعزلهم، ومن العوامل كذلك عظم ثورة أسقفية روما منذ زمن دقلديانوس حيث أسهم الأباطرة في زيادة ثرواتها حتى غدت أغنى المراكز الرسولية في الكنيسة، وأشتهر أسقف روما في العالم المسيحي بالصدارة في أمور البر والإحسان، هذا من جهة. ومن جهة أخرى موقعها الجغرافي ؛ حيث ساعد روما إذ أنها طلّت بمنأى عن النزاع العنيف الذي نشب بين البطريركيات الشرقية كما أنها بعيدة عن سيطرة الإمبراطور بالقسطنطينية³.

بالإضافة إلى ذلك فإن كنيسة روما ورثت مجد الكنيسة الرومانية الأولى التي تنظر إليها الشعوب اللاتينية والجرمانية نظرة إقدار وتقديس منذ القديم، حيث أصبحت روما أثناء انغمار أوروبا بالسيول الجرمانية منطلقاً للتبشير إلى مختلف جهات أوروبا الغربية الشمالية والوسطى. كما أن الإنجيل المترجم إلى اللاتينية المتقنة، والذي قام بترجمته القديس "جيروم" في أواخر القرن الرابع ساعد على نجاح مهمة المبشرين في الجهات اللاتينية، وكان هؤلاء المبشرين يدعون إلى الزعامة الروحانية لرئيس أساقفة روما.

والشيء الآخر الذي أثبت أسبقية كنيسة هو ما صرح به إبراهيم أحمد العدوي من أنه "ظهر شخصيات كبرى سواء كانوا من بين السلك الكهنوتي أو الأتباع⁴. منهم القديس "حنا كرسوستوم" "فم الذهب" وهو أحد الآباء القديسين وأكثرهم فصاحة وبلاغة على الإطلاق، ما

1 - Françoise ladoues : brève histoire de l'église catholique, p 28.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج 1، ص 52.

3 - وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم، ترجمة : مصطفى، زيادة، ط []، ج 2، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ص 387.

4 - إبراهيم أحمد العدوي : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ص 54.

يثير التفكير فيما انفردت به روما من المزايا بسبب القديس بطرس وبولس، إذ جاء موعظة دافقة لحنا ما نصه : "ولهذا السبب أحب روما حباً جماً وأستطيع أن أحبها وأمدحها لأسباب وأسباب من عظمتها الخالدة ورسوخها في القدم وجمالها الفاتن وكثرة أهلها وقوتها العظيمة وثروتها الضخمة وفوزها في الحروب، ولكنني أعبر عن ذلك كله وأباركها لأن بولس كتب إلى أهلها، وأحبهم وافر الحب وعاش بينهم وتحدث إليهم وكلمهم ووعظهم، وفي روما كانت وفاته، ولهذا السبب دون غيره من الأسباب زادت روما شهرة فوق شهرتها ولذا فمثلها مثل جسم شامخ هائل في رأسه عينان لا معتان، هما نوران منبعثان من جثمان هذين القديسين، والسما لا تضيء حين ترسل الشمس أشعتها في الأرض مثلما تضيء روما أنحاء العالم بنور هذين الرجلين.

ففي روما ينهض بولس من مرقده وفيها يبعث بطرس، حيث يقوم كل من كل من بولس وبطرس من قبريهما، ويذهب كل منهما للوقوف بين يدي ما أجمل الوردتين اللتين ترسلهما روما وقت ذلك، وما أعظم هاتين الجوهرتين اللتين يزدان بهما جبين روما، وأهى الذهب الذي يتحلى به جديها وما أبدع ما فيها من ينابيع الثور لهذا أحب روما حباً جماً، وأعجب بما أيما إعجاب لا من أجل ذهبها الكثير ولا من هذين العميدين الاثنتين اللذين ارتكزت على اكتافهما صروح الكنيسة، من إذن الذي يهب لي أن أقبل جثمان بولس وأدلف إلى قبره ورأى التراب ذلك الجسد الذي اكتملت بشرائه وآلامه في الحياة روحية المسيح وارتسمت عليه جروح المسيح وانتشرت بفضلته تعاليم المسيح في أرجاء المعمورة"¹.

كذلك لعبت شخصيات كبرى كانت في كنيسة روما دورا بارزا في إثبات أسبقية كنيسة روما، وعملوا على إعلاء شأنها ومن أشهرهم "سلفستر الأول" 314-335م الذي يعود إليه الفضل في اعتناق قسطنطين المسيحية².

وقد أكد يوليوس -I- 337-352م سلطة روما العليا، ولكن ليربوس 352-366م الذي خضع بسبب شيخوخته أو ضعفه لأوامر قسطنطين.

1 - ه - أ - ل فيشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، نقله إلى العربية : محمد مصطفى لزيادة والباز العربي، ج 1، ط5، مصر : دار المعارف، ت []، ص 108.

2 - Juan dacio : dictionnaire du papes, présente par vintila haria éditions France empire, 1963, p 16.

ولمّا مات تناح داماس ويورانوس على البابوية وقد أدى هذا التنازع إلى نفي يورانوس من روما من طرف الحاكم فأستيب الأمر لداماس الأول¹ الذي وضع مؤلفاً أشاد فيه الجالسين على كرسي البابوية في روما².

وخليفة البابا سركيوس 384-399م الذي اشتهر بالمراسيم البابوية الأولى والمسائل التي عُرضت عليهم، وقدرته على الفصل في المسائل ثم البابا "ليون الأول" 440-461م، الذي استطاع بشجاعته وحسن سياسته أن يزيد من سلطة الكرسي الرسولي وهيبته، حيث عندما رفض هيلاري أسقف بواتيه أن يخضع لحكمه في نزاع دار بينه وبين أسقف غالي آخر أرسل إليه ليون أوامر حاسمة وعاجلة أيدها الإمبراطور فالنتيان -III-، بمرسوم من أهم المراسم الإمبراطورية يؤكد فيها سلطة أسقف روما على جميع الكنائس³.

ثم كان اعتلاء البابا جيلاسيوس الأول 492-497م؛ تأكيد آخر لكرسي روما حيث كتب إلى الإمبراطور أثناسيوس الأول إمبراطور الشرق جاء فيها: أيها الإمبراطور العظيم هناك قوتان تقتسمان حكم العالم هما سلطة البابوات الرّوحانية المقدّسة والسلطة الملكية، غير أن مسؤولية السلّطة الأولى أعظم من الثانية لأنّه على البابوات ... محاسبة الملوك ... يقوم الحساب وإن الإمبراطور هو ابن الكنيسة، وواجبه التّعلم لا التّعليم في القضايا الدّينيّة⁴.

ثمّ كان اعتلاء البابا جريجوري الأول 590-604م؛ فصل ختام بالنسبة لمكانة البابا وسلطته الدّينية في الغرب الأوروبي بعد أن دانت له الكنيسة الغربيّة بوصفه خليفة القديس بطرس ورأس السلّطة الدّينية في أوروبا وفي العالم المسيحي كلّ⁵.

كما كان لأساقفة المدن الأخرى دور كبير في إثبات أسبقية كنيسة روما مثل أغناس أسقف أورشليم في القرن الثالث الذي أقرّ بأسبقيتها وحقّها في قيادة كل الأساقفة حيث قال: أنا أرى بأن كل الذي تحدّده أنت بتعليمك المترلي مسلم به⁶.

1 - إبراهيم أحمد العدوي: المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ص 54.

2 - Juan dacio: op. cit, p 16.

3 - ول ديورانت: قصة الحضارة، "عصر الإيمان"، ترجمة: بدران، ج1، ص4، ط[]، م[]، جامعة الدّول العربيّة، ت[]، ص 105.

4 - عبد القادر أحمد اليوسفي: العصور الوسطى الأوروبية، ص 67.

5 - محمد محمد مرسى الشيخ: التّظيم والحضارة الأوروبيّة في العصور الوسطى، ص 158.

6 - Jean bartiste duroselle, Jean Marie: Histoire du catholicisme, p14.

ثم يضيف أيضا عبد القادر اليوسفي حديثه عن القديس أمبرواز، فيقول: « كذلك القديس أمبرواز 340-398م، أسقف ميلان الذي دافع بشجاعة ضد تحديات السلطنة السياسية على المصالح الكنيسة إذ أشار أنه لكنيسة روما سلطان روجي على كافة المسيحيين لما فيهم الإمبراطور. لأن هذا الأخير مسيحي وهو ابن الكنيسة، فهو إذن في ضمن الكنيسة وليس فوقها، وقال في رسالة بعثها إلى الإمبراطور فالنتيان الثالث: "جرت العادة أن يحاكم الأساقفة الأباطرة وليس للأباطرة محاكمة الأساقفة"¹.

وكذلك قال: "أين يوجد بطرس توجد الكنيسة"². كذلك أسقف قرطاجنة لم يتراجع أمام الصراعات التي ظهرت في القرن الثالث ثم القرن الرابع مرة أخرى، قد أتاحت إحدى هذه التزعات للقديس أوغسطين كتابة كلمته المشهورة "تكلمت روما إذن انتهت الدعوة"³.

وهكذا نشأ التقليد الرسولي الذي يعطي كامل الثقة بكنيسة روما ويجعل أساقفتها في مرتبة الزعيم الشرعي للكنيسة، وليس مستشارا للكنيسة فحسب، وقد احتفظت روما بهذه الصفة ليس بسبب الإصرار والتمسك بالعقائد المتصلة بالمشاكل اللاهوتية التي طالما سببت انقسام الكنيسة، وفي ذلك النزاع الطويل الأمد حول طبيعة الألوهية والصفات الشخصية للروح القدس.

كما يقول أيضا بواكيم برنز: "ولكن أيضا بخصوص أعمال ذات طبيعة أممية كاثوليكية، ولهذا أصبحت كنيسة روما بشكل طبيعي زعيمة الكنائس، وذلك بسبب التقاليد الرسولية التي أمّنت لها الثقة واستمرار سلطتها الروحية"⁴.

الفرع الثاني : الصراع الثنائي بين أسقفيات الشرق (القسطنطينية)، أسقفيات الغرب (روما).

إن الأسباب التي دعت إلى انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية تقسم إلى أسباب سياسية ودينية :

1 - الأسباب السياسية :

1 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 61.

2 - M.Jtissot : Histoire de l'église entièrement, paris, 1934, p 42.

3 - أندريه إيمار، جانيت بوانيه : تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ص 135.

4 - بواكيم برنز : بابوات من الحي اليهودي، ترجمة : خالد أسعد عيسى، مراجعة : سهيل زكار، ط 1، دمشق، دار حسّان للطباعة والنشر، 1983م، ص 79.

أ- قسّم الإمبراطور تيودوسيوس، الإمبراطورية الرومانية سنة 395م إلى قسمين غربية وعاصمتها روما، وشرقية عاصمتها القسطنطينية وبعد وفاته أصبح ابنه أكاديوس إمبراطورا على الإمبراطورية الشرقية وابنه الثاني هو نوريوس إمبراطورا على الإمبراطورية الغربية هذا التقسيم أتاح مركزين للسلطة والنّفوذ، وأخذت العاصمة الجديدة تنافس روما¹.

ب- سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية بهجوم البربر عليها سنة 476م فأعطى هذا فرصة لكنيسة روما أن تضم إلى نفوذها الديني نفوذا سياسيا، فأدّعت أنّه من حقّها أن تحكم العالم المسيحي كلّه، ولم تقبل أن تقسم النّفوذ مع كنيسة القسطنطينية، وأعلنت أن رئيسها هو الرئيس الرّوحي ولم تقبل كنيسة القسطنطينية ذلك².

2 - الأسباب الدّينية :

أمّا السباب الدّينية فخلاصتها أن إمبراطوريتها منطقة الإمبراطورية الشرقية متصلة بأرض الدّيانا حيث عملت كنيسة روما على نشر المسيحية بين الوثنيين، أمّا كنائس الشّرق فقد تأثرت بالتّفكير الشرقي ونشر المسيحية بين قوم قدامى عهد الأديان³.

وظلّ الصّراع قائما بين القسطنطينية وروما حول الرّعاية الدّينية والتي تلتها الاختلافات العقائدية التي أدت إلى عقد العديد من المجمع المسكونية لتسوية هذه الخلافات والمسائل الدّينية⁴. العالقة التي دعا إليها الأباطرة الذين أخذوا يساندون مبدأ المساواة في المكانة والامتيازات بين كرسي روما والقسطنطينية لكن مندوب ليون الأول عارض هذا المبدأ واستشهد ببعض قرارات مجمع نيقية على أسقفية كنيسة روما حيث تمسك بابوات روما دائما بأنهم خلفاء القديس بطرس حتّى اعترف بزعامته جميع أسقفيات الغرب في القرن الخامس ولم تعارضه سوى الكنيسة الشرقية⁵.

الفرع الثالث : تدخل الإمبراطور في حسم الصّراع لصالح روما.

1 - Ronald Frohlich : Op. Cit, p 39.

2 - أحمد شلي : مقارنة الأديان، ج2، ص 240.

3 - أحمد عبد الغفور عطار : الدّيانا والعقائد في مختلف العصور، ج3، ص 503.

4 - علي عبد الواحد وافي : الأسفار المقدّسة في الأديان السّالفة السّابقة للإسلام، ط 1، م [] مكتبة التّهضة المصرية، 1964م، ص 118.

5 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، "التاريخ السّياسي"، ص 51.

كان موقف الأباطرة فيما يخصّ مبدأ الأسبقية ليس ثابتا ولا يمكننا أن نحدّد التّغيّرات لكن يمكننا ملاحظة الاختلاف بين الشّرق والغرب في الرّأي فأباطرة الغرب أظهروا التأييد الكبير للأسبقية روما ومن هذه الوثائق المهمة في هذا الموضوع هو مرسوم فالنتيان -III-.

إلى أوتيس "Aetiuss" في 08 جويلية 445م، ورغم اعتراف الأباطرة بالمركز الروماني إلا أنّه لم يظهر إلا في منتصف القرن الخامس زمن ليون وحكومته وفالنتيان الثالث الذي أقرّ مبدأ الأسبقية ومثول كل أساقفة الأقاليم إلى البابا في روما، وهذا الفعل يعتبر تدخّلا للإمبراطور في مسائل الكنيسة، ويمكن أن نعرف من خلال هذا التّدخل إنقاصا من حقّ البابا وقد صرّح فالنتيان أن أسبقية كنيسة روما أقرّها مجمع نيقية وهذا عن طريق تحريف نص يدعو إلى وجوب الأسبقية وأخذ يوضح باهتمام بأنّ القرار البابوي وبواسطته يتم إنقاذه من الغالين وتأييد البابوية من طرف الإمبراطور لها دعم كبير وفائدة في إيقاف الذين يخالفون أحكامه من أجل اتباع قوانين الإمبراطورية، ومن أجل إثبات الأسبقية ذكر فالنتيان بدوره أفضال بطرس والإرث الرّسولي ومكانة المدينة الرّومانية.

لكن إذا أخذ بهذا الاعتراف يمكن طرح سؤال : هذا الاعتراف تكريس للأسبقية من طرف الإمبراطور الذي احتفظ بهذا الأمر الإمبراطوري الخاصّ به بمبادرته التامة ؟ أم أنّها تعبّر عن استسلام الإمبراطور أمام مذهب ليون عن دور خليفة بطرس ؟.

هذا التساؤل الثاني ظهر توافقا في وقت واحد مع وضعية القوى وصعوبة الأمر أمام الإمبراطور، وهو تعرّض إمبراطوريته في الدّاخل إلى صعوبات مالية واقتصادية ضخمة¹.

وفالنتيان -III- لم يظهر كرجل يستطيع السيطرة على القديس ليون ومرسومه الصّادر سنة 455م، أشار صراحة إلى تدخل البابا، فالإمبراطور لم يتصرّف بمبادرته الخاصّة، والحقيقة أنّ هذا المرسوم لا يتوفّر على دور كبير قام به الإمبراطور، ويجب أن تلاحظ أنّ المؤسسة البابوية لم تستند إلى هذا المرسوم خوفا من أولئك الذين يزعمون أنّ مكانة البابا لم تكن سوى امتياز من الإمبراطور عام 455م، وقد استدعى فالنتيان ليون من أجل أن ينال فالنتيان الاتحاد مع تيودوس ذكر بأنّ الإمبراطور يجب أن يدافع عن القانون ويحترم شرف بطرس، وبذلك يجب أن يُسمح لأسقف بأن يثبت على هذه العقيدة ويحاكم الأساقفة.

1 - Jean Gaudemet : L'église dans l'empire Romain, (IV-V-Siecles) sirey, Paris, p 423.

أمّا تيودوريوس فكان دون شك أقل مبادرة للاعتراف بالأسبقية فلم يقيم بأي تلميح في ردّه على فالنتيان¹.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - Jean Gaudemet : Op. Cit, p 423.

الفصل الثاني

البابوية في العصور الوسطى من القرن 6 م إلى 16 م

■ المبحث الأول : الرهبانية والديرية في العصور الوسطى

● المطلب الأول : الرهبانية

● المطلب الثاني : الديرية.

■ المبحث الثاني : عهد الزعامة البابوية

● المطلب الأول : ظهور البابوية

● المطلب الثاني : مهام البابا.

● المطلب الثالث : علاقة البابوية ببعض ممالك أوروبا الغربية.

● المطلب الرابع : القانون والتنظيم الكنسي.

● المطلب الخامس : تراجع نفوذ البابوية

■ المبحث الثالث : البابا والحروب الصليبية

● المطلب الأول : مفاهيم الحركة الصليبية.

● المطلب الثاني : دوافع الحروب الصليبية

● المطلب الثالث : موجز عن مراحل الحروب الصليبية.

● المطلب الرابع : نتائجها.

الفصل الثاني

البابوية في العصور الوسطى من القرن 6 م إلى 16 م

المبحث الأول : الرهبانية والديرية في العصور الوسطى

لقد تطرقنا فيما سبق أن إنشاء الكنيسة أدى إلى ظهور حركة الرهبنة التي كانت كرد فعل من المسيحيين بسبب الإضطهادات التي تعرضوا لها من قبل الرومان فاتجهوا إلى العزلة والانطوائية والزهد وكما كانوا يميلون إلى التجمعات في الأماكن المنعزلة التي يقيمون فيها تعبداتهم وطقوسهم الدينية والتي أطلق عليها فيما بعد بالدير.

ونحن في هذا المبحث سنتعرض لهاتين الحركتين أو الظاهرتين خلال العصور الوسطى.

- المطلب الأول : الرهبانية

وجود البابوية والكنيسة وتعظيم مركزهما في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى قد ارتبط ذلك بظهور الرهبنة وانتشارها آنذاك نتيجة لما عاناه المسيحيون الأوائل من اضطهاد على أيدي الرومان، فقد قامت هذه الرهبنة على أساس التوحيد، أي الحياة الفردية في القفار، وكان من لزوم ظروف الحياة ومتاعبها التفكير في نظام يجمع شملهم ويحافظ على معيشة التبتل والطهارة بين صفوفهم، وكان لكل راهب حياته الخاصة دون علاقة بإخوانه¹، فكانت الرهبنة الحبيسة أو الراهب الحبيس يقفل على نفسه تلك المدة المتبقية من حياته، في حجرة بُنيت إلى جانب إحدى الكنائس، وفتحت فيها نافذة صغيرة، تمكن من الاستماع إلى الرتب الكنيسة ومن الحصول على شيء من الطعام².

ولهذا نجد النظم الرهبانية تتمركز أصالة حول قضية مركزية تهدف إلى تحقيق مظاهر شخصية مضافة إلى الشخصية العادية والالتزام بالأحكام والقواعد الانضباطية العامة التي دون مفرداتها الآباء الأوائل للرهبنة أمثال "باخوميوس وأوغسطينس..."، ووجوب الهجرة والانفصال عن المجتمع الطبيعي والعيش في أماكن مهجورة كقفار الصحاري أو الكهوف والمغاور وحتى

1 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ط []، الإسكندرية، دار المعارف الجامعية، ت []،

ص 24.

2 - جميل مدبك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ص 116.

المقابر ... بالإضافة إلى الدّخول في المظهر الخارجي ممثلاً في لباس مخصوص مثل لباس الصّوف الخشن، والمشّي حافي القدمين ... كما كان نظامهم اليومي مقننا من مظاهره: النهوض المبكر، وقلة الطعام السّهر، والامتثال الإرادي والطوعي للأب الأكبر المشرف على الرّهبانية.

فلقد حمل الرّهبان في المسيحية مسؤولية التبشير بالإنجيل بين الأقوام، ولهذا لعبوا دوراً أساسياً في تنصير الأقوام السّلافية وشعوب أوروبا على وجه التخصيص من خلال الأخوات¹ التبشيرية الكاثوليكية التي أخذت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن الكنيسة والتبشير بالمسيحية ومحاربة التّرعات الانفصالية والاتجاهات الهرطقية².

كما شهدت الحياة الرّهبانية إبان هذه الحقبة من العصور حظوظاً متقلّبة تفاوتت بين الانتشار والانحصر ونقشت في خباياها صور من الشذوذ أبعدت عن معانيها الأصلية، كانت السّبب والدّاعية لقيام حركات تدعو إلى إصلاحها بالعودة إلى أصولها المبرأة من الانحرافات التي سادتها، وهي الانحرافات التي تراكمت وتفاقت في أواخر العصور الوسطى³.

فكانت التماثل المقامة في بعض الكنائس الكبرى تشمل عبث الرهبان والراهبات وكما استحقّ الرهبان وهم يقسمون بأن يبقوا عزباء بقوة الغريزة الجنسية التي يستثيرها مرارا وتكرارا وما يشهدون من مناظر وأمثلة من غير رجال الدّين، فكان الرّهبان في صراع نفساني بين المرأة والمسيح.

ولهذا أصبح الراهب الرّاشد على مرّ الزّمن في حاجة إلى إجازة بابوية إذا أراد أن يرجع في يمينه من غير أن يرتكب ذلك الإثم⁴.

وكان الرّهبان يحافظون على الحيوية المسيحية أكثر بكثير من الكهنة والأساقفة الذين كانوا في حاجة إلى تحسين سلوكهم. فكثيراً ما كان الرّهبان يحتلّون المكانة الأولى في مواصلة الكرازة، على مثال الرّهبان الايرلنديين الذين كانوا في تنقلاتهم، يذكرون المؤمنين بما يقتضيه الدّين المسيحي

1 - عرفان عبد الحميد فتّاح: النصرانية نشأتها وأصول عقائدها، ص 211، 212.

2 - الهرطقة: لفظة محرّفة عن اللفظة اليونانية تعني "الاختيار" وهي تطلق على كل بدعة أو خروج عن معتقد سائد وبخاصة في النصرانية، الكنيسة الكاثوليكية واجهت عدداً من الهرطقات الأريوسية ... (منير البعلبكي: موسوعة المورد، ج 5، ط1، بيروت، دار الملايين، 1980م، ص 97.

3 - المرجع نفسه، ص 110.

4 - ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة: محمد بدران، ج 16، بيروت، لبنان، دار الجليل، 1988، ص 112.

من فضائل، وهم الذين عمّموا صيغة جديدة للتوبة، وهي "الاعتراف الشخصي"¹.

وهناك رهبان آخرون وعلى الأخصّ البندكتيين²، اهتموا اهتماما زائدا بالعالم لأنهم انطلقوا في رسالة تبشيرية بتشجيع من غريغوريوس الكبير الذي أدرك، أكثر مما يزعم مؤرخوه، كم يفقد الزهد والتقوى والروحانيات من قيمتها إذا لم تقترن بعمل تستمد منه القوة والغذاء. ولكن من الخطأ الاعتبار أنّ الرهبان كانوا جميعا مرسلين أو مهيين ليكونوا رسل المستقبل. الكثيرون منهم ظلّوا طيلة حياتهم في ظلّ أديرتهم يعملون ويصلّون ويمارسون الفضائل دون أن يبحثوا عن آفاق جديدة غير صوامعهم³.

يذكر جميل مدبّك في موسوعته: "قام الرهبان عادة بدور حاسم في الإصلاح وفي حياة الكنيسة خلال تلك القرون، ولقد بقي الراهب مدة طويلة صورة للمثال المسيحي الأعلى. أنشئ دير كلوني في إصلاح سائر الأديرة وفي إصلاح الكنيسة عامّة، ولما كانت هذه الرهبانية غير خاضعة لنفوذ العلمانيين، فقد شدّدت على دور المقام البابوي وقدمت العديد من الأساقفة والبابوات، ولقد كان الدير سخيا في ممارسة المحبة نحو الفقراء"⁴.

وقد زاد انتشار حركة الرهبنة مع بداية الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر واستمرارها لمدة قرنين من الزمان فتأسست جماعات من الرهبان للعناية بالجرحي وتهتم بالتبشير بين رعايا الإمارات اللاتينية من المسلمين في الأراضي المقدّسة.

فعلى الرغم من الانحرافات وحملات التحقير والتّنديد بالحياة الرهبانية والتّصفية التي قام بها رجال الثورة الفرنسية ونابليون التي لم يبق جرائها سوى أربعين رهبانية من مجموع ألف⁵. فقد عملت الرهبنة على تقوية الكنيسة وتدعيمها ونشر المسيحية فيما وراء حدود الدّول الكاثوليكية واحتفظت بنور العلم خلال العصور الوسطى وقامت بدور هام في التّعليم وتنشيط الحركة الفكرية وكذلك في تقوية الحروب الصليبية، وكانت مساندة لنفوذ البابوية في العصور الوسطى.

1 - مجموعة من كبار الباحثين: موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 30.

2 - هم الذين يتبعون قوانين القديس مبارك أو بندكتس " Benoît " (حوالي 480-547)، وهو راهب إيطالي، أحد منظّمي الحياة التّسكية في الغرب ومؤسس رهبانية البندكتيين في جبل كاسينو 529، وضع دستور للحياة الرهبانية لا يزال متّبعاً في كثير من الرهبانيات الغربية.

3 - مجموعة من المؤلّفين: موسوعة تاريخ أوروبا بالعالم، ج1، ص 275.

4 - جميل مدبّك: موسوعة الأديان في العالم، ج6، ص 115.

5 - عرفان عبد الحميد فتّاح: التّصراية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ص 110.

- المطب الثاني : الديرية.

ويرتبط بالرهبة ما يسمّى بـ"الديرية".

الديرية نسبة إلى الدير : وهو البيت أو الموضع الذي يخصص لسكنى الرهبان أو الرهبات والاتجاه إليه للتعبّد.

والديرية : هي التقاء جماعات من الرهبان واجتماعهم في مكان بعيد عن العمران والانقطاع فيه للعبادة مع تنظيم شؤونهم من حيث العبادة وتحقيق مطالبهم الضرورية في الحياة. شق على الرهبان المسيحيين الالتزام بنظام التّوحد والانفراد التّام، ولذا تآقت نفوسهم إلى نظام أقل مشقّة وأكثر أماناً¹.

فلقد ذكر المسيحيون أن الراهب المسيحي كان في مبدأ الأمر يختار لسكناه بناية خربة أو قبرا مهجورا خارج المدن أو كهفا منحوتا في القفر أو الجبل، ويظل هكذا متوحدا لا يرى أحدا ولا يراه أحد.

ولكن هذا التّمط كان الحياة كان شاقا على كثيرة ممّن اختاروا حياة الرّهبة ، ولذا بدأ هؤلاء الرهبان يختارون كهوفا متجاوزة يحقّق عنهم تجاوزها قسوة التّفرد والانقطاع. وبعد أن ازدهرت الرهبانية وتوافرت الإمكانيات بدأ الرهبان في بناء القلالي. من الحجارة التي عمرت بهم².

وفي القرن الخامس الميلادي بدأ البربر يغيرون على البراري التي يقطنها الرهبان، ومن ثمّ بدت الحاجة إلى بناء أسوار حول مساكن الرهبان، ومن ذلك الوقت بدأ بناء الأديرة ذات الأسوار العالية.

وعن نشأة هذا النّظام في الدّيانة المسيحية وتطوره يقول زكي شنوده : « ظلت الرّهبة المسيحية تقوم على التّوحد والانفراد حتى إذا أقبل القرن الرابع الميلادي وكثر طلاب الترهّب وانطلاق الناس إلى البراري والقفار، وحيث إنّ النفوس ليست بقادرة كلّها على التّزام الصّبر الشّديد على الوحدة المطلقة بما تنطوي عليه من قسوة وإفقر، وحرمان، وقد نشأ الناس بغريزتهم ميالين إلى الاجتماع والتّعاون على مطالب العيش، ومن ثمّ بدأت تظهر الحاجة إلى جمع شمل

1 - صبحي حموي اليسوعي، معجم الإيمان المسيحي، ص 87.

2 - العقيدة والأديان، ج6، ص 125.

الرهبان ممن عجزوا عن حياة الوحدة، كي يعيشوا في جماعات تتوافر لها أسباب الإلتئان بالزّمانة والجوار، والأمن والسّلامة من عادية الوحوش الضّارية أو المغيرين من قطاع الطرق ولصوص القفار، فراح الرهبان ينون قلاليهم في سفوح الجبال متجاورة من بعضها حتى يخففوا عن أنفسهم حدّة ما يستشعرون من وحدة وانفراد»¹.

ثم يقول: « ومع الزّمن ابتداء هؤلاء النّسك المتجاورون يتعاونون في إقامة الصّلاة وتدبير ما يلزم لهم من شؤون حياتهم وحماية أنفسهم من ضواري الصّحراء، وغارات البربر، فقاموا ينون أسوارا عالية تضم قلاليهم، وتعزّر ما نشأ بينهم من تعاون ومودّة وهكذا نشأت فكرة الأديرة»².

ومرور الأيام كون أولئك النّسك جماعات لحقت بها جماعات أكبر منها، ثم أصبحت الحاجة ماسة - كما يقول كلولتون- إلى التشريع فوضع أحد الرعماء قانونا رسميا تعهد الجميع بإطاعته، وكان قانون باخوميوس أقدم قانون³.

وقد نمت هذه الحركة على يد عدد من آباء الكنيسة وعلى رأسهم باخوميوس (290-348م) الذي نظم حياة الرهبان في شكل اجتماعي بحيث يعيش الجميع داخل حيطان دير واحد يأكلون معا، ويصلّون معا، ويدرسون معا ويشتغلون لكسب الرزق - كما يقول المسيحيون-. يقول جوزيف يوسف: « وهكذا أصبح الرهبان يخضعون لقوانين معينة، بعد أن يتركوا الحياة الدنيا ويتخلصون من ما لهم وراثتهم ليعيشوا جماعات شعارهم الفقر والتّبتل والطهارة، وقد انتشر نظام القديس باخوميوس بتأسيس العديد من الأديرة في مصر. ولذا يعد باخوميوس هو المشرع للقواعد الديرية التي اقتبسها عنه الرهبان الذين قاموا بنقلها إلى خارج مصر.

بسبب الانحرافات التي طرأت على الحركة الرهبانية لاحظ المسيحيون بأنهم في حاجة إلى « ابتكار نظام آخر يتفق مع طبيعة البشر من ناحية ويحقق الانقطاع للعبادة والتّنسك من ناحية

1 - محمد علي عجيبة : المصدر السابق، ص 126.

2 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج 16.

3 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص 27.

أخرى ومن هنا نشأ النظام الديرى الذى يمثّل الدور الثالث في حياة الرهبنة والخاتمة في تطور حياة الرهبنة»¹.

فاعتبرت الأديرة من أهم المؤسسات الدينية التي اعتمدت عليها البابوية في تركيز نضالها ضد السلطة السياسية، فالدير كان في كثير من الأحوال مركزاً لأعمال التبشير بالمسيحية في بلاد وثنية، ومصرفاً لإيداع الأموال "بالإضافة إلى هذا كله" كان ملتقى الأخبار وسجلها ومخزن المخطوطات النادرة وحافظها وهو كذلك مودع المسائل السياسية الخارجية منها والداخلية، وإدارة واستصلاح الأراضي البر وسبيل إيصال المدينة إلى قفار الهمجية والوثنية²، وتضاعف عددها في أثناء العصور المظلمة وبلغت دورتها في القرن العاشر الميلادي، ثم أخذ عددها في النقصان حين أخذ النظام يسود الشؤون الزمنية: ومثال ذلك أنه كان في فرنسا حوالي عام 1100 خمسمائة وثلاثة وأربعون ديراً وفي عام 1250 كان فيها 285³.

ولقد اشتدت هذه الحركة عندما اعترف قسطنطين بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة، وجعل كنيستها هي كنيسة الدولة، والتي لم تكن مجالاً من الأحوال أنها ضد الكنيسة وإنما كانت تعني فقط أن الناس قد وجد نفسه مستقلاً لحد ما عن القس، وبمرور الأيام كون الناس جماعات لحقت بها جماعات أكبر منها، ثم أصبحت الحاجة ماسة إلى التشريع فوضع الزعماء قانوناً رسمياً تعهد الجميع بطاعته، ففي الغرب كان أبعد هذه القوانين أثراً وأكثرها فاعلية هو قانون بندكت الذي يُحتمل أنه وُضع سنة 529م⁴.

والحقيقة أن الغرب الأوروبي عرف الرهبانية الانفرادية والديرية الاجتماعية قبل هذا العصر⁵.

وعلى هذا الأساس لا يمكننا القول بأن القديس بندكت هو صاحب الفضل في تأسيس النظام الديرى في المسيحية، ابتعد تماماً عن فكرة الرهبانية الانفرادية التي عرفها الشرق ونصّ

1 - محمد محمد مرسي الشيخ: النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 194.

2 - محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ط1، لبنان، مكتبة المدرسة، 1983م، ص 29.

3 - ول ديورانت: قصة الحضارة، ج16، ص 114.

4 - ج ج كولستون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، ط 1، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1930م، ص 118.

5 - سعيد عبد الفتاح عاشور: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ط1، لبنان، مكتبة المدرسة، 1983، ص 361.

نظامه على أن يختار أعضاء الدير رئيسهم، ولهذا الرئيس أن يستشير هؤلاء الأعضاء في مختلف المسائل التي تهم المجموعة¹.

كما كان له أسس ثلاثة هي إنكار الذات والطاعة والعمل واقتران العلم بالعبادة في الدير، لأن العمل في حد ذاته عبادة على قول بندكت نفسه "La borare est orare"²، وهكذا بدا الدير البندكتي مجتمعاً صغيراً مستقلاً، ربطت أعضائه رغبة مشتركة في تكريس أرواحهم وأبدانهم لنوع معين من الحياة³، وبند أعضاؤه الملكية الفردية نبذا تاماً، في حين تميّزت الحياة داخل الدير بالمساواة التامة بين أعضائه لا فرق بين من كان عبداً أو كان حراً أو كان شريفاً أو وضعياً قبل انخراطه في تلك الحياة والجميع سواء فقد عاشوا كأسرة واحدة ولهذا أصبح الدير البندكتي أعظم نظام ديري يلائم العقلية الأوروبية⁴.

وقد ظلّ النظام البندكتي يمثل أكبر قوة فعالة في الحياة الديرية في العصور الوردية، بل إنه يمثل قوة كبرى في تلك الحياة، الأمر الذي أدى إلى انتشاره انتشاراً واسعاً في مختلف أنحاء الغرب الأوروبي⁵ في القرن السادس وحتى القرن العاشر وسمّوها "القرون البندكتية".

وعلى الرغم من كل ما انطوى عليه النظام البندكتي من مميزات فإنّه لم يكن بمنحني من العيوب ذلك أن عزلة هذا الدير حدث كثيراً من نفوذ القائمين عليه وجعلت أثر الحياة الديرية ضعيفاً في المجتمع الإنساني وأدت به إلى التدهور والانحلال، وإلى ذلك أن تلك العزلة لم تمكن الدير من حماية نفسه واستقلاله ضد السلطة العلمانية، خاصة في العهد المظلم الذي أعقب سقوط إمبراطورية شارلمان، أدركت أن ديرية بندكت عدت في غرب أوروبا بحاجة ماسّة عند تلك التغيرات الهامة التي جرت على الحياة الديرية الغربية أفقدت الحركة البندكتية سيطرتها في مجال التنافس على الشؤون الدنيوية، إذ تخلت البندكتية عن سياسة الاكتفاء الذاتي ولم يعد الرهبان يقومون كما ينبغي بالأعمال البدنية، وقد ارتبط هذا النظام البندكتي بثلاث حركات لها شأن كبير في تاريخ العصور الوسطى، من ناحية، وأولها : حركة نمو البابوية وتطوّرها، وثانيها : الحركة التبشيرية الواسعة التي قامت بها الكنيسة الغربية، وثالثها : حركة الإحياء الحضاري في

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 362.

2 - محمد محمد مرسي الشّيخ : التّظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 203.

3 - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، 362.

4 - محمد محمد مرسي الشّيخ : المرجع السابق، 204.

5 - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، ص 363.

أوروبا، بل كان الفضل لبندكت في جعل الدّيرية أداة روحية بحتة¹، ولهذا اعتبر القانون البندكتي أعظم وثيقة ظهرت في القرون الوسطى على الإطلاق وكان له أثر عظيم في تطوير الحياة الدّيرية المنظمة².

وما لبثت أن ظهرت حركة إصلاح عظيمة في القرن العاشر مثلت الدّور الثالث في تاريخ الدّيرية الغربية وهي الحركة التي عُرفت باسم حركة الإصلاح الكونية نسبة إلى دير كلوني بروجنديا، ويقع دير كلوني الرئيسي بالقرب من الحدود الفرنسية الألمانية وكانت بدايته في سنة 910 حين تأسس هذا الدّير في بروجنديا على يد دوق أكوينانيا، ثمّ غدا منذ مطلع القرن الحادي عشر أكبر أديرة أوروبا وأكثرها أوقافاً وأعظمها مكانة رهيبة.

وظهرت هذه الحركة كاحتجاج ضدّ الانهماك في الشّؤون الدّنيوية على حساب الشّؤون الرّوحية وأهم أسس هذه الحركة الإصلاحية في محاولة فرض رقابة أكثر على أهل الدّير ووضع حدّ للتّهاون الذي ساد الدّير وحاد بهم عن الأسس القويمية للدّيرية الحقّة، بإخضاع جميع الأديرة التابعة للمنطقة الجديدة للإشراف الموحد، كما كان من أهداف زعماء الدّير الكلوني تحرير الكنيسة من تسلّط الحكّام العلمانيين وخضوع رجال الدّين لنفوذ رجال السّياسة، وسرعان ما نجح زعماء دير كلوني في جعل ديرهم على رأس سلسلة مترابطة من الأديرة، ويمثل الدّير الأم لبقية الأديرة في هذه الشبكة من الأديرة المتماثلة. من هنا نجد أن النظام الكلوني نهض على الاستقلال التّام عن السّلطات الدّينية والدّنيوية والاتّصال المباشر بالبابوية³.

- الفرع الأول : الرّهبنة والدّيرية خارج مصر.

ولم يمض وقت طويل حتّى انتشرت الرّهبنة والدّيرية خارج حدود مصر في الجزء الشّرقي من العالم الرّوماني أي في بلاد الشّام وقبرص وما بين النهرين وآسيا الصّغرى. ففي بلاد الشّام نشأت الرّهبنة في القرن الرّابع الميلادي واتخذت طابعا خاصا مع أنّها تأثرت بالنّظام الأنطوي نسبة إلى أنطونيوس.

وأهم مظاهرها الرّهبان المشهورون (بالعموديين) نسبة إلى (سمعات العمودي) (390-459م،

1 - محمد محمد مرسي الشيخ : التّظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 206.

2 - ج.ج. كولستون : عالم العصور الوسطى في التّظم والحضارة، ص 176.

3 - محمد محمد مرسي الشيخ : المرجع السّابق، ص 207-208.

الذي اتخذ مقامه فوق عمود¹ - كما يقول ول ديورانت - ثلاثين عامًا مكتفياً بأن يدلى سلّة صغيرة بواسطة حبل ليحصل فيها على ما يحتاج من لوازم أساسية².

أمّا في آسيا الصغرى فقد أسست أخت للقديس باسل ديرا للرهبات سنة 358م. أمّا باسل (329-379) فقد درس الأنظمة الأنطونية (أنطونيوس) والباخومية (باخوميوس) ولم تعجبه فأسس مؤسسة ديرية في قيصرية الجديدة بآسيا الصغرى أيضا حوالي سنة 360م.

وسرعان ما أصبحت التنظيمات التي وضعها (باسل) لمؤسساته الديرية بمثابة دستور للأديرة الباسلية التي انتشرت في الشام وفلسطين وبلاد اليونان حتى صارت هذه الأديرة تنزعم الحياة الديرية في البترنطية بقية العصور الوسطى.

أمّا إدخال الديرية في أوروبا فقد وصلت إليها قبل نهاية القرن الرابع الميلادي ويعزى إلى الراهب (إثنا سيوس الكبير) إدخال الرهبانية والديرية إلى الغرب.

وكان النظام الديرية الذي انتشر في الغرب الأوروبي شديد الشبه بالنظام الباخومي الذي عرفته مصر، ذلك أن كثيرا من الزائرين الغربيين الوافدين من روما غاليا واسبانيا زاروا الأديرة الباخومية في مصر ونقلوا معهم فكرتهم إلى الغرب، هذا إلى جانب (جيروم 340-410) ترجم سنة 404م نظام باخوم الديرية إلى اللاتينية وبذلك وضع أمام الغربيين صورة منظمة لهذا النوع من الحياة الدينية التي عرفتها مصر³.

وأبرز ما هدفت إليه هذه الحركة الإصلاحية بالنسبة للحياة الديرية وهو الاهتمام بالتعبد والتأمل ومضاعفة العناية بهما مع تقليل ساعات العمل فلم تلبث هذه الأديرة إلى أن انتشرت في شمال غرب أوروبا وفي إنجلترا نفسها بعد الغزو النورماني في القرن الحادي عشر لم يقل عددها عن مائتي دير خضع رؤسائها خضوعا مباشرا لمقدم دير كلوني.

غير أن عوامل الانحلال والفساد ما لبثت أن تطرقت للحركة الكلوونية وأخذ الديريةون يجنحون إلى حياة الباطلة والكسل ويحيون حياة الترف والتنعيم ويسرفون في تناول الفاخر من الطعام والشراب ويلبسون الفاخر من اللباس، فهذه الأوضاع دفعت فئة من الساجنين الراغبين في

1 - لقد روي المسيحيون عن الرهبان روايات فيها بعض المغالاة، وقد نقلت الكتب التاريخية هذه الروايات على أساس أنها وقائع وأحداث حقيقية.

2 - ول ديورانت : قصة الحضارة، مجلد 4، ج1، ص 123.

3 - سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 165.

الإصلاح إلى البحث عن حياة أكثر بساطة من حياة الدير الكلوني، مما أدى إلى مولد أنظمة ديرية جديدة ومن هذه الأنظمة النظام الكامالدولي الذي اعترفت به البابوية سنة 1072م¹.

وخلاصة القول أن الديرية أسهمت بشكل فعال بنشر المسيحية وفي تنظيم حياة الرهبان داخل الدير فبالرغم من كل حاجيات الحركة الديرية إلا أنه كان لها نصيب من الانحلال والتدهور الذي طرأ عليها في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي والذي أدى إلى ظهور الحركات الإصلاحية التي كانت ترمي إلى إرجاع السيادة للحركة الديرية.

ولكن ما نلاحظه على هذه الحركات الإصلاحية أنها باءت بالفشل الأمر الذي أدى على ظهور منظمات الإخوان الرهبان أو الراهبات الفقراء حيث برزت جماعة الإخوة الفرنسكان² والإخوة الدومينيكان³ في القرن الثالث عشر وجاء ظهورهما علامة على أهم مرحلة من مراحل تطوّر النظم الديرية الكاثوليكية وكان الفضل في تأسيس هاتين الجماعتين في أوائل القرن الثالث عشر إلى كل من القديس فرانسيس والقديس دومينيك⁴. أما الأول فقد حاول مع أتباعه أن يقتدي بالمسيح في بساطته فتنبوا متاع الدنيا بأجمعه وأخذوا يتنقلون من مكان إلى آخر في أوروبا بوعظ الناس وتبشيرهم بالإنجيل، واعترف بهذه الحركة البابا أنوسنت الثالث ثم كان التصديق على لائحته سنة 1223م.

وفي نفس الوقت نشأت منظمات الإخوان الفقراء وهي التي أسسها دومينيك، أصحاب هذه الحركة نذروا أنفسهم للفقر وحياة البساطة ومحاولة استمالة الطوائف الدينية حتى تؤمن بالمذهب الكاثوليكي.

حاول دومينيك إقناع الهراطقة بالعودة إلى داخل حظيرة الكنيسة الغربية. حصلت جماعة الدومينيكان على موافقة البابوية سنة 1216م، غير أنه لم يجر وقت طويل حتى تباعدت هذه المنظمات عن مبادئها الأولى تدريجياً إلى أن انتهت في القرن الرابع عشر. حتى أُطلق على القرنين

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 267.

2 - فرانسيس : من أكبر قديسي إيطاليا القرن الثالث عشر شعبية، أراد إنشاء مجموعة مؤمنين يعيشون من غير تساهل، أصبحت هذه المجموعة رهبانية من مؤلفاته "الوصية"، نشيد الشمس"، (صبحي حموي اليسوعي، معجم الإيمان المسيحي، ص 353.

3 - دومينيك : "عبد الأحد" ولد في إسبانيا في 1170 أنشأ رهبانية الدومينيكيين (الإخوة الواعظين) لمقاومة بدعة الأليبيجين (صبحي، حموي اليسوعي، معجم الإيمان المسيحي، ص 216).

4 - سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 375.

الثالث عشر والرابع عشر (عصر الإخوان الرهبان)¹.

– الفرع الثاني : مدارس رهبانية وانحراف الأديرة.

أ – مدارس رهبانية :

كانت الأديرة تحفظ آباء الكنيسة، وفي هذا الإطار، كان العمل العقلي هدف واحد، وهو التمكن من قراءة الكتاب المقدس والنصوص التقليدية، وشرحها أيضا، لتغذية حياة الراهب الروحية.

رافق امتداد المدن ظهور طبقة اجتماعية ترغب في الوصول إلى الحياة العقلية. فتقلّصت أهمية المدارس الرهبانية لكي تزدهر المدارس الأسقفية التي أنشئت في المدن، لكنّها لم تعد تكفي. فأخذ بعض المعلمين المستقلين يؤسسون مدارسهم الخاصة.

وكان العمل العقلي، في التقليد الرهباني، يقوم في التقليد الرهباني، يقوم في الأساس على شرح الكتاب المقدس. أما في القرن الثاني عشر، فقد وضعت نصوص جديدة في تصرف رجال الفكر. فوضعوا منهجا لاهوتيا، طالبين التعمق في المعطيات اللاهوتية عن طريق العقل. لكن ذلك شغل فكر العديد من الناس².

ب – انحراف الأديرة :

تحدثنا آنفا عن الرهبنة، وأنها نشأت عن الرغبة في التضحية والفداء والطهر، وأن الباحثين يرجعون بها إلى خلق السيد المسيح، وأن الأديرة نشأت لمساعدة الرهبان على هذه الأهداف السامية، يبدو أن حياة الطهر في الصوامع والأديرة كانت قصيرة العمر جدا، فسرعان ما تطرّق لها الفساد وشملها الفسوق. حتّى أنّه يُنسب إلى مُنشئ الأديرة "الأبنا أنطونيوس" أنّه قال لزميله :
« قم بمقاره، أقفل الدّياره، لأنّ الرّهبنه فسدت ».

– الأديرة تحتوي على فساد عميق، وهيئات أن يوجد بها من يصلح للبقاء، إذ أنّها تضم بين جدرانها أفاقين أولى بهم غيابات السّجون، وكانت الأديرة مجالات للأنس والطرب ومواطن التّزّهة واللّهو، وأن كل دير من الدّيارات كان محصّنا بسور مكين شاهق يدفع عنه شرّ

1 – سعيد عبد الفتّاح عاشور : المرجع نفسه، ص 376.

2 – جميل مدبك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ص 120-121.

المجمات، وبقية عائلة المعتدين عليه¹، وربما جاز لنا أن نقول أن هذه الأسوار كانت تخفي ما يدور بداخل الديارات من انحراف وأسرار.

ذكر أحمد شلي أنه كان في ذلك الوقت (53) ديراً، أكثرها بالعراق (37 ديراً)، وبعضها بالشّام (13 ديراً)، ومصر (9) والجزيرة (4) وقد شملها الانحراف جميعاً.

لكن، هذا دليل على أن الأديرة في أيّ موقع كانت قد رحّبت بهذا اللون المنحرف من الحياة، فكأنّ الانحراف كان جزءاً مهماً من أعمالها وأنشطتها.

1 - أحمد شلي : مقارنة الأديان، ج2، ص 247-248.

المبحث الثاني : عهد الزعامة البابوية

كانت معظم الكنائس المسيحية قبل عام 325م سرّية ... وكان أكبرها في أية منطقة تتواجد، تمثل الرّئاسة الدّينية لتلك المنطقة فكانت رتبة البطريرك أكبر رتبة موجودة في الكنائس، فهناك بطريرك روما، و بطريرك أنطاكية و بطريرك القدس و شمال إفريقيا وغيرهم وكانوا متساوين في الرتبة والمسؤولية إلا أن دخول قسطنطين إلى روما منتصرا عام 325م، قد غير تاريخ المسيحية الكثيرة، إذ أعلن نفسه قيصرًا لروما ... ثم أعلن بعد ذلك ألاّ إيمان بدون الكنيسة، فأصبحت المسيحية الدّيانة الرّسمية الوحيدة في البلاد - كما سبق أن ذكرنا-¹، وكان لقرب موقع الكنيسة الرومانية من السّلطة السّياسية أثر في نمو مركزها الدّيني، وأن تكون أهميتها مختلفة عن بقية الكنائس، وكان قرب تلك الكنيسة من مركز الإمبراطورية سببا في منافسة الكثير من الكنائس لها ... فزاد هذا الحسد والمنافسة من الخلافات الكثيرة التي نشأت منذ انتشار المسيحية فصارت قمة الخلافات في الكنيسة حول من يملك سلطة القيادة والتّوجه الدّيني².

وكانت القسطنطينية من أكبر الكنائس التي تنافس روما وذلك لما تملك من سلطة على مسيحي الشرق من جانب، وللمكانة التي يحتلها بطريرك كنيستها، فمال الغربيون نحو روما، بينما اعتمس الشرقيون بالقسطنطينية باحثين عن خلافات عقائدية لتغطية الخلافات الزّمنية، وذلك من هدّد وجود الكنيسة برمتها، فبادر المسيحيون لعقد مؤتمر خلقيدونية سنة 451م، والذي خرج بقرارات تولت بموجبه قيادة مسيحي الغرب، كما تولت بموجبه قيادة مسيحي الغرب، كما تولت القسطنطينية توجيه مسيحي الشرق، وجعل كل من بطريرك روما و بطريرك القسطنطينية متساوين في الرتبة والمكانة أي أن ذلك الانقسام في الإدارة الدّينية كان بداية لانقسامات أكبر وأخطر³، ولقد ترك مؤتمر خلقيدونية تأثيرا كبيرا على بطريرك روما الذي أحسّ بضعف في مركزه لذلك فقد عمل على رفع مكانة كنيسته بأن أطلق عليها اسم الكنيسة العالمية أو الكاثوليكية⁴. أمّا لقبه فقد أُبدل من البطريرك إلى لقب "بابا" والذي يعني "الأب" وبذلك فرض

1 - سعدون محمود السّاموك : مقارنة الأديان، ص 61.

2 - بيار غريمان وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا بالعالم، ج1، ص 622.

3 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 16.

4 - عبد المجيد الشرفي : الفكر الإسلامي في الرّد على النصارى، ص 123.

أبوته على بقية الكنائس وسمى البابا نفسه "ليو الأول" والذي توفي عام 461م¹.

أ - تعريف البابوية :

كلمة بابوية مشتقة من كلمة "بابا" ومنه "الأب" أعطيت في بداية القرن الرابع في جميع الأسقفيات في الغرب، لكن أكثر خصوصاً في روما، حيث أصبحت رسمية في نهاية القرن الرابع في نفس الوقت استعملت في الإدارة المركزية للكنيسة الكاثوليكية في روما².

كما تعرف البابوية حسب موسوعة "La rousse" على أنها مقام أو سلطة أسقف روما، وفي المسيحية يمثل البابا السلطة العليا للكنيسة الكاثوليكية الرومانية³.

ويضيف Renard كذلك تعريفاً للبابوية في قوله "البابوية La papauté"، وهي الكلمة التي تشير إلى كنيسة روما في سياق مهمتها الأولية -الأسبقية- ومرجعيتها الإيمانية.

"Papabile" بالإيطالية و "Papabile" بالفرنسية إشارة إلى الكرادلة المرشحين لاختيار أحدهم -بابا-⁴.

ب - تعريف البابا :

يعرف بطرس البستاني : بابا Pape و Pope، لفظة يونانية معناها أب وهي لقب كان يستعمله النصارى الشرقيون لقباً للقس.

وكان الغربيون يلقبون به الأساقفة، أمّا الآن فهو مخصوص بالخير الأعظم بروما. والبابا في مذهب الكاثوليك خليفة شرعي للقديس بطرس الرسول ورأس الكنيسة⁵ يقول " J.Briont " أن البابا هو خليفة القديس بطرس في سلطة الكنيسة⁶.

وهو أيضاً ما ذهب إليه بولس إلياس اليسوعي من خلال قوله : "لما كان القديس بطرس قد

1 - بيار غريمان وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 305.

2 - Encyclopédie universels, vol 12 édition a paris matière papauté, p 100.

3 - La rousse : Le grand encyclopédie, Paris 1975 matière, 300.

4 - Xavier Renard : Les mots de la religion chrétienne, P 371.

5 - بطرس البستاني : دائرة المعارف، م5، ط []، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ت []، مادة البابوية، ص 50.

6 - J.Briont : Dictionnaire pratique de connaissances religieuses, t5, Libraire letoizey et ané, paris, 1927, p 228.

بشر بالإنجيل في روما حاضرة الإمبراطورية الرومانية في ذلك الزمن، وأسس الكنيسة فيها واستشهد هناك، كان من البديهي أن يخلفه أسقف روما، البابا، وقد يشهد التاريخ على أن أساقفة روما البابوات قد مارسوا حقهم في تدبير شؤون الكنيسة بأسرها".

ويدلّل بولس إلياس على خلافة البابا لبطرس بما يلي: "كان من الضروري أن يخلف البابا القديس بطرس على رأس الكنيسة لأن الكنيسة منظمة تهدف إلى توحيد البشر حول شخص المسيح تحقيقاً لعمل خلاص نفوسهم، والبابا هو هذا الرئيس المنظور الذي يقوم مقام المسيح، وهو صورة حيّة متجسّدة لوحدة الكنيسة"¹.

جعل بولس إلياس خلافة البابا لبطرس واجباً ونظرية، بديهية، وباعتبار أن بطرس رسول -على حد اعتقاد المسيحية- ومعصوم عن الخطأ كان من الضروري أن يخلف البابا القديس بطرس.

أي كأن اليسوعي وأتباع المسيحية الآخرين لهم علم بصفات هذا البابا وعصمته أيضاً من الخطأ وكونه بشر أخلاقه مطابقة تماماً لأخلاق بطرس الرسول، فكيف يكون لبشر عادي نفس أوصاف وامتيازات الرسول -عندهم- (خاصة العصمة)؟ ومن ثمّ يكون هذا دليل على تسيّب مرونة هذا الدّين، وبالتالي عدم صحته وتحريفه من طرف البشر.

ويعرف البابا كذلك حسب "Dictionnaire des antiquetes" بأنه أسقف كنيسة روما، وخليفة القديس بطرس، حيث تمس وظيفة البابا وراثته، وأن أسقف روما هو المعلم الأعلى مرتبة والرّاعي الرّسمي لكل المسيحيين².

أما فريد وجدي فيقول أنه الرئيس الأول في الديانة النّصرانية الكاثوليكية³.

والبابا كذلك حسب تعريف الموسوعة العربية العالمية هو رئيس الكنيسة الكاثوليكية، ويسمى أيضاً بونتق كبير ويعرف البابا أيضاً "Xavier Renard" فيقول: "البابا في التّعبير العادي هو من يهيمن على غيره في تخصصه، بفضل إمكانياته ومؤهلاته.

والكلمة أصلها من اللاتينية "Papa" والتي تعود بالأساس إلى اليونانية "Pappas".

والكلمة في الوقت ذاته لقب يدلّ على الحنان والشرف، أعطي للقساوسة، وبدأ شيئاً فشيئاً

1 - بولس إلياس اليسوعي : خلاصة الدّين المسيحي، ص 113.

2 - Dictionnaire des antiquetes chrétiennes, Paris, 1971, p 200.

3 - محمد فريد وجدي : دائرة القرن 20م، ط3، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ت []، ص 97، مادة بابوية.

يخصّص في المسيحية الغربية لقس روما الذي يمثل خليفة "بطرس" بصفته رئيس الكنيسة الكاثوليكية و "Papessa" ؛ مؤنث "Pape" ظهر هذا الاسم في القرن الخامس عشر تبعا لقصة "Jeanne" "La papessa".

وتذكر القصة بأن امرأة اخفت طبيعتها وتم اختيارها -بابا- وتربعت على الكرسي الرسولي لستينين، وماتت أثناء ولادتها. وحدثت القصة ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر يؤكدها المؤرخان "بلوندا" بروتستانت، "دولينغار" وهو كاثوليكي¹.
القساوسة وكانت كلمة بابا تطلق على كل أسقف، ولكن مع بداية القرن السادس أصبح المصطلح في الكنيسة الغربية للدلالة على أسقف روما خاصة².

أما ما جاء في كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية : الرب جعل من القديس بطرس أساس كنيسته المنظور، وقد سلمه مفاتيحها، أسقف كنيسة روما، خليفة بطرس، هو رأس هيئة الأساقفة، ونائب المسيح، وراعي الكنيسة جمعاء على هذه الأرض³.

- المطب الأول : ظهور البابوية

وفي نهاية القرن الرابع، بدت الرغبة في إيجاد وحدة كنيسة، وأصبحت الزعامة لكنيسة روما، على رأسها البابا، وتحولت عاصمة الإمبراطورية إلى عاصمة للكنيسة⁴.

كان يندرج تحت سلطة البابا مجموعة من الموظفين سواء التابعين للديوان البابوي، أو المحاكم والخزانة المالية، ومجلس الكرادلة أيضا⁵.

وبفضل هذا التنظيم المحكم، الذي جعل الكنيسة مؤسسة مستقلة بشؤونها استطاعت أن توسع الأقاليم التي تدين بالمسيحية، ضمن إطار الإمبراطورية، وليس هذا فحسب بل تمكنت - فيما بعد- من توسيع صلاحياتها وسلطاتها، التي امتدت خارج مجالها الديني، وقد اضطبغت علاقة

1 - Xavier Renard : les mots de la religion chrétienne, p 370, 372.

2 - الموسوعة العربية العالمية، م4، ط2، السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999م، ص 89، مادة بابوية.

3 - التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص 292.

4 - كريستوفر دوسن : تكوين أوروبا، ترجمة : محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، ط []، القاهرة، مطابع

سجل العرب، 1967م، ص 44.

5 - فرديناند شيغل : الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة : منير البعلبكي، ط 1، بيروت، دار العلم

للملايين، 1952م، ص 30.

الكنيسة بالدولة بالتعاون المتبادل بينهما، إذ ضمنت الكنيسة للدولة ولاء المسيحيين، كما وفرت الدولة للكنيسة امتيازات عديدة، حيث أصبح لها الحق في الحصول على الهبات، والإعفاء من الضرائب¹.

ويذكر "هـ.مولس سانتال" أنه بهذا ازدادت ثروة الكنيسة، أصبحت تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، وأموال طائلة بفضل هبات أشرف روما، ووصايا أغنياء النصارى، واستفادت أيضا من لجوء الملاك المسيحيين إلى وضع ممتلكاتهم في حماية وخدمة الكنيسة².

ثم يرجع "ج.كرامب جاكوب" هذا الميل لدى المسيحيين إلى الكنيسة، بأنه كان له الأثر الكبير على زيادة نفوذها، وخروجها عن إطارها الروحي -فيما بعد- حيث خوّل لها المسيحيون حقّ تعميّد الأطفال، وإقامة الحدود كما تدخلت في توزيع الثّورة بالوصيّة، والإشراف على الموتى، حتّى إنّ الاعتراف بالذّنوب كان يجري تحت إشراف رجال الدّين³.

وتبوّأت الكنيسة مكانة هامّة في المجتمع المسيحي، نظرا لعلاقتها الوطيدة بالمسيحيين، هؤلاء الدّين حلّوا محلّ المواطنين القدامى باكتسابهم حقوق اجتماعية وسياسية، زادت من قوّة ونفوذ الكنيسة في وقت أخذت الإدارة المدنية تتراجع، وتفقد هيبتها وسلطانها الاجتماعي وحتّى السّياسي⁴.

من هنا وبتزايد صلاحيات الكنيسة، وتدخلاتها في المجالين الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المسيحي، استلزم بروزها كقوّة منافسة للسلطة الزّمنية، وشيئا فشيئا أخذت تحل محلّ التنظيم الإمبراطوري القديم خاصة كنيسة روما ترعّمت العالم المسيحي في الغرب، ولهذا نتساءل عن الأسباب التي هيأت الفرصة لروما دون غيرها لتبوأ هذه المكانة؟.

من إيجابيات إتباع الكنيسة الكاثوليكية نظم الإدارة الرومانية، بروز شخص على رأس

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 97.

2 - هـ.مولس سانتال : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة : الباز العربي ، ط []، القاهرة، عالم الكتب، 1967م، ص 220-221.

3 - ج. كرامب جاكوب : تراث العصور الوسطى، ترجمة : محمد مصطفى زيادة، محمد بدران، ج 1، ط []، م []، مؤسسة سجل العرب، 1965م، ص 51.

4 - كريستوفر دوسن : تكوين أوروبا، ص 42، 43.

الكنيسة الغربية، حل محل السلطة الزمنية¹، ذاك هو أسقف روما² الذي ما فتئ أن احتل مكانة هامة منذ القرن الثاني³.

ولأسباب متعددة أصبحت روما صاحبة السيادة على سائر الكنائس في الغرب ولعل أهمها ما تعلق بالرسل الأوائل للمسيحية خاصة القديسين بولس وبطرس، هذا الأخير ارتبط اسمه بتأسيس كنيسة روما، فكان ذلك حجة، ومبررا للمناداة بضرورة حصول روما على السيادة، وأولوية خلفاء بطرس⁴ على غيرهم⁵، واستدل هؤلاء بما جاء في إنجيل متى: "... وأنا أقول لك أيضا: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض، يكون مربوطا في السموات، وكل ما تحله في الأرض، يكون محلولا في السموات⁶. فرجل الدين تكون بيده سلطة الحل والربط في كل الأمور مفوضا لذلك من طرف الرب.

كما ورد في إنجيل يوحنا ما يلي: « فبعدهما تغدوا قال يسوع يا سمعان بطرس: يا سمعان بن يونا، أتجني أكثر من هؤلاء؟ قال له: "نعم يا رب أنت تعلن أنني أحبك" قال له: "ارع خرافي" ⁷.

فالمسيح هو الذي أوكل لرجال الدين، أو رجال الكنيسة القيام بتسيير شؤون المسيحيين. إضافة على أن تراجع سلطة الإمبراطورية في الغرب، ترك المجال مفتوحا أمام أسقف روما، الذي باشر المهام السياسية فضلا عن الدينية - وعمل على إبعاد روما عن الصراعات السياسية القائمة في الشرق، ضف إلى ذلك أن روما كان لها مجد وإرث العاصمة الرومانية القديمة⁸ وكان للبابا حق الفصل في القضايا الدينية في الجامع المحليّة، عكس رجال الدين في الشرق، إذ كانوا

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 65، 66.

2 - حصل على لقب البابا في القرن الرابع ميلادي.

3 - عبد القادر أحمد اليوسفي: العصور الوسطى الأوروبية، (476-1500)، ط []، بيروت، المكتبة العصرية، 1967م، ص 58.

4 - تسمى هذه الدعوة النظرية البطرسية.

5 - كريستوفر دوسن: تكوين أوروبا، ص 37.

6 - مت: 16/18-19.

7 - يو: 21/15-16.

8 - عبد القادر أحمد اليوسفي: العصور الوسطى الأوروبية، ص 59.

خاضعين لقرارات إمبراطور القسطنطينية¹، وفي الوقت الذي زدخ الشرق تحت البدع الدنيئة بقي الغرب محافظاً على وحدته الدنيئة، متمسكاً بقرارات المجالس الدنيئة الأولى - ولعل ذلك مرجعه إلى الشخصيات التي تقلدت كرسي الكنيسة في روما، أمثال البابا جلاسيوس الأول (492-496)، الذي نادى بأحقية أسقف روما في إصدار القرار الدنيي، بمعزل عن تدخل السلطة الزمنية². وكان البابا ليو الأول (440-461)، الذي حث خلفاء بطرس على قيادة العالم المسيحي، ودعم هذه الدعوة بمرسوم استصدره من الإمبراطور فالنتين الثالث (425-454)، حصلت بموجبه كنيسة روما على حق الزعامة من خلال إشرافها على كنائس الغرب³. وقد برهن ليو الأول على أنه باستطاعته رجل الدين أن يكون مسيراً للشؤون الدنيوية إلى جانب وظيفته الدنيوية، وأظهر ذلك من خلال دفاعه عن روما ضد أتيليا أثناء حصار روما سنة 410، وكذلك من خلال ضمانه حماية روما أثناء غزو لوندك سنة 455، وهذا كله في غياب السلطة الزمنية في الغرب⁴.

وعليه بفضل هذه الجهود استطاعت كنيسة روما، السمو على كافة الكنائس.

يذكر محمود سعيد عمران أن كنيسة روما دخلت مرحلة جديدة اتسمت بسيطرة أسقف روما ابتداء من القرن السادس، أو بداية السلطة البابوية في روما، خاصة بعد استجاب النائب الإمبراطوري إلى رافنا تاركاروما تحت زعامة البابا⁵.

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول؛ إن نتيجة الاختلافات التي وقعت بين روما والأسقفيات الأخرى أن تحصلت الأولى على حق ومبدأ الأسبقية لأنها زعمت أنها تملك الدليل الكافي لتزعمها هذه المكانة والمتمثل في السبب الدنيي والذي يرجع بالدرجة الأولى إلى أن المسيح عيسى اصطفي القديس بطرس على سائر الحواريين، واختاره ليكون خليفته وبما أنه نشر دعوته في روما واستشهد هناك، فكانت الأولوية، لأسقف روما للحصول على هذا التثريف، فسمى نفسه البابا، ومنه الأب.

1 - إبراهيم أحمد العدوي : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ط []، القاهرة، دار المعرفة، 1961م، ص 53.

2 - بيار غريمان وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 258، 259.

3 - محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ط []، بيروت، دار المعرفة الجامعية، 1986م، ص 97، 98.

4 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية ص 66، 67.

5 - محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 98.

- المطب الثاني : مهام البابا.

في بداية العصور الوسطى ومع مطلع القرن الرابع الميلادي بالذات نلمس تغييرات واسعة المدى في الإمبراطورية الرومانية والعالم الأوروبي بوجه عام، وقد لعبت عدّة عوامل أساسية دوراً هاماً في هذا التغيّر نذر منها، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وظهور الديانة المسيحية التي نقلت الإمبراطورية من العهد الوثني إلى عهد جديد انتصرت فيه المسيحية لتؤثر في حياة الناس وفكرهم طيلة العصور الوسطى وما بعدها.

أولاً : الجانب السياسي.

ومن العوامل الهامة التي أسهمت في هذا التغيّر كان نقل العاصمة من الغرب إلى الشرق أي من روما إلى القسطنطينية وما ترتّب عن ذلك من نتائج، وانتقال مركز الثقل إلى الشرق وبقاء القسطنطينية مركزاً لتبلور الحضارة الهلنسية التي أصبحت من مميزات الإمبراطورية الشرقية، وفضلاً عن ذلك وجد عامل سياسي آخر لعب دوراً كبيراً في تغيّر خصائص التاريخ الأوروبي وخاصة في الجزء الغربي من أوروبا¹.

وتعني بذلك جماعات البرابرة الذين تدفقوا على الإمبراطورية الرومانية وانتهى المطاف بهم إلى الاستقرار داخل مساحات كبيرة من أراضيها².

- الغزوات الجرمانية :

غزو الريك : بعد مقتل "ستيليكو" : قائد الجيش الروماني سنة 408م من طرف الإمبراطور هو نوريوس بسبب إقامة ستيليكو بعلاقات مودّة مع البربر وقتل كل مساعديه من البرابرة في إيطاليا وهرب بعضهم إلى الديك فعاد معهم للانتقام له في العام نفسه³.

عبر الريك جبال الألب واتّجه إلى أسوار مدينة روما التي أرسلت نواياها على معسكره طالين السلام، واغتر الريك فقال للتّواب "كلّما كانت الحشائش كثيرة كلّما كان الرّعي أكثر" مشيراً بذلك إلى خيرات المدينة والغنائم والأسلاب التي يمكن الاستيلاء عليها ورغم ذلك فضل الريك السّلم على الحرب ووافق على عقد معاهدة جعلت العاصمة القديمة روما رهان بدفع 500

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 124.

2 - J.Briont : Dictionnaire pratique des connaissances religieuses, T5, Librairie, letozey, et ané, paris, 1927.

3 - نعيم فرح : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ط []، دمشق، حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة، 1977، ص 29.

قطعة من الذهب، و 300 قطعة من الفضة¹.

واتّجه الرّيك بعد ذلك إلى "توسكانيا" حيث قضى الشتاء وسرعان ما أرك الرّيك أنّه أهين واستهين بقدره فعاد إلى روما وألقى عليها الحصار فانقطعت عنها الإمدادات التي كانت تصلها من صقلية واجتاحها مجاعة².

فقام مجلس الشيوخ، شيوخ المدينة فخلعوا القائد الروماني "آتالوس Attalus"، وعيّنوا الرّيك بدلا من منه، وتحرك الإمبراطور هونوريوس واستمال أحد القواد القوط.

واستدعى ساروس "Sarus" وأغراه بأن يباغت معسكر مواطنيه، وعلم الرّيك بهذه التّحركات³. فاستدار للمرّة الثالثة اتّجاه روما عام 410م، وسقطت المدينة في 24 أوت 410م، فنهبّت منازل التّبلاء وأحرقت، ولكن الخسائر في الأرواح كانت قليلة كما نجت الكنائس من الضّرر نظرا لتدخل البابا⁴.

إنوسنت الأول "Innocent 1" "401-417م" الذي نجح في إنقاذ الكنائس والمقاطعات المسيحية بعد الاتصال بالرّيك وطلب منه الرّفق بالمدينة ومعاملها خاصة الكنائس⁵.

ويقول "M.J. Tissot" أنّه استجاب الرّيك فعلا لطلب البابا وبذلك أخذ منعظفا تاريخيا إذ أصبح بعد ذلك زعيما روحيا ودينويّا وأعطى لروما مكانة روحية بعد أن فقدت مكانتها الإمبراطورية⁶.

1 - غزو الهون أتيلّا :

في سنة 452م قام أتيلّا بغزو "إيطاليا العليا"، فدمّر، وخرّب، "أكويليا" التي التجأ سكانها إلى البرك المجاورة حيث أنشأ أبناءهم مدينة البندقية.

1 - هـ. أ.ل. فيشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، نقله إلى العربية : محمد مصطفى زيادة، البار العربي، ج 2، ط5، مصر، دار المعارف، ت []، ص 110.

2 - Gustave bardy : L'église et les derniers romains, édition robert Laffont, p 11.

3 - نعيم فرج : المرجع السابق، ص 29.

4 - Gustrave bardy : Op. Cit, P 11.

5 - Juan dacion : Dictionnaire du papes, présente par vintila traria, édition France, empire 1963, P 17.

6 - M.J. Tissot : Histoire de l'église, édition entièrement refondue par le R. P. Poil sywave, Op, Paris, 1934, p 42.

وتحوّلت بادو "Padua" إلى رماد، وخضعت له بعض المدن فيرونا وبافيا وميلانو¹.

وفي قصر ميلانو شاهد أتيليا صورة تمثل الإمبراطور جالساً على العرش، ورئيس الهون ساجداً أمام قدمه، فأمر الرّسام أن يضع ملك الهون على العرش، والإمبراطور ساجداً تحت قدمه حتّى تكون الصّورة أقرب إلى الحقيقة.

وفي الوقت نفسه لم يكن لدى الإيطاليين جنوداً يدافعون عنهم². فخاطر البابا "ليون الأول" بحياته في سبيل إنقاذهم، وذهب إلى معسكر أتيليا مع مندوبي الإمبراطور ما يطلبه من الهدايا ووعد بدفع وسلم إليه كل الجزية³.

ثمّ يختم "Georgés" قائلاً: "وهنا تتجمع الأساطير المعاصرة على أنّ طيف القديس بطرس أفرع أتيليا، فأسرع بالإياب، وإن كان الواقع هو أنّ أتيليا أحسّ باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الروماني أيتوس ممّا جعله يسرع بإخلاء إيطاليا في يوليو 452م، بعد أن أخذ وعداً من البابا ليون بدفع جزية سنوية⁴.

2 - غزو اللومبارديّون :

زحف اللومبارديّون إلى إيطاليا سنة 568م بقيادة زعيمهم البونين، كما انضمت إليهم بعض القبائل الأخرى من السّلاف والجرمان، واستولى اللومبارديون على وسط إيطاليا وشمالها بعد أن خاضوا عدّة معارك مع الحاميات البيزنطية، وأمّا مدينة "رافنا" في إيطاليا خاضعة للسلطات البيزنطية ودار الصّراع في إيطاليا نحو قرنين من الزّمن بين اللومبارديين من جهة والبيزنطيين من جهة ثانية والبابوية من جهة ثالثة، كما تدخل الإفرنجية في هذا الصّراع⁵.

ولحسم هذا الصّراع بيّن "Hans Kung" أنّ البابا "جريجوري العظيم" تدخل، بحيث أخذ ينظّم وسائل الدّفاع ضدّ اللومبارديّين، كإعداد الجند وتحصين الأسوار وشحن القلاع، بل توجيه الهجمات، وفي حالات أخرى كان هو الذي يفاوض اللومبارديّين باسم الشعب الروماني حيث

1 - M.J. Tissot : Op. Cit. P 42.

2 - محمد سعيد عمران : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص 82.

3 - George, fuffert : tu es pierre, édition de falois paris, P 104.

4 - Daniel rops : L'église des temps barbares, librairie artheme, fayard, paris, 1956, p 56.

5 - نعيم فرج : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 34.

عقد معهم هدنة سنة 592م، كما عقد صلحا فثائيا مع ملكهم أجيلوف سنة 598م، أنهى بموجبه الحروب المتواصلة التي استمرت 30 سنة من الغزو اللومباردي لإيطاليا¹.

كذلك يذكر سعيد عبد الفتاح عاشور بعض مهام البابوية بقوله، إذ أنه في خضم هذه الفوضى السياسية التي عمّت إيطاليا، تمكّن البابوات من الاستئثار بمهام وصلاحيات الحاكم العلماني، حيث عينوا موظفي البلديات، وأشرفوا على جباية الضرائب².

كما أضاف أيضا محمد أبو زهرة على ذلك بقوله: "وأهم خطوة ظفر بها البابوات في هذه المرحلة هي اكتسابهم لحقّ تعيين رجال الدين في مناصبهم عن طريق مجمع الكرادلة، دون الرجوع إلى الملك في حين كان الأخير خاضعا لسلطانهم كأبي فرد مسيحي³، كما حصلت البابوية على حقّ الفصل في القضايا الكبيرة والصغيرة من خلال نشاط المحكمة البابوية - Curia Romana - والتي شكلت رسومها القضائية موردا آخر زاد من ثروة الكنيسة⁴.

وفي الأخير نخلص إلى أهم النتائج التي تربّت على الغزوات الجرمانية أنه في خضم هذه الأحداث المضطربة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا فقد ظلّت الكنيسة الغربية، وعلى رأسها البابوية هي القوة الوحيدة والمحترمة لكافة العناصر التي سيطرت على أوروبا بما فيهم الحرمان، ومن هنا وجدت البابوية الفرصة للقيام بدور عظيم في بناء الحضارة الغربية ولاسيما في مستهل العصور الوسطى، كما أنّ البابوية حاولت قدر إمكانها إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث خاصة المعالم المسيحية، وذلك من خلال ما قام به البابوات من أجل المعالم المسيحية، وذلك من خلال ما قام به البابوات من أجل إنقاذ الكنائس من الأضرار التي ألحقها بها الغزاة.

ومن جهة أخرى بعد أن أصبح رئيس الكنيسة الرومانية "بابا"، أو رئيسا للكنائس الكاثوليكية كلّها، بدأ نفوذه الديني يقترب من النفوذ السياسي، إذ أخذ الأمراء والملوك والقادة المسيحيون بتقديم ولائهم للكنيسة مما أدى تباعا إلى تحويل السلطة الكنيسة إلى سلطة سياسية. والدليل على ذلك ما أخبر به سعدون محمود الساموك في قوله: "فصار مصير الدول المسيحية وقادتها عالقا على قبول، ورضا بابا روما، فلم يعد هنالك من ملك أو أمير يتوّج إلاّ على يد البابا

1 - Hans Kung : Le christianisme ce qu'il est et ce qu'il est de venu dans l'histoire, édition du senil paris, 1996, p 466.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 115، 116.

3 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصرانية، ص 190، 191.

4 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 507، 508.

الذي يلبسه التابع بيديه، وكثيرا ما ألقى البابا ملوكا وأمراء عن مناصبهم، وعين آخرين يرتضيهم.

وكانت أقوى حادثة في تاريخ الكنيسة السياسي؛ هي إقصاء البابا جريجوري السابع، لإمبراطور ألمانيا هنري الرابع من منصبه سنة 1076م¹.

ثانيا : الدور الاقتصادي.

حيث اتسعت ممتلكات الكنيسة في إيطاليا، وصقلية وأصبحت أملاك البابوية موازية لأملاك الأمراء والملوك، كما تضخمت ثروة الكنيسة نتيجة العوائد والرسوم التي فرضتها على الأراضي، والأموال التي قدمتها الأمراء للكنيسة مقابل حمايتها لهم²، ولعل هذا الثراء والتحكم في الموارد الاقتصادية، مكّنها من فرض سلطتها لا على رجال الدين فحسب، بل تعدّتهم إلى الأمراء والملوك.

ثالثا : الدور الاجتماعي.

وتمثل نفوذ البابوية الاجتماعي فيما بذله جريجوري الأول من أموال لإطعام الفقراء، ومساعدة المدن، وفداء الأسرى، كما عمل على التفاوض للمباردين لحماية المسيحيين من أخطارهم، وبذلك كان عليه اتخاذ قرارات سياسية وعسكرية، ومنها حل محل السلطة الزمنية³. وبلغت البابوية -على عهده- أوجها، حيث أصبحت بمثابة دولة شبه مستقلة، خاصة بعد أفول سلطة النائب الإمبراطوري⁴، وزادها قوة اعتمادها على الدرية، التي كانت مراكز للعلوم، والآداب والمعارف الفلسفية، اللاهوتية⁵، إذ ساهمت في تكوين بابوات ذو شخصيات قوية، أخذوا على كواهلهم الاهتمام بشؤون البابوية، وإعلاء شأنها. ولم تكن أديرة البندكتيين أداة فعّالة للإصلاح الكنسي، فحسب، بل وسيلة لإعادة التنظيم الثقافي، والديني للمجتمع الأوروبي، فحلّ الرهبان في الأرياف محل الأساقفة، والقساوسة

1 - سعدون محمود الساموك : مقارنة الأديان، ص 62.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، ج 1، ص 115، 116.

3 - Juan Dacio : Dictionnaire des papes, P 36, 37

4 - كريستوفر دوسن : تكوين أوروبا، ص 236، 237.

5 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 135.

-بتفويض من البابا- لتدعيم المسيحية والبابوية بأتباع جدد¹.

ومنذ هبة بينين، ثم شارطان في النصف الثاني من القرن الثامن، أرسيت حدود الدولة البابوية، شملت الأملاك الوقفية للكنيسة، مثل أنا وثني، تيفولي بروحيا ثم أنكونا، بولونا².

ونتيجة ازدياد نفوذ البابوية، اتسعت حدود الدولة البابوية من البحر الأدرياتي، ورافنا شرقا، إلى روما غربا³.

وفي القرن التاسع، على عهد البابا نيقولا الأول، اتضحت سلطة البابوية، بصورة أكيدة من خلال محاولة السمو على السلطة الزمنية البيزنطية⁴، من جهة، وتدخل البابا نيقولا من جهة أخرى، في توجيه تصرفات الملوك والأمراء، مثل التدخل في ملك اللورين لوثر⁵، حيث أرغمه على الخضوع لرغبته كأبي مسيحي⁶.

ومما سبق نخلص إلى أن البابوية، تمكنت بفضل مجهوداتها الخاصة أن تفرض وجودها كقوة منافسة للقوة البيزنطية في الشرق والمباردية في الشمال، كما أنها أحسنت استغلال الفوضى السياسية من صراع القوى السياسية، وحاجة المسيحيين في الغرب إلى قوة روحية وسياسية، تضمن لهم الحماية والخلاص الديني والدنيوي.

رابعاً : الدور الديني.

يبدو أن التحول التاريخي الذي جاء على يد الغزو الجرمني تسبب في تحولات جذرية في حياة الإمبراطورية الرومانية في جميع المجالات لاسيما المجال الديني، فقد شهدت الإمبراطورية سقوط عواصم عديدة الواحدة تلو الأخرى مسببين في ذلك خسائر مادية ومعنوية خاصة تلك التي عرفتها الكنيسة المسيحية⁷.

1 - كريستوفر دوسن : المرجع السابق، ص 239 - 250.

2 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 298.

3 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 126.

4 - تدخل في تعيين رئيس الأساقفة في القسطنطينية سنة 857م.

5 - واعتبر نيكولا الأول زواج لوثر من إحدى خليلاته - تاركاً زوجته - مخالفاً للتقاليد الدينية، فأرغمه على طلاق زوجته الثانية.

6 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 134، 135.

7 - Jean danielou, Henri Manou : Nouvelle histoire de l'église des origines le grand, édition du seuil, paris, 1963, p 283.

فقد أدت بالشعوب الرومانية بالتنقل من مكان إلى آخر تاركين وراءهم أراضيه للبرابرة الذين طردوهم بلا رحمة مثلما فعل إدواكر بالإيطاليين الذين هربوا من روما إلى ناي، حتى الكنائس نالت من وحشية البربر ما ناله سكانها، فقد قاموا بتحطيم تماثيل الكنائس المقدسة، ففرّ سكانها إلى بعض الجزر، لكن رغم كل هذه الصعوبات، فلقد كان الأثر الديني واضحاً في حياة الرومانيين، فأغلبهم حافظوا على عاداتهم وخاصة حياتهم الدينية والدليل على ذلك نجاح التبشير المسيحي¹.

1 - التبشير بالمسيحية :

كانت المسيحية قد انتصرت في الإمبراطورية الرومانية بعد عهود طويلة من الكفاح والعباد، وأصبحت المسيحية هي التي تمثل هيبة روما، وخاصة أمام عناصر البرابرة الذين انتشروا في أنحاء أوروبا، وشعر المسيحيون بضرورة تحويل هذه العناصر إلى المسيحية، وشرح القديس "أوغسطين" أن سقوط روما يعني نهاية دولة ولكنه لا يعني نهاية العالم، وأن الإنسانية تشمل على نوعين من البشرية².

الأول يعيش كرجال، والثاني يعيش كما رسم الله والذين رأوا أنه من الواجب خلق مكان للعناصر البربرية التي تعيش داخل الدولة الرومانية، وقامت حركة كبيرة لتوصيل "كلمة الرب" لكل الشعوب سواء أكانوا من الجرمان أو من الفرنجة أو البرجنديين أو القوط أو غيرهم ممن انتشر في أوروبا، أو من الإنجليز والسكسون الذين انتشروا في الجزر البريطانية³.

كما يذكر "محمود سعيد عمران" أن البابا "جريجوري الكبير" قام بدور فعال في نشر المسيحية الكاثوليكية حيث قام بإرسال بعثة تبشيرية مكونة من "40 راهباً"، برئاسة أوغسطين سنة 596م إلى إنجلترا⁴.

حيث كانت المسيحية قد تقهقرت في الجزر البريطانية على أثر الغزوات الجرمانية، وبعد أن تراجعت العناصر الكنتلية وفرت أما الغزاة وغرقت البلاد في عهد وثني جديد، لكن لم يكن القرن

1 - Jean tenaille : Civilisation accidentale, les éditions des champs, élysées, 1957, p 23.

2 - جلال يحيى : التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، "سيطرة أوروبا على العالم"، ج 4، ط []، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ت []، ص 70.

3 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، التاريخ السياسي، ص 52.

4 - محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ط []، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1988م، ص 98.

السّادس ينتهي حتّى أستقرت الأوضاع وانبثقت مملكة كانت " Kent " الجوتية متزعمة لكافة الممالك حتّى عادت إنجلترا من جديد إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية، ولم تنتقل المسيحية إلى إنجلترا هذه المرة عن طريق غاللا، وإتّما وصلت إليها من إيطاليا مباشرة على يد أشهر المبشرين في ذلك الوقت، وهو القديس "أوغسطين الصّغير" مبعوث البابا جريجوري، وقد كان أوغسطين أحد كبار الديرين بين البندكتيين، ولهذا أظهر تحمّسا كبيرا للتبشير بالمسيحية في تلك البلاد على الرّغم من الصّعوبات التي اعترضت من قبل وصوله إليها لكن ما لبث أن صادف أوغسطين حظًا طيبًا في مهمته¹. فقد كان الملك إثيبرت ملك " Kent " قد تزوّج أميرة فرنجية تعتنق المسيحية، واستطاعت هذه الأميرة أن تحوّلته من وثنيته إلى المسيحية، فاستقبل أوغسطين في إنجلترا استقبالا حافلا. بمجرد وصوله سنة 597م وسهّلت مهمته في التبشير بالمسيحية².

فقد توطّدت علاقة الصّداقة بين الرّجلين، ولم يبذل أوغسطين ورفاقه جهدا كبيرا في مملكة " Kent " بسبب تحوّل غالبية سكانها إلى المسيحية.

إثر اعتناق ملكهم هذه العقيدة، ولأنّ الناس اقتنعوا بما شاء لهم ملوكهم من العقائد، بل انتشرت المسيحية من غير مملكة " Kent " إلى الممالك السّكسونية والانجليزية الخاضعة، معظم ما صادف أوغسطين ورفاقه من مشقّة كان في بقية أنحاء الجزيرة البريطانية حيث بدأت المسيحية تتقدّم ببطء، ونزل القديس أوغسطين في مدينة "كانت بري" عاصمة الملك إثلا بارت، ووجدت البعثة التبشيرية في إعادة بناء كنيسة القديس مارتن التي ترجع إلى العهد الرّوماني فأقاموا بذلك أول كاتدرائية مسيحية في إنجلترا، وأصبح أوغسطين الصّغير أول رئيس الأساقفة كانت بري (597-605م)، وبدأت المسيحية تتقدّم في بقية الممالك الجرمانية بإنجلترا في "نور ثمبريا" و "انجليا" و "ماركيسيا"، و "سكس" غير أنّ مدينة لندن أظهرت عنادا شديدا للعقيدة الجديدة، وطردت مبعوثي أوغسطين إليها³.

وخيب أمل البابا جريجوري لجعلها مركزا للمسيحية وجعلها بدلا من "كانت بري"، لكن على الرّغم من كلّ هذا كان دخول إنجلترا داخل دائرة الكنيسة الغربية من جديد قد عوّض جزئاً

1 - محمد محمد مرسى الشّيخ : الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى، ط []، القاهرة، دار الكتب الجامعية، 1975م، ص 234.

2 - عبد القادر اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 66.

3 - محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 160.

من الخسارة التي مُنيت بها الكنيسة بعد ذلك حينما استولى المسلمون على إسبانيا وانتشار الإسلام فيها، وحازت الكنيسة الغربية بتلك السيادة على إنجلترا¹.

وأصبحت صاحبة الأمر والنهي في شؤون المسيحية، وتولى أسقفية كانت بري في القرن السابع نهر من رجالها تميّزوا بالحماسة والدّأب على تأكيد نفوذ البابوية روحياً وحضارياً، ومن هؤلاء فلنسيان وتيودور الطرطوسي الذي كان يوناني، وقد صرف مهمته إبان رئاسته (669-690م) لإنشاء المدن الأسقفية، وجعل مدينة يورك عاصمة إقليمية روحية وإطغاء النظم الرومانية والثقافية في إنجلترا الرومانية على الكنيسة الإنجليزية².

وعقد أول الجامع الدينية التي عرفتها الكنيسة، وبذل مساعيه الحميدة لدى ملوك إنجلترا لمنح الكنيسة الإنجليزية الأراضي للصرّف منها على الكاتدرائيات والأديرة، ولقد ترتّب عن عودة إنجلترا لحظيرة المسيحية وسيطرة روما على شؤونها الدينية، إذ ارتبطت إنجلترا من جديد بعجلة الأحداث الأوروبية³، هذا في إنجلترا.

أمّا في إيطاليا، فيبدو أنّ ضعف التائب الإمبراطوري فيها، وافتقاره في معظم الحالات إلى المال والرجال ساعد على ازدياد نفوذ البابوية المدني في بقية أنحاء إيطاليا، فضلاً عما فعله جريجوري العظيم لمدّ نفوذ البابوية الفعلي إلا غالا وإسبانيا ذلك أنّه عمل على نشر المذهب الكاثوليكي بين القوط الغربيين، وبذلك أدخل إسبانيا على حظيرة الكنيسة الغربية.

كما يضيف سعيد عبد الفتّاح عاشور بعد إنجازات البابا جريجوري فيقول: "وقد استطاع جريجوري أن يدعّم الكنيسة الكاثوليكية بين اللومبارديين عن طريق تأثيره على زوجة الملك أجيلوف، وفي غالا كانت رغبات جريجوري تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة حتّى أصبح لهذا البابا كلمة مسموعة في جميع أنحاء غالا⁴.

2 - بناء الكنائس :

لما أضحى وضع الكنيسة معترف به من النّاحية الرّسمية لم تلبث أن غدت مالكة للأراضي، وأضحى لها الضّيعاع في أنحاء العالم، ويقوم على فلاحتها الأرقاء والفلاحين الذين أسهموا

1 - محمد محمد مرسي الشّيخ : الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى، ص 234.

2 - عبد القادر اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 235.

3 - محمد محمد مرسي الشّيخ : الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى، ص 235.

4 - عبد الفتّاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 119.

في زيادة ثروتها، وسخاء الأباطرة فيما يذلوله للكنيسة من خزائن الإمبراطورية من منح، فكثرت ما يُوقف عليها من الأحباس من كل الجهات¹.

ومما زاد من ثروة الكنيسة الأسر الغنيّة والأرستقراطية التي تركت الدين الوثني، واعتنقت المسيحية، وقد كان للكنيسة الرومانيّة نصيب متزايد من الثروة التي جاءت إلى عاصمة الدولة الغربية، فكان أسقف روما يعيش عيشة الأمراء في قصر لاتران "Lateran"².

فهذه العوامل زادت من نفوذ البابوية في الغرب. ومن العوامل أيضا التي زادت من نفوذ البابوية كذلك المكانة التي احتلّها البابوات الذين ظلّوا في مناصبهم، ولم يرهبهم شيء حيث ازدادت هيبتهم عندما فرّ أعضاء مجلس الشيوخ، والإمبراطور من وجه الغزاة، ولما اعتنق البرابرة المسيحية زاد ذلك من سلطة البابوية ونفوذها زيادة كبرى، حيث لعبت الكنيسة الغربية دورا هاما في رعاية الفقراء والمرضى، وما ينفق على رجال الدين أو ما يستخدم لبناء الكنائس الجديدة³، خاصة في زمن جريجوري الذي قام بإعادة بناء الكنائس التي تهدّمت وتدمّرت إثر الغزو الجرمانى⁴، حيث قام بإنشاء كنائس عديدة أهمها كنيسة القديس مارتن⁵.

كما أدخل البابا جريجوري تحسينات على طرق إقامة الشعائر الدينيّة في كنائس، وأحكّم الإشراف على الجهاز الكنيسي في الغرب، فدان له بالطاعة أساقفة غاليا وتوسكانيا واليونان وإسبانيا، هذه الأخيرة التي تحوّلت في عهده من المذهب الآريوسي إلى المذهب الكاثوليكي⁵.

وبذلك فقد اجتمع بيد البابوات سلطتان روحية وزمنية -على حد قول إبراهيم أحمد العدوي- فلم يكن لرجال الدين في ظلّ الديانة المسيحية، أي قدرة تمكنهم من التّدخل في شؤون الإدارة أو فرض أيّ رأي أو توجيه رجال تلك الإدارة، وظلّوا على الرّغم من عطف الدولة عليهم بعيدين عن تيار الحكم والسياسة، ولكن التّنظيم الكنسي الجديد جعل من رجال الدين قوّة تعلو فوق سلطات الحكام ولها الحق في الإشراف التّام على سائر الأعمال، وأصبح البابا هو المهيم على كافة طبقات المجتمع⁶.

1 - السيّد الباز العربي: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ط []، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية للنشر، 1968م، ص 163.

2 - ول ديوارنت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة: محمد بدران، ج 1، مجلد 4، م []، جامعة الدول العربية، ت []، ص 105.

3 - السيّد الباز العربي: المرجع السابق، ص 163.

4 - نور الدين حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ط 1، بيروت، لبنان، دار الفكر المعاصر، 1993م، ص 106.

5 - سعيد عبد الفتّاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 144.

6 - إبراهيم أحمد العدوي: المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ط []، القاهرة، دار المعرفة، 1961م، ص 55.

ومّا سبق نلاحظ أن البابا قد لعب دورا مهما في المجال الديني حيث عمل على نشر المسيحية في مختلف أنحاء أوروبا، والقضاء على الوثنية، وانجلترا خاصة، كما قام ببناء الكنائس الفخمة، في مختلف أنحاء الإمبراطورية، وكان له دور في مساعدة الفقراء والمحتاجين

- المطلب الثالث : علاقة البابوية ببعض ممالك أوروبا الغربية.

وباتخاذ البابوية صفة الدولة، والتي من مميزاتهما إقامة علاقات مع مختلف القوى السياسية المعاصرة لها، فقد كان للبابوية علاقات متعدّدة بمختلف ممالك أوروبا المسيحية الغربية. فما طبيعة هذه العلاقات ؟ هل هي علاقات تأثيرا أو تأثر ؟ وما هي انعكاساتها على مستقبل البابوية ؟ وعلى ممالك أوروبا كذلك ؟

اجتاحت الإمبراطورية الرومانية موجة من الغزوات الجرمانية، كانت نتيجتها تمزق أملاك الإمبراطورية، حيث تمركز الوندال¹ في إفريقيا والقوط² الغربيون، والرجنديون³، في إسبانيا وجنوب غاليا.

كما استقرّ الألمان في الألزاس، في حين استقرّ الفرنجة في السوم، والميز، واستطاع الفرنجة -دون غيرهم من القبائل الجرمانية- أن يحققوا الاستقرار داخل حدود الإمبراطورية⁴، وأن يكونوا -فيما بعد- دولة قويّة استطاعت إقامة علاقات مع القوى المجاورة لها، وما يهمنّا هو علاقاتها مع البابوية، ونتساءل ما طبيعة هذه العلاقة ؟ .

أولا : الفرنجة.

1 - علاقة البابوية بالميروفنجيين :

قامت المملكة الميروفنجية على يد كلوفس (486-551)، شمال غاليا، وعلى عكس الجرمانيين أيدو كلوفس ميلا للمسيحية، انتهى بتعميده سنة 496 على المذهب الكاثوليكي، هذا ما كان له أثرا إيجابيا على العلاقات الميروفنجية البابوية، حيث توجّج كلوفس وخلفائه ملوكا من طرف البابوية، وعن علاقة كلوفس بالكنيسة المحلية، فقد طبعت بالتّفاهم، وحرص كل طرف

1 - عبروا البحر إلى شمال إفريقيا 469 بزعامة جنسريق، استولى على طنجة وطرابلس.

2 - استقرّوا في الجنوب الغربي من غاليا سنة 418.

3 - ظهوروا أول مرّة سنة 277 في حوض الراين، وحوالي 467 بين جبال الألب والرّون.

4 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 75، 76.

على إرضاء الطرق الآخر، وعمل كلوفس على منح رجال الدين امتيازات واسعة.

ورغم محالة الميرفنجيين الإندماج في المجتمع الروماني المسيحي، إلا أنهم لم ينسلخوا عن أصولهم الجرمانية، مما جعلهم بعيدين عن التعمق في القوانين الرومانية التي تسيّر المجتمع والكنيسة، هذا سمح للكنيسة بالتدخل والفصل في القضايا المدنية، ومع كل هذه التسهيلات، إلا أن الملك الميروفنجي يحكم في توجيه الكنيسة، من خلال إشرافه على تعيين الأساقفة، واتخاذ القرارات في المجامع¹.

فالمملك الميروفنجي احتفظ لنفسه بحق تعيين الأساقفة من الموظفين العلمانيين في البلاط الملكي، دون مراعاة شروط القانون الكنسي².

وأصبح الأساقفة يمثلون إقطاعات ملكية، وكان نيتها ابتعادهم عن أخلاق وصفات رجل الدين، وميلهم إلى الحياة الدنيوية³.

لكن سرعان ما دبّ الضعف في المملكة الميروفنجية، في حين زادت سيطرة الأساقفة الذين استقروا في المدن الكبرى، ووجهوا شؤون المملكة خاصة إذا علمنا أن جلهم ينتمي إلى الأسر الغنية في المملكة.

2 - علاقة البابوية بالكارولنجيين :

بعد التراجع الذي شهدته حكومة الميروفنجيين، برز فرع جديد من الفرنجة⁴، بقيادة بين القصير⁵ الذي استأذن زكاريا (741-752) في شرعية انتزاعه الحكم من الملك الميروفنجي شلدريك الثالث، وأذن له البابا من خلال مجمع ديني سنة 751، حيث تمّ فيه انتخاب بين ملكا سنة 752⁶، وبذلك انتهى عصر أحفاد كلوفس، لبدأ عهد جديد، سيطرت فيه الملكية الكارولنجية، وهذا التتويج بالزيت المقدس، يعدّ الأول، حيث يعطي فيه البابا السلطة الزمنية للملك، ويوكّل حماية الكنيسة للحاكم العلماني⁷.

1 - Jean Baptiste et Jean Marie : Histoire du catholicisme, p 24.

2 - نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 306.

3 - M.D. Knoules et D'obolensky : Le moyen âge, 42.

4 - دام حكم الفرنجة من سنة 751 حتى 987.

5 - ملك الفرنجة أو الفرنكيين ابن شارل مارتل، ووالد شارلمان، مؤسس أسرة الكارولنجيين، ويعرف أيضا ببيبين الثالث.

(منير البعلبكي : موسوعة المورد، ج5، ص 33).

6 - محمود سعيد عمرات : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 118، 19.

7 - Juan dacio : Dictionnaire des paes, p 46.

ومنذ هذا التاريخ، بدأ التحالف بين البابوية، والملكية الكارولنجية حيث عقد اتفاق بين البابا ستيفن الثاني، وبين القصير سنة 753، تعهد فيه بين بحماية أملاك البابوية، وبارك البابا بين وولديه كارينان وشارلمان¹، وجعل الملك وارثا في آل بين².

لقد استنجد البابا ستيفن (752-757) بالإمبراطور البيزنطي لحمايته ضد خطر اللومبارديين لكن المشاكل حالت دون ذلك³، خاصة وأن المسلمين استولوا على أجزاء من آسيا وأفريقيا وإسبانيا والبحر المتوسط، إضافة إلى عجز التائب الإمبراطوري عن حماية البابوية⁴، ولم تجد البابوية، بدءاً من اللجوء إلى الكارولنجيين، الذين كانت قوتهم تزداد خصوصاً، وأنهم أظهروا احتراماً وتعاطفاً مع البابوية.

وقد تعزز هذا التحالف بعد هبة بين سنة 756، للبابا ستيفن الثاني، حصلت بموجبه البابوية على ولاية رافنا، والممتلكات البيزنطية في إيطاليا ودوقيتي، سوليتو، وبنفتو⁵، وتوَّج البابا بين ملكاً مرة ثانية، ويعدّ تعزيز الشرعية الملكية الكارولنجية من البابوية⁶.

وعند تعرّض البابوية لهجوم استولف اللومباردي، تدخل بين لحماية البابوية تنفيذاً للعهد الذي قطعه للبابا⁷.

حيث تصدّى للمباردين، وأبعدهم عن الأراضي البابوية، بعد أن قطع علاقاته القديمة معهم، فهزمهم في باقيا 755م، وأعاد للبابوية رافينا، وفارني، لكن اللومباردين عاودوا هجومهم على ممتلكات البابوية، وتدخل بناء على طلب البابا وهزمهم نهائياً في باقيا سنة 756م⁸. واستمر هذا حتى وفاة بين وتبعاً لتقاليد الفرنجة، فقد قسّم بين الملك بين ولديه كارلمان

1 - ويسمى تشالز الأكبر، احتل جزء كبير في أوروبا الغربية أحيا الفكر السياسي والثقافي في أوروبا كما عمل على حماية الكنيسة وتوسيع سلطتها أدخل نظام الإقطاع لمملكته (الموسوعة العالمية، ج14، ص، 17).

2 - إبراهيم أحمد العدوي : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ص 96.

3 - Juan dacio : Op. Cit. P 47.

4 - ول ديوارنت : قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة : محمد بدارن، ج 3، م5، ط []، بيروت، دار الجيل، ت []، ص 353.

5 - محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 163.

6 - محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص 19.

7 - Jean Baptiste : Histoire du catholicisme, P 37.

8 - Juan Dacio : Dictionnaire des papes, P 47.

وشارلمان لكن سرعان ما انفرد شارلمان بالحكم، ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الكارولنجية البابوية.

استطاع شارلمان إزالة خطر اللبارديين عن البابوية نهائياً، وعمل على نشر المسيحية في أقاليم الدانوب، كما أقرّ شارلمان سنة 774م، هبة بين، ومنح البابا الصّدارة الشرفية¹.

وفي 25 أبريل 799م، عندما تمرد أهل روما على البابا ليو الثالث² (795-816م) أسرع شارلمان لإعادة البابا إلى منصبه³، فقرر البابا ردّ الجميل بتتويجه إمبراطوراً على الغرب سنة 800م، وهذا كان إيذاناً بإحياء الإمبراطورية الرومانية في الغرب⁴، وهكذا أصبح شارلمان حامياً للبابوية، ومن هذا المنطلق فرض إرادته على الكنيسة داخل إمبراطوريته، فتولّى تعيين الأساقفة— والدعوة إلى المجامع الدينيّة، ورئاستها كما تدخل في سنّ القوانين الكنيسة، فكان حكمه تيوقراطياً، ولم يفرّق بين الكنيسة والدولة، وأصبح رجال الدين أتباعاً له⁵.

وعندما حاولت الكنيسة التحرّر من قبضته أرسل رسالة إلى البابا ليو الثالث يخبره أنّ دوره هو الدفاع عن كنيسة المسيح، ضد الغزوات الوثنية الخارجية، أمّا في الدّاخل فهو مسؤول عن تقوية الإيمان، ويحصر دور البابا، في الدّعاء له حتّى يكون الشعب المسيحي منتصباً على أعدائه⁶، إذ لم يحصر شارلمان اهتمامه بإدارة الكنيسة فحسب، بل تصرف، وكأنّه حارساً للعقيدة، وحامي الإيمان⁷، وأكّد أنّ اختياره كان من طرف المسيح لحماية البابوية، فضلاً عن إدارته للأُمور الزمنية⁸.

من خلال استعراض سياسة شارلمان تجاه البابوية، تستنتج أنّه طمح إلى جانب كونه حاكماً علمانياً، إلى أن يكون القس الأسمى للكنيسة، وبذلك تجسّدت في عهده القيصريّة البابوية.

1 - ويليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم، ترجمة : محمد مصطفى زيادة، ج 2، ط []، م []، مكتبة النهضة المصرية، 1959، ص 417.

2 - Juan Dació : Dictionnaire des papes, p 50.

3 - Charles Pichon : Histoire du vatican, société d'étions françaises et internationales, Godot de moroy, paris, 1946, p 39.

4 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 168.

5 - Henri Ficheman : L'empire carolingien, traduit par A.Barbey et F.Vaudou - Payot, paris, 1958, p 85.

6 - M.D. Knowles : le moyen âge, p 45.

7 - Henri Ficheman, Op. Cit. P 83

8 - Jean Baptiste : Histoire du catholicisme, p 38.

ورغم القيصرية التي كانت مورمة في عهد شارلمان، إلا أنه كان لها جانباً إيجابياً، حيث كفت خطر الأسر النيبيلة الرومانية المتنامية على البابوية فضلاً عن حمايتها من الأخطار الخارجية فيذكر "فرانسواز" أن هذا يفسر تعلق البابوية بالإمبراطورية الكارولنجية من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الكارولنجيين ابتداءً من شارل مارتل استفادوا من خبرات رجال الدين في الإدارة نظراً للتعليم الذي تلقوه داخل الكنيسة¹.

بدأ تراجع نفوذ الإمبراطورية الشارلمانية بعد وفاة شارلمان، حيث تنازع خلفاؤه على الملك، وتوَّج ابنه لويس إمبراطوراً سنة 816م، وفي 817م قسّم المملكة بين أولاده الثلاث، وبعد وفاته نشب خلاف بين هؤلاء وسرعان ما حلّ النزاع بموجب اتفاقية فردان 843م، فحكم شارل الجزء الغربي فرنسا، وحكم لويس الألماني الجزء الشرقي ألمانيا، أما لوثر فحكم اللدّرين².

وهكذا انتهت الإمبراطورية الكارولنجية الموحدة، وظهرت الدول الحديثة (ألمانيا، فرنسا) وكنيسة لهذا الوضع وجدت الكنيسة طريقها إلى السيطرة كقوة وحيدة في القرن التاسع، وتسلمت المهام الدنيوية، وجهرت يسمو السلطة الدينية على السلطة الدنيوية، وانقاد شارل الأصغر لرغبات الكنيسة، حيث أقرّ حرية الأساقفة في عدم الامتثال لأي قانون يمس حقوق الكنيسة³.

ومنه فعلى الرغم من السلطة الزمنية التي بلغت الكنيسة إلا أنها بقيت في حاجة إلى حليف علماني، وأملت في بعث الإمبراطورية الكارولنجية لكن تنامي قوة الاستقرائية الرومانية، جعلها تحصل على حقّ انتخاب البابا⁴. - كما ذكر نور الدين حاطوم- وبالتالي كان من خطر النتائج التي ترتبت عن سقوط الإمبراطورية الكارولنجية هو خضوع البابوية للسيطرة الأرستقراطية الرومانية.

ثانياً : علاقة البابوية بمملكة فرنسا.

كانت فرنسا وليدة معاهدة فردان 843م، وابتداءً من القرن العاشر برزت أسرة "أدو" كونت باريس، وتنازعت السلطة مع الأسرة الكارولنجية، وبوفاة شارل الخامس سنة 987م،

1 - Françoise Iadoués : Breve Histoire de l'église catholique, desxlée Browwer, Paris, 1988, p 46, 47.

2 - وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم، ج2، ص 430.

3 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الأوسطى الأوروبية، ص 133.

4 - نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 498.

اختار النبلاء هيو كاييه¹، (987-996)، لتولي عرش فرنسا²، وقد استعان ملوك آل كاييه على رجال الإقطاع فسخرّوا إمكاناتهم لتدعيم الملكية، وهذا دعم العلاقات الإيجابية بين البابوية والملكية، والملاحظ أنّه بعد استقرار الأوضاع للبابوية، والملكية الفرنسية، بدأت العلاقات بينهما تسوء³، وزادت العلاقات سوء في عهد فليب الرابع (1285-1314م)، حيث أخضع ممتلكات الكنيسة للجباية، بسبب حاجته لتمويل الحرب ضد إنجلترا، حينها تدخل البابا بونيفاس الثامن (1294-1303م) بناء على طلب رجال الدّين بإصدار قرار سنة 1226م، نص على حرمان الملوك في حالة فرض الضّرائب على الكنيسة، ما لم يأخذوا إذنا من البابوية، فردّ فليب الرابع على البابا بمنع تصدير الذهب والفضة إلى خارج فرنسا، ممّا أضرّ بالبابوية⁴.

وبلغ الصّراع أوجه سنة 1305م، عند اعتلاء كلمنت الخامس عرش البابوية فأظهر تساهلا مع فليب الرابع، حيث برزت الملكية -في هذه الفترة- كأكبر قوّة، تمكنت من فرض سيطرتها على البابوية، وذلك بنقل مقرّ البابوية من روما إلى أفينيون 1305م⁵ -هذا ما سنعرفه لاحقا-.

ثالثا : علاقة البابوية بمملكة إنجلترا.

كانت بريطانيا من الإمبراطورية الرومانية حتّى 407م، وقد اجتاحتها الغزوات الجرمانية، فظهرت فيها عدّة ممالك⁶ غلب عليها عنصر الانجيز والسكسون، ومنه أصبحت تسمّى إنجلترا⁷.

وفي سنة 1066م، تمكّن النور منديون بقيادة وليام الأوّل من إخضاع إنجلترا. ورغم تشدّد وليام الأوّل في تسيير شؤون الكنيسة في إنجلترا إلاّ أنّه بقي محافظا على العلاقات الحسنة مع البابوية⁸.

1 - دام حكمها سنة 987م، إلى 1328م، من إماراتها دبرقندي، إكويتين، فلنדרز.

2 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 190، 191.

3 - محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 301.

4 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : تاريخ أوروبا بالعصور الوسطى، ج 1، ص 237، 238.

5 - عبد القادر أحمد اليوسفي : المرجع السّابق، ص 304-306.

6 - هي كنة، اسكس سوسكس، ويسكس، نورت امبريا، مرسيا، انجيبيا.

7 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 167.

8 - عبد القادر أحمد اليوسفي : المرجع نفسه، ص 173، 174.

استمرّ النزاع مع البابا أنوسنت الثالث، والملك يوحنا ثم جان¹، وتمكنت البابوية عام 1213م من أن يجعل إنجلترا ملكية إقطاعية، تؤدي الجزية البابوية².

ثمّ يضيف عبد القادر أحمد اليوسفي معلقاً حول ما سبق: « خَلَفَ هذا الفعل أثراً سلبياً لدى الإنجليز، إذا حاولوا التّخلص من السيطرة البابوية، خاصة بعد أزمة البابوية في أفينيون، وظهور أفكار مناوئة لبابوية أفينيون منذ التّصف الثاني من القرن الرابع عشر، إذ حصر واكليف صلاحيات الكنيسة في الجانب الرّوحي، بينما تلتزم الدّولة بالإشراف على الأملاك الدّينيّة للكنيسة، فضلاً عن السّلطة السّياسية بل أكد بصورة واضحة عدم أهمية البابوية لقيادة العالم المسيحي³.

رابعاً : علاقة البابوية بالنورمان والمبارديين.

أ - علاقة البابوية بالنورمان :

عانت إيطاليا خلال القرن العاشر، نزعات بين أمراء الإقطاع ورؤساء الأساقفة، ممّا جعل البابوية، ضحيّة هذا النزاع فحاولت بدورها الدّفاع عن نفوذها، وكانت وسيلتها عقد تحالفات مع الأطراف المتنازعة وما زاد الأمور تعقيداً هو طموح هؤلاء الحماة للسيطرة على البابوية⁴. والنورمان من بين القوى التي استغلت الفرصة، خاصة بعد اعتناقهم المسيحية في فرنسا، وعمل خلفاؤه على توسيع الحدود ممّا أثار مخاوف البابوية وجعلها تسعى للقضاء عليهم، وفشلت سنة 1045م في موقعة سيفينات "Civitaté"⁵.

وبعدها كانت علاقات تعاون، بإبرام معاهدة بين نيقولا الثاني (1057-1061م)، واثنين من رؤساء النورمان ريتشارد أوف أفرسا وروبرت جويسكارد، واعترفت البابوية بشرعية النورمان، مقابل تبعيتهم، ودفع جزية سوّية⁶.

1 - محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 135، 136.

2 - محمد سعيد عمران : المرجع نفسه، ص 141، 142.

3 - عبد القادر أحمد اليوسفي : المرجع السابق، ص 269، 270.

4 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية ، ص 135.

5 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 284.

6 - محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 276.

ب - علاقة البابوية باللومبارديين :

ابتداء من 568م، استقرّ اللومبارديون بزعماء ألبوين "Alboin" في نهر ألبوا، واستدلوا على شمال إيطاليا، والأجزاء الداخليّة من شبه جزيرة إيطاليا¹، وقد كان ليتو براند على اتفاق مع البابوية منذ 770م، دام ثمانية أعوام، لكن ساءت العلاقات بعد احتفاء دوق سبوليتو (عدو ليتو براند) بالبابوية، هذا أدّى إلى زحفه على روما²، وانتهج خليفته استولف، سياسته العدائية مع البابوية، بهدف توحيد إيطاليا وجعل البابوية تابعة له، ورغم تهديد البابا له بتوقيع عقوبة الحرمان استمر استولف في سياسته، فاستنجد البابا بالملك الفرنجي بين الذي تمكن بعد فرضه شروط قاسية على استولف من استعادة أملاك البابوية وبوفاته 756م، تراجعت القوة اللومبارديين نهائياً³.

ومن خلال دراستنا لعلاقات البابوية ببعض ممالك أوروبا الغربية ابتداء من المملكة الميروفنجية، نستنتج أنّ حداثة العلاقة بين الطرفين حصرت في التعاون بينهما، خاصّة وأنّ الملوك الميروفنجيين لم يكن لهم الطموح في إخضاع البابوية إضافة إلى انشغالهم بالحروب الأهلية التي كانت نتيجتها قيام الدولة الكارولنجية.

هذه الأخيرة جدّدت العلاقة مع البابوية، فكانت في بادئ الأمر علاقة مصلحة مشتركة لكن بعد استقرار الأوضاع للطرفين، استطاع شارلمان تحقيق القيصريّة البابوية في عهده، ولعبت الخلافات الداخليّة مرّة أخرى في الدولة الكارولنجية دورها في إنهاء السيطرّة الزمنية على البابوية.

أمّا علاقة البابوية بالمملكة الفرنسية، كانت حسنة، حيث حصلت الكنيسة على الامتيازات، وحصلت السلطة الزمّنيّة على الأموال وساءت بمجيء ملوك طموحين، مثل فليب الرابع، الذي نجح في إخضاع البابوية، وكان الأمر مماثلاً بالنسبة لإنجلترا، لكنّها سرعان ما سعت إلى التحرّر من بابوية أفينيون.

أمّا قوّة النورمان واللمبارد، فقد كانت سلاح البابوية في صراعها ضدّ القوى الزمّنيّة، وفي حالة ازدياد طموحاتها، وتوسيع نفوذها على حساب إيطاليا والبابوية، فإنّ هذه الأخيرة تتصدى لها بمساعدة قوى أخرى.

1 - تضم فيرونا، ميلان، بافيا، تسكانيا، وسط إيطاليا حتّى بنفنتو.

2 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : المرجع السابق، ج1، ص 110.

3 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : المرجع نفسه، ص 125، 126.

خامسا : الصّراع بين البابوية وأباطرة ألمانيا.

إنّ صراع البابوية ضدّ بعض ممالك أوروبا الغربية خاصة إنجلترا وفرنسا - وما نتج عنه من انشغال البابوية عن شؤون إيطاليا الداخليّة أعطى الفرصة للأسر الرومانية النّبيلة لفرض سيطرتها والتّدخل في انتخاب البابا، فأضحت البابوية تحت وصايتها، في وقت أصبح أغلبية البابوات غير مؤهلين للمنصب، فإذا أضفنا طموح الأباطرة الألمان لإحياء الإمبراطورية الشّرلمانية، وظهور المدن الإيطاليّة التي أبدت منذ الوهلة الأولى - رغباتها في الاستقلال عن كل القوى سواء سياسية أو دينيّة، ندرك عندها الوضع الذي كانت تعيشه البابوية خصوصا، وأنّ بابوات هذه الفترة كانوا ضعافا، وغير أكفاء.

وابتداء من النّصف الثاني من القرن العاشر، تغيّرت الأوضاع يتولى كرسي البابوية، بابوات عظام طموحين لتحقيق سُمّو البابوية، ممّا استلزم اصطدام هذه الأخيرة بطموح الأباطرة الألمان، وسعى كل طرف لتأكيد سيادته على الآخر.

1 - علاقة البابوية بأباطرة ألمانيا الأوائل :

يعتبر أوتو¹. الأول (936-973م) مؤسس الإمبراطورية حيث أحكم سيطرته على ألمانيا وإيطاليا، وذلك بتدعيم سلطانه في الدّوقيات الشّاغرة بتعيين أقاربه، هذا ما أثار سخط كبار الأمراء الذين استعانوا بالكنيسة لمواجهةهم²، حيث منحها امتيازات زادت من ثروة رجال الدّين الذين تحوّلوا إلى أمراء إقطاعيين خاضعين له من خلال تقليدهم المهام في المناصب الدّينيّة³. لكن سرعان ما استنجد بعض كبار الأساقفة بالبابا رافضين هذا التّدخل العلماني في شؤون الكنيسة لهذا أدرك أوتو أن سيطرته لن تتم إلا بكسب البابوية أو السّيطرة عليها⁴. وأكد أوتو منحتي بين وشارلمان واعترف باستقلال البابوية، وتعهّد بحمايتها، فأضحى حاميا العالم المسيحي، وسرعان ما ظهر طموح أوتو الأوّل لإحياء القيصرية البابوية على غرار ما كان في عهد شارلمان، حيث طالب البابا بتقديم الولاء له، لكن هذا الأخيرة رفض ذلك واستنجد بالبيزنطيين⁵.

1 - حكم ألمانيا بعد اتفاقية فردان، كونراد الأوّل (911-918م) من البيت الفرانكوني، ثمّ هنري الأوّل (919-936م) من إمارة سكسونيا، ثمّ أوتو الأوّل.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 255-256.

3 - M.D. Kouiles et quelque : le moyen âge, p 59.

4 - Juan dacion : Dictionnaire des papes, p 63.

5 - السيّد الباز العربي: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 431، 432.

وأدى اهتمام هؤلاء بإيطاليا، وإهمال شؤون ألمانيا إلى اندحار قوتهم أمام تنامي قوة السكسون الذين انتهجوا السياسة نفسها لتأكيد قوة الإمبراطورية بدءاً بهنري الثاني (1002-1024م)، ثم كونراد الثاني (1024-1039م) الذي تجسدت في عهده القيصرية البابوية.

ثم يضيف "نور الدين حاطوم على ذلك بأنه كان لسياسة بعض الأباطرة الأمان أثراً إيجابياً على البابوية - حيث دعموها دون قصد خاصة في عهد هنري الثالث (1039-1061م) الذي اتبع سياسة كانت تهدف من جهة إلى إصلاح الكنيسة، ومن جهة أخرى حرص على فرض سيطرته¹.

ومحمي البابا نيقولا الثاني (1059-1061م) بدأت البابوية محاولاتها للإنعتاق من القيصرية البابوية، خاصة بعد وفاة هنري الثالث 1056م، حيث فسح المجال للصراع بين البابوية والإمبراطورية دام أكثر من ثلاثة قرون².

2 - أسباب الصراع بين البابوية وأباطرة ألمانيا :

تعدّ العلاقة بين الدين والدولة من أهم قضايا الديانات القديمة، فالروما مثلاً -الذين كان حكمهم تيوقراطياً في عهد الديانة الوثنية الهوا الإمبراطور الذي جمع بيده السلطة الدينية والسياسية.

وقضت المسيحية -فيما بعد- على هذا الاعتقاد، وبظهور البابا كسلطة دينية، طُرح التساؤل حول من تكون له أولوية الطاعة الحاكم أم البابا؟.

وفي هذا الصدد ظهرت ثلاث نظريات عملت على تكييف العلاقة المتطورة بين الكنيسة والدولة.

أ - ظهور النظريات :

- **نظرية الوحدة** : بعد ظهور الكنيسة كقوة موازية للسلطة الزمنية، وتجنباً لأي إشكال في تحديد مهام كل سلطة، ظهرت هذه النظرية، منادية بمبدأ (أدوا إذا ما لقبصر لقيصر، وما لله لله)³.

1 - نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 590.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، ص 282.

3 - مت : 21/22 - 22.

وهذه النظرية تعتبر العالم كتلة واحدة تدين بالمسيحية، ويتطلب هذا العالم قيام حكومة عليا واحدة، يسيّرهما البابا والإمبراطور، فتتولى الكنيسة الجانب الروحي بما فيه التبشير والخلاص الأبدي، وتختص الدولة بالجانب الديني، فتقوم بالمحافظة على السلام والنظام والعدالة¹. هذا في إطار التعاون بينهما للدفاع عن مصالح العالم المسيحي.

يعتبر البابا جيلا سيوس الأول "Gelas" 490-496م من الأوائل الذين أكدوا على الفصل بين السلطتين في المهام الدينية والدنيوية ومما قاله سنة 495م، -على حد ذكر ج.ج. كولستون- «إنه فيما يتعلق بالشؤون الدنيوية يكون للإمبراطور حق إصدار القوانين، وعلى رجال الدين الطاعة، أما فيما يتعلق بالشؤون المتصلة بالعقيدة الدينية والطقوس يكون البابا هو المرجع فيما يصدر عن ذلك من قرارات»².

يعتقد القديس أوغسطين "Saint Augustin" أنه إذا كانت الدولة مسيحية، فإنها تكفل لأفرادها العدالة والسير وفق المبادئ الكنيسية، فهي وسيلة لتقويم سلوك الأفراد الذين يميلون إلى الشر. وفي كتابه مدينة الله "La cité de dieu"، يؤكد على ضرورة ولاء المسيحيين للسلطتين الزمنية والدينية في آن واحد ولو أنه يعطي أولوية الخضوع للكنيسة باعتبارها مخلصمة المسيحيين من الذنوب³.

وبعد الضعف الذي أصاب الإمبراطورية الرومانية ابتداء من القرن الرابع حاولت الكنيسة أن تجد تكييفا آخر لعلاقتها بالدولة، فنادت بضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والزمنية، وظهرت الرغبة في السيطرة واضحة، ومن ثم ظهرت نظرية السمو البابوي.

- **نظرية السمو البابوي** : سُميت نظرية الوحدة "بنظرية السيفين"، حيث تجعل العالم يسير بسلطتين، سلطة البابا، وسلطة الإمبراطور، ولكن سلطة البابا أعلى⁴، من باب أن البابوية مؤسسة روحية، وأن الروح أعلى مقاما من المادة، فالبابا أسمى مقاما من الإمبراطور، وعلى هذا الأخير طاعة الأول⁵.

1 - إبراهيم أحمد العدوي : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ص 143.

2 - ج.ج. كولستون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ص 223.

3 - Saint augustin L La cité de dieu, 7 place, st - pierre, maison aubanel père, 1930, p 100.

4 - Juan dacio : Dictionnaire des papes, p 30.

5 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 162.

فالكنيسة تقرّ بسلطة الحاكم العلماني المستمدة من الربّ، هذه السلّطة لا تكتمل إلاّ بموافقة المسيحيين ومباركة الكنيسة لها¹.

ويذكر "جون هارمان" : « وقد تمسّك البابوات بسموّ البابوية، لأنّها السبيل للخلاص الأبدي، حيث قال بونيفاس الثامن : « إنّنا نصرّح ونعلن، ونقول إنّّه من الضّروري لخلاص كل إنسان أن يكون خاضعا لحكم الحبر الرّوماني »².

واستندت البابوية أيضا - لإثبات سيادتها- على منحة قسطنطين، ووثيقة الأحكام البابوية التي ظهرت حوالي القرن التاسع وتنسب إلى إيزيدور الاشبيلي³.

فقد أدّى اتساع الكنيسة، وإفراد البابوات في استخدام هذه السلّطة إلى ظهور أفكار منافسة تهدف إلى إثبات سيادة الدّولة على الكنيسة.

- **نظرية سمو الدّولة** : اعتمدوا على القانون الرّوماني، الذي يعتبر السّياسة فوق الدّين لذلك نادوا بخضوع رجال الدّين للحكام العلمانيين، واعتبروا عدم الولاء للدّولة جريمة ضدّها⁴.

إذن فالدّولة عندهم ضرورية لتسيير شؤون المجتمع الدّينيّة والدّنيوية، كما اعتمدوا على نظرية السّيفين التي تقضي بأنّ الإمبراطور مفضّو من قبل الربّ، لذلك لا يمكن عزله إلاّ إذا اقتترف أعمالا مخالفة للعقيدة.

مّا سبق يمكن القول أنّ نظرية السّيفين، هي الأساس الذي اعتمده من البابوية والإمبراطورية، من أجل إثبات سمو الواحدة على الأخرى، وعندما بدأ الصّراع بينهما، اتّخذ كل طرف منهما هذه النّظرية سلاحا لإثبات حقّه في السّيادة.

ب - مشاكل الكنيسة :

ابتداء من القرن التاسع، وبتفكك الإمبراطورية الكارولنجية، تأزّم وضع البابوية، فكان

1 - يحي الجمل : الأنظمة السّياسيّة المعاصرة، ط []، بيروت، دار النهضة العربيّة، 1968م، ص 73.

2 - جون هارمان وانداال : تكوين العقل الحديث، ترجمة : جورج طعمة، مراجعة : برهان دجاني، تقديم : محمد حسين هيكل، ج1، ط2، بيروت، دار الثقافة، 1965م، ص 142، 143.

3 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 294، 295.

4 - عمار بوحوش : تطور النظريات الأنظمة السّياسيّة، ط []، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977، ص 112.

البابوات أقرب إلى التّلاء منهم إلى رجال الدّين، فكانت سلطتهم شكلية على كنائس أوروبا الغربية¹.

كل هذا جعل الكنيسة تتخبط في مشاكل سواء ما تعلّق بجهازها الكنسي كالسيمونية² "Simonie"، النّيقولاوية³ "Nicolaïsme" أمّا السّيمونية فيقصد بها بيع المناصب الدّينية وشرائها، والهدف من ورائها جمع الثروة⁴.

ويشير "Augustin Fliche" إلى أنّ المقصود بالنّيقولاوية فساد رجال الدّين، التي تمخضت عن السّيمونية، إذ لا يلبث القسّ، أو الأسقف الذي حصل على وظيفته عن طريق الرّشوة أن ينحرف عن قاعدة السلوك الكنسي، كالزّواج والمعاشرة غير الشرعيّة⁵.

ويرجع ادوارد يروي ظهور السّيمونية والنّيقولاوية إلى تدخّل العلمانيين في تقليد رجال الدّين مناصبهم الدّينية⁶.

يُدلي السيّد الباز العريبي أنّه بتبؤاً هلد براند منصب البابوية نحت اسم جريجوري السّابع⁷ في 22 أبريل 1073م، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ البابوية، بل في تاريخ أوروبا الغربية⁸.

ويذكر عبد القادر أحمد اليوسفي، أنّ جريجوري في السّابع (1073-1085م) حاول من خلال سياسته تحقيق أربعة أهداف تمثلت في :

- أوّلاً : مواصلة الإصلاحات التي بدأها ليو التّاسع، ثانياً : وضع حدّ للاستثمار العلماني للمراكز الدّينية بتطبيق نظرية السيّفين، ثالثاً : توحيد أوروبا تحت زعامة البابوية، رابعاً :

1 - محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 303، 304.

2 - جاءت التسمية - حسب بعض الروايات في الإنجيل - موجزها أن يسمّون السّاحر حاول إغراء القديس بطرس بالمال لقاء أن يبارك عمله فرفض.

3 - نسبة إلى نيقولا زعيم فرقة لا أخلاقية.

4 - Juan dacion : Dictionnaire des papes, p 123.

5 - Augustin Fliche : Histoire du moyen âge, tome 2, l'Europe Occidentale de 888 a 1125, les presses universitaires de France, paris, 1930, p 122.

6 - أدوارد بروي وآخرون : تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ترجمة : يوسف داغر، فريد داغر، المجلد 3، ط []، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 1982م، ص 318.

7 - ولد سنة 1020 في جنوب توسكانيا، رحل إلى فرنسا وألمانيا استقر في دير كلوني.

8 - السيّد الباز العريبي : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 453.

إنشاء جيش مسيحي لاستعادة الأراضي المقدسة¹. كان يؤمن بعظم رسالة البابوية، حيث قال: «إني لا أقبل البقاء في روما يوماً واحداً، إذ أدركت أنني عديم الجدوى الكنيسة². وقد نادى بسمو السلطة الدينية على السلطة الزمنية، وجعل الأمراء تابعين للبابوية، لأنهم جزء من الرعايا المسيحيين، ويجب أن يراقبوا من طرف خلفاء المسيح³. وأكد أن البابا هو الوحيد الذي يستطيع تنصيب الأباطرة أو الأمراء والحكم عليهم، وليس لأحد الحق في إصدار الحكم عليه⁴.

وتتخلص مبادئه فيما يعرف بالإرادة البابوية (انظر الملحق 04) وشرع في إصلاح الكنيسة، وذلك في مجمع عقده فيما بين 9 و 17 مارس 1074م، حارب فيه مشكلة السيمونية، ونصّ على فصل كل رجل دين عن الكنيسة، إذا ثبت عدم تقيده بهذه الإصلاحات⁵، وقد اعترض الإمبراطور هنري الرابع على قرارات جريجوري السابع متمسكا بحقه في التعيين⁶. يمكن القول أن سياسة جريجوري السابع الإصلاحية، وتصدي الإمبراطور هنري الرابع لها؛ كانت فاتحة لصراع بين السلطين الدينية والزمنية.

3 - مسائل الصراع :

أ - الصراع حول مسألة التقليد العلماني :

إذا كان جريجوري السابع، قد تمكّن من إصلاح مفاسد الكنيسة الداخلية، فإنه لم يفلح في إنهاء مسألة التقليد العلماني، حيث اصطدم مع الإمبراطور هنري الرابع، وكانت فاتحة النزاع إصدار جريجوري السابع مرسوم 1076م، أكد ما جاء في مرسوم 1075م، وذلك ردًا على الإمبراطور هنري الرابع الذي عين اثنين من أتباعه على أسقفيتي فرمو "Formo"، وسبوليتو "Spolito"، ورغم أنّهما تقعان ضمن النفوذ البابوي.

1 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 151، 152.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 303.

3 - Genicot et P.Houssiou : Le moyen âge, castermane, 1962, p 169.

4 - Gerrard chaliaud, Splue mousset : 2000 ans de Christiente, édition Odile, Jacob, 1999, p 78.

5 - J.M. Mayeur : Histoire du christianisme, des oris inex à nos jours tome 5, opogée de la papauté et expansion de la chrétienté (1074-1274) des clé, paris, 1993, p 70.

6 - محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا، ص 201.

وتأزم الموقف أكثر بعد تعيين الإمبراطور، أحد أتباعه تيدالدا " Tedald " أسقفا لميلان¹، اشتدّ سخط البابا من تدخلات هنري الرابع، فأرسل إليه مهدداً إياه بالقطع عن الكنيسة، والغزل عن العرش، لكن هنري سبقه إلى ذلك، حيث عقد مجمعا في ورمز 1076م، دعا إليه الأساقفة الألمان، وصرح أن البابا غير جدير بمنصبه البابوي.

كما بعث برسالة إلى البابا فخاطب إياه بلهجة عنيفة، قائلا له : « أنا هنري الملك بفضل الرب، أمرك أنت وجميع الأساقفة، اهبطوا، لأنكم محكومون إلى الأبد².

ومن جهته أصدر البابا جريجوري قرار الحرمان ضد هنري، وحل جميع الرعايا المسيحيين من القسم الذي قطعوه له³.

وحل جميع الرعايا المسيحيين من القسم الذي قطعوه له⁴.

لكن البابا أبدى استعدادا للصفح عن هنري، إذا قدم يمين الولاء والطاعة⁵.

ولخوف هنري الرابع من فقدانه التاج الإمبراطوري، فخرج سرا إلى كانوسا، حيث كان البابا⁶ بقدمين حافيتين، مرتديا ثيابا من الصوف، وقضى خلالها ثلاثة أيام أمام باب القصر، وبفضل توسط بعض الشخصيات الكنيسة والعلمانية، تمكن الإمبراطور من المثول أمام البابا، والظفر بعفوه عنه، ولكن بتعهد من الإمبراطور بقسم مكتوب باحترام البابا ومساندته قي حلّ مشاكله⁷.

فسمحت حادثة كانوسا للإمبراطور، الاحتفاظ بالتاج الإمبراطوري وأحبط مؤامرات الألمان، ومن جهته برهن البابا على أنه جدير بمنصب البابوية من خلال قدرته على الحل والربط في الجوانب السياسية أيضا⁸.

في سنة 1080م، قام رجال الدين الألمان بعزل البابا جريجوري في ميتر⁹.

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 311.

2 - السيد الباز العربي : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 457.

3 - Augustin Fliche : Histoire du moyen âge, p399.

4 - Charles Pichon : Histoire du vatican, p 47.

5 - J.M. Mayeur : Histoire du christianisme, p 72.

6 - Juan dacio : Dictionnaire des papes, p. 77.

7 - J.M. Mayeur : Op. Cit, p 73.

8 - Augustin Fliche : Histoire du mayen âge, p 403K 404.

9 - محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 297، 298.

وفي سنة 1084م، هاجم هنري روما، وعيّن كلمنت الثالث (1080-1100م) البابا الإمبراطوري - بابا على روما¹.

لم ينته الصّراع بعد موت جريجوري السّابع لأن الإمبراطور هنري الرّابع كان متمسكا بما اعتبره حقاً له، وواصل البابا أوربان الثّاني (1087-1099م) من جنوب إيطاليا صراعه ضدّ الإمبراطور والبابا الإمبراطوري كلمنت، لكن قوى الإمبراطور تراجعت خصوصاً بعد ثورة ابنه كونراد الثّاني في 1093م، ممّا شجع أوربان على العودة، فاضطر هنري الرّابع لطلب الصّلح مع البابوية، لكن الشّروط التي فرضها البابا حالت دون ذلك، و سرعان ما توفي البابا في يوليو 1099م².

وعمل باسكال الثّاني(1099-1118م) على مواجهة الإمبراطورية لتوقيع الحرمان للمرة الثالثة على هنري الرّابع أو هكذا تراجعت سلطة الإمبراطور، وتوفي سنة 1106م، بعد أن تنازل لابنه هنري الخامس على العرش³.

وبعد اعتلاء البابا كالكتس الثّاني (1119-1124م) عرش البابوية عمل على تسوية الأمر مع الإمبراطور، لأنّ المواجهة لم تكن في صالح أيّ منهما، ف عقد اتفاقية وورمز " Worms " سنة 1122م، وتمّ الفصل بين الوظيفة الدّينية، والامتيازات الرّمزية⁴.

نلاحظ أنّ البابوية استعادت نفوذها السّياسي، وهبتها الرّوحية، بفضل إصلاحات جريجوري السّابع، والدّي قضى على القيصرية البابوية، بل حقّق السّمو البابوي، الذي أملت البابوية في الحقيقة منذ جريجوري العظيم.

أمّا الأباطرة الألمان، وما بذلوه من مجهودات للحدّ من سلطة البابوية، كان رغبة منهم في إحياء الإمبراطورية الشارلمانية.

صحيح أنّ اتفاقية وورمز، أنهت مشكلة التقليد العلماني، لكنّها لم تكن السبب في فترة السّلم التي طبعت العلاقة بين البابوية والإمبراطورية.

ويمكن القول أيضاً أنّ البابا "أوربان الثّاني" لم يرث عن جريجوري السّابع كرسي البابوية

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج1، ص 360، 361.

2 - نور الدّين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 754، 755.

3 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 155، 156.

4 - إدوارد بروي وآخرون : تاريخ الحضارات العام، م3، ص 319.

فحسب ؛ وإنما أفكاره. فكلّ مشروع أراد إعداده البابا "جريجوري السابع" لأخرجه البابا "أوربان الثاني" إلى حيز التنفيذ.

ب - الصّراع حول مناطق النفوذ :

تعد بابوية أنوشنت الثالث منعرجا حاسما في تاريخ البابوية بعد جريجوري السابع¹، رأى هذا البابا أنّ مهمته ليست تقويض سلطة الإمبراطور فحسب، بل تكوين فيدرالية مسيحية تحت الزعامة الروحية لكنيسة روما، وتوسيع حدودها بواسطة الحروب الصليبية².

أنّ البابا أقل من الرّب منزلة، وأرفع من الإنسان، وأنّ الحكام الزمّيون مجرد عمال البابا، وأتباعه يدينون له بالطاعة³، ومن جهته سعى فريديريك لبسط سلطانه على إيطاليا بما فيها البابوية، وبهذا عاد الصّراع كما كان على عهد جريجوري السابع حول النفوذ⁴.

بيّن عبد القادر أحمد اليوسفي أنّه مع نهاية القرن الثالث عشر، بدأ نفوذ البابوية يتراجع في المجالين الزمّني والروحي فللحرب التي خاضتها ضدّ الحكام العلمانيّين -خاصة ألمانيا- أضعف قوتها كما قلّل من هيبتها الروحية لدى المسيحيين، ممّا أضعف ارتباط الفرد بالكنيسة وتعاليمها⁵.

لذلك تطوّرت العقلية الأوروبية بانتشار أفكار جديدة نتيجة النشاط التجاري، والتطور السياسي والعلمي، وتحوّل اهتمام الفرد عن الكنيسة وقيودها، ونهض بواجبه نحو الدولة.

وممّا سبق ذكر نستخلص أن روما خاضت أشواط كبيرة من أجل الوصول إلى الزعامة الدينيّة بدءاً بالصّراعات التي كانت تحدث من حين لآخر بين الأسقفيات الكبرى (أنطاكية، القسطنطينية، أورشليم، الإسكندرية).

ونتيجة للصراعات العدة أصدر الإمبراطور فلنتيان -II- مرسوما يقضي بخضوع كل الأساقفة إلى البابا في روما.

1 - ول ديوارنت : قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة : محمد بدران، ج 4، مجلد 4، ط []، بيروت : دار الجيل، 1988م، ص 290.

2 - Juan dacio : Dictionnaire des papes, p 95.

3 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 159، 160.

4 - ول ديوارنت : قصة الحضارة، ج4، مجلد 4، ص 292.

5 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 162.

وهكذا أصبح البابا يتمتع بزعامة العالم المسيحي، ولقد لعب بابوات القرنين الرابع والخامس دوراً مهماً سواء في المجال الديني أو السياسي.

ومن الشخصيات المهمة جريجوري الكبير والذي لُقّب بخليفة القديس بطرس.

وهكذا أصبحت البابوية تتمتع بالسلطتين الدينية والزمنية.

- المطلب الرابع : القانون والتنظيم الكنسي.

أولاً : القانون الكنسي.

رأت البابوية في انتشار القانون الكنسي توسيعاً لنفوذها وتقوية لسلطانها، فإذا كانت الدولة في حاجة إلى قانون لتنظيم مواقفها المختلفة فإن الكنيسة الغربية في العصور الوسطى لم تكن أقل حاجة من الدولة إلى قانون خاص بها¹.

فلقد نشأ القانون الكنسي شيئاً فشيئاً من العادات القديمة الدينية ومن فقرات في الكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة، وقوانين روما أو القبائل المتبربرة وقرارات مجالس الكنيسة، وقرارات البابوات وآرائهم، وعدلت أجزاء من قانون جستنيان لكي تشرف على سلوك رجال الدين، وأعيدت صياغة بعضها الآخر لكي يتفق مع آراء الكنيسة في الزواج والطلاق والوصايا². فقد كان أعظم أثراً من غيره³، كما كان رد فعل وسند قوي للبابوية⁴.

فمنذ أن جعل قسطنطين المسيحية دين الدولة، أصبح الأباطرة مطالبين بطبيعة الحال بأن يباشروا بين وقت وآخر تشريع القوانين بتزاهة لحماية طبقة رجال الدين أو لتنظيمها، وحدث فعلاً في سنة 438 أن صدر قانون ثيودوسيوس ضد الهرطقة، وحوالي نفس الوقت منح فالنتيان الثالث البابا سلطة "تشريعية على الكنيسة في الإمبراطورية الرومانية الغربية، وقد صارت عرضاً لمجموعات عديدة متضمنة مراسيم إمبراطورية أو صادرة عن المجالس الدينية أو البابوية تتعلق بالشؤون الكنيسة وتنسب أفضل هذه المجموعات إلى راهب روماني يدعى ديونسيوس أجزريجيوس

1 - فؤاد عبد المنعم : أبحاث في الشرائع اليهودية والتصرانية والإسلام ط []، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1994، ص 172.

2 - ول ديوارنت : قصة الحضارة، ج 15، ص 45.

3 - ج.ج. كولستون : عالم العصور الوسطى في التّظم والحضارة، ص 247.

4 - فؤاد عبد المنعم : المرجع السابق، ص 17.

حوالي سنة 500، وكان البابوات أنفسهم ينقلون عن هذه المجموعة الأخيرة التي أقحمت فيها هبة قسطنطين المزورة والمراسيم البابوية المزيفة.

وقد اختمرت عملية التزوير الأولى سنة 750، ودلت الهبة على أنها مرسوم صادر عن قسطنطين، وفي عام 890م، أي بعد أكثر من قرن من تاريخ الهبة المزورة، زوّرت المراسيم البابوية. ومع نكسة القانون الروماني في بولونيا مبكرا في القرن الثاني عشر ظهر دافع مماثل يدعو إلى التّهوض بقوانينها، فقد أخذ الرّاهب جراشيان على عاتقه مهمة إدخال نوع من التّظام في هذا الشّأن ويحتمل أن ذلك كان في سنة 1142م، وكان عنوان كتابه "التّوفيق بين القوانين الكنيسة المتعارضة"¹.

ثمّ يضيف ول ديوارنت أنّه أطلقت عليه الأجيال المتأخّرة اسم "القرارات" وقد جمعت فيه ما أصدرته الكنيسة من قوانين وما كان لها من عادات، وما أصدرته المجالس الدّينية والبابوات حتى عام 1139م، من قرارات خاصّة بالعقائد الدّينية والطقوس والأنظمة والقواعد الإدارية والمحافظة على أملاك الكنيسة وإجراءات المحاكم الكنيسة وما لها من سوابق وتنظيم حياة الرّهبة وعقود الزّواج وقواعد الفضية².

كما أمر جريجوري التّاسع سنة 1234م باعتلاء مجموعة رسمية جديدة للمراسيم البابوية، نشرت هذه المجموعة باعتبارها امتداد لنشاط جراشيان، ثمّ أضيفت مجموعات أخرى مماثلة خلال القرن التّالي وكان آخر البابوات في القرون الوسطى الذي أمر بذلك يوحنا الثاني والعشرون في سنة 1317م.

ومع ذلك أضيف في سنة 1490م، ملحق شبه رسمي تحت عنوان "مالا يقبله العقل"؛ وكان هذا الملحق مكملا لمجموعة القوانين الكنيسة المعروفة وهو يتألف من مجموعة جراشيان ومن المراسيم البابوية الرّسمية الملحقّة بها. وقد انعقدت لجنة من الكرادلة والعلماء تعاقب على رئاستها ثلاثة من البابوات وأصدرت نصّا نموذجيا لهذه المجموعة، أمر ينشره البابا جريجوري الثالث عشر في سنة 1582م³.

ويضيف إلى ذلك ول ديوارنت بقوله: «والحقّ أنّ الميدان الذي يشغله القانون الكنسي كان أوسع من الميدان الذي يشغله أي قانون مدني معاصر له، فهو لا يقتصر على البحث في

1 - ج.ج. كلولستون: عالم العصور الوسطى في التّظيم والحضارة، ص 248 - 250.

2 - ول ديوارنت: قصة الحضارة، ج 15، ص 46.

3 - ج.ج. كلولستون: المرجع السابق، ص 251.

تكوين الكنيسة وعقائدها وأعمالها، بل يبحث فوق ذلك في القضاء على الملحدن وفي تنظيم الحروب الصليبية وفي قوانين الزواج وشرعية الأبناء، والمهور، والزنا والطلاق والوصايا وما يجب أن تكون عليه المحاكم الكنيسة والبابوية والعلاقة بين الكنيسة والدولة؛ وكانت الكنيسة قبل عهد محاكم التفتيش تعتمد على وسائل الإرهاب الروحي وكان الحرمان الأصغر يمنع المسيحي من الاشتراك في الرباني وفي طقوس الكنيسة وكان من حق كل رجل من رجال الدين المسيحي أن يصدر هذه العقوبة؛ وكان معناها عند المؤمنين العذاب الدائم في نار الجحيم إذ مات الإثم قبل العفو عنه، أما الحرمان الأكبر وهو الحرمان الوحيد الذي تستخدمه الكنيسة، فلا تصدره إلى مجلس ديني أو مطارنة أعلى مرتبة من القساوسة كما أنه لا يُصدر إلا على أشخاص دائرة هذه المجالس أو أولئك المطارنة¹.

أصبح مجمع الكرادلة؛ المؤسسة الأساسية للحكومة الرومانية، والكرادلة الذين يعينهم البابا لم يلبثوا أن رأوا نفوذهم وسلطتهم ينموان وإليهم أوكلت البعثات الأساسية، ودراسة أحق أدق القضايا، وإليهم بالدرجة الأولى، يعود أمر اختيار الرئيس العالمي للكنيسة بأكثرية الثلث منذ سنة 1179، إنهم يشاركون في صلاحيات البابا المسكونية وهم يمثلون معه، ولكن تحت إشرافه - ما عدا وقت الانتخاب الذي يكونون فيه سلطة تنفيذية فقط².

أما الأمر الذي أسفر عن القرارات من الحرمان والتحریم ضعف سلطان القانون الكنسي وتدهور أوضاع الكنيسة مع العلم بأن الشريعة الكنيسة في هذه الحقبة من العصور من أعظم الأعمال.

بفضل هذا النظام الكنسي، وجنب مع الجهاز الإداري العلماني³، استطاعت الكنيسة أن تنشر نفوذها وتقوم برسالتها كاملة في جميع أنحاء العالم المسيحي.

1 - ول ديوارنت: قصة الحضارة، ج 15، ص 46.

2 - بيار غرمان، جاك بيار ميوت: موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج 1، ص 254.

3 - العلماني: من هو؟ في لغتنا اليومية بالعلماني إنسانا غير اختصاصي، وبالتالي إنسانا لا يفهم شيئا في أمر ما، أو غاويا، وفي

أفضل الحالات هاويا، يملك دون شك بعض المعلومات والمؤهلات - ولكنه لا يعرف الأشياء في عمقها - أما في الكنيسة فالأمر لخلاف ذلك. فهنا لفظة علماني علامة تقدير. فالعلماني هو الذي بالمعمودية، صار عضوا في جسد يسوع المسيح وفي الكنيسة، والعلمانيون يتميزون من الإكليروس بكونهم أقل مسيحية أو مسيحتين من درجة ثانية بل بكونهم ليس لهم وظيفة خاصة يؤدون من خلالها رسالتهم في الكنيسة، فيتميزون من الكهنة المرسومين بأنهم يعيشون ويعلمون في العالم. إن "سمة العالم" خاصة بهم بوجه مميز. (أساقفة ألمانيين: سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم،

ج 18، ص 331).

انقسم رجال الدين في ذلك القرن إلى قسمين رئيسين : -على حدّ ذكر سعيد عبد الفتاح عاشور- رجال الكنيسة من القساوسة والأساقفة الذين تزوّجوا واختاروا حياة أقرب إلى حياة العلمانيين، وهؤلاء أُطلق عليهم "رجال الكهنوت العلمانيون". ورجال الهيئات والمنظمات الديرية المختلفة وهم الذين عاشوا عيشة دينية منتظمة أساسها العزوبة، ومن ثمّ أُطلق عليهم "رجال الكهنوت النظاميون". فاشترط على القسيس والأسقف أو يحيا حياة العزوبة الدائمة، وهنا نجد رجال الكنيسة في عصرها الأول كانوا متزوجين لعدم وجود فروق واضحة في ذلك الوقت المبكر بينهم وبين الأفراد العلمانيين مع العلم بأن المسيحية لم تحرم الزواج على رجال الدين لكنّها فضّلت لهم حياة العزوبية، الأمر الذي لم يأخذ به كثير من رجال الكنيسة. إلاّ أنّه كان من الصّعب أو المستحيل تنفيذ هذه الرغبات تنفيذا عمليا حتّى بعد أن أقرّها مجمع نيقية 325م.

لذلك عُقدت مجامع في روما سنة 1050م، وسنة 1059م، وسنة 1063م، طلبت جميعها من العلمانيين قطع صلّتهم بالقساوسة الذين يحتفظون بزوجات أو مخطيات، وأخيرا عقد البابا جريجوري السّابع مجمعا في روما سنة 1074م، أي بعد اعتلائه كرسي البابوية بعام واحد، أصدر مرسوما بتحرّيم زواج رجال الدين تحريما تامّا، وكما كان مشروع إصلاح الكنيسة يمثل وحدة مترابطة الأجزاء كان نجاح البابوية في تحقيق مبدأ عزوبة رجال الدين كان مرتبّا إلى حد كبير بركن آخر من أركان تلك الحركة الإصلاحية ؛ وهو تحقيق سمو البابوية وسيادتها وسيطرتهما على العالم المسيحي الغربي¹.

وهكذا يتبيّن لنا عن بناء الكنيسة العام أنّ البابوية كانت على رأس الكنيسة العربية تحتلّ المكانة الأولى وتمتّع بالسيطرة التامة على جميع رجال الكنيسة، ويأتي بعد البابا في الدّرجة مجموعة الكرادلة الذين حدّد "الدستور الروماني" الصّادر سنة 1059م، مهامهم الأساسية وبدأت مهمتهم الأولى كمستشارين للبابوية.

لكن بعد ذلك تراجعت البابوية، والبابوات أو البعض منهم تحوّلوا إلى رجال سياسة، وفوق ذلك حولوا عملهم في هذا المجال إلى مشروع إقليمي محلي، وأوصلتهم مشاغلهم الأولية إلى تقليص حدود المسيحي، ولكن حاول بعضهم أن يعمل ضدّ هذا التورط، ولكن جهودهم ظلّت

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 351.

محدودة لأن الشّر كان قد استشرى، ولأنّ الانقسامات داخل مجمع الكرادلة أحدثت شللاً، فإنّ الكرادلة الإيطاليين الأكثر اهتماماً بشؤون شبه الجزيرة تفرّقوا بعامل آرائهم وصدقاتهم وعلاقاتهم ومطامحهم. أمّا الكرادلة الفرنسيون فكانوا عكس ذلك، أكثر تضامناً ولكنهم كانوا مسيّسين. والرومانيون الذين يمثلون قوّة عندما يكون البابا فرنسيّاً لأنّه عليه أن يتفاهم معهم أو على الأقل مع البعض منهم، خاصم بعضهم بعضاً، ونتيجة لذلك تكتلت العشائر حول بعض العائلات الكبيرة، وخاصة العائلات الرومانية، وهكذا فإنّ طريق الزّهو والمجد التي ألترمتها البابوية في أيام إينوشينوس الثالث انتهى إلى مأزق¹.

غير أنّه في النّصف الثاني من القرن الثّاني عشر وعلى امتداد القرن الثالث عشر، حدثت بعض الخلافات مع السّلطات السّياسية حملت البابوية على تنقية العقيدة على حساب التّفكير الجديد.

ومن هذه الخلافات تلك التي وضعت الكرسي البابوي وجهاً لوجه مع ملك انكلترا وملك فرنسا وكانت عادة خلافات زهيدة، ماعداً تلك التي وقعت في السّنوات الأخيرة من تلك المرحلة بين فليب الجميل وبونيفاس الثامن فيما يخصّ المعارك مع الإمبراطورية التي دخلت التاريخ تحت اسم معركة الإكليروس مع الإمبراطورية.

وكانت إيطاليا بشكل عام هدف الحركة، فالأباطرة يريدون الهيمنة عليها، في حين أن البابوات كانوا يعارضون ذلك بحجة أنّ السّيطرة الجرمانية على شبه الجزيرة تستمدّ حتماً من ولايات الكرسي الرّسولي، وتحرم البابوية من حرية العمل وتسيء إساءة كبيرة إلى الكنيسة والدين وسلامة النّظام².

ويذكر أيضاً في كتاب موسوعة تاريخ أوروبا العام ؛ أنّه بالإضافة إلى التّنزلات التي أضعفت من نفوذ البابوية وأساءت إلى سلطتها، فإنّ عمل البابا الخاطيء الذي أظهر إلى أيّ مدى يتغلّب على العقل، فوجّه ضربة قاتلة إلى العضو الذي يشكّل على المستوى الرّمزي والسّياسي الدّعامة الأولى للمسيحية ألا وهو الإمبراطورية. في الواقع أن فريديريك الثاني هو مسؤول أيضاً عن هذا التّدهور، لأنّه لقلّة اهتمامه بألمانيا وبمنحة الأمراء الجرمانيين امتيازات كانت تزيد من قوّتهم وتفتّتت البلاد. هذا التّدهور أساء إساءة كبيرة ونهائية إلى مفهوم المسيحية الموحّدة من قبل

1 - بيار غريمان، جاك بيارميون : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 557.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 155.

البابا والإمبراطور بحيث إنَّ الحجج التي استطاعت أن تبرّر العمل الزمّني للكرسي الرسولي للاحتفاظ بهذا التلاحم وهذه الوحدة مع الإمبراطورية أو ضدها عندما كان الملوك يمزّقونها ولا يقومون بواجباتهم، لم تكن تستند إلى أساس محسوس ومتمين وأصبحت الإمبراطورية شيئاً ألمانياً والبابوية أصبحت كذلك وبشكل أبرز شيئاً إيطالياً، أو أقله، شيئاً يتحدّد من الواقع الإيطالي، ولم تعد بإمكانها أن تدعي في نهاية القرن الثالث عشر أنّها تجمع وتضمّ أوروبا وترمز إليها¹.

ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر - كما جاء في كتاب موسوعة عالم الأديان - قدّر القانونيون انفصال سلطة البابا عن سلطة الإمبراطور فنتج عنه أن المناصب التي تدير وتوجّه أصبحت ذات سيادة ذاتية، مستقلّ الواحد منها عن الآخر، ولكلّ منها ملء الصّلاحية في مجاله ينتخب الإمبراطور من قبل الأمراء، وليس مرتبطاً بالبابا، والبابا يختاره الكرادلة ولا شأن للإمبراطورية معه. غير أنّ البابوية كانت تشدّد أكثر ممّا تفعل النظرية البدائية على التفوق الطبيعي لسلطة الكنيسة التي هي من النوع الروحي، وكانت تسعى لتوسيع مجال صلاحياتها بتكريس الأشياء التي لم تكن مكرّسة، وعلى سبيل المثال؛ كل ما يضمن حرية الكنيسة المرتبطة بالحرية الوحيدة للكرسي الرسولي، وبالتالي حرية الدويلات البابوية وبعدها أملاك البابوية والكنايس.

إضافة إلى ذلك، أنّ التحكيم الذي أجراه إينو شنسيوس الثالث بين المرشحين للإمبراطورية أدّى إلى الموافقة على أن السلطتين هما مستقلتان استقلالاً تاماً، الأمر الذي يدمر فكرة المسيحية بالذات لأنّ المسيحية اندمجت بالكنيسة، ويجب أن تخضع بالدرجة الأولى للبابا، ثمّ يوضّح، أنّ السلطتين مختلفتان ومنفصلتان، وكلتاها تتفقان مع إرادة الله ففي الظروف الطبيعية، تحكم كلا منهما قطاعها كما يحلو لها من أجل مساعدة الناس لبلوغ السعادة الأبدية بالتمسك التام بالإيمان وباحترام القيم المسيحية غير أنّه في بعض الحالات تستطيع الكنيسة مواجهة السلطة السياسية، من جهة عندما يمارس السلطة السياسية خاطئ كبير ويصرّ على ضلاله وخطيئته إلى حدّ الإساءة إلى الخلاص العام، ومن ناحية أخرى عندما تطرأ في العالم المسيحي مشاكل لا يستطيع أيّ منصب زمّني أن يحلّها - مثل اختياريين أميرين منتخبتين للإمبراطورية - فعلى البابا أن يتدخل من جديد، في هذه "الصورة الملحة" وعليه أن يقرّر².

وأخيراً يتّضح أنّه بسبب تجمّع السلطات في يدي البابا وبالرغم من الصعوبات الداخليّة التي

1 - بيار غريمان، جاك بيار ميوت : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 557.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 156.

تسيء إلى فعاليته أصبحت قوّة الكنيسة أكثر تأثيراً، وتطمح البابوية باسم المصلحة العامّة، إلى الهيمنة على رجال الإكليروس كافة، وتعمل بحماسة لتنظيم المعركة ضدّ الهرطقات، وإذ تسعى إلى تنظيم كل شيء والسهر، في الدّرجة الأولى، على عظمتها، وأوشكت أن تنسى ما برّر منذ البداية، مشروعها، وهو تعميق الدّعوة إلى المسيحية ونشر الحضارة المسيحية وقد وصلت مشاريعها في بعض المناسبات إلى الشّر لقيم الثقافة التي تنادي بها وذلك بسبب الأساليب الرّهيبية التي كانت تتبّعها على شكل نظام بوليسي (محاكم التفتيش).

أيضا نلاحظ تراجع دور البابا وانفصال دوره الدّيني عن السياسي.

ثانيا : التنظيم الكنسي.

وقد انقسم العالم المسيحي الغربي إلى أسقفيات واسعة يرأس كل منهما أسقف يشرف على لشؤون الكنيسة ورجال الدّين في أسقفية، ثم انقسمت كل أسقفية من هذه الأسقفيات إلى أبرشيات صغيرة¹ بكل منها كنيسة يشرف عليها أسقف.

أمّا الأبرشيات أخذت تظهر وتنتشر في غرب أوروبا وفقا لحاجيات الأهالي، وانتشار المسيحية، وهكذا كان مركز قسيس الأبرشية قلقا في أوّل الأمر، إذ توقفت حالته الاجتماعية على شخصيته من جهة، وعلى نصيبه الثابت من غلّة الحقول التي تتبّع أبرشيته من جهة أخرى.

أمّا دخل الكنيسة نفسها فكان يستأثر مالك الأبرشية أي مؤسسها، واستمر الوضع على ذلك حتّى تقدمت النّظم الإقطاعية، فأصبح للكنيسة أملاكها الخاصّة بها في كل أبرشية، وكان لها مورد هام آخر أخذ يزداد منذ القرن الثامن ونعني به ضريبة العشور التي تلزم جميع الأراضي بدفع عشر إنتاجها لحفظ الكنيسة وصيانتها وامتازت هذه الضريبة بأنّها للكنيسة بحتة، ينتفع بها القساوسة ورجال الإكليروس وحدهم².

ومن هنا يبدو أنّ قسيس الأبرشية ظلّ يجيأ مثل الفلاحين المحيطين به على نصيبه من غلّة أراضي القرية.

لكن كتاب موسوعة تاريخ أوروبا العام في جزئه الأول يذكر أن البابوية منذ السّنوات الأخيرة من القرن التاسع، لم تعد تملك وسائل التّحرك والقيام بالمبادرات، ولقد فقدت قسما كبيرا

1 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 353.

2 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : المصدر نفسه، ص 354.

من الاحترام الذي اكتسبته سابقاً وأصبح نفوذها محدوداً. في حين أن الأسقفية ظلّت دائماً ناشطة وقوية وظلت لمدة طويلة الدّعمة الأساسيّة للإمبراطورية. فكان الأسقف الرّئيس المباشر للقسيس في الهيئة الكنيسة¹، حيث احتل هذا الأخير مكانة على جانب كبير من الأهمية في النّظام الكنسي في العصور الوسطى، كما نصت المجامع المسكونية مرارا على ضرورة مراعاة الدّقة في اختيار قسيس الأبرشية، فلا يجوز لأسقف أن يرسم قسماً غير متعلّم، وأن يتأكّد من استقامته وألا يقل عمره عن خمس وعشرين سنة.

لكن سعيد عبد الفتاح عاشور يعقب عمّا سبق بنقضه الحقائق السّابقة فيقول: «ولكن في حقيقة الأمر لقد كان معظمهم على عكس ذلك ممّا أدى بهم إلى الانحراف وفعل المنكرات والمعاصي، كالإسراف في شرب الخمر، وعدم المواظبة على الصّلاة، وعدم الاهتمام بملفات التدريس والخلط في الوعظ والإرشاد،...².

أمّا الأسقف فكان له عادة كاتدرائية في المركز الرّئيسي لأسقفية يتخذها حاضرة له وقاعدة لنفوذته وسميت بهذا الاسم بما كرسي الأسقف، ويثبت الواقع أن الأساقفة تمتّعوا بسلطان واسع في الإشراف على شؤون أسقفياتهم وإدارتها وتوجيه القساوسة التّابعين لهم مستلهمين واجباتهم من قول بولس: «احتزوا إذا لأنفسكم ولجميع الرّعية التي أقامكم الرّوح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه»³.

وفي القرن السّابع اتّضحت بمرور الوقت ضرورة إيجاد حلقة في التّنظيم الكنسي بين البابوية من جهة، وأساقفة البلد الواحد من جهة أخرى⁴.

غير أنّ تأثير الأسقفية بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً، فهي، من جهة تعاني انقسامات داخلية تضع الأساقفة وجها لوجه مع رؤسائهم المغامرين الذين يسهمون، إلى ذلك، بإقامة الحواجز بين الفئتين بقيادتهم أقاليمهم الكنيسة بطريقة مستقلة دون أن يهتموا بما يجري خارجها، ومن جهة أخرى انقادت شيئاً فشيئاً إلى معارك سياسية. وبالرّغم من أنّها أكّدت مرّات كثيرة أنّها ستدعم الوحدة؛ إلا أنّها كانت تتحيّز، وبعد سنة 843م، رضي بالقسمة والانفصال⁵. ونشأت بعد ذلك أسقفية

1 - جميل مدبك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ص 95.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 355.

3 - أ ع : 80/20.

4 - محمد محمد مرسي الشيخ : النّظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 182.

5 - بيار غريمان، جاك بيار ميوت : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 326.

كبرى في كل إقليم واسع يرأسها رئيس أساقفة يتزعم أسقفيات منطقته¹، ثم أسقفية في كل إمارة²، وفي إنجلترا لم يكن أي رئيس أساقفة بوسعه أن يتقلد عمله دون أن يتلقى بذلك مرسومًا بابويًا³. فبذلك أصبحت المهمات الأسقفية خاضعة لإشراف العائلات الارستقراطية الكبيرة التي حلّت محل الملوك وتدخلت في تعيين الأساقفة، وغالبا، بين صفوفها وأنسابها.

وفي نهاية القرن للبابا أي وسيلة للعمل، والأسقفية التي وضعت تحت الوصاية فقدت بدورها كل قوة، وهذا ما يحدث أيضا لرؤساء الأديرة في القطاع الرهباني فكان لبعض الأساقفة مخططات تمت على الصعيد الديني فقط، ولم توفر في تلك المرحلة أي دليل صالح لإعادة التلاحم السياسي⁴.

لكن سعيد عبد الفتاح عاشور يذكر أنه ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر تمتع الأسقف في أسقفيته بحقوق قضائية وسلطات واسعة باعتباره نائبا عن البابا في دائرته، والواقع أن وظيفة الأسقفية تمتعت بكثير من الضمانات إذ كان لا يمكن عزل الأسقف عن وظيفته إلا بأمر البابا وحده، ويتضح نفوذ البابوية على الأساقفة في عهد أنوسنت الثالث، فكانت الوظيفة الأسقفية تمثل ركنا هامًا في نظام الكنيسة الغربية مما جعل أثرهم يبدو خطيرا في التطور الاجتماعي.

فلم تكن هناك قواعد ثابتة في أول الأمر تحدّد كيفية تعيين الأساقفة في مناصبهم، ففي عصر الغزوات الجرمانية كان لقساوسة الأسقفية ورعاياها حقّ انتخاب أسقفهم ولم يوجد في القانون الكنسي ما ينصّ على حقّ الملك في تعيين الأساقفة أو تحديد الهيئة التي تقوم بانتخاب الأسقف ليعتمد البابا ذلك⁵.

ففي سنة 1179م وسنة 1215م عُقدت المجامع البابوية والتي تقرّر فيها القواعد والطرق المعتمدة لانتخاب الأساقفة⁶.

1 - محمد محمد مرسي الشّيخ : التّظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، ص 182.

2 - بيار غريمان بيار ميّوت : المصدر السّابق، ص 326.

3 - محمد مرسي الشّيخ : المصدر السّابق، ص 182.

4 - بيار غريمان، جاك بيار ميّوت : المصدر السّابق، ص 327.

5 - سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 358.

6 - محمد محمد مرسي الشّيخ : المصدر السابق ، ص 184.

- المطب الخامس : تراجع نفوذ البابوية.

حدّد أكثر الباحثين أربعة أدّت إلى خسوف السّلطة البابوية في أواخر القرون الوسطى، وتحديدًا بين بدايات القرن الخامس عشر، وبدايات القرن السادس عشر، وهي الأسر البابوي أو منفي أفنيون، والانقسام الكبير وظهور المجالس الدينيّة، وترف بابوات النهضة، وظهور الأفكار والعقائد الجديدة، وما يجب ألاّ يغيب عن الذّهن في عتمة هذا الخسوف، هو أنّه في القرن الرّابع عشر؛ عهد التّفكك الديني والانحلال الأخلاقي، ظهرت الحركات الصّوفية الرّقيقة التي قاومت التّفكك، وسوف تنتهي القرون الوسطى، وتندثر بما فيها من إيمان عميق، وأخلاق فظة، وطباع خشنة، وحروب دامية، وحضارة واسعة، جامعة في طيّاتها المتناقضات العميقة، ففيها الحروب الصليبيّة، وفيها الانشقاقات البابوية، وفيها الكنائس الفخمة، وفيها القداسة الرّائعة، فهي مريج من الظّلمة والتّور، والحريّة والاستيعاب والحضارة والهمجيّة. لا عجب فقد حلّت وسطًا بين الحضارة القديمة الزّاهية والحضارة الحديثة النيرة¹.

- الفرع الأول : الأسر البابوي (1305-1377م) : Captivité Babylone

أطلقت هذه التّسمية على الفترة التي أقام فيها البابوات في أفنيون². "Avignon" - تحت التّفوذ الفرنسي - تشبيها لها بأسر اليهود في بابل، وقد بدأت بتدخل الملك الفرنسي فليب الرّابع (1285-1314م)، في انتخاب رئيس أساقفة بوردو، بيرتران تحت اسم كلمنت الخامس (1305م-1314م)، وقرّر نقل مقرّ البابوية من روما إلى أفنيون، بتشجيع من الملك فليب، وظلّت مقرًا بابويًا حتّى عام 1377م، وقد استغلّ البابوية في تحقيق مصالحه بكل أنواعها بحيث أقنع البابوية بحل فرقة فرسان المعبد³ الدّيرية، للاستحواذ على أموالها⁴، كما أجبره على إلغاء براءة بونيقاس الثامن ضدّه، وضدّ أعوانه (نوكاريت)⁵، ولعلّ هذا الانتقال للمقرّ الرّسولي يرجع إلى أسباب منها : تمسك روما بحقّ نصيب البابا، إضافة إلى رغبة الكرادلة الفرنسيين، الذين كانوا يمثّلون أغلبية مجمع

1 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 50.

2 - تقع على مقربة من الحدود الفرنسية آنذاك في برغندي التي كانت تابعة نظريًا للإمبراطورية الرّومانية المقدّسة، غير أن التّفوذ الفرنسي كان هو السائد فيها.

3 - فرقة ديريّة أسّسها الفرنسي هيوباين 1118 في القدس، ثمّ تحوّلت إلى قوّة عسكرية وتجارية، اشتهرت بغناها الشّديد، ما دفع فليب للاستحواذ على ثروتها.

4 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 307، 308.

5 - Jean Baptiste dureosseles et jean moyeur marie : Histoire du catholicisme, p 71.

الكرادلة - في التخلص من سلطان روما¹، زد على ذلك الفوضى واللا أمن التي كانت تعيشها إيطاليا، وثورة بعض المدن، والولايات البابوية ضد البابا في روما².

لقد أراد البابوات من خلال الاستقرار في أفنيون التخلص من أي سيطرة عليهم، لكنهم وقعوا تحت سلطة ملك فرنسا، الذي قوّض نفوذهم، وخطّ من منزلتهم يجعلهم تابعين منفذين لرغبته³.

ذلك لأنّ البابوات غدت لديهم توزيع المناصب الدينية أولى من الواجبات الروحية للبابوية، وقد أثارت هذه السياسة خنق الكثيرين في الأوساط الكاثوليكية، فقد دعت فرقة الفرنسيسكان الروحية إلى الرجوع إلى المؤتمرات المسيحية العالمية لحل المشاكل الدينية، بدلا من القرارات البابوية الفاسدة، فالعصمة مقتصرة على تلك المؤتمرات وحدها، وهذا ما أدى إلى نقمه البابا عليها⁴. كما أنّ بعض ممالك أوروبا، ألمانيا، بوهيميا، إيطاليا، أغفلت شيئا فشيئا تطبيق الأوامر البابوية، وهذا يعني فقدانها الهيبة والتبجيل⁵.

إن هذا النقد اللاذع للبابوية، لا يعني أنّها فقدت الأنصار أيضا، وختلت من الإيجابيات، فحسب "M.D. Knouille"، فإن بابوات أفنيون سعوا لإصلاح الكنيسة، وعملوا تطوير النظم الإدارية والمالية للكنيسة⁶.

وكان لها مجلس رسولي على شؤونها المالية، وديوان التوقيعات يشرف على مراسلات الكرسي البابوي، ومجلس القضاء، وكذا مجلس التوبة الرسولي، الذي يهتم بالشؤون الاجتماعية⁷. ويرى فيشر أنّ هؤلاء البابوات، عملوا على إحلال السلام بين فرنسا وإنجلترا، وحاولوا القيام بحملات صليبية على الأراضي المقدسة في الشرق⁸.

1 - ول ديوارنت : قصة الحضارة، عصر الإيمان والنهضة، ترجمة : محمد بدران، ج1، م5، ص 89.

2 - M.D. Knouilles et D.Obolensky : Le moyen âge, T2, traduit par lourent jezequel et andré crepin, édition du seuil, paris, 1968, p 481.

3 - هـ. أ.ل. فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 359.

4 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 311.

5 - ول ديوارنت : قصة الحضارة، ج1، م5، ص 90، 91.

6 - M.D. Knouilles et D. Obolensky : Le moyen âge, p 482.

7 - ول ديوارنت : قصة الحضارة، ج1، م5، ص 95.

8 - هـ. أ.ل. فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 358.

وبغياب البابوية عن روما ساءت أوضاعها إثر انقطاع الحجاج عنها، وما نتج عن صراع الفئات الأرستقراطية الرومانية، وفي خضم هذه الفوضى والتراجع ظهرت أفكار¹، تدعو إلى إحياء مجد العاصمة الرومانية الروحي والسياسي، وذلك بعودة البابا إليها².

وقد دعا بترارك " Petrarque " البابا إلى العودة إلى روما من خلال مؤلفاته -رسائل شعر-³. كما قام ألفارز البورنوز⁴، بمحاولة جريئة، حيث استرجع الولايات البابوية، وضمها إلى حظيرتها، وأقنع أمراء ميلان بالصلح مع الكنيسة، وبهذا ظهرت محاولات بعض البابوات للعودة إلى روما، حيث كان أولها محاولة البابا أوربان الخامس (1362-1370م) الذي بقي سنتين، لكن الفوضى في روما أجبرته على العودة إلى أفنيون، وبمجيء بريجوري الحادي عشر (1370-1378م) عادت البابوية إلى روما 1378⁵، بعد حوالي 70 سنة، وانتهى بذلك الأسر البابوي.

- الفرع الثاني : الانشقاق الكبير وظهور المجالس الدينيّة : " Le grand schisme et les conciles "

بانتهاؤ الأسر البابوي، حاولت روما استرجاع مجدها القديم، باسترجاع الكرسي البابوي، لكنها اصطدمت برغبة الملكية الفرنسية التي سعت بدورها لجعل أفنيون عاصمة العالم المسيحي، لهذا ظهر الانشقاق الكبير غداة وفاة البابا بريجوري الحادي عشر 1378، حيث رفض المجلس الكردي -الذي أغلب أعضائه فرنسيين - رغبة أهالي روما في انتخاب بابا من روما أو إيطاليا، لأنهم أرادوا البابا فرنسيا، لكن تحت ضغط الإيطاليين، وتهديدهم بالثورة، تمّ في 08 أفريل 1378، انتخاب أسقف باري بارتولوميو " Bartolomeo Prignano "، بابا تحت اسم أوربان السادس (1378-1389م).

وبعد مدّة وجيزة أعلن الكرادلة أنّ انتخاب أوربان غير قانوني، لأنّه تمّ تحت التهديد، فاختاروا روبرت الجنيفي " Robert of Genève "، وانتخب تحت اسم كلمنت السابع (1379-1394م) والذي استقر في أفنيون⁶، ودام هذا الانشقاق حوالي أربعين سنة، فعانت البابوية الكثير

1 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 309، 310.

2 - تمكن القائد كولادي رنزي من القضاء على تنافس الأمراء في روما سنة 1347م، ونال تأييد رجال الدّين.

3 - Dacio Juan : Dictionnaire des papes, p 113.

4 - رئيس أساقفة طليّة.

5 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 309، 310.

6 - René Mety : Histoire des conciles, p 50.

من الانتقادات خاصة بعد اعتلاء عدّة بابوات الكرسي الأقدس في وقت واحد فانقسم العالم المسيحي -حكام وشعب- إلى قسمين متنافسين، ساندت ألمانيا، إنجلترا، إيطاليا، هنغاريا البابا الإيطالي أوربان السادس في حين ساندت فرنسا، إسبانيا، نابولي، بابا أفينيون كلمنت السابع¹ ولم تكن دوافع الطرفين للصراع من أجل الانفراد بالكرسي البابوي خدمة البابوية، إنّما تحقيقاً لرغباتهما، إذ أن إيطاليا، كانت تأمل من وراء ذلك الاحتفاظ بثورة البابوية ونفوذها.

أمّا فرنسا فأرادت استغلال سلطة البابوية وثروتها في خدمة مصالحها -الحرب ضد إنجلترا-²، وربما كانت سياسة³ البابا أوربان السادس -كما اعتبرها البعض- هي الدافع لهذا الانشقاق⁴.

ولم ينته الشقاق بموت البابوين السابقين، إذ عيّن الإيطاليون مكان أوربان السادس كلاً من بونيفاس التاسع (1389-1404م)، ثمّ البابا أنوسنت السابع (1406-1414م).

وبعدهم جريجوري الثاني عشر (1406-1415م)، ومن جهتهم عيّن الفرنسيون عقب كلمنت السابع، البابا بندكت الثالث عشر⁵.

وبعد هذا الصراع الطويل، أبدى الحكّام العلمانيّون⁶، رغبتهم في تسوية الأوضاع بدعوة كلاً البابوين -بندكت الثالث عشر، جريجوري الثاني عشر- إلى الاستقالة من منصبها، لكنها رفضاً ذلك، وعقد الكرادلة مجلساً في بيز 1409م، تمّ فيه انتخاب بابا ثالثاً هو ألكسندر الخامس (ت : 1410م)، ثمّ أعقبه يوحنا الثالث والعشرون⁷.

وبتعيين هذا البابا، أصبح هناك ثلاث بابوات يتنازعون على الكرسي الأقدس، فتدخل الإمبراطور سحسمند⁸ " Sigismond"، وأجبر البابا يوحنا الثالث والعشرين على الدّعوة لعقد

1 - René Mety : Ibid, p 50.

2 - هـ. أ.ل. فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 360.

3 - أخضع العاصمة النائرة للطاعة والنظام، عيّن أعضاء مجلس الشيوخ، وكبار موظفي البلديات، عزم على إصلاح الكنيسة، جعل الإيطاليين الغالبية في مجلس الكرادلة، وأرغمهم على حياة التقشف التي يألّفها الكرادلة الفرنسيون.

4 - ول ديورانت : قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة : محمد بدران، ج3، مجلد5، بيروت، دار الجيل، ت []، ص 03، 04.

5 - ول ديورانت : قصة الحضارة، النهضة والإصلاح الدّيني، ترجمة : عبد الحميد يونس، ج 1، مجلد 6، بيروت، دار الجيل 1988م، ص 22، 23.

6 - الملك الفرنسي حث بندكت على الاستقالة، وبرفضه أعلن مجلس بيز عدم طاعته.

7 - Jean Baptiste durosselles et Jean moyeur Marie : Histoire du catholicisme, p 73

8 - ملك ألمانيا (1411م) ترأس المجلس الدّيني.

مجلس في كونستانس¹، وفي 06 أبريل 1415م، أقرّ مجلس كونستانس، خلع البابوات الثلاث²، وإنزال العقوبات الصّارمة على البابوات الذين يرفضون الإذعان لقراراته، وتمّ تعيين البابا مارتن الخامس (1417-1431م)³.

وأهم قرار تمخض عن المجلس، وهو إقراره سمو سلطة المجالس الدنيّة على البابوات وكلّ القوى المسيحية⁴، وهكذا تنتهي فترة الانشقاق لتبدأ فترة أخرى، تميّزت بسيطرة المجالس الدنيّة. إنّ الفوضى التي عمّت الكنيسة الغربية، وتنازع البابوات في كنيسة روما، أدى إلى بروز أفكار جديدة قادها علماء اللاهوت، والفلاسفة وبعض رجال الدين، تشكّك في أهلية البابوات، للفصل في قضايا العالم المسيحي، نادوا بإسناد هذه المهمة لسلطة عليا، تتمثل في المجالس الدنيّة العامّة.

ومن بين الذين ساندوا هذه الفكرة، الفيلسوف ويليام الأكامي " Willieme of Occamé "، الذي نفى أن تكون الكنيسة هي رجال الدين، بل جعلها تشمل كافة المؤمنين المسيحيين الذين يفوضون لسلطتهم، سلطان أعلى هو المجلس العام، الذي يكون له سلطة اختيار البابا وخلعه، ويقول مارسيليوس " Marsilius " : « إنّ المجلس العام هو عقل العالم المسيحي مجتمعاً، ومن ذا الذي يجروء بمفرده أن يضع عقله وحده فوق هذا العقل »، وبهذا ينفي تحكّم البابا في الدّعوة ورئاسة المجلس الدّيني، وتوجيه قراراته.

وهذا الرأي يطابقه رأي هنريج لانجشتين " Heinrich langstien " إذ يقول : « إنّ مهما يكون من قوّة النطق في حجج البابوات ... فإنّ أزمة قد نشأت لم يجد المنطق نفسه سبيلاً للنّجاة منها، وليس ثمة وسيلة لإنقاذ الكنيسة من الفوضى ... إلاّ سلطة المجلس »⁵.

ومن أبرز دعاة الإصلاح في فرنسا، بيار داييه " Pierre Daily " الذي استنكر أرسقراطية المؤسسة البابوية، ونادى بسلطة المجلس الأعلى لتولّي شؤون العالم المسيحي، وتكون لقراراته السّلطة على البابوية نفسها⁶.

1 - بدأت أول جلساته سنة 1414م، ودامت 03 سنوات، وانقضت في 1418م.

2 - Jean Comby : L'histoire de l'église, tome 1 des origines au 15 siècle, édition du cerf, paris, 1984, p 184.

3 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 318.

4 - Jean Comby : Op. Cit. p 184.

5 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج3، مجلد 5، ص 08، 09.

6 - عبد القادر اليوسفي : المرجع السابق، ص 318.

وبانتشار هذه الدّعوات والأفكار استحوذت فكرة المجالس على الأوساط المسيحية الغربية، وسرعان ما طبقت من خلال قراراته مؤكدة لسلطة جديدة أعلى من سلطة البابا، حيث أعلن ما يلي: «يجب على كل إنسان... بما في ذلك البابا نفسه أن يطيع هذا المجلس... وأن كل إنسان... بما في ذلك البابا يأبى أن يطيع أوامر هذا المجلس... يعرض نفسه لطائلة العقاب»¹.

حاول مجلس كونستانس إصلاح الكنيسة، ورغم نجاحه في إنهاء الانشقاق -ولو إلى حين- إلا أنه فشل في الإصلاح، لأنّ البابوات أمثال مارتن الخامس (1417-1431م) الذين اختارهم المجلس ما لبثوا أن أعادوا سياستهم الأولى كما سئم المجتمعون اجتماعات المجلس التي استغرقت ثلاث سنوات، فقرروا سنة 1417م حل المجلس، على أن تعقد -مستقبلاً- المجالس العامّة كل عشر سنوات للحدّ من سيطرة وفساد البابوية².

ورغم أن المجالس الدنيّة جاءت لإصلاح شؤون البابوية، إلا أنّها انحرفت واستولت على امتيازات البابوية، فأصدرت صكوك الغفران، وعارضت الحركة الهسية³. أعمال البابوية، فلجأت هذه الأخيرة سنة 1423م، إلى عقد مجلس في بافيا وسيينا لمحاربة المشكلة التي استفحلت⁴، ثم انعقد مجلس آخر في بازل سنة 1431م، واقترح هذا المجلس سيادة المجالس العامّة على البابوات، وعلى العكس من ذلك سعى البابا يوجينيوس الرابع (1431-1447م)، إلى إزالة فكرة المجالس العامّة، فأعلن حل مجلس بازل، وعقد مجلس آخر سنة 1437م، أعلن فيه بطلان سلطة المجالس العامية على البابوية، لكن المجلس واصل اجتماعاته⁵، وعزل سنة 1439م، يوجينيوس الرابع⁶، وعين فليكس السابع (1439-1449م)، ثم استقرّ الأمر للبابا نيقولا الخامس (1448-1455م).

وبالتالي كانت كل المؤشرات تدلّ على تراجع فكرة المجالس العامية، وفشل الإصلاحات التي تطلعت إليها كل من المجالس البابوية، واستلزم الأمر عملاً أكثر جدية وعمق.

- الفرع الثالث : ترف بابوات النهضة

- 1 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج1، مجلد6، ص 24، 25.
- 2 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 318.
- 3 - نسبة إلى جون هس - سيأتي التعريف به لاحقاً.
- 4 - عبد القادر أحمد اليوسفي : المرجع السابق، ص 316-139.
- 5 - ول ديورانت : قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج3، مجلد 5، ص 17، 18.
- 6 - في 06 جويلية 1439م، اتفق يوجينيوس والإمبراطور البيزنطي والبطريق يوسف بطريق القسطنطينية على توحيد الكنيسة الشرقية والغربية تحت زعامة روما (لمزيد من المعلومات، أنظر ول ديورانت، قصة الحضارة، ج 3، م 5، ص 120).

يذكر جان كمي أن مسألة ترف بابوات النهضة، قد عُدَّت من أبرز أسباب خسوف السلطنة البابوية في أواخر العصور الوسطى ثم يقول: « فقد فسرها باحثون كنسيون بأنها جاءت نتيجة تأثر البابوات منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعقلية النهضة الإيطالية، فاهتم العديد منهم بالفنون الجميلة، ويقول باحث كنسي متعمق: إن البابوات، بعد استعادتهم سلطتهم كان بوسعهم الاهتمام بالإصلاح، لكنهم انجرفوا في دوامة السياسة الإيطالية والنهضة، فصرفوا أعظم اهتمامهم إلى الاحتفال بتزويج ذويهم وتزيين روما بالمباني الرائعة»¹.

ثم يضيف كتاب موسوعة عالم الأديان "أنه في عهد البابا سكستوس الرابع (1471-1484م) بُني في الفاتيكان المعبد الرائع المعروف بالكايلا السكستية. وانحطت الأخلاق العامة، ولم يرتفع عدَّة بابوات إلى المستوى الأخلاقي الذي يتطلبه منصبهم الديني الرفيع، فلم يتمكنوا من إصلاح الأمور الدينية، ولم يفتنوا لأهمية الأحداث التي نشأت في ألمانيا بتأثير ثورة لوثر على أوضاع الكنيسة الكاثوليكية، وكانت قد فشلت محاولات بعض البابوات لاسيما بيوس الثاني (1458-1464م) في توحيد جهود الملوك لصدِّ هجمات العثمانيين على أوروبا².

فقد وافق فيشر ما سبق بقوله: « وبدت أخلاق البابوات مطابقة لأخلاق الحاشية الملكية، من انعماس في مباحج الحياة؛ كإقامة القصور الفخمة، مظاهر الأبهة والتّرف، والحسوبية في توزيع المناصب الدينية، والحباية الجائرة التي مارسها جباة البابا»³.

- الفرع الرابع: ظهور الأفكار والعقائد الجديدة.

كانت الكنيسة في مطلع القرن الخامس عشر، تعاني أزمات عدَّة، فالضعف والجهل اللذين ميّزا السلك الكهنوتي من القاعدة إلى القمة -فضلا- عن صراعها في سبيل البحث عن السلطنة السياسية والعسكرية، شكك المسيحيون في قدسيتها وتراجع ولاؤهم لها، وتساءل المتحمسون -لتغيير هذه الأوضاع- عن السبيل لحياة روحية، سياسية، وفكرية جديدة مستقرّة.

تميّزت بابوية القرن الخامس عشر بميلها العلماني أكثر منه الروحاني، فالبابا مارتن الخامس - مثلا- كان يهدف من خلال سياسته إلى إخضاع البابوية لسيطرته المباشرة - كما رأينا سابقا-

1 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 212، 213.

2 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب. مفرّج: موسوعة عالم الأديان، ج 10، ص 56.

3 - ه.أ.ل. فيشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 355، 358.

وجعل المال ألزم للكنيسة من الإصلاح، حيث أتبع سياسة جائزة في جباية الأموال¹، ول ديورانت بقوله : « وفي هذا الشأن بعث مندوب ألماني في روما إلى أميره قائلاً : " أصبح الشره صاحب السلطان الأعلى في البلاط البابوي وهو يتكرر في كل يوم لنفسه أساليب جديدة لابتزاز المال من ألمانيا، وهذا هو سبب الأصوات التي ترتفع بالتدمر والألم »².

وحذا البابا نيقولا الخامس حذو الإنسانيين، وبلغ به الميل إلى الحركة القافية أن أسس مكتبة الفاتيكان، ولم يختلف بابوات هذه الفترة عن هذين البابوين³.

إن الأوضاع السالفة الذكر هيأت الفرصة لأفكار إصلاحية جديدة داخل المؤسسة البابوية، لأن الشرط اللازم لأي إصلاح - من هذا القبيل - هو وجود تركيبة ثقافية وروحية صلبة لكهنة وقساوسة المستقبل. كان من الضروري أن يتكوّن هؤلاء في المدارس الدينية والجامعات، وأقرّ مرسوم ترانت "Trente" سنة 1563م، لكن كنيسة مدرسة "Seminaire"، وتعدّ هذه الفترة العصر الذهبي للجامعات الأوروبية، ففي إيبيريا اشتهرت سالمانك "Salamanqué"، فلا دولي "Valladolid" وفي روما الغريغورية "La Grégorienne"، وفي فرنسا بوردو "Bordeaux"، تولوز "Toulouse"، والسربون "Sarbonne"⁵.

ومن مظاهر تراجع نفوذ البابوية أيضا ظهور الكنائس القومية في دول أوروبا الغربية، حيث أخذت هذه الدول تتحرّر من سيطرة البابوية خاصة بعد ازدياد ثرائها فموجب قرار بوج التنظيمي⁶ سنة 1438م، أصبح الملك الفرنسي رئيسا للكنيسة الفرنسية المستقلة، وفي سنة 1439م، خرج مجلس ميتر بنفس قرارات بوجو وأنشئت كنيسة قومية في ألمانيا، وسبقتها كنيسة بوهيميا إلى الاستقلال عن البابوية منذ الثورة الهوسية "Husité"⁷.

1 - عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، ص 319، 320.

2 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج3، مجلد5، ص 17.

3 - عبد القادر أحمد اليوسفي : المرجع السابق، ص 319، 320.

4 - أقرّ قرارات خاصة بالعقيدة الكاثوليكية، قرّر أن عقائد الكنيسة تستند للكتاب المقدّس والتقاليد القديمة، وبذلك حدّد التعاليم الكاثوليكية ومصدرها، ووضع نظاما للكنيسة.

5 - Pierre Bernard : Histoire de l'église catholique, des clé, paris, 1972, p 194.

6 - نص على أن الوظائف الدينية تشغل بمن يختاره لها رجال الدين المحليون، ويجوز للملك أن يوحى في ذلك بما يراه، يحرم رفع الاستئناف إلى المحكمة البابوية، يمنع إرسال فواتير مرتبات الوظائف الدينية إلى البابا (أنظر : ول ديورانت، قصة الحضارة، ج3، ص 27، 28).

7 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج3، مجلد 5، ص 19.

وعمدت إنجلترا سنة 1351م-1353م، -في سعيها إلى الاستقلال- إلى رفض وجود المندوب البابوي في إنجلترا، وأصدرت قوانين حدّت من نفوذ رجال الدين في الاقتصاد والقضاء¹، وبهذا دعمت هذه الدول استقلالها وتطورها السياسي والاقتصادي بالاستقلال الديني، ولم تحلُ الكنيسة في العصور الوسطى من بعض الحركات الإصلاحية التي نبذت الانطواء تحت الكنيسة الكاثوليكية بعدما تطّعت لحياة مسيحية أنقى، فكانت هذه الفترة فرصة لظهور المستائين²، والمراطقة³، حسبما أطلقتها الكنيسة عليهم.

فظهر وليام الأوكامي "William of Occame" (1290-1350م) مناديا بالابتعاد عن العقل في المسائل اللاهوتية، والعودة إلى الإنجيل⁴، ثم ظهر عدّة مصلحين في إنجلترا (جون ويكلف)، في سويسرا (زوينجلي)، وفي ألمانيا (مارتن لوثر) وغيرهم... ثائرين على استبداد الكنيسة محولين التغيير فيها - يأتي التفصيل لاحقاً - .

كانت هذه الحركات الإصلاحية تمهيدا لظهور حركة الإصلاح الإنجيلي أو المذهب البروتستانتي، وربما هي نتيجة تمخّضت عن تراجع النفوذ البابوي، خاصة بعد انتشار صكوك الغفران التي يمنحها البابا وأتباعه للمؤمنين لغفران ذنوبهم وتقريبهم من الرب، لكن الحقيقة أنّ هذه الصكوك لا تعد كونهما وسيلة للحصول على الأموال⁵.

وأخيرا يمكن القول أنّ الأسر البابوي كان ضربة قاسية للبابوية إذ قضى على حكم كنيسة روما في تكوين إمبراطورية مسيحية، تكون لها الزعامة السياسية والروحية، وزاد الانشقاق الكبير الأمور تعقيدا، حيث تجدد النزاع -هذه المرّة- بين البابوات أنفسهم، وبين المجالس الدينية التي جعلت مهمتها الأولى إصلاح أحوال الكنيسة، لكن هذه المحاولة فشلت لكونها غير جدية، وبقيت آراء نظرية تضمّنها مجلس كونستانس، وسرعان ما تفرجت الرغبة الشديدة في تغيير الأوضاع السائدة بعد أن وجدت أرضية مناسبة لتحقيق ذلك، بتطور اللاهوت، ورجال الدين والقانون الذين حملوا لواء الإصلاح الديني، فكانت البروتستانتية، والمذاهب التي ظهرت بعدها،

1 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج 1، مجلد 6، ص 35، 36.

2 - أنشأت محاكم التفتيش سنة 1232م، لمحاربة المراطقة أي الخارجين عن مبادئ الكنيسة المألوفة.

3 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 96.

4 - Jean Gomby : l'Histoire de l'église, p 189.

5 - Chaliaud Gerrard : Mousset splue 2000 ans de christiente, édition du cherf, paris, 1984, p 112.

والحركات الفكرية -الإنسانية والاستنارة- كما آتت أكلها بدخول أوروبا عصر جديد هو عصر النهضة.

إذن فبالنظر إلى هاته المذاهب الثلاث (الكاثوليكية، الأرثوذكسية، البروتستانتية) انقسمت الكنيسة المسيحية التي عرفت صراعا في الماضي، وتعرفه الآن في كثير من المناطق، وربما أشهرها الصّراع الديني الدائر منذ سنوات بين طائفتي البروتستانت والكاثوليك في ايرلندا الشمالية. هذا الصّراع الذي يبرز فشل البابوية في تحقيق الوحدة، وجمع البشر حول المسيح لتدخلهم في جسده السري -حسب زعم المسيحية- الذي هو من أسس قيام الكنيسة الكاثوليكية.

ومن خلال ما سبق يمكننا القول أنّ مكانة البابا بعدما نمت وأصبحت في أوج قوتها وعظمتها في العصور الوسطى، إلا أنّها طرأت عليها أسباب أدت بها إلى التراجع والخسوف ومن ثمّ تراجع دورها الديني وبالتالي تراجع دورها السياسي وذلك في أواخر القرون الوسطى.

المبحث الثالث : البابا والحروب الصليبية

- المطلب الأول : مفاهيم الحركة الصليبية.

الحركة الصليبية بمفهومها الواسع : هي تلك الحملات التي شنتها أوروبا المسيحية بعامة ضد بلاد المسلمين باسم الصليب وتحت رايته، وذلك لاسترجاع الأراضي المسيحية المقدسة من المسلمين، وهي بهذا المعنى -على حد قول محمد ماهر حمادة- تعود بجذورها إلى عهد عمر بن الخطاب.

فيشمل هذا المفهوم تلك الحركة التي أدارها المسيحيون في شبه الجزيرة الأيبيرية ضد المسلمين والمعروفة بحركة الاسترداد، واستمرت إلى ما بعد طرد المسلمين في سنة 1492م تصفية الإسلام منها - كذلك الحروب البيزنطية في بلاد الشام ضد الحمدانيين والسلاجقة، فكان مسيحيوا أوروبا الغربية يضطرمون حماسا دينيا في حربهم المقدسة ضد المسلمين¹.

ثم يعرض محمد ماهر حمادة المفهوم الاصطلاحي الضيف للحركة الصليبية، بقوله : « أما هذه الحركة فقد دعت إليها الكنيسة، وغذتها بفكرة تنضوي تحت لواء الصليب لنصرة الدين الحقيقي، واسترجاع قبر المسيح - كما تدعى - وقتل واستئصال المسلمين. ظلت هذه الحركة نشطة أكثر من قرنين من الزمن² ».

ثم يُضيف عليه السميع الجزوري على ذلك بقولها : « لم تكن الحروب الصليبية في معناها الواسع إلا حلقة في سلسلة الصّراع الدائم بين الشرق والغرب واصطبغت -مظهريا- بصبغة دينية. وإذ قال البعض أنها استجابة لنداء البابوية في روما لتأسيس مملكة صليبية ثم تعزيزها وتوسيعها، حتى تصبح نقطة ارتكاز للصليبيين يتوسعون منها على حساب البلدان المجاورة، أي أنها في النهاية حركة استعمارية بكل ما يحمله هذا الإصلاح من معنى³ ».

وأما المعنى الاصطلاحي الاختصاصي الضيق للحروب الصليبية أيضا، فيقصد به تلك الحملات المسيحية التي شنتها أوروبا ضد المسلمين بخاصة في بلاد الشام والأناضول ومصر

1 - محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو الغربي للعالم الإسلامي، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982، ص 117.

2 - محمد ماهر حمادة : المرجع نفسه، ص 118.

3 - علي السميع الجزوري : الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، ط []، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م، ص 245.

وتونس، لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم، واسترجاع بيت المقدس وقبر المسيح -كما يدعون- خلال الفترة الممتدة بين 1096م-1294م)، وقد أتت هذه التسمية من صليب صغير أحمر مصنوع من القماش كما يلصق على كتف الفارس المتأهب للرحيل إلى بلاد المسلمين في إطار الحرب المقدسة¹.

يقول حسن إبراهيم حسن: «وتطلق الحروب الصليبية على الحملات التي وجهها المسيحيون في أوروبا على الشرق من القرن 5 هـ إلى 7 هـ / من 11م إلى 13م، للإستلاء على بيت المقدس، وتمتاز هذه الحروب في بدايتها بصفاتها الدينية وانعدام كل المميزات الجنسية والقومية، إذ أصبح المتحاربون شعباً واحداً هو الشعب المسيحي².

والواقع أن ثمة مفهوماً هاماً -على حدّ جرنانان ريلي سميت في كتابه- متفق عليه، يقول: «أن الحروب الصليبية كانت حركة ظلت تتصاعد حتى بلغت ذروتها عسكرياً، حيث احترم الصّراع بين مصاحبي الكنيسة وبين المعارضين لهم من رجال الدين وبين العلمانيين فاتّجه الفريق الأوّل إلى الفرسان المسيحيين طلباً للمساعدة في القرن الحادي عشر.

في حين نجد آراء تقول أنّ فكرة الحروب الصليبية لم تبلغ مرحلة التّضحج إلاّ في الأربعينات من القرن الثاني عشر، ففي تلك الفترة تدعمّت المفاهيم الخاصّة بالحروب الصليبيّة على أيدي الدّاعين إليها من أمثال: البابا "أنوسنت الثاني"، والقديس برنار الكليرفوي"، و"جرايان" العالم المسيحي الكبير اعتمد أولئك جميعاً على مبادئ الدّعوة إلى المشاركة في الحروب الصليبيّة، فتبلورت تلك المبادئ في أنّ الكنيسة التي مثلها البابوات تتمثل بالحقّ الإلهي الذي يخوّنها سلطة الدّعوة إلى شن حرب مقدّسة³. ومنه اختلف نظرة النّاس إلى الحروب الصليبيّة، فمنهم من رأى فيها حملات دينية صرفة، دعت إليها البابوية واستجابت لها الشعوب الأوروبيّة ما بين جرمانية وشمالية افرنجية وإيطالية عن اقتناع بوجوب "انتزاع بين المقدس" وتخليص "قبر المسيح" والاستيلاء على الأراضي المقدّسة في سورية وفلسطين تسهيلاً للطريق أمام الحجّاج من أهل الغرب، ليقوموا بشعائر الدّين،

1 - محمد ماهر حمادة : المرجع السّابق، ص 119.

2 - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السّياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج 3، ط []، بيروت، دار الجيل، 1991، ص 243.

3 - جرنانان ريلي سميت : الحملة الصليبيّة الأولى وفكرة الحروب الصليبيّة، ترجمة : محمد فتحي الشّاعر، ط 2، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.

ومنهم من رأى فيها حملات هوجاء لحمتها الفضاة وسداها الوحشية، فاعتبروها وكأنها بجملتها حدثا غربيا عن مجموع مظاهر التطور العام¹. هذا ما أشار إليه زكي النغاش في كتابه.

في حين يرى بعض المؤرخين أن الغزو الصليبي أو الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع التقليدي القديم بين الشرق والغرب منذ عهد الفرس واليونان، ولم يكن الدافع ذلك الصراع دينيا بقدر ما كان دافعا حضاريا. أي صراع بين حضارتين مختلفتين: شرقية وغربية، فالغزو الصليبي للوطن العربي الإسلامي كان الوسيلة التي حاولت بها أوروبا أن تتخلص من أوضاع العصور الوسطى السيئة والانطلاق إلى حياة أوسع أفقا.

لكن يرى آخرون أن الغزو الصليبي للمشرق العربي الإسلامي يشكل الحركة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي صاحبت سقوط الإمبراطورية العربية.

هذا ويرى فريق ثالث أن الحركة الصليبية، ليست إلا انطلاقة في سياق الإحياء الديني التي بدأت في غرب أوروبا في القرن العاشر ميلادي، والتي بلغت أشدها في القرن الحادي عشر، ويرى هذا الفريق أن الغزو الصليبي الذي بدأت الدعوة إليه سنة 1095م، ليست إلا استمرارا لحركة الحج الجماعي إلى بيت المقدس مع حدوث تطور في الأسلوب، وهو أن الحج الجماعي صار حريا بعد أن كان سياسيا².

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول، بأن الغزو الصليبي عبارة عن حركة كبرى ظهرت في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، واتخذت طابع الهجوم الحربي على بلاد المسلمين، وخاصة بلاد الشام بقصد الهيمنة عليها.

ويذكر قاسم عبده قاسم أن هذه الحركة ظهرت جراء طبيعة الأوضاع الفكرية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر، واتخذت من استغاثة نصارى الشرق بالأوروبيين ضد المسلمين ستارا ديتيا، لتعبّر عن نفسها تعبيرا علنيا واسعا النطاق³.

من خلال ما سبق يمكننا تقديم تعريف للحركة الصليبية؛ بأنها مظهر لحرب مقدسة

1 - زكي النغاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ط []، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1946م، ص 08.

2 - خاشع المعاضيدي، سرامي عبد محمد، دريد عبد القادر حوري: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ط 2، جامعة الموصل، مديرية دار الكتاب، 1986م، ص 19.

3 - قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية (الإيديولوجية - الذرائع - النتائج)، ط []، دار روتابرنبت، 1993، ص 18.

مسيحية أوروبية، جرت حالها ضدّ غير المسيحيين في المشرق الإسلامي، وفي إسبانيا، وفي ألمانيا، وضدّ المسيحيين الذين لا يؤمنون بمذهب الكنيسة في أوروبا، ضدّ المنشقين على كنيسة روما، وضدّ الخصوم العلمانيين الذين ناصبوا الكنيسة في روما العداء من أجل استرداد الممتلكات ومن أجل الدفاع عن الذوات الغربية.

ثم يضيف على ذلك جرناتان ريلي سميث - في كتابه - بقوله : « ومن ناحية المعنى التقليدي، فهي قضية حتمية مرتبطة باحتياجات العالم المسيحي أو الكنيسة الغربية أكثر من احتياجات أمة أو منطقة بعينها لذلك فهي ليست مجرد عمل ممكن تبريره، وإنما هي مقدّسة من الناحية العملية، وأضفى البابا موافقة شرعية على الحروب الصليبية باعتباره رئيساً للعام المسيحي وممثلاً للمسيح أكثر من كونه حاكماً دنيوياً¹.

ونضيف أيضاً رأي سعدون محمود الساموك في أنّ الحروب الصليبيّة سُميت لأسباب منها :

- 1 - أن القائمين بها كانوا يرفعون شعار الصليب.
- 2 - أنّها قد قامت بناء على نداء بابا الكنيسة الذي رفع الصليب أثناء نداءه لمثل هذه الحروب.
- 3 - أنّها حاولت إنهاء الحكيم الإسلامي في مناطق الشرق الأوسط التي احتلها لغرض إقامة مسيحي يدلّه يرفع شعار الصليب².

- المطلب الثاني : دوافع الحروب الصليبيّة

أخذ العدو الآن يغيّر الحربية، فالبابا لم يكسب شيئاً يُذكر من وراء حروبه الطويلة مع الإمبراطورية، وقد جرح الإنسانية في صميمها بواسطة عنوّه الذي لا مثيل له، والآن كان لابد أن يستنبط وسائل أكثر وقبولاً وأشدّ خداعاً وأقرب إلى صورة التقوى. فقد كانت المعضلة التي لا تزال تطلب حلاً هي كيف يمكن للسلطة الروحية أن تسود على السلطة الزمنية؟ فيجيب أندروملر بقوله : « هذه المعضلة لا يصعب على شيطان روما الماهر أن يجد لها حلاً، وسرعان ما اقترح، وهو المسيطر على مجالسها، حرباً مقدسة لتخليص قبر المسيح من أيدي الأتراك. وقعت الفكرة في الحال موقعاً حسناً لدى البابا أوربان، فأخذ يطبل ويزمر³ »، فنلاحظ أنّ أندروملر

1 - جرناتان ريلي سميث : ما الحروب الصليبيّة، ترجمة : محمد فتحي الشاعر، ط1، القاهرة، دار الأمين، 1999م، 105، 106.

2 - سعدون محمود الساموك : مقارنة الأديان، ص 65.

3 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 95.

يتحدّث عن البابوية بتغيير متهمكم وساحر، كاشفا عن نواياها المستترة والمختبئة وراء حجاب المساعدة والرّافة أي أنّه يقصد فكرة، "وما خُفي، كان أعظم".

إذن لكل حادث تاريخي أسبابه وموجباته، وقد يتتاب تلك الأسباب شيء من الاختلاط والاضطراب والغموض والخفاء، ولكنّها كلّها ترجع إلى نقطة معينة هي تملك الدوافع التي أظهرت ذلك الحادث وأبرزته إلى الوجود، وما الحروب الصليبيّة إلّا حادث تاريخي عظيم. زاد من اختلاط أسبابه وغموضها كثرة الشعوب التي اشتركت فيها، وكثرة الأنظار والأفكار التي توجهت إليها.

ولهذا اختلف المؤرخون في تعداد هذه الأسباب وتنوعها، ولكن مهما كان هذا الاختلاف، فإنّ الأسباب حملت أوروبا على إعلان الحروب الصليبيّة -على حد رأي محمد العروسي المطوي في كتابه- ترجع إلى غرضين أساسيين هما :

1 - رد الفعل النّصراني المشبع بالحقّ ضدّ العالم الإسلامي.

2 - دافع الطمع والكسب الذي اختلفت أنواعه وأشكاله¹.

- السّبب الأول : أوضاع بيزنطية العسكرية والسياسيّة.

لاشكّ في أن الظروف السّائدة في الشّرق قد شجعت البابوية على طرح مشروعها الكبير، إذ كان البابا جريجوري السّابع، والبابا أوربان الثّاني من بعده، قد استغلا أزمة الإمبراطورية البيزنطية لصالح الكنيسة الكاثوليكية، بحيث يتم توحيد الكنيستين تحت زعامة روما، فإنّ تطوّر الأحداث لم يلبث أن غيّرت هدف الحملة من القسطنطينية إلى بيت المقدس.

والحقيقة أنّ الفترة التي شهدت نضج الفكرة الصليبيّة في الغرب الأوروبي كانت هي نفسها فترة التراجع والتدهور في أحوال بيزنطة على النّحو الذي جعلها تلجأ للغرب الأوروبي في طلب المساعدة².

حيث يعتبر تأسيس مدينة القسطنطينية مبنيا من أول أمره على اعتبار ديني، زيادة على الاعتبار السياسي، فإنّ قسطنطين الأكبر، ما أسّس القسطنطينية إلّا لما رأى أن روما كانت مبنية

1 - محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبيّة في المشرق والمغرب، ط 2، بيروت، دار العرب الإسلامي، 1982م،

ص 27، 28.

2 - مفيد الزيدي : موسوعة تاريخ الحروب الصليبيّة، الأسباب، الحملات الآثار، ط []، عمّان، دار أسامة، 2004م، ص 44.

على شكل وثني لا يتناسب مع العقائد المسيحية، ومنذ ذلك الوقت أصبحت القسطنطينية عاصمة دينية، وعاصمة سياسية واستمرت في عظمتها واعتبارها إلى مبدأ العصور الحديثة حين فتحها العثمانيون سنة 1453م¹.

وقد كانت القسطنطينية طيلة صمودها للإسلام منذ سنة 13هـ تمثل العدو اللدود والخصم العنيد للإسلام ما بين مدافعة ومهاجمة؛ ولهذا فإن أي خطر يهدد هذه المدينة بالاحتلال فإن معناه خط الدفاع المسيحي².

ويذكر سعدون محمود الساموك حول العامل السياسي أن الثورة القومية كادت في كل أوروبا أن تنتهي سلطة البابا. وكانت هناك صراعات سياسية بين الحاكم والمحكوم، وكان نداء البابا في هذه الفترة قد ركز سلطته أولاً وتخلص بذلك من منافسيه السياسيين³، وهو العامل السياسي لقيامها.

ويضيف الساموك أيضاً في قوله: «ويذكر "كوبر" مؤلف كتاب "الكنيسة عبر التاريخ" قوله المسيحيين لم يستعيدوا فلسطين من أيدي المسلمين منذ عام 1200م، إلا بعد الحرب العالمية الأولى حين دخلها الإنجليز فاتحين، وكما تذكر لنا الروايات التاريخية أن قائد الحملة الفرنسية على الشام حين دخلها بعد سقوط الدولة العثمانية أتجه نحو قبر صلاح الدين الأيوبي ورفس قبره برجله ثم ناداه قائلاً: «يا صلاح الدين وأنقذ أمة محمد».

وهكذا يربط الفكر المسيحي الغربي والفاثيكان ما بين الحرب الصليبية وعودة فلسطين إليهم، فلا عجب إذن أن تختفي كلمة فلسطين والفلسطينيين من قائمة نداءات السلام التي كان يوجهها البابا ويركز على استقلال الأماكن المقدسة وحرية الأديان، وضرورة تواجد المسيحيين الكاثوليك في مدينة القدس حتى يضمن البابا عدم تحولها إلى متاحف بمرور الأيام⁴.
بذلك فإن الساموك يكشف نوايا المسيحيين والبابوات من وراء الحروب الصليبية.

إن فتح الباب على مصراعيه ليكتسح المسلمون القارة الأوروبية. فهذا الشعور هو الذي جعل أوروبا النصرانية تصغي إلى نداء الإمبراطور البيزنطي "الكسيس كومنين"، بعد أن طرد

1 - محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 30.

2 - إن ما قدره الغربيون هو ما تحقق فيما بعد لما افتتح العثمانيون القسطنطينية وتوغلوا في أوروبا وبلاد اليقلاق.

3 - سعدون محمود الساموك: موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ص 262.

4 - سعدون محمود الساموك: مقارنة الأديان، ص 67.

السّلاجقة البيزنطيين من غرب آسيا الصّغرى، ومن شمالي بلاد الشّام، وبعد أن جعلت مدينة نيقية إحدى عواصم السّلاجقة؛ وهي مدينة مشرفة على بحر مرمرة من صفته الشّرقية بينما القسطنطينية تقابلها في صفته الغربية - فاستنجد إمبراطور بيزنطة بالأمم المسيحية إن هو إلا نداء لإنقاذ مركز المقاومة الأول المسيحي الصّامد أمام القوات الإسلامية منذ عدّة قرون¹. إنّ جان كمبي أيضا وافق الباحثين الذين قبله الذين رأوا من الدّوافع التي أدت إلى قيام الحروب الصّليبيّة؛ "السياسية" فيقول: «رأى البابا في الصّليبيّة كسبًا سياسيًا له، وقد كان الإمبراطور الجرمانى يناقشه في الغرب، كما رأى في تقرّبه من إمبراطور بيزنطية حلاً للخلافات القائمة بين الكنيستين الشّرقية والغربية، في نظر المحاربين الأوائل. كانت هذه الحرب واجبا مقدّسا يدعو إلى استرجاع الأراضي المقدّسة من أيدي المسلمين»².

- السّبب الثاني: سوء الحياة الاجتماعية، ودوافع اقتصادية وتجارية.

كثيرا ما تكون الظروف الاجتماعية والاقتصادية مثيرة لحوادث وانقلابات يتغيّر بها وجه تاريخ الأمم والشعوب، أو تكون مهية لاعتناق فكرة وانتشار نحلة أو تلبية دعوة. وهكذا كان الأمر بالنسبة للمجتمع الأوروبي في عصر الحروب الصّليبيّة، فالطبقة الشّعبية كانت في الدّرك الأسفل من الانحطاط والفاقة والاحتياج وكانت تلاقي الأمرين من الضّرائب والتّسخير والظلم والإرهاق، زيادة على المجاعة التي عمت أنحاء أوروبا زمن الحروب الصّليبيّة والتي انتابت هذه الطبقة البائسة أكثر من أي طبقة أخرى، فكيف لا تلبّي هذه نداء ترى فيه منقذا لها من حالتها السيّئة، ومرسلا بها إلى الحرية والإنعتاق³. وهو ما ذكر أيضا سعدون محمود السّاموك في قوله: «فلقد كانت أوروبا تعاني من الكساد التجاري وهو الذي دفعهم نحو الشّرق لفتح طرقات تجارية جديدة لهم، ورغم أنّ قسما من شارك في هذه الحروب قد جاء لأهداف دينية - إلا أنّ بين من جاء كان مجرما عريفا أو سياسيا أو سحينا. وكانت خزائن أوروبا تعاني من كثرتهم، فلذلك بادرت البابوية إلى إرسالهم وفي تلك الحملات تخلّصا من أعبائهم الاقتصادية مقابل

1 - محمد العروسي المطوي: الحروب الصّليبيّة في المشرق والمغرب، ص 30.

2 - جان كمبي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 192.

3 - هـ. سانت ل.ب. موسى: ميلاد العصور الوسطى، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة الباز العريني، ط []،

القاهرة، عالم الكتب، 1967م، ص 328.

حريتهم في الشرق»¹. فشكّل ذلك عاملاً اقتصادياً لها².

أمّا طبقة الأشراف والإقطاعيين فقد كانت تسودها فكرة الممالك والإمارات³. فكان هؤلاء - زعماء الإقطاع والملوك - يملكون باحتلال أراضٍ جديدة وبناء إقطاعات جديدة⁴.

وقد ذكر أيضا هـ. موسى في كتابه ما ذهب إليه جان كمي من أنّ النظام الإقطاعي الذي اتفقت الممالك سرقته في القرون الوسطى خصوصا الذي يدفع بالسيادة إلى اقتطاع الأراضي وتكوين الممالك والإمارات، وهذا ما أدّى بالكثير من هؤلاء إلى تكوين الحملات الصليبية وتعبئة الجيوش، والتوجه بها إلى المشرق حيث يتمكنون من تحقيق مطامعهم وأغراضهم⁵.

وقد ذكرت أيضا هذه الأسباب في كتاب موسوعة تاريخ أوروبا العام في الجزء الأول فجاء فيه: «وكانت هذه الظاهرة - الحروب الصليبية - تمجيدا للسلطة الأدبية للبابوية التي بدت كأنها القائد الأعلى الذي يثير الحماسة ويحدّد الأهداف ويراقب، وكانت تشهد في الوقت نفسه على القوّة التي اكتسبت عن طريق البابوية، ولكنها كانت ماديا وسياسيا واجتماعيا من شأن الفرسان، الفريق الإقطاعي الذي يسهم بقوّة في عمل دنيوي، واللافت أنّه لم تجد محاولة منهجية لإشراك الملوك كملوك وأنّ الحملة الشعبية التي ستأخذ طريقها على الحرب اعتبرت بلا جدوى»⁶.

بالإضافة على أنّ كان لنظام الفروسية السائد إذ ذاك أثر واضح في تشجيع غريزة حب الاطلاع والمخاطرات والمغامرات وإظهار الشجاعة والمهارة، ممّا أحكمت نظامه تقاليد الفروسية وأوضاعها في تلك العصور⁷.

وإذا أضفنا على ذلك طمع الأرباح التجارية التي كان يتمثل في الجمهوريات الإيطالية (جنوة-بيزة-البندقية)، والتي كان بدأ بعد الأثر في تركيزا للصليبيين ببلاد الشام أمكن لنا أن نعتبر

1 - سعدون محمود السّاموك : موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج2، ص 262.

2 - سعدون محمود السّاموك : مقارنة الأديان، ص 66.

3 - هـ. سانت. ل. ب. موسى : ميلاد العصور الوسطى، ص 328.

4 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 192.

5 - هـ. سانت. ل. ب. موسى : المصدر السابق، ص 328.

6 - بيار غريمان وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 423.

7 - مفيد الزّيدي : موسوعة تاريخ الحروب الصليبية، ص 22.

هذا الطمع حالة مسيطرة على قسم من أهالي أوروبا كانت تدفع بهم إلى المساهمة في الحروب الصليبية¹.

- السبب الثالث : الغرض الديني ودوافع الكنيسة.

إن دخول الكنيسة في التسيخ الإقطاعي لمجتمع غرب أوروبا أدى في النهاية إلى أن صارت الوظائف الكنيسة تباع وتشتري، وكانت النتيجة أن أغلبية رجال الكنيسة كانوا جهلة فاسدين، وعلى العموم كانت أحوال الكنيسة تبعث على الرثاء، وفي سنة 911م تأسس دير كلوني على يد الدوق : "وليم أمير أقطانيا، أملا في إصلاح الأوضاع الديرية المتردية، وكان ذلك أول رد فعل واضح في مواجهة الفساد التي كانت الكنيسة قد تورطت فيها، حتى ذلك الحين حرم دستور كلوني قبول أي أرض إذا كانت مشروطة بالخدمة العسكرية، وسرعان ما انتشر دستور رهبان دير كلوني في كل مكان، وفي شتى بقاع أوروبا وجدت الأديرة الكلونية التي صارت لها نفوذ ضخم وبفضل مساعدة الإمبراطور الألماني : هنري الثالث، ثم إصلاح الكثير من الأديرة الألمانية، وصارت الأديرة الكلونية مقصد كل المتحمسين والمخلصين من رجال الكنيسة².

بيد أن أولئك المتحمسين من رجال الكنيسة لم يكونوا على استعداد لأن يقصروا حدود إصلاحاتهم على الأديرة. كانت الممارسات السيئة والفسادة لرجال الكنيسة تثير قلقهم، وأدرك الإصلاحيون أن هناك وسيلة واحدة لتحقيق أهدافهم هي تنظيم الكنيسة على أسس قوية، وبحكومة مركزية مقالة، وذلك تحوّلوا صوب البابوية التي تتبلور حولها الكنيسة الكاثوليكية، وكان البابا ليو التاسع أو البابوات الإصلاحيين فبعد أن ارتقى العرش البابوي (1049-1054)، عقد عدة مجامع دينية وأصدر عدة قرارات ضد زواج رجال الدين، والعنف والتحلل الأخلاقي، وبهذه الطريقة صارت السلطة البابوية سلطة حقيقية واضحة للعيان، وكانت النتيجة أن البابوية التي كانت حتى ذلك الحين مصدر عار وفضيحة بالنسبة للجادين من رجال الكنيسة كسبت تأييد الحركة الإصلاحية، ولأن البابا كان يتم اختياره بواسطة القساوسة وشعب روما وهو ما كان يعني أن التباء الإيطاليين كانوا يتدخلون في اختيار البابا بالشكل الذي يوافق مصالح عائلاتهم. فإن الإصلاحيين انتهزوا فرصة موالية بعد وفاة الإمبراطور هنري الثالث، وتم إصدار مرسوم الانتخابات البابوي الشهير سنة 1059م وقد أنهت هذه الوثيقة التي أصدرها البابا نيقولا

1 - محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 33.

2 - مفيد الزبيدي : موسوعة تاريخ الحروب الصليبية، ص 40.

الثاني (1059-1061)، تدخل العلمانيّين في انتخابات البابا وقصر هذا الحق على مجلس الكرادلة¹.

وتقول الوثيقة : « ... نحن البابا نيقولا الثاني رسمنا وقرّرنا أنّه عندما يموت بابا كنيسة روما العالمية، فإنّ للأساقفة والكرادلة أن يجتمعوا ويتدبّروا الأمر ملياً، ثمّ يلحق بهم القساوسة الكارديناليون، ثمّ يوافق بقية رجال الكنيسة والشعب على الانتخاب الجديد ... »².

والوثيقة تمنع صراحة تدخل أي سلطة علمانية في هذه المسألة ، وقد تمكن الإصلاحيون من زيادة سلطة البابا على الكنيسة الكاثوليكية بأسرها من خلال عدّة وسائل، لأهمها : (المنوجون البابويون)، الذين كان البابا يرسلهم في مهمات متعدّدة في شتى أنحاء العالم الكاثوليكي لتأكيد سلكته، وعند هذه النقطة بدأ الصّراع على السّلطة بين الكنيسة والدّولة. وقد تفجّر الصّراع علنا عندما نوّلى "هيلديراند" عرش القديس بطرس تحت اسم "جريجوري السّابع" سنة 1073م، وقد ارتبطت هذه الفترة باسمه فعُرفت باسم : "الثورة الجريجورية". وقد اهتم هذا الأخير بتدعيم سلطة البابوية على ابعاد الحدود. وقد يُنسب إليه مرسوم يحدّد أبعاد السّلطة البابوية يتكون من ست وعشرين نقطة تدور كلها حول مفهوم سموّ البابوية على الدّولة.

وحين اعتلى جريجوري عرش البابوية وجد أن الجالس على عرش الإمبراطورية هو الإمبراطور هنري الرّابع فلم يتورّع جريجوري من أن يطلب من الملك الألماني أن يوقف نظام التقليد العلماني الذي يتيح له التّحكّم من تعيين كبار رجال الكنيسة، وهدّد بتوقيع الحرمان على الإمبراطور إذا لم يتمثل للمرسوم الذي أصدره. فقرّر هنري أن يتصدّى للبابا، فعقد مجمع ديني أيّده فيه القساوسة الألمان، وعقد هذا المجمع في وورسس سنة 1076م، وجاء قراره منها : « ... قررنا بالإجماع أنّه لن يكون بمقدورك أن تتولّى رئاسة الكرسي الرّسولي بعد الآن ... ».

وكان الرّد الفوري للبابا خلع الإمبراطور، مع التّهديد بانتخاب غيره إذا لم يحصل على الغفران البابوي، ثمّ حدث أن استعدّ البابا للرّحيل إلى ألمانيا لحضور انتخاب التّبلاء الألمان لإمبراطور جديد، وفي الوقت نفسه استطاع رجال الكنيسة الألمان في بلاط هنري أن يقنعوه بأن الحل الوحيد هو أن يغلب الغفران البابوي حتّى ينقذ عرشه وبالفعل سافر الإمبراطور إلى إيطاليا،

1 - مفيد الزّيدي : موسوعة تاريخ الحروب الصّليبيّة، ص 41.

2 - أحمد رضا بك : وثائق عن الحروب الصّليبيّة، ترجمة : محمد بورقيّة، محمد الصادق الزمري، تقديم : محمد العروسي

المطوي، ط3، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنّشر والتوزيع، ت []، ص 27.

وعندما قابله البابا تحول استسلام الإمبراطور على نصر سياسي.

مات جريجوري في منفاه، وعلى الرغم من موته سنة 1075م، إلا أن النزاع العلماني ؛ أي الصّراع والسّموم والسيادة بين الدولة والكنيسة ظلّ قائماً لفترة طويلة بعد ذلك، وقد كان لهذا الصّراع أثره وشكله في الحملة الصليبية الأولى، لقد كانت الحركة الصليبية إفرازا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع، ومن ثمّ فإنّها سعت لتحقيق أهدافها، وكانت الدوافع التي حركت الجميع تتجه نحو بؤرة واحدة: هي التوسع في الخارج، وإبقاء مجال حيوي للنحو الحضاري الذي كانت أوروبا الغربية تعاني إرهاباته في ذلك الحين¹.

كان هذا من ناحية دافع الكنيسة، أما من ناحية الشعور الديني فليس معنى تعدّد المظاهر السابقة إن لم يكن بل كان كثير². ممن شاركوا في الصليبيات تدفعهم عاطفة دينية جياشة، لكن هذا لم يكن كسائر المظاهر الأخرى يشمل طائفة من الناس، كما شملت المظاهر الأخرى بقية الطوائف المشاركة، ولم تكن خطب البابا أوربان الثاني أقل أهمية من الحالات الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي سردناها.

يصرّح سعدون محمود الساموك أن العامل الديني، هو المحرك الرئيسي الذي كان وراء الدعوة إلى الحروب الصليبية. إذ أن الإسلام كان خطراً يهدّد أوروبا دائماً. لذلك فإنّ إرسال المسيحيين على العالم الإسلامي وإشغال المسلمين بهذه الحملات سيوقف من توجهات المسلمين نحو احتلال أراضٍ أوروبية ويساعد في استعادة الأقطار التي كانت تدين بالمسيحية سابقاً ودخلت الإسلام³.

والعامل الديني يتمثل في الحقيقة بسببين رئيسيين: يذكر أولها "جان كمبي" بقوله: « كان الحج إلى الأراضي المقدسة قد أصبح خطراً نظراً على احتلال الأتراك لقسم كبير من آسيا الصغرى وأوروبا الشرقية، كما أنّ السّفرة بجراكان محاطاً بأخطار العواصف والقراصنة وسواهم »⁴.

ثمّ يضيف الساموك على ذلك بقوله: « وتعتبر المسيحية أنّ الأرض الموعودة قد تحققت

1 - مفيد الزّيدي: موسوعة تاريخ الحروب الصليبية، ص 42، 43.

2 - قال الرّاهب إنكتيل في تاريخه: قليل من الصليبيين كانت لهم غاية دينية حقيقية.

3 - سعدون محمود الساموك: موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج2، ص 261.

4 - جان كمبي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 192.

تماما. بمجيء المسيح، أي أن فلسطين تكون حقاً مقدّساً مشروعا للمسيحيين وخدمهم دون المسلمين واليهود لذا كانت الحروب الصليبيّة المقدّسة أما القدس فحسب العقيدة المسيحية لا تكون لليهود ولا للمسلمين ولا للعرب، وإثما تكون للدولة أي لجميع الأمم. ولقد أقرّ البابا (بولس السادس) بوجوب تدويلها اعتمادا على نصّ الإنجيل (تكون مدوسة من قبل الأمم، حتّى تكمل أزمنة الأمم)، أي حتّى نزول السيّد المسيح ثانية قبل قيام السّاعة وفناء العالم¹.

أمّا الثاني، فيقول سعدون السّاموك : « أن بني إسرائيل واليهود الذين يعتقدون أن أرض الميعاد بحدودها التوراتية التي أعطاهما إياهم ربهم بعهود ومواثيق تُذكر في توراتهم وأنهم أنكروا نبوة السيّد المسيح - المسيح - لذا فإنّ تلك العهود صارت إلى المسيحيين الذين صدقوا المسيح - المسيح - فصارت أرض الميعاد (ومنها فلسطين) ملكا أبديا لهم وذريّاتهم حتّى قيام السّاعة (فإنّ كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة) أي ورثة اليهود في أحقيّة تملكهم لأرض الميعاد².

لكن أندروملر ينقد ويكشف نوايا البابوية ويصفها بالشيطان في قوله : « البابا لم يكسب شيئا يُذكر من وراء حروبه الطويلة مع الإمبراطورية، وقد جرح الإنسانية في صميمها بواسطة عنوه الذي لا مثيل له، والآن كان لا بدّ له أن يستنبط وسائل أكثر ملائمة وقبولا وأشدّ خداعا وأقرب إلى صورة التقوى، فقد كانت المعضلة التي لا تزال تطلب حلا هي : كيف يمكن للسلطة الروحية أن تسود على السّطة الزمّنية؟.

هذه معضلة لا يصعب على شيطان روما الماهر أن يجد لها حلا، وسرعان ما اقترح، وهو المسيطر على مجالسها، حربا مقدّسة لتخليص قبر المسيح من أيدي الأتراك، وقعت الفكرة في الحال موقعا حسنا لدى البابا أوربان، فأخذ يطبل لها ويزمر، وأصبح هو بطلها الصنديد المدافع عنها بكل قوته، كذلك وافق عليها الفاتيكان بأجمعه³.

ويضيف السّاموك أن المسيحيين غرست في أذهانهم فكرة أنّهم وخدمهم من كل أمة ولسان لهم فلسطين دون اليهود ودون المسلمين كدين ودون العرب كقوم، ولهم وعدهم الإلهي والحق الإلهي في تملك فلسطين.

1 - سعدون محمود السّاموك : موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج2، ص 261.

2 - سعدون محمود السّاموك : مقارنة الأديان، ص 65.

3 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 257.

وإن إنكار اليهود للمسيح - الصلبيّة - يخرجهم من الإيمان إلى الكفر كما يخرجهم من أبوة إبراهيم - الصلبيّة - لأنّ التّسبب المسيحي هو نسب العقيدة، مهما كان القوم والوطن وكانت اللغة ذلك أنّ إبراهيم - الصلبيّة - أب لكل مؤمن¹. (... أجابوا "اليهود" وقالوا له : "للسيد المسيح" : أبونا هو إبراهيم، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني ... الذي من الله يسمع لكلام الله. لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله)².

ويكشف أندروملر نوايا البابا أوربان بقوله : « وفي نوفمبر من سنة 1095م، عُقد مجمع في مدينة كليرمونت، وكانت الدّعوة إليه مستعجلة، مع تكليف رجال الإكليروس أن يحثوا الشّعب على الاهتمام بمسألة الحرب، (...) بل تجاسر أوربان فاتخذ خطوة أخرى فاق بها على غريغوري، وهي أنّه حرّم على رجال الإكليروس أن يقسموا يمين الولاء أي سلطة زمنية، وكان المقصود من هذا التحريم، هو إنهاء كل اعتماد للكنيسة على السّلطة الزمنية، ومن ذلك نرى أن هذا البابا الماكر اتّخذ فرصة الالتفاف حوله من الجميع لتعزيز سيادته المطلقة في وقت كانت فيه عقول النّاس متجهة بأفكارها نحو الحرب المقدّسة، (...) فلم تكن هناك فرصة أحسن من هذه لتثبيت غرض البابوية العظيم مطمعها الأسمى وهو السّيادة المطلقة فوق المسيحية اللاتينية بأجمعها، (...) وبالإجمال لم يترك البابا عاطفة إلاّ وأثارها، ولكن غرضه الحقيقي ومطمعه الأوحده لم يكن إلاّ تعظيم ذاته والتّخلص من الأمراء والملوك العتاة بإرباكهم في حملة بعيدة مخوفة بالمهالك والأخطار، وبذلك يصفو له الجوّ، ويستطيع في غيابهم أن يجمع في يده خيوط تلك الحركة الواسعة النّطاق»³.

كذلك قام أوربان الثاني بتطوير نظرية الحرب الصّليبيّة، فيدعو إلى حرب هجومية ضدّ الإسلام لكي "يجرر" فلسطين والمدن المقدّسة ويجعلها على اتصال بالعالم المسيحي⁴، بالإضافة إلى أنّ البابا استعمل جميع وسائل الإغراء لإثارة الحمية في الصّدور ؛ فزيادة على إعلانه غفران الذّنوب والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحملة الصّليبيّة، وزيادة على إعفائهم من جميع التّكاليف المدنيّة⁵. وأنّ كل الذين يتطوّعون ناذرين أنفسهم للحرب سيكونون مكرّسين للرّب،

1 - سعدون محمود السّاموك : مقارنة الأديان، ص 66.

2 - يو : 8 / 37 - 39.

3 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 259.

4 - بيار غريمان وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج1، ص 422.

5 - محمد العروسي المطوي : الحروب الصّليبيّة في المشرق والمغرب، ص 34، 35.

وأنه أثناء غيابهم ستوضع عائلاتهم وأرزاقهم في عهدة الكنيسة. وتوضع على ثياب الجنود علامة مميزة وهي صورة الصليب، وهذه لم تكن بإيعاز من البابا، يُعرفوا بها وتكون شعارات لقداسة بادرهم. وكانت هذه الظاهرة تمجيدا للسلطة الأدبية للبابوية التي بدت وكأنها القائد الأعلى الذي يثير الحماسة، ويحدد الأهداف، ويراقب. وكانت تشهد في الوقت نفسه على القوة التي اكتسبت عن طريق البابوية¹.

فيقول محمد العروسي، أن خطبته (أوربان -II-) التي ألقاها بمجمع كليرمونت يمكن أن تُعتبر تخلصا موجزا لجميع ما ذكرناه ولقد كان في خطبه يضرب على الوتر الحساس كمثل قوله : « ... ولست (هذه الحرب) لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا محجة القبر المقدس وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين، أنتم أملكوها لذواتكم، فهذه الأرض كما قالت الثورة تفيض لبنا وعسلا ... » واستخلاص بين المقدس وإنقاذ قبر المسيح، وحماية الصليب هي اللحاق الذي غُطيت به وجمعت فيه جميع الأغراض الأخرى التي اختلفت أمرها باختلاف هوى كل واحد².

وبذلك يتضح لنا أن الانتفاع الشخصي كان هو السائد وإن كان خفيا لأول وهلة وحالة الصليبيين، التي ذكرناها ينطبق عليها قول أحد المؤرخين الغربيين " « إن رؤساء الحرب الصليبية كانت أفكارهم تشغل بمصالحهم الخصوصية أكثر من انشغالهم بأورشليم وأن المنازع الدينية كانت دائما متأخرة لديهم عند مصالحهم التجارية³ ».

إذن فإن المقصد من الحروب الصليبية لم يكن ديني كما يبدو لأول وهلة ؛ وإنما كان الهدف منها أن تتضاءل قوة ملوك أوروبا حتى يستطيع البابا أن ينتصر عليهم - كما وصفها - أندروملر في كتابه مختصر تاريخ الكنيسة، "بمشورات شيطان البابوية النابغة"

- المطلب الثالث : موجز عن مراحل الحروب الصليبية.

أوجزنا الحديث في هذا المطلب نية إعطاء بإيراد لمحة تاريخية عن المراحل التي مرّت بها الحروب الصليبية، وهذا نظرا لاتساع الحديث عن أهم المراحل أو أهم الحملات الصليبية، وبالتالي

1 - بيار غريمان وآخرون : موسوعة الصليبية في المشرق والمغرب، ص 422.

2 - محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 35.

3 - محمد العروسي المطوي : المرجع نفسه، ص 35.

يمكننا تقسيم الحروب الصليبية بعد إعلانها على لسان البابا أوربان الثاني إلى أربعة مراحل :

– **المرحلة الأولى :** تمكنت فيها الحملة الصليبية الأولى بعد وصولها إلى مدينة القسطنطينية في سنة 1097م، من أن تعبر "الفوسفور"، وتتوغل في الأناضول¹.

أرسلت هذه الحملة إلى الشرق تحت عذر حماية الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة حيث أعتدي على بعضهم من قبل الجند السلاجقة، وقد تطوَّع لهذه الحملة الكثير من الفقراء المعمدين طمعا في أن يجدوا أرضا تأويهم ويرتزقون منها. كذلك ضمَّ إليها مجرموا أوروبا الذين كانت السَّحون تعجُّ بهم إضافة إلى الجند الرسميين للبابا والممالك الأوروبية الخاضعة لحكمه².

انقسمت هذه الحملة إلى قسمين : اتجهت الأولى منها نحو القسطنطينية واصطدم جنودها بأهالي المدن مرّوا بها إضافة إلى صدام آخر مع الجند السلاجقة أبادها عن آخرها.

أما القسم الثاني فقد وصلت إلى نيقية والرّها وأنطاكية والقدس وأسقطوا الأخيرة بعد حصار دام أربعين يوما ... فذبخوا سبعين ألفا من أهاليهم العرب ونصبوا ملكا من بينهم على القدس وغيرها من البقاع³.

– **المرحلة الثانية :** أمّا هذه المرحلة فقد شهدت استيلاء "عماد الدّين زنكي" على حلب سنة 1127م، وتخليص "الرّها" من الصليبيين في سنة 114م، واستمر نور الدّين يواصل سياسة والده من بعده في تضيق الخناق على الصليبيين الذين استنجدوا بأوروبا فحُصرت الحملة الصليبية الثانية وكان حصرها الفشل في إغاثة مملكة أورشليم اللاتينية⁴، فلم يُنتج لها أيّ نجاح (1147-1149م) وفي 1187م، استرجع صلاح الدّين الأيوبي مدينة القدس.

– **المرحلة الثالثة :** في عام 1187م أغار صلاح الدّين، سلطان مصر الشهير على الأراضي المقدسة على رأس جيش كبير، وغرضه المُعلن استعادة بيت المقدس من قبضة المسيحيين، ووصل إلى طبرية وهناك انتصر على أعدائه نصره عظيمة أخذ بعدها يزحف إلى أسوار المدينة المقدسة فحاصرها، وأخذها عنوة وأسر ملكها وسلمت المدينة لصلاح الدّين في أكتوبر، فتوارى الصليب

1 - سعيد عبد الفتّاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 29.

2 - سعدون محمود السّاموك : مقارنة الأديان، ص 68.

3 - سعدون محمود السّاموك : موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج1، ص 263.

4 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج4، ص 280.

وتبددت الآثار وامتنت الأماكن المقدسة، وعادت العبادة الإسلامية كما كانت¹.

فترعم هذه الحملة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوجست ملك فرنسا إلا أنهما فشلا أمام صلاح الدين الأيوبي في الاحتفاظ بمدينة القدس واكتفيا معه بمعاهدة ضمن حمايته للحجاج المسيحيين² مع الموافقة على عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات³.

— المرحلة الرابعة : احتلت الحملة الرابعة بيزنطية وأعملت النهب والحرق فيها وأمست إمبراطورية لاتينية وجعلت لها بطريركا لاتينيا لم يقبل به بطريرك القسطنطينية⁴، ففي هذه الحملة عدد كبير من الفتيان، لم يستطيعوا الوصول إلى الأرض المقدسة، حيث قضى معظمهم نجبه جوعا وفتكت بهم الذئاب وسرقهم اللصوص قبل وصولهم مدينة جنوا الإيطالية. أما بقية الفتيان فقد باعهم قائدهم الملك فريدريك الثاني عبدا في أسواق الرقيق بمصر وتونس⁵.

فهذه الحملة فقدت هدفها المتمثل في الاستيلاء على بيت المقدس، وهو ما كان من شأن الحملات السابقة، وعمدت البندقية التي كانت تعيش آنذاك من الحروب الصليبية إلى تحويلها عن وجهتها الأصلية، وتوجيهها بدلا من ذلك إلى السيطرة عن القسطنطينية والاستيلاء عليها من الأباطرة البيزنطيين الأرثوذكس حتى يسيطروا بعد ذلك على المراكز التجارية التي كانت في أيدي جيرانهم المسيحيين الضعفاء، بعد أن فشلوا في السيطرة على مراكز المسلمين في تلك الجهات، ولهذا اقتحموا القسطنطينية وكنائسها رغم احتجاجات البابا⁶.

كانت الحملة الخامسة التي بدأها الإمبراطور هنري السادس سنة 1195م، سياسية في مراميها أكثر منها دينية، فلم يكن غرضها الرئيسي خلاص الأرض المقدسة بقدر ما كان إبادة الإمبراطورية اليونانية، ولكن بعد قليل من الانتصارات مات هنري، فصمم الألمان على الرجوع إلى بلادهم. أما البابا سلسطين الثالث، الذي كان السبب في إثارة تلك الحرب، فلم يعيش بعد الإمبراطور إلا بضعة أشهر ومات سنة 1198م⁷.

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 30.

2 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 192.

3 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 265، 266.

4 - جان كمي : المصدر السابق، ص 192.

5 - سعدون محمود الساموك : موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج2، ص 263.

6 - سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق، ص 30، 31.

7 - أندروملر : المصدر السابق، ص 267.

إنّ وصف الحملتين الخامسة والسادسة فيه تكرار كثير لما جاء في الحملات السابقة نظراً للتشابه الكبير بينها.

أمّا الحملة السابعة (1248-1254م)، قادها لويس التاسع ملك فرنسا دخلوا مصر فأسر المصريون قائدها. ثمّ عقدوا معهم معاهدة أطلق الأسرى. بموجبها لقاء فدية ورحلوا إلى أوروبا بعد ذلك¹.

وأخيراً في 14 مارس سنة 1270م، بدأ لويس التاسع حملته الثانية وهي الحملة الصليبية الثامنة (1270-1297)، وقد كانت صحته قد اعتلت وجسمه صار ضعيفاً هزيلاً، ولكنّه لم يكذب يتزل بجيشه على شواطئ إفريقيا حتّى تبددت جميع أحلامه الذهبية²، فمات لويس قبل الوصول إلى الأرض المقدّسة، وبفشل هذه الحملة أجلى الصليبيون عن كل الأراضي العربية الإسلامية وصور وصيدا وبيروت وطرسوس³.

وكانت حملات أخرى قد حصلت كحملات سيحفارد جور سالفار ملك الترويج (1107-1111) وحملة يوحنا هو تباري (1443) إلا أنّ جهودهم ذهبت أدراج الرياح، ولم ينتصروا في أيّ منها.

وكان للعثمانيين فضل كبير في ردّ الحملات الصليبية المتأخّرة وتطهير الأراضي العربية والإسلامية من خطرهم.

وهكذا انتهت هذه الحروب التي يدعوها "مقدّسة"، تاركة الغرض الرئيسي من الحملات الصليبية كلّها في حيز الخيال.

ويقول الساموك في كتابه: "ويذكر كوبر" مؤلف كتاب (الكنيسة عبر التاريخ) قوله بأنّ المسيحيين لم يستعيدوا فلسطين من أيدي المسلمين منذ عام 1200 للميلاد إلاّ بعد الحرب العالمية الأولى حين دخلها الإنجليز فاتحين⁴.

1 - سعدون محمود الساموك : موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج2، ص 264.

2 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 267.

3 - سعدون محمود الساموك : مقارنة الأديان، ص 69.

4 - سعدون محمود الساموك : المصدر نفسه، ص 264.

- المطب الرابع : نتائجها .

كثيرة ومتعددة هي آراء المؤرخين في منشأ الحروب الصليبية وصفتها وآثارها، ولكنهم يتفقون جميعا على ما كان لها من أثر هائل في مجرى تاريخ البشرية، وخاصة في أوروبا وآسيا .
« فقد كانت هي الأداة التي استخدمتها عناية الله المطلقة والسلطان في تغيير النظام الاجتماعي في أوروبا عامة. وقد تناولت هذا التغيير العظيم جميع الأفراد من العبد إلى الحر، ومن السيد إلى المسود، ذلك أن عدد اللوردات أرباب الحقول والإقطاعيات قلّ وتضاءل بما تكبدوا من الخسائر في تلك الحروب، وارتفع مركز المزارعين وتحسنت حالتهم الاجتماعية بعد أن كانوا أشبه بالعبيد. ممّا أدى أخيرا إلى قيام طبقة ثالثة متوسطة وهم الذين رهنوا أراضيهم إلى المقتدرين من عامة الشعب¹ .

يرى جان كمي أن للحروب الصليبية نتائج إيجابية وسلبية. أمّا الإيجابية فهي محدودة جدا مثل : بعض قلاع وقصور أقامها الصليبيون في سورية وفلسطين كحصن الأكراد، انفتاح الشرق على الغرب في ميدان التجارة وتبادل السلع، لكن الصليبيين لم يتركوا أي أثر فكري أو مدرسة أو رسالة ...

ويقول "جان" عن النتائج السلبية أنها قد جاءت أعمق وأرسخ في الأذهان، إذ زادت حدة الخلاف بين كنيسة بيزنطية وكنيسة روما، ممّا سيساعد على الانفصال النهائي الذي لم يزل قائما إلى اليوم. كما ربّت الحقد والبغض المتبادلين بين المسيحية والإسلام² . وهو ما ذهب إليه ميشال اليسوعي وسعدون محمود الساموك وعلي الحمد التملة هذا الأخير الذي قال : « وتشكل الصراع بين المسلمين والنصارى بوضوح أكثر إبان الحروب الصليبية، التي لا تعدو كونها شكلا من أشكال التنصير، اتبعت فيه القوة والغزو العسكري [...] للبعد التنصيري خطر كأحد أهداف المشروع الصليبي الذي رغب في تحويل المسلمين إلى مسيحيين يدينون بالولاء لكنيسة روما وفق المذهب الكاثوليكي³ .

1 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 267، 268.

2 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 192.

3 - علي إبراهيم الحمد التملة : التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، ط 2، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية،

أمّا ميشال فيقول : « شنت الدّول الأوروبية الحملات الصّليبيّة وقد خلّفت حتّى اليوم الحذر والمرارة لا بين المسلمين والمسيحيين فقط. بل بين مسيحي غرب أوروبا ومسيحي الدّيار البيزنطية أيضا. وكان لأعمال التّدمير والتّشكيل والتّقتيل التي قام بها الصّليبيّون لدى نهبهم القدس (1099) والقسطنطينية (1024) أسوأ الأثر عند المسلمين أو المسيحيين الشرقيّين¹.

يذكر سعدون محمود السّاموك : « ورغم أنّ أوروبا فشلت من الناحية العسكرية في الحروب الصّليبيّة، فهي لم تفلح أيضا في تشكيل المسلمين برسالتهم بل زادهم تمسّكا بدينهم، لكن الاحتكاك بين الطرفين أدى بأوروبا إلى تغيير الكثير من أسلوبها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري، وهذا بدوره أدى إلى ظهور عصر جدية هو عصر النهضة الأوروبيّة، الذي يتركز في الأساس على دعائم الرّخاء المادي الذي كانت الحروب الصّليبيّة سببا في إقامته².

ثمّ قام "سعدون" بكشف نوايا البابوية من وراء الحملات الصّليبيّة بقوله : « وهكذا يربط الفكر المسيحي الغربي والفاثيكان ما بين الحرب الصّليبيّة وعودة فلسطين إليهم، فلا عجب إذن أن تحتفي كلمة فلسطين والفلسطينيين من قائمة نداءات السّلام التي كان يوجّهها البابا ويركز على استقلال الأماكن المقدّسة وحرية الأديان، وضرورة تواجد المسيحيين الكاثوليك في مدينة القدس حتّى يضمن البابا عدم تحوّلها إلى متاحف بمرور الأيام.

وكانت آخر الحملات الصّليبيّة قد باءت عام 1270م، بالفشل الذّريع قد أثبتت تلك الحملات الصّليبيّة على الأراضي العربيّة زيف الإدعاءات البابوية بتحرير فلسطين -والقدس بالذّات- من الأيدي التي كانت تمنع حجاجهم من أداء الزيارة إلّا أنّهم كانوا يبغون طرد السّكان العرب الأصليين من أراضيهم وإقامة ممالك مسيحية يحكمها الأجنبي وتخضع للبابوية في سلطاته السياسيّة³.

كما يضيف أندروملر نتائج الحروب الصّليبيّة على البابوية بأنّ الأخيرة أول المكتسبين من هذه الحروب الصّليبيّة فيقول : « كان من نتائج الحروب الصّليبيّة المباشرة أنّها ازدادت قوّة البابا وسيادته ونفوذه وثروته، وهكذا كان الحال مع رجال الإكليروس ومعاهدة الرّهينة. وهذا وحده

1 - ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 95.

2 - سعدون محمود السّاموك : مقارنة الأديان، ص 67.

3 - سعدون محمود السّاموك : موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة، ج2، ص 67، 68.

كان مطمح البابوية الأسمى وغرض سياستها الأوحد، فالذّي حارب من أجله هلد براند ورآه من بعيد اقتنصه أوربان واستخدمه بكل مكر وقوة، وقد حصل على هذه السيّادة بوسائل في ظاهرها صالحة ومقدّسة ولكنّها في حقيقتها حبيثة وشيطانية إلى أقصى حدّ، فنظريته كانت هذه: " إنّ الحارب الصلّبي جندي للكنيسة، ولها وحدها ولاؤها الذي يجرّره من كلّ ولاء آخر"، هذه نظرية جامعة مانعة لا نظير لها في تاريخ البشر قاطبة، ظاهرها تقوى وورع، وباطنها مكر وجشع»¹.

ثمّ ذكر أندروملر بعض الأعمال التّمويهية للبابا أوربان التي جعلت المسيحيين ينقادون وراءه بحكم منصبه ومكاته في الكنيسة الكاثوليكية فيقول: « عندما نصّب أوربان نفسه رئيساً لجيوش الإيمان في سنة 1095م اتخذ لنفسه صفة المدير لحركاتهم والمدير لبركاتهم، مدعيّاً أنّه هو مستشارهم الذي لا يُخطئ ومشرعهم المعصوم الذي لا يكل ولا يعيا، قال إنّ الحرب ليست حرباً قومية من جانب إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا ضدّ الإمبراطورية المصرية، بل هي حرب مقدّسة من جانب المسيحيين ضدّ المسلمين.

فالمسيحي لم يكن مدعوّاً لمحاربة مسيحياً آخر بل كان على الجميع أن يتّحدوا معاً برابطة مقدّسة واحدة ضدّ عدوّهم العام والمزايا التي وعد بها جنود المسيح كانت سامية وعديدة كما يتبيّن من خطبة أوربان: غفران مؤكّد من جميع الخطايا، مع الذهاب توّاً إلى فردوس الله إذا ما سقطوا في ساحة الوغى أو ماتوا في طريقهم إلى الأراضي المقدّسة، بل كان هناك ما هو أكثر من ذلك، ففيما يتعلّق بهذه الحياة الحاضرة أعلن البابا أنّ جميع الدّيون والالتزامات المدنية أو الاجتماعية تصبح لا غية، ونحلة بمجرد حمل الصّليب بهذه الوسيلة تلاشت كل الروابط القديمة التي كانت تربط الهيئة الاجتماعية ببعضها وحلت محلها روابط جديدة، وبذلك أصبح البابا هو سيّد البشرية عامّة»².

إلا أن أندروملر كشف نوايا البابوية وهاجمها بقوة ووصفها بأوصاف مخزية وكثيرة منها الإلحاد في قوله: « وافق على الحروب الصّليبيّة الفاتيكانيّة بأجمعه، مع أنّه لم يكن هناك أدنى شك في أن تلك الحملات الطويلة على فلسطين ستمتص دماء أوروبا، وتستنفيذ قوتها ومواردها.

1 - أندروملر: مختصر تاريخ الكنيسة، ص 268.

2 - أندروملر: المصدر نفسه، ص 268.

ولم يكن ليدخل في الموضوع بالمرّة أمر السّعي وراء خلاص النفوس الهالكة وجذب الخطاة إلى الإيمان يسوع المسيح، الأمر الذي هو مهمة المسيحية الحقيقية، وإنّما كان غرض البابوات إنّما كان ينحصر في إضعاف الملوك الزمانيين، حتّى بذلك يتسنى لهم السّيادة عليهم، وهذا ليس بغريب، فالبابوية في جوهرها ملحدة، فمكثلا أوصى المخلص كل من يقبله ربّاً قائلاً : « أكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها »¹، ولكن يقول أوربان : « اذبحوا الكفار بلا حنو ولا رحمة، هذا هو العمل الذي يطلبه الله من أيديكم، اقتلعوا الزّوان من جذوره وألقوه في النّار حتّى يحترق »².

1 - مر : 15/16.

2 - أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة، ص 257.

الفصل الثالث

البابوية في العصور الحديثة بمداية من القرن 16 م

■ المبحث الأول : حركة الإصلاح الديني.

- المطلب الأول : الإصلاح البروتستانتي
- المطلب الثاني : الإصلاح الكاثوليكي المضاد.

■ المبحث الثاني : البابا قبل المجمع الفاتيكاني الثاني

- المطلب الأول : المجمع الفاتيكاني الأول.
- المطلب الثاني : الحرب العالمية الأولى والثانية

■ المبحث الثالث : البابا في المجمع الفاتيكاني الثاني.

- المطلب الأول : التهيئة للمجمع
- المطلب الثاني : بولس السادس يخلف يوحنا الثالث والعشرين.
- المطلب الثالث : مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني.

■ المبحث الرابع : البابا بعد المجمع الفاتيكاني الثاني.

- المطلب الأول : نتائج المجمع.
- المطلب الثاني : البابا ومهامه.
- المطلب الثالث : الحركة المسكونية.

الفصل الثالث

البابوية في العصور الحديثة بداية من القرن 16 م

المبحث الأول : حركة الإصلاح الديني.

يعرّف عبدا الحلو الإصلاح فيقول : « هو عبارة عن إرجاع الشيء إلى شكله السوي، والكلمة تطلق خاصة على حركة الإصلاح الديني التي قامت في النصف الأول من القرن السادس عشر»¹.

وهو حركة واسعة الانتشار مناهضة للإقطاع، ومناهضة الكاثوليكية في النصف الأول من القرن السادس عشر صاحبت بداية البروتستانتية، وكانت حركة الإصلاح أول ثورة برجوازية غير ناضجة في تاريخ البشرية².

حيث قام بالدعوة لحركة الإصلاح في أوروبا في مطلع العصور الحديثة مجموعة من الرّواد والمصلحين الذين تأثروا بحركة النهضة الأوروبية وأعادوا النظر في كل الأمور الدينيّة بعد تحوّل الكنيسة الأوروبيّة من مرحلة القوّة والاستقامة إلى مرحلة الضّعف والانحلال³، ففيها وقّعت البرجوازية تحالفا مع جزء من النّبلاء ضدّ الكنيسة الحاكمة، وقد بدأت حركة الإصلاح في ألمانيا وشملت عدد من البلاد الأوروبية، وأدت على الارتداد عن المذهب الكاثوليكي في إنجلترا، واسكتلندا والدنمارك والسويد والنرويج وهولندا وفنلندا وسويسرا بصفة جزئية في ألمانيا وبوهيميا والمجر، وقد قللت حركة الإصلاح من قيمة الكنيسة وبسطت مفهوماها، ورفعت من قيمة الإيمان الشّخصي الداخلي فوق المظاهر الخارجية، وأضفت على قيم الأخلاقيات البرجوازية تصديقا لوهيا، ولذلك أصبحت الكنيسة في البلاد التي انتصرت فيها حركة تعتمد على الدولة وتمتّع بقدرة أقلّ من السلطة التي تتمتع بها في البلاد الكاثوليكية، وقد سهّل هذا تطوّر العلم والثقافة الدنيويّة ككل. وقد اتفق الطابع القومي للديانة الجديدة مع عملية الإصلاح في الأمم البرجوازية، وقد وجد معسكر عامّة المسيحيين جنبا إلى جنب مع معسكري النّبلاء وسكان المدن في حركة الإصلاح⁴.

1 - عبد الحلو : معجم المصطلحات الفلسفية، ط []، لبنان، المركز التربوي للبحوث والإنماء، 1994م، ص 149.

2 - م. روزنتال ب. يودين : الموسوعة الفلسفية، ترجمة : سمير كرم، ط5، بيروت، دار الطليعة، 1985م، ص 38.

3 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص 215 - 222.

4 - م. روزنتال، ب. يودين : الموسوعة الفلسفية، ص 38.

كما يضيف فاضل سيداروس حسب المعتقد المسيحي كلاماً عن الإصلاح بقوله : « فإنَّ كان الإصلاح يعتبر أن الإيمان إلهام داخلي ونور باطني بعمل الرُّوح القدس، إلاَّ أن اللاهوت الكاثوليكي يعتبر أن ذلك لا يسلب العقل دوره في فهم الإيمان فهما موضوعياً، ولقد قال أوغسطينس في هذا الصِّدِّد "أَوْ مِنْ كِي أَفْهَم" ومن بعده اشتهر قول أنسلمس : "Fide quaerens intellectum" أي الإيمان طالبا فهما".

ولقد درج قول مأثور في الإصلاح "Fide exauditu" أي "الإيمان من الاستماع" إلى كلمة الله¹.

لكن هناك تناقض في قول أوغسطينس لأنَّ هناك قول له يخالف هذا القول : "اعتنقت المسيحية لأنها دين لا يقبله العقل".
فهذا دليل على عدم صحة ومصداقية هذا الدِّين، لذلك يدلُّ المسيحيُّون بأي شيء فيه تدعيم وتصديق دينهم.

- المطلب الأول : الإصلاح البروتستانتي

الفرع الأول : مفهوم الإصلاح.

أولاً : في القرآن الكريم والكتاب المقدس.

إذا أردنا تعريف الإصلاح في معناه اللُّغوي، فهو مشتق من الفعل [أصلح، يصلح، صلحاً]، وتدل على تغيير حالة الفساد²، أي إعادة الشيء إلى شكله السَّوي ووضعه الطبيعي³، وهو تفيض الفساد، وأصلح الشيء بعد فساده أي أقامه⁴.

أمَّا في معناه الاصطلاحي، نتطرق إلى القرآن الكريم، حيث يقول - ﷻ - : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾⁵.

1 - فاضل سيداروس : بين وحي الله وإيمان الإنسان، ط2، بيروت، دار المشرق، 1996م، ص 94.

2 - لويس معلوم اليسوعي : المنجد في اللُّغة والأدب، ط1، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1927م، ص 445.

3 - جروان السَّابق : جمع اللُّغات، ط1، م []، دار السَّابق للنشر، ت []، ص 29.

4 - ابن منظور : لسان العرب، ج3، ط []، م []، الدَّار المصرية للتأليف والترجمة، 1290م، ص 384.

5 - سورة النساء : الآية 114.

كما قال الإمام أحمد بن أبي الدرداء، قال رسول الله - ﷺ - : [أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة]، قالوا : بلى يا رسول الله، قال : [إصلاح ذات البين] وقال : [وفساد ذات البين الحالقة] . ومن يفعل ذلك فله ثوابا جزيلا كثيرا واسعا¹.

أمّا في الكتاب المقدس، فإنّ فكرة الإصلاح تظهر من خلال أقوال السيّد المسيح، من ذلك ما جاء في "سفر التكوين"، وذلك بقوله : « في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة خالية، وعلى وجه الغمرة ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله ليكن نور فكان نورا، ورأى الله نور أنّه حسن، وفضّل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا، وكان مساء وكان صباحاً يوماً واحداً² .

ثانيا : مفهوم الإصلاح الديني عند مارتن لوثر.

الإصلاح الديني عند مارتن لوثر³ يتمثل في الصّراع الروحاني الذي قام به ضد الكنيسة الكاثوليكية ونادى بمبدأ الخلاص الذي لا يتم في نظره إلا عن طريق الإيمان وليس باستخدام الطقوس الدينيّة باعتبار العقيدة السليمة تستند عليها⁴.

ويتركز الإصلاح الديني أساسا على أولوية السريّة الداخلية للإنسان، ومن ثمّ فقد كان الدين عندما يأخذ نمط العلاقة بين الخالق والمخلوق مباشرة أكثر من علاقتهما عن طريق الكنيسة⁵.

لكن هذه الحركة الإصلاحية لم تقتصر عن الدين فحسب بل تعدّتها على مجالات أخرى، فاشتملت على السياسة بعد انضمام الأمراء الألمان لهذه الحركة، واتخذوا منها أداة لمنع التّدخل الأجنبي في شؤون ألمانيا، لذا أصبحت حركته حركة قومية ضدّ أيّ تدخّل أجنبي.

وتطوّرت هذه الحركة بعد ذلك إلى الناحية الاجتماعية وذلك إثر ثورة المزارعين من أنصار لوثر أمراء الإقطاع، وأصحاب الأراضي والضّياع.

1 - صحيح البخاري : صلح 1-11، ط []، بيروت، دار الفكر، ت []، ص 55.

2 - تك : 41/1.

3 - سيأتي التعريف به لاحقا - إن شاء الله-.

4 - محمد فؤاد الشبل : الفكر السياسي، ج1، مصر، مطابع الهيئة العامة للكتاب، 1974م، ص 326.

5 - عبد الوهاب الكيلاني : موسوعة السياسة، ج5، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990م، ص 397.

إلى جانب ذلك كانت هذه الحركة تربية تهدف للرجوع إلى الإيمان الصحيح الذي يجسده التمسك بالكتاب المقدس الذي اعتبره مارتن لوثر المصدر الأول المعتمد في الحياة كلها¹. كما يعدّ الإصلاح البروتستانتي ثورة على كلّ التّيوقراطية البابوية وامتيازات الإكليروس، كما كان ثورة على روح الوثنية لدى شعوب البحر المتوسط، فهو من ناحية اتخذ شكل انتفاض للروح العلمانية على إدعاءات الإكليروس والإعفاءات التي كانوا يتمتعون بها؛ ومن ناحية أخرى كانت حركة إحياء ديني ومحاولة للعودة إلى الأساليب الأولى التي درجت عليها الكنيسة المسيحية².

– الفرع الثاني : البروتستانتية

وهي فرقة مسيحية ظهرت في القرن السادس عشر خلال عهد الإصلاح الديني في أوروبا، بقصد إصلاح الكاثوليكية، وقد احتجوا على الكنيسة الرومانية، باسم الإنجيل والعقل، بشأن الغفرانات، وسلطة البابا، والتبّتل، وإكرام القديسين، والمطهر والقُدّاس³. وهي المذهب الثالث من المسيحية بعد الكاثوليكية والأرثوذكسية وهي حركة دينية نشأت عن حركة الإصلاح ومبادئها، والاسم الذي يستعمل للدلالة على معان كثيرة، لكن معناه الواسع يطلق على الذين لا ينتمون إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وإلى الكنيسة الشرقية⁴. بروتستانت اسم يطلق أيضا على فرق المسيحية التي يضمّ كل المسيحيين، ما عدا الكاثوليكين والارثودكسيين الشرقيين، وقد سموا في الأصل بذلك في جرمانيا سنة 1529م، في مجلس سير⁵.

فإنّ أغلب أعضاء ذلك المجمع مع نواب الإمبراطور قرروا أنّ حكام الولايات التي أظهرت ميلا إلى الإصلاح يجب أن يمنعوا كل تجديد في الأمور الدينية إلى أن يتم مجمع مسكوني، وعلى

1 – فاروق عثمان أباطة : دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص 220.

2 – هوبرت فيشر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، نقله إلى العربية : زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، ط []، مصر، دار المعارف، 1965م، ص 95.

3 – حسين علي حمد : قاموس المذاهب والأديان، مذاهب، أديان، فرق، أساطير، بدع، ط 1، بيروت، دار الجليل، 1998م، ص 52.

4 – الموسوعة العربية الميسرة، ط1، القاهرة، دار التّقاء، مؤسسة فرانكلين، 1965م، ص 280.

5 – Dictionnaire encyclopédique de Jules Trousset, Quatrième volumes, paris, a la librairie illustrée, p 23.

الخصوص أن لا يسمحوا بإحداث تغيير في إقامة عشية الرب¹ والقداس، وأعلنوا في 19 أفريل من السنة المذكورة أنهم مستعدون لأن يطيعوا الإمبراطور والمجلس في كل القضايا الواجبة والممكنة، إلا أنهم يقيمون الحجّة، أي البروتستو على كل أمر يحسبونه مخالفاً لله وكلمته المقدسة، وخلاص أنفسهم، وشهادة ضميرهم².

وعندما أُريد تنفيذ قرار حرمانهم أعلنوا احتجاجاً يسمّى بالإنجليزية يرتسب، فسمّوا بالبروتستنت، أي المحتجين³.

بالبروتستانت لا يعترفون بالمُطهّر الكاثوليكي، ويرفضون القديسين والملائكة والعدراء عند الكاثوليكين والأرثوذكس، ولا يتعبدون سوى للثالوث الإلهي، والفرق الأساسي بين البروتستانتية من ناحية والكاثوليكية والأرثوذكسية من ناحية أخرى. أن البروتستانتية تقول بوجود رابط مباشر بين الله والإنسان، وفي رأي البروتستانتين أن النعمة الإلهية تصل إلى الإنسان من عند الله دون وساطة الكنيسة و"الخلاص" لا يستعمل بغير إيمان الإنسان الخالص وبإرادة الله وقد قضى هذا المذهب مع أولوية السلّطة الرّوحية على السلّطة الزمنية، وجعل الكنيسة الكاثوليكية وبابا روما شيئين لا لزوم لهما، وحرّر الإنسان من الأغلال الإقطاعية وأثار في روحه الشعور بالمسؤولية الشخصية، وفتح الطريق أمام الحريّات الديمقراطية البرجوازية، وأمام التّرة الفردية البرجوازية ونتيجة للعلاقات المختلفة بين الله والإنسان في البروتستانتية فلم يعد لرجال الدّين والكنيسة مكانة ثانوية فحسب، بل أصبحت للطقوس الدّينية مكانة ثانوية أيضاً، فليس هناك تعبد للأيقونات والمخالفات الأثرية وانخفض عدد الأسرار المقدّسة إلى اثنين فقط (المعمودية والقربان المقدس)، وتكوّن الصّلاة الدّينية - كقاعدة عامّة - من المواعظ والصّلاة الطّائفية وإنشاد التسايح، والبروتستانتية - من ناحية رسمية - تقوم على أساس الإنجيل وحده، ولكل ديانة بروتستانتية - في العبادة - رمزها الخاص للإيمان وسلطانها وكتبها "المقدسة" ... الخ ولها أيضاً نوعها الخاص من "التراث المقدس"⁴.

1 - حدث في ليلة "خميس العهد" ويفسّر ذلك إنجيل متى في إصحاحه السادس والعشرين "وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر، وأعطى للتلاميذ، وقال : خذوا وكلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربوا كلكم لأنّ هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل الكثيرين، فقرة الخطايا" (مت : 26/26-29).

2 - بطرس البستاني : دائرة المعارف، مجلد 5، ص 153.

3 - محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية، ص 189-192.

4 - كميل الحاج : الموسوعة المميّزة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ط1، لبنان، د []، 2000م، ص 107.

يذكر عبد القادر صالح أن أوّل ظهور للمسيحية في ألمانيا ثمّ انكلترا وفرنسا ثمّ ما لبثت أن عمّ انتشارها هولندا والدانمارك، وسويسرا والنرويج، وأمريكا الشمالية¹.
ورغم بعض الفوارق إلاّ أنّ البروتستانت والكاثوليك يشتركون في كثير من نقاط نذكر منها :

- 1 لديهم كتاب مقدّس واحد "La bible".
 - 2 يعترفون بنفس العقيدة في الثالوث : الأب والابن والروح القدس.
 - 3 لديهم الأسرار المعمودية (عماد)² - العشاء السريّ أو سرّ القربان، لكن للكاثوليك أيضا خمسة زيادة، وهم الزّوجا المسحة الأخيرة، أو "مسح المرضى" التثبيت، سرّ التوبة أو "الاعتراف"، سرّ الكهنوت.
 - 4 يعتقد البروتستانت أنّ الدّين وحده هو المنقّض، بينما الكاثوليك يعتقدون أكثر بالأعمال (التّسامح والغفران).
 - 5 يعتقد البروتستانت أنّ يسوع وحده الوسيط بين الرّبّ والبشرية بينما يؤمن الكاثوليك بالكهنة زيادة.
 - 6 إنّ البروتستانت لا يوجهون رعاياهم بل يقدمون لهم فقط الأدوات لقراءة الكتاب المقدّس، وإيجاد الإجابات لأنفسهم، على عكس الكهنة الكاثوليك الذين يوجهون نصائحهم إلى رعاياهم³.
- ولا يخفى أنّ البروتستانت قد خرجوا من الكنيسة الكاثوليكية وهم يختلفون عنها في أمور كثيرة من جهة العقائد وشعار الدّين وسياسة الكنيسة وأخفى الأمور التي يخالفونها فيها "رفض رئاسة البابا وعبادة الإيقونات والمطهر وطلب شفاعة القديسين والتّقليدات والتبرير بالأعمال".
والبروتستانت في هذا الاختلاف على درجات، فأعلى درجة من الكنيسة الأسقفية مثلا هي أقربها إلى الكنيسة الكاثوليكية وأوطأها درجة من الكنائس القسيسية هي أبعدا عنها، ولما كان المبدأ الأساسي عند البروتستانت هو أنّ لكلّ إنسان حق الحكم من جهة الأمور الدّينية

1 - [http : // www. Geocities. Com / Heatland / cabin / 2855 / catholiqueet - protestant. Htm.](http://www.Geocities.Com/Heatland/cabin/2855/catholiqueet-protestant.Htm)

2 - عبد القادر صالح : العقائد والأديان، ط2، بيروت، لبنان، دار المعرفة، 2006م، ص 75.

3 - فريضة مقدّسة يشار فيها الغسل بالماء والابن والروح القدس إلى تطهير النّفس من الخطيئة بدم يسوع المسيح والمعمودية تدلّ على اعترافهم العليّ بيمانهم وطاعتهم للأب والابن والروح القدس ولا يجوز أن يعمّدوا إلاّ إذا اعترفوا بيمانهم جهر أمام كنيسة الله.

وحرية الضمير من دون معارضة، كان أمراً طبيعياً وجود مذاهب مختلفة كثيرة العدد في الكنيسة ككنيستهم التي تمنح حرية تامة للجميع¹.

والبروتستانت جماعتان : محافظون أصليون ينادون بالعودة إلى الأصول وراذ يكاليون أو يساريون ؛ يفسرون الدين باعتباره فلسفة تقول بثنائية العقل، وتؤكد على الدور الحياتي للدين وتعتبره من الحركات الاجتماعية الإيجابية التي غايتها الإصلاح².

كما يضيف صاحب كتاب التبيان في الفرق والأديان (محمود محمد حمودة) بتعريفه للبروتستانت بقوله : "يسمى البروتستانت كنيستهم الإنجيلية بمعنى أن أتباعها يتبعون الإنجيل ويفهمونه بأنفسهم دون الخضوع لأحد أو طائفة أخرى، وهذا الاتجاه منهم يعارضون به الكنائس الأخرى التي تعتبر فهم الإنجيل وقفا على رجال الكنيسة³.

- الفرع الثالث : عوامل قيام حركة الإصلاح.

تطورت العقلية الأوروبية تطوراً كبيراً، وغدا المجتمع الأوروبي الذي كان خاضعاً للكنيسة ينقسم إلى قسمين :

قسم شغل عن الكنيسة، وابتعد عنها نحو حياة رحيبة فسيحة الآفاق متحررة من كل قيد، وسوف نتحدث عن هذا الاتجاه فيما بعد.

قسم آخر عني بأحوال الكنيسة، ووقف على فساد الأسس التي تطورت إليها أنظمة الكنيسة، ولذلك كان يرى أنه لا بد من إصلاحها⁴.

وقد هبت جماعة من المسيحيين للخروج على الكنيسة الكاثوليكية والتنديد بعيوبها، والتشهير بمفاسدها واعتبرت هذه الحركة الإصلاحية بمثابة الثورة على السلطة البابوية وسلطة رجال الدين المسيحي بوجه عام.

وقبل أن نتحدث عن العوامل التي أدت إلى قيام حركة الإصلاح الديني المسيحي في أوروبا -نود أن نقف على عدة أمور أساسية-.

1 - بطرس البستاني : دائرة المعارف، مج5، ص 154.

2 - عبد المنعم المخفي : المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط3، القاهرة مكتبة مدبولي، 2000م، ص 155.

3 - محمود محمود حمودة : التبيان في الفرق والأديان، ص 271.

4 - عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ط4، مصر، مكتبة الأنجلوا المصرية، 1982م، ص 356، 357.

الأوّل : أن أوروبا كانت قد نهضت فيها حركات أظهرت سخطها وعدم رضاها عن الكنيسة، وما تقوم به من أعمال.

فهذه أوّل خطوة في طريق تحرّر العقل الأوروبي من سطوة الكنيسة وسيطرتها كانت تتمثل في شجاعة بعض المفكرين وجرأتهم في توجيه النقد للبابوية أو لرجال الدّين المسيحي بوجه عام، أو أن يمسّوا قدسية أو سلطان الكنيسة بسوء، أو على الأقل يظهروا استنكارهم لما تقوم به الكنيسة من أعمال.

وتكمن أسباب النّقد في عدّة أمور نذكر بعضها فيما يأتي :

1 - تدهور المستويات الأخلاقية، وتفشي حالات الفساد والانحطاط بين رجال الدّين المسيحي في العصور الوسطى.

فقد عمّ الانحطاط وساد، ومن هامة الرأس إلى باطن القدم أصبحت الكنيسة مريضة، مضروبة بضربة طرية، موسومة بسمة الانحطاط الخلقي، لا فرق بين قائد ومقود، الجميع زاغوا وفسدوا معاً¹.

ثم يقول الكاتب المسيحي "جاد المنفلوطي" : « ولسانا مغالين إن قلنا : إنّ غالبية رجال الدّين في تلك الأيام كانوا من مدمني الخمر، مستعبدين للعديد من الخطايا كخطيئة للزنى، وكانوا يعيشون في بجموحة من العيش يسعون وراء المتع الزائلة مهملين القيام بواجبات الخدمة الموكلة إليهم ... وكانوا يشترون المناصب بالمال حيث كانت ظاهرة السّيمونية² متفشّية في ذلك الزّمان. ولم يكن الرّؤساء أفضل من مرؤوسيههم، بل ربّما كانوا أردأ وأشرّ منهم بكثير، وكانت السّيمونية هي الطريق الوحيد للحصول على مناصب الأسقف، وكانت هناك تعريفه محدّدة للحصول على هذه الوظيفة ». «

ولم تكن البابوية بمنجاة من هذه المساوي التي كانت هي الطابع المميّز لحياة الكنيسة عامّة في ذلك العصر.

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 202.

2 - السّيمونية : شراء المناصب الدّينية بالمال وهي نسبة إلى : "سيمون" وهو اسم عبراني معناه : "السّامع"، وفي الأصل لفظة نفس الاسم "سمعان".

هذا وقد وصلت حالة البابوية في فترة من الفترات - وخاصة القرنين العاشر والحادي عشر - إلى أحط دركات الانحطاط، فتشوهت الصورة وتلطخت بالكثير من الأمور التي لم تكن تخطر على بال ... فبعض الذين شغلوا ذلك المنصب من خلال تلك الفترة لم يكونوا فوق مستوى الشبهات بل إنهم كانوا من ذوي السمعة السيئة، وارتكبوا أفظع أنواع الجرائم وأبشعها¹.

2 - استغلال رجال الدين لنفوذهم بفرض ضرائب رعايا الكنيسة وجمعهم الأموال بالطرق غير المشروعة.

هناك اتهامات كثيرة ضد الكرسي البابوي - كما يقول جون لومير - لكن التهمة الأكثر انتشاراً كانت على الاستغلال المالي، ضجّ الناس بالشكوى من أعلى حاكم إلى أدنى قروي، بأن الكنيسة عاشت للمال، ومن داخل الكنيسة ضغط البابا على الأساقفة الذين عصروا الذين هم بدورهم عصروا الشعب².

ثم يقول: « يبدو أنهم في كل يوم اخترعوا طرقاً جديدة لتنمية دخول الكنيسة، فقد كان هناك محصلون خصوصيون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف كانوا يطالبون بعشر دخل الكاهن، ويحصلون على كل حصيلة الكاهن عن السنة الأولى من خدمته، وبالطبع كانت المراكز والوظائف الكنيسية لمن يدفع المبلغ الأكبر، والضرائب كانت تُفرض سنوياً على رؤساء الدول وإذا سافر البابا أو احتفل بأحد الأعياد حينئذ تُفرض لذلك ضريبة إضافية، يقدر أن الكنيسة في فرنسا وألمانيا استولتا على ما يتراوح بين ثلث إلى نصف كل أملاك الدولة، في إنجلترا أُتلفت الكنيسة وصرفت حوالي 25% من الدخل القومي ».

في هذه الفترة من التاريخ لم يعدّ الناس يفكرون في الكنيسة على أنها مؤسسة للخدمة أو الإلهام لكن بالأحرى كملكية خاصة لكبار رجال الإكليروس ووجدت لتجلب لهم امتيازات ومكاسب اقتصادية³.

لقد تاجرت الكنيسة بنفوذها ففرضت ضرائب على جميع أديرة الرجال والنساء وعلى

1 - أحمد علي عجيبة : موسوعة العقيدة والأديان، أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي، ج 8، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2004م، ص 15.

2 - جون لوريمير : تاريخ الكنيسة، ترجمة : عزرا مرجان، ج4، ط1، القاهرة، دار الثقافة، 1990م، ص 37.

3 - جون لوريمير : المصدر نفسه.

الكنائس الدّاخلية في دائرة الحماية البابوية مباشرة. وفرض البابوات على كل أسقف في أوّل اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الوجة النظرية جميع إيراده في السنّة، وذلك نظير تثبيته في منصبه، وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر مَن يعينون رؤساء أساقفة وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسي البابوي جزءاً من دخله -على حدّ ما ذكر ول ديورانت¹.

وتبع ذلك مشروع بيع صكوك الغفران الذي أدر على رجال الدّين كثيراً. وسوف نرجيء تفاصيل هذا الموضوع إلى حين الحديث عن حركة الإصلاح البروتستانتي لأنّه اعتُبر من بين الأسباب المباشرة لهذه الحركة.

3 - يضاف إلى هذا أيضاً طبيعة المعتقدات المسيحية ومخالفتها أو مناقضتها للعقل البشري كعقيدة التثليث، وطبيعة المسيح، والتّجسد، والاستحالة وغيرها.

4 - كان رجال الكنيسة يضيّقون ذرعاً بأي رأي مخالف لهم، وأي فكر مناقض لأفكارهم. إنّ تعصب رجال الدّين واستبدادهم بالرّأي، وبغضهم لكلّ فكر مخالف، ومقتهم العلماء لا شك كان سبباً من أسباب نقد الكنيسة. وتبعاً لهذه الأسباب فإنّ النّقد مرّ بأطوار عديدة.

وابتداءً الأمر بأن اقتصر النّقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية ومادية ليس غير، فإنّ ثراء كبار رجال الإكليروس وترفهم، والضّرائب البابوية الفادحة كانت رأس أسباب الشكوى... ولم يتطوّر النّقد فيغدو أكثر عمقاً، وأشدّ تدميراً إلاّ بعد ذلك من الزمن، يوم أخذ يوجّه سهامه إلى الحقيقة المركزية في تعاليم الكنيسة².

بل وأكثر من هذا تطوّر النّقد الأوروبي في العصر الحديث ليصبح نقداً للدّين بوجه عام. ومن ثمّ نشطت حركات النّقد بشكل متزايد في أواخر العصور الوسطى ممّا كان له أثره تهيئة الجو العام لقيام حركة إصلاح.

1 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة : محمد بدران، مج 4، ج4، (عصر الإيمان)، بيروت، دار الجيل، 1998م، ص 70، 71.

2 - ولز : معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، مج 3، ط3، القاهرة، لجنة التّأليف والنّشر، 1972م، ص 975.

إنّ هذه الحركات التّقدّيّة كانت أفضل تمهيد لظهور هذه الحركة الإصلاحية، فهي التي جرأت وشجعت القائمين على الإصلاح لإظهار مفاصد وعيوب البابوية والمناداة بإصلاحها، لقد كان نتيجة لهذا الاتجاه التّقددي أن فقدت الكنيسة مكانتها التي كانت تبوّأها واهتزّ الأساس الروحي والأخلاقي الذي أقامت عليه نفوذها بل جبروتها في العصور الوسطى، وبات المسيحيون في دول غربي أوروبا يتحدثون عن ضرورة إصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة التي ظهرت بين رجالها¹.

الثاني : كانت قد سبقت هذه الحركة الإصلاحية موجة قوية من التّحرّر الفكري تلك التي كانت سببا في أحداث بوادر النزاع بين الدّين والعقل، وقد تمتت هذه الحركة مع حركة الإصلاح وبدأت في الانتشار والذّيوع في ربوع أوروبا.

الثالث : يعتبر المؤرخون الإصلاح البروتستانتي ثورة - كما يقول فشر - على كل من التّيوقراطية². البابوية وامتيازات الإكليروس³. أي أنّه ثورة على الكنيسة ومفاصد ومساوئها.

- عوامل قيام حركة الإصلاح :

أشار المؤرخون إلى عوامل كثيرة أدت إلى قيام حركة الإصلاح البروتستانتي وسوف نكتفي فيما يلي بذكر بعضها :

1 - تدهور حالة رجال الدّين :

لقد سلّم المؤرخون أنّ البابوية خلال النّصف الثاني من القرن الخامس عشر والجزء الأوّل من القرن السّادس عشر وصلت إلى أدنى درك خُلقيًا وروحيا.

كانت بابوية دنيوية... وكانت مركز البلاط فاسد عاجز عن تقديم قيادة روحية، وإرشادات كنسية، وحقًا كان هذا البلاط يغوص منحدرًا إلى أدنى درك في القيم الأخلاقية⁴.

1 - عبد العزيز المنشاوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص 362.

2 - نظام من نظم الحكم ترجع السّلطة فيه إلى رجال الدين (المعجم الفلسفي : للحلو عبود، مكتبة لبنان : المركز التربوي

للبحوث والإثماء، 1994م، ص 57.

3 - فشر هوبرت : أصول التّاريخ الأوروبي الحديث، ص 95.

4 - جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، ج4، ص 35.

2 - فقدان البابوية الكثير من أسباب نفوذها وهيبته منذ القرن الرابع عشر نتيجة لعدة أمور :

- أ - الأسر البابلي.
- ب - الانشقاق الكبير.
- ج - المواقف التي اتخذتها المجمع المسيحية من البابوية.
- د - تطوّر العقلية الأوروبية تطوّرًا دنيويًا.
- أ - أما عن الأسر البابلي : وهي المدّة التي استقرّ فيها البابوات في أفنيون الفرنسية في المدّة من (1305-1377م)¹. وكان كلّ البابوات خلالها من الفرنسيين، وسمّيت بذلك على اعتبار أن البابوية كانت شبه أسيرة بحكم خضوعها للملكية الفرنسية.
- وملخصّ أمر هذا الأسر أن البابا، "يونيفاس الثامن" (1294-1303م) أنكر حقّ الملوك في فرض ضريبة على الإكليروس، ووضع بيانات تطالب بالسلطة المطلقة للبابوية على كلّ الناس، وفي جميع الشّؤون، وأعاد تعريف مبدأ "السّيفين" أي القونين في مرسوم بابوي يسمّى "يونام سانكت" ويتضمن ما يلي.
- « السيفان الرّوحي والمادي كلاهما في سلطان الكنيسة، لكن الثاني يجب أن يستخدم للكنيسة، الأوّل بواسطتها أي بواسطة الكاهن وموافقته، إذن أحد السّيفين يكون تحت الآخر، والسلطة الدنيوية تخضع للرّوحية ... وعلى هذا فإن أخطأت السلّطة الأرضية تحاكمها القوّة الرّوحية، لكن إذا أخطأت القوّة الرّوحية يدينها الله وحده لا الإنسان ... لأنّ هذه السلّطة مع كونها سلمت لإنسان وبمارسها إنسان، لكنّها بالأحرى سلطة إلهية أكثر من ذلك. نحن نصرّح ونقرّ ونعلن أنّه على وجه الإجمال لا بدّ، وأن يخضع للبابا كل مخلوق بشري يريد الخلاص »².
- أغضب المرسوم البابوي (يونام سانكت) فيليب الرّابع ملك فرنسا وأثاره لدرجة أنّه دعا إلى عقد مجمع عام للكنيسة لمحاكمة البابا، ولكن هذا المجمع لم يعقد قط، فأرسل الملك قوة مسلحة سحنت البابا "يونيفاس" في الوقت الذي أوشك أن يصدر فيه الأمر بحرمان فيليب، وقد ساند الفرنسيون ملكهم ضد البابا الأمر الذي سبب صدمة قاسية للبابوية.

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ص 358.

2 - جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، ج4، ص 30.

وتابع فيليب اغتنام فرصته بعد موت "يونيفاس" بالضغط في اختيار خليفة البابا¹، واختير أحد الكرادلة الفرنسيين لمنصب البابوية باسم كلمنت الخامس (1305-1314م)، وقد أثر هذا البابا أن يبقى حيث هو، فأرسل إلى الكرادلة يستدعيهم لمقابلتهم في "ليون" وفيها تمت المراسم الخاصة بتولية المنصب الجديد، وكان من المفروض أن تتم هذه المراسم في روما أو على الأقل يذهب بعد إجرائها إلى مقر كرسيه البابوي ولكنه آثر البقاء في فرنسا في مدينة أفنيون على نهر الرّون على الحدود الفرنسية واتخذها مقراً جديداً للبابوية².

وقد استطالت هذه الفترة اثنتين وسبعين سنة (1305-1377م) وأطلق عليها اسم الأسر البابلي، وتعاقب على البابوية في هذا المقرّ ستة من البابوات³. حتى عاد أخيراً البابا جريجوري الحادي عشر إلى روما سنة 1377م وبذلك انتهت فترة الأسر البابلي.

وقد فقدت البابوية الكثير من هيبتها في أعين المسيحيين نتيجة لهذا الأسر. يقول جون لوريمر: « شهدت هذه الحقبة دلائل الانحدار الخطير في هيئة البابوية، كان بابوات أفنيون مقتدرين وأقرب إلى رجال الأعمال يفتقرون تماماً إلى الرّوحانية.

فشغلوا أنفسهم بجمع الضّرائب من كل الدّول ليغتنوا وينوا قصورهم، لأنّ هذه البابوية كانت تابعة وخاضعة للملك فرنسا استنكرتها كل الدّول الأخرى⁴.

يقول فشر: « غير أنّه من العيب أن ينكر أحد أنّ البابوية انخفضت في أعين النّاس نتيجة أسرها في أفنيون⁵، ولم تعمل البابوية شيئاً طوال القرن الرابع عشر لاسترداد هيبتها المعنوية.

ب - الانشقاق الدّيني الكبير : ويطلق عليه أيضاً انشقاق الغرب واستمر من سنة

(1317-1417م)، وقد نتج هذا الانشقاق عن الأسر البابلي، ذلك أن البابوات المقيمين في مدينة أفنيون في فرنسا كانوا يشعرون أنّ وضعهم هناك أمر غير طبيعي لأنّ البابوية استمدت نشأتها

1 - جون لوريمر: تاريخ الكنيسة، ج4، ص 30، 31.

2 - وقد أعلن البابا كلمنت الخامس براءة فيليب من الهجوم على "يونيفاس الثامن" وألغى مرسوم الحرمان، وعدل الأمر البابوي "يوتام ساكنت" بحيث يرضى الملك نفسه.

3 - البابوات الدّين تولّوا الكرسي البابوي في أفنيون هم: كلمنت السّادس، ثم يوحنا الحادي والعشرين ويقال له الثاني والعشرين كذلك، ثم بندكت الثاني عشر، ثم كليمنت السّادس ثم إينوسنت السّادس ثم إريان الخامس، ثم جريجوري الحادي عشر.

4 - جون فلرويمر: المصدر نفسه، ص 31.

5 - فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 358.

وهيبتها في نظر العالم الغربي من كرسي القديس بطرس في روما، وأنهم لا يتمتعون بحريتهم كاملة لأنهم كانوا في منطقة محاطة بالتفوذ الفرنسي، وأصبح المجتمع الأوروبي ينظر إليهم على أنهم صنائع ملوك فرنسا، كما أن إقامتهم في أفنيون قد حرمتهم من شطر كبير من الموارد المالية، وكان سكان روما قد تأثروا اقتصادياً واجتماعياً من نقل مقر البابوية من مدينتهم، ولذلك كانوا يسألون بابوات أفنيون إلهافاً أن يعودوا إلى مقرهم الطبيعي، واستجاب لهذه الرغبة البابا جريجوري الحادي عشر (1370-1378م) فذهب إلى روما ومن المحتمل أنه قام بهذه الرحلة تحت ستار الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة -عندهم- في روما، ثم توفي السنة التالية من انتقاله إلى روما.

وأدرك سكان هذه المدينة أن الفرصة قد واتتهم، فطلبوا من الكرادلة انتخاب بابا جديد على الأقل إيطاليا إن لم يكن من أبناء روما، واختير إيربان السادس لكرسي البابوية في روما (1378-1389م)، وثار تائراً الكرادلة الفرنسيين على هذا الإجراء، وأخذوا -بدافع الحرص على مصالحهم الشخصية- يلحون على البابا الجديد في الانتقال إلى أفنيون، ورفض البابا أن يدعن الإلحاح، وأمام هذا الرفض لم يسع الكرادلة الفرنسيين إلا أن يطعنوا بالبطلان في قرار انتخاب إيربان السادس، واختاروا كلمنت السابع (1378-1394م) لكرسي البابوية على أن يقيم في أفنيون¹.

وعلى هذا النحو بدأ الانشقاق الديني الشائني بوجود فريقين متنافرين متناكرين من البابوات تعاقب أحدهما في روما، وتعاقب الثاني في أفنيون، وانقسم العالم المسيحي الغربي إلى معسكرين كبيرين : أحدهما يناصر البابا إيربان السادس، ويضم إنجلترا ومعظم ألمانيا، والمجر وبولندا، وأمراء شمالي إيطاليا.

والمعسكر الآخر يؤيد البابا كلمنت السابع ويضم فرنسا، وأسبانيا وهذا هو مطلع الانقسام والانشقاق الديني الكبير.

وقد فكر بعض الكرادلة في إيجاد حل للموقف الشائك الذي انحدرت إليه البابوية فعقدوا مجمعا كنسيا في مدينة بيزا في إيطاليا سنة 1409م، ضمّ عددا كبيرا من الكرادلة وقادة الفكر والسياسيين وقرروا خلع كل من بابا روما وأفنيون، وهما وقتذاك بندكت الثالث عشر، وجريجوري الثاني عشر، وانتخاب بابا جديد يجلس محلها، واختاروا البابا اسكندر الخامس، ولكن

1 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 103.

سرعان ما وافاه الأجل، فاختير البابا يوحنا الثالث والعشرون، وقد أدت هذه المحاولة إلى تصعيد الموقف إذ رفض بابا روما وبابا أفنيون التخلي عن منصبيهما. فأصبح في العالم المسيحي الأوروبي ثلاث بابوات وأصبح الانقسام الديني ثلاثياً، واستمرت مشكلة الانشقاق الديني الكبير قائماً إلى أن استطاع المجمع الكنسي المنعقد في مدينة كونستانس (1413-1417م) حسمها وأعاد إلى البابوية وحدها¹.

لقد كان هذا الانشقاق سبباً كبيراً في أن فقدان البابوية هيبتها في نظر الكثيرين خاصة وأنّ الناس وجدوا تكاليف البابوات على المنصب البابوي وما ترتب على ذلك من انقسام ووجدوا ثلاثة بابوات في العالم الأوروبي المسيحي :

أولهم : في مدينة أفنيون الفرنسية.

ثانيهم : في مدينة روما.

وثالثهم : في مدينة بيزا في إيطاليا.

وأصبح كل فريق يعمد إلى تسفيه منافسيه، ويطعن فيهما وفي صلاحيتهما لتولي كرسي البابوية، بل إن بعضهم لم يتورع عن إصدار قرار الحرمان ضد البابا الآخر، حتّى لقد غدت المسيحية - كما يقول ولز- بأجمعها ملعونة أثناء ذلك الزمان لعنا صحيحاً كاملاً بهذا المعيار أو ذاك (1378-1417م) ويكفي أن نعرف أنّه في أثناء ذلك الانشقاق كان كل بابا يلعن الآخر ويضع الحرمان على كل أنصاره².

ج - المواقف التي اتخذها المجمع المسيحية من البابوية : كما سبق أن أشرنا إلى أنّه في فترة السبي البابلي، والانشقاق الكبير عُقدت عدّة مجامع مسيحية كان الهدف منها إمّا محاكمة البابا، أو خلعه، ووصف البابوات في تلك الفترة وبواسطة تلك المجمع بأوصاف أفقدت البابوية هيبتها ومكانتها ونفوذها بين الناس في العالم الأوروبي، هذا إلى جانب أن :

(النقاشات التي دارت بين المسيحيين في هذه المجمع كشفت عن تكاليف رجال الدين على المنصب وتمسكهم بها وبعدهم عن الأخلاق الطيبة فتكشفت للعيان حقيقتهم)³.

وسوف نذكر فيما يلي بعض المجمع التي اتخذت مواقف حازمة ضدّ البابوية.

1 - عبد العزيز التّشاوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص 355.

2 - أحمد على عجيبة : موسوعة العقيدة والأديان، ج8، ص 46.

3 - عبد العزيز التّشاوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص 356.

منها **مجمع كونستانس** : حيث أصدر قرار بعزل بابا "بيزا" من منصبه سنة 1415م، ولما رأى بابا روما اتجاه المجمع لإقالته آثر أن يستقيل بدلا من أن يأتيه قرار الإقالة، أما بابا أفينيون واسمه بندكت الثالث عشر فقد رفض قرار المجمع بعزله وتحدي المجمع، واعتصم بقلعة حصينة حتى توفي سنة 1422م¹.

ومن هنا **مجمع بازل بسويسرا سنة 1431م** : وقد ظهرت في مناقشات وقرارات هذا المجمع روح التحدي للبابوية، إذ أصدر قرارات كان من بينها تحريم دفع رسوم عند شغل الوظائف الكنيسة، وحرمان البابا من حق تعيين الأساقفة وجعل هذا التعيين عن طريق الانتخابات، ووقعت أزمة بين البابا وهذا المجمع، وأصدر البابا قرارا بفض المجمع، فرفض الأعضاء الإذعان لهذا الأمر، واستمروا في عقد جلساتهم وذهبوا في تحديتهم للبابا إلى نهاية الشوط، فأصروا أولا قرارا بالأبى ينفذ مجمع كنسي بغير موافقة أعضائه، وإذا اختلف أعضاء المجمع على مسألة مطروحة أمامه فلا يجوز الالتجاء إلى تحكيم البابا، وأنكروا على البابا حقه في الحصول على ضريبة السنة الأولى التي كانت تُعرف بالإتاوة الضخمة وهي تعادل حصيلة جميع الضرائب التي تجمع خلال السنة الأولى من كل وظيفة من الوظائف الدينية، أو الإقطاعية للبابا، ثم انتهى الأمر بالمجمع إلى أن أصدر قرارا في سنة 1430، بإقالة هذا البابا وهو يوجين الرابع، وانتُخب فيليكس الخامس للكرسي البابوي².

ويتضح من هذا أن الجماع المسيحية التي عقدت في تلك الفترة وما شهدته من أحداث وقرارات -خاصة فيما يتعلق بالبابوية- كانت من بين العوامل التي أفقدت البابوية سمعتها وكرامتها وهيبته واحترامها.

د - تطوّر العقلية الأوروبية تطوّرًا دينويًا : لقد تطوّر المجتمع الذي كان يرى أنّ الكنيسة هي الملجأ والملاذ، وأصبح يعارضها ويوجه إليها أوجه النقد المختلفة خاصة بعد التطوّر الملحوظ وتقدّم المعارف والعلوم، ابتداءً من القرن الثاني عشر الميلادي، وقد ترتّب على ذلك أن وُجد بعض المفكرين الأوروبيين ينفصلون عن الكنيسة انفصالًا نهائيًا، والبعض الآخر يرى أنّه لا بدّ من إصلاح الكنيسة، كما يعلّق فشر عن ذلك بقوله : « ومضت السنون ومركز الكنيسة يهتز في أعين المسيحيين الذين شعروا بضرورة إدخال تغييرات جذرية في نظم الكنيسة »³.

1 - بيير كاميللو، بيير مارافال : الجامع المسكونية، ص 181.

2 - بيير كاميللو، بيير مارافال : المصدر نفسه، ص 185.

3 - فشر أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص 95.

إن الحركات العملية التي ظهرت في أوروبا آنذاك كانت من العوامل التي ساعدت الحركة البروتستانتية على قيامها، ونجاحها أيضا : فيقول فشر : « فقد أضعفت عناصر التحصيل العلمي الجديد الميل التقليدي إلى تقديس الكثير من العقائد والتقاليد والعادات التي كانت سند الكنيسة الرومانية منذ زمن بعيد »¹.

وبدأت الكنيسة تتلقى صدمات كثيرة، وانتقادات موجعة، وهجومًا عقليًا على مراسمها وعقائدها ورجالها.

3 - أما عن العامل الثالث من عوامل الإصلاح : فيتمثل في تلك الممارسات أو الاعتقادات الخاصة ببعض الطقوس والشعائر المسيحية ونقصد بهذا :

أ - مسألة الاستحالة.

ب - مسألة الغفران.

وكان الغرض من فرض مثل هذه الأمور هو التأكيد على أهمية رجال الدين حيث لا يستطيع أن يناها أحد من المسيحيين إلا بواسطتهم، فهم الذين يُضفون صفة القداسة - حسب اعتقادهم - على هذه الشعائر.

أ - مسألة الاستحالة :

الأساس فيها أن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزا، ويشربون خمرا، ويسمون ذلك العشاء الرباني، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح، فمن أكلها وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه². وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية، أن المسيح موجود في هذا بجسده ونفسه ولا هوته معا، وأنه عندما يقول الكاهن (هذا هو جسدي)، يتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيين. وفي هذا يقول بولس إلياس اليسوعي : « إنه - أي العشاء الرباني، أو الأفخاريسيا - كما يجب الكاثوليك أن يسموه - سرّ حضور الرب يسوع المسيح حضورا حقيقيا بجسده ودمه ونفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر »³. إن التحول في نظرهم تحول حقيقي.

1 - فشر : المرجع نفسه، ص 96.

2 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصرانية، ص 204.

3 - بولس إلياس اليسوعي : يسوع المسيح، ط2، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ت []، ص 306، 307.

وقد أستدل المسيحيون على ذلك بما جاء في إنجيل متى : « وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ، وقال خذوا وكلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكروا أعطاهم قائلًا أشربوا منها كلكم »¹.

ثم يعلّق ول ديورانت عن ذلك بقوله : « تمسكت الكنيسة بحرفية هذه العبارة التي نسبوها إلى المسيح واعتقدت بتحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمّه تحوّلًا حقيقيًا بقدرة القسيس كما يعتقدون، وإذا كان شرب الخمر يعرّض دم المسيح للإنكساب على الأرض!!.

فقد نشأت في القرن الثاني عشر عادة الاكتفاء بتناول العشاء الرباني بالخبز وحده، وأكد لهم رجال الدين -عندهم- أنّ دم المسيح ملازم لجسده في الخبز، وأنّ جسمه ملازم لدمه في الخمر.²

ونشأت هذه العقيدة -عقيدة حضور المسيح في أثناء العشاء الرباني كما يعتقدون- نشأة تعد بطيئة ومتأخرة كما يقول ول ديورانت : وكانت الصياغة الرسمية الأولى لهذه العقيدة هي التي أذاعها مجلس نيقية في عام 787م ... وعندما قام (برنجار) رئيس شمامسة تور حوالي عام 1054م، وجهر بارتيابه في تحوّل الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمّه كان جزاؤه الحرمان من الدين، وكتب (لافرانك) رئيس دير بك ردًا عليه سنة 1063م، يقول فيه : « إنّنا نعتقد أنّ المادة الأرضية ... تستحيل بتأثير القوّة السماوية التي لا يستطيع أحد وصفها ... أو إدراك كُنْها إلى جوهر جسد المسيح !! »³.

وأعلن مجلس لا تران في عام 1215م، أنّ هذه العقيدة من المبادئ الأساسية في الدين المسيحي.

وأضاف مجلس ترنت إلى هذا القول في عام 1260م أنّ كل جزء من الخبز المقدس -في نظرهم- مهما كسر يحتوي جسم عيسى المسيح كله، ودمّه وروحه.⁴

كما يصرّح محمد أبو زهرة بقوله : « وهذا أمر غريب في العقل، لا يستطيع أن يستسيغه أحد ببسر وسهولة، بل لا يستطيع أن يستسيغه قط، إذ كيف يتحوّل الخبز لحما؟، وكيف يصير

1 - مت : 26/26-27.

2 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة : محمد بدران، مج 4، ج 5، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1973، ص 17، 18.

3 - ول ديورانت : المصدر نفسه، ص 18.

4 - ول ديورانت : قصة الحضارة، مج 4، ج 5، ص 18.

لحم شخص معين معروف؟ ذلك غريب، بل مستحيل التّصور والقبول في العقل، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته، وإلاّ عرضوا للطرد والحرمان¹.

ويمكن أن يقال لهم في مجال مناقشة هذا الأمر: هل المسيح الإله هو الذي حلّ في الخبز والخمر أم المسيح الإنسان؟.

إذا كان المسيح الإله فيقال لهم: لقد أكلتم الإله القديم الذي حلّ في الخبز وشربتم دمه الذي حلّ في الخبز، وشربتم دمه الذي حلّ في الخمر، وهو مالا يقول به عاقل.

أما إذا قالوا: إن المسيح الإنسان هو الذي حلّ في الخبز والخمر، فهو باطل أيضا إذ لا يمكن أن يحلّ جسد المسيح ودمه الذي حلّ في الخبز والخمر في أماكن متعدّدة في وقت واحد.

وقد ناقش الشّيخ رحمت الله الهندي هذه العقيدة وردّها بردود قويّة نذكر منها فيما يلي:

إنّ حضور المسيح بلاهوته في أمكنة متعدّدة في آن واحد، وإن كان ممكنا في زعمهم لكنّه باعتبارنا سوته غير ممكن؛ لأنّه بهذا الاعتبار كان مثلنا، حتّى أنّه كان يجوع ويأكل ويشرب وينام ويخاف من اليهود، ويقول، فكيف يمكن تعدّده بهذا الاعتبار بالجسم الواحد في أمكنة غير محصورة في آن واحد حقيقية؟.

والعجب أنّه ما وجد قبل عروجه إلى السّماء، فكيف يوجد بعد قرون بعد اختراع هذا الاعتقاد الفاسد بالاعتبار المذكور في أمكنة غير محصورة في آن واحد؟.

وإذا فرضنا أنّ ملايين من الكهنة في العالم قدّسوا في آن واحد واستحالة يُقدمه كلّ إلى المسيح الذي تولد من العذراء، فلا يخلو إمّا أن يكون كلّ من هؤلاء المسحاء الحادّين عين الآخر أو غيره. والثاني باطل على زعمهم، والأوّل: باطل في نفس الأمر لأنّ مادة الكل غير مادة الآخر².

وإذا استحال الخبز مسيحا كاملا تحت يدّ الكاهن فكسّر هذا الخبز كسرات كثيرة وأجزاء صغيرة، فلا يخلو إمّا أن يتقطع المسيح قطعة قطعة على عدد الكسرات والأجزاء، أو تستحيل كل

1 - بيير كاميللو: بيير رافال: الجامع المسكونية، الألفية الأولى، ص 213.

2 - رحمت الله الهندي: إظهار الحقّ، تحقيق: أحمد ملكاوي، ج 3، ط []، الرّياض: دار الوطن للنشر، دار أولي التّهي،

1991م-1412هـ، ص 705.

كسرة وجزء مسيحا كاملا أيضا، فعلى الأوّل لا يكون المتناول متناول مسيحا كامل، وعلى الثاني : من أين جاء هؤلاء المسحاء ؟ لأنّ ما حصل بالتقدمة إلاّ المسيح الواحد¹.

ورغم عدم معقولية الاستحالة إلاّ أنّ الكنيسة فرضتها وأقرتها، وحكمت على كل من يخالفها في هذا باللّعن والطرد والحرمان.

ولذلك يقول ول ديورانت : « وبهذه الطّريقة تعظم الحضارة الأوروبية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر في الأديان الوثنية - وهي أكل الإله »².

ويقول : « وكان الاشتراك الجماعي في تناول الطعام والشّرب والمقدّسين من المظاهر الكثيرة الحدوث في أديان البحر المتوسط، وكثيرا ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أنّ هذا الطّعام ستحل فيه بهذا التّقدّيس قوى الإله ثمّ تنتقل بطريقة سحرية إلى المشتركين في تناوله »³.

ب - مسألة الغفران (صكوك الغفران) : منّ تعاليم الكنيسة تقضي بأن يقوم كل واحد منهم بالاعتراف بذنوبه أمام الكاهن، ويقوم بمراسم الكفارات.

واعتقدوا بأن المسيح منح الرّسل -هم التلاميذ كما يعتقد المسيحيون- قدرة غفران الخطايا.

وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرّسل إلى المطارنة الأوليين، ومن بطرس إلى البابوات، ومن ثمّ وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن.

ثم قرّر مجلس لاتران الرابع 1215م أن يتكرّر الاعتراف والعشاء الرّباني كل عام وجعلها من الواجبات الخطيرة، إذ أهملها إنسان حرم من جميع خدمات الكنيسة.

وكانت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية تعلن أنّه بالاعتراف وقيام المعترف بما يوصيه به الكاهن من أعمال كفارية، وأعلاه الحل أو غفران الخطايا يحصل المعترف على رفع جرم الخطايا عنه ... لكن يبقى بعد ذلك آلام المطهر ... وعملت الكنيسة بأن لها السّلطان لتقصير فترة بقاء نفس الإنسان في المطهر⁴.

1 - رحمت الله الهندي : إظهار الحقّ، ص 764.

2 - ول ديورانت : قصة الحضارة، مج4، ج5، ص 18.

3 - ول ديورانت : المصدر نفسه، مج3، ج3، ص 18.

4 - ول ديورانت : المصدر نفسه، ص 14، 15.

كما يقول جون لوريمر: « ووجدت الكنيسة طريقة أخرى ترضي "دينونة الله" على الشخص المعترف وذلك بإتباع "صك الغفران" من "خزينة الاستحقاقات" في السماء، ولقد عللوا ذلك بأن الدّم الذي سفكه المسيح - كما يعتقدون - كان كافياً للخلاص بكميات أوفر من حاجات الجنس البشري، وأن قديسين كثيرين عملوا الصّالحات بما هو أكثر من اللازم لخلاص دواقم، هكذا بقيت هذه الخزينة من الاستحقاقات التي أمكن السّحب منها بواسطة صك الغفران للخطأ العادي وفي وقت لاحق امتدّ مبدأ صكوك الغفران ليشمل المسيحيين الذين استطاع أقربائهم أن يشتروا صكوك الغفران ليحصلوا لهم على الإفراج»¹.

وفي أواخر العصور الوسطى كانت هذه الغفرانات أو صكوك الغفران تباع لقاء قدر من المال، بعد ذلك أعلنت الكنيسة أنه يمكن للأحياء أن يشتروا صكوك الغفران لأعزائهم الرّاحلين. وقد مُنحت صكوك الغفران منذ القرن التّاسع، وكان أول صك بالغفران الكلّي هو الذي عرضه إربان الثّاني في عام 1095م على من يشتركون في الحروب الصّليبية الأولى.

وتوسّعت الكنيسة في عمليات توزيع صكوك الغفران، ووجدت البابوية في الصّكوك موارد مالياً غزيراً سهل المنال، وأخذ البابوات يرسلون مندوبين عنهم إلى مختلف الأقاليم في أوروبا الغربية لبيع صكوك الغفران، وأقبل الأفراد على شراء هذه الصّكوك كل حسب مقدرته المالية، بل وشرائها من أجل أمواتهم نيابة عنهم وذلك مغفرة لذنوبهم². - كما يعتقدون -.

زيادة على ذلك فإن جون لوريمر يذكر بأنّ هناك أيضاً صكوك لشراء الوظائف الكنيسة تفرضها البابوية، فيقول: « وكان بيع صكوك الغفران، يتم بناء على مرسوم بابوي، وكان هذا يعني عملياً التأكيد على نصيب البابا في الدّخل، علاوة على ذلك فقد ارتبطت الممارسة بشراء مناصب الأساقفة ووظائف كنيسة أخرى، وكان البابا يمنح الإذن ببيع صكوك الغفران في منطقة معينة حتّى يستطيع الموظف المستفيد أن يدفع للبابا بعد ذلك»³.

ويلوح أن الرّغبة في الحصول على الأموال من بيع صكوك الغفران التي تجاوزت كل حد معقول وغير معقول، فأصبحت هذه الصكوك تباع بالجملة ومقدّمة لغفران جميع الخطايا سواء التي ارتكبتها الإنسان في ماضيه أو التي سوف يرتكبها في مستقبل أيامه، ممّا يعد تحريضاً سافراً

1 - جون لوريمر: تاريخ الكنيسة، ج4، ص 37.

2 - فشر: أصول التّاريخ الأوروبي الحديث، ص 68.

3 - جون لوريمر: المصدر السّابق، ص 39.

على الانغماس في الخطايا والأفام طالما أن مرتكبها سيكون بمنجاة من عذاب الآخرة، وزاد في مهزلة بيع صكوك الغفران إلى عملاء البنك، فانتقلت المسألة من عملية دينية إلى عملية مصرفية لحمتها وسداها حصول الكنيسة على أموال ضخمة تحت ستار ديني هو صكوك الغفران التي بدت للكثيرين وكأنها تذاكر تبيح لحاملها دخول الجنة دون أيّ عناء أو مشقة¹.

وفيما يلي نصّ صكّ الغفران الذي كان يباع ببيع السلعة: « ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية، وأنا بالسلطان الرسولي المعطي لي أحلك من جميع القصاصات، والأحكام وطائلات الكنيسة التي استوجبتها، وأيضا من جميع الخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كلّ علّة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي، وأخو جميع أقدار المذنب وكل علامات الملامة التي ربّما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلزم بمكابدتها في المطهر، وأدرك حديثا إلى الشركة في أسرار الكنيسة، وأقرنك في شركة القديسين، وأدرك ثانية إلى الطهارة والبرّ اللذين كانا عند معموديتك، حتّى إنّ في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه التعمّة تبقى غير متغيّرة حتّى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس² ».

ويعلّق أبو زهرة على هذا الصكّ بقوله: « هذه صورة من صور صكّ الغفران تذكر أنّها تمحو الآثام وتغفر ذنوب العاصي ما تقدّم منها وما تأخّر، تغسله من ذنوبه الماضية حتّى يصير طاهرا، ثمّ لا يصير قابلا لأنّ تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا، ومهما ينغمس في المعاصي. كأنّ الصكّ جواز المرور إلى التّعيم المقيم، لا يعوق حامله عائق، ولا يردده عن الوصول خازن أو حارس³ ».

إنّ هذا الأمر يصرّو التّدهور الذي وصلت إليه البابوية، ويبيّن مدى الفساد والابتزاز والطمع البابوي لامتلاك الأموال، وزيادة الثروات حتّى ولو كانت على حساب الدّين. ولذلك اعتبر المؤرخون أنّ هذا العامل كان سببا مباشرا لقيام حركة الإصلاح البروتستانتي في أوروبا.

1 - فشر: اصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص 69.

2 - ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: عبد الحميد يونس، مج 6، ج3، ط []، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1969 من ص 5.

3 - محمد أبو زهرة: محاضرات في التّصراية، ص 207.

هذه هي بعض العوامل التي أدت إلى قيام هذه الحركة في أوروبا « تجمعت هذه العوامل مع عوامل أخرى مثل : نمو المعارف والعلوم خارج الكنيسة، وإدراك بعض رجال الكنيسة بالحاجة إلى الإصلاح، وإضافة إلى المتغيرات السياسية والاقتصادية وغيرها »¹ . -على حد قول جون لوريمر- .

لذلك تجاوبت هذه العوامل مع سابقتها، وكان نتيجة لهذا أن قامت ثورة الإصلاح البروتستانتي، ووجدت أرضا خصبة لقبولها بين الأوروبيين في ظل المتغيرات الثقافية المختلفة، والتي أدت ببعض المصلحين الدينيين بشن ثورات أو حركات إصلاحية دينية ضد رجال الدين، والبابوية في كل من ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وسويسرا.

- الفرع الرابع : أبرز قادة الإصلاح البروتستانتي.

منذ القرن الرابع عشر والأصوات تعلقو لإصلاح الكنيسة، فقد ظهر منذ ذلك الوقت عدد من المفكرين المسيحيين الذين نادوا بالإصلاح، ومن رواد الإصلاح الداخلي على سبيل المثال :

1 - حركة جون ويكليف " John Wycliff " (1328-1383) :

وهو المصلح الإنجليزي الذي قام بحركته الإصلاحية الإنسانية في القرن الرابع عشر²، الذي درس في جامعة أكسفورد وشغف بالدراسة، وقام يدعو إلى أن رجال الدين يجب أن ينصرفوا إلى واجبه الأساسي وهو العمل على إعلاء كلمة الله³.

هاجم ويكليف البابوية، ونقد قولهم في عقيدة الاستحالة، وأنكر القول بتحول الخبز والخمر في العشاء الرباني⁴، وهاجم أيضا رجال الدين وانهمكهم في متاع الحياة وتملقهم للأغنياء وازدراءهم للفقراء، كما أنكر إرسال الأموات والثروات إلى روما إلى أفينيون في فرنسا، مطالبا في نفس الوقت بمصادرة أملاك الكنيسة الإنجليزية لمصلحة الحكومة، إذا ما أصرت البابوية على طلب الأموال.

1 - جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، ج4، ص 25.

2 - فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 362.

3 - شوقي عطاء الله الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم : تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ط 1، القاهرة، دار الثقافة،

1993م، ص 40.

4 - فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 163.

لم يتوقّف ويكلّف عند هذا الحد، بل إنّه نزع عن القساوسة حقّ الاعتراف أمامهم معتبرا أنّ الصلّة بين الله والإنسان يجب أن تكون مباشرة دون آية وساطة.

كما دعا إلى نبذ صكوك الغفران التي أقرّها البابوية كطريقة تستخدمها لتكديس الثروات وشراء الأنصار والصّرف على الحاشية وفعل الشرور، لأنّ المسيح ولا القديسين من بعده قد قالوا بهذه البدعة: «إنّ الأبحار يخدعون النّاس عليهم بصكوك الغفران الزّائف أو وثائق المغفرة وينهبون بذلك أموالهم لعنة الله عليهم... وما أشدّ حماقة من يتعاون هذه الصّكوك بهذه الأثمان الغالية، وإذا كان في مقدور البابا أن ينتزع الأرواح من المطهر، فلم لم ينتزعها منه الفور عملا بروح الإحسان المسيحي»¹.

ودعا إلى عودة الكنيسة إلى ما جاء في كتابهم المقدّس²، وبالرغم من ذلك ظلّ على ولائه للكنيسة الكاثوليكية حتّى آخر أيام حياته، وتعتبر حركة جون ويكلّف في إنجلترا أساسا لحركة الإصلاح الدّيني في بريطانيا، وخصوصا أنّ ما نادى به من ضرورة إشراف الملكية في إنجلترا على الكنيسة كان أساسا في حركة انفصال الكنيسة الإنجليزية عن كنيسة روما³.

2 - حركة جون هس "John Huss" (1373-1415) :

أمّا الحركة الثانية من سلسلة حركات الإصلاح الدّيني، فقد قام بها جون هس في بوهيميا⁴، وهي منطقة يسكنها شعب من التشيك من أصل صقلي يعتنق المسيحية الأرثوذكسية، وقد خضع هؤلاء للمؤتمرات الألمانية، وتحوّلوا نتيجة لذلك من المذهب الأرثوذكسي الشّرقي إلى المذهب الكاثوليكي الغربي، وأدّى هذا التّحول بطبيعة الحال إلى حالة من القلق والاضطراب في العقائد الدّينية نتيجة اعتناق هؤلاء السّكان المذهبيين الدّينيين، ونشأ عن ذلك أن سادت بينهم روح النّقد لقواعد الدّين خصوصا ما يتعلّق منها بالمذهب الجديد، وقد تزعمت جامعة براغ حركة النّقد هذه حوالي منتصف القرن الرابع عشر، وفي تلك البيئة المضطربة من النّاحية الدّينية ظهر جون هس في هذه الجامعة، فأخذ في مهاجمة الكنيسة في بوهيميا وما هي عليه من فساد العقيدة⁵، متأثرا في

1 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر التّهضة)، ص 106.

2 - فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 163.

3 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص 155.

4 - بوهيميا : المجر حاليا.

5 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص 214.

ذلك بوجهة نظر جون ويكلييف الإنجليزي إلى حدّ كبير، فأراهه التي نادى بها تتفق في مجموعها مع ما نادى به جون ويكلييف من قبل اختلافات بسيطة أوجدتها ظروف كل من البلدين¹، فمن تعاليم جون هوس ضرورة الرجوع إلى نص الكتاب المقدّس لفهم قواعد الدّين الصّحيحة دون الاعتماد على الشروح والتّفسيّرات التي وضعها البابوات طبقاً لأهوائهم²، وقال: إنّ أوامر البابا إذا تعارضت مع ما جاء في الكتاب المقدّس فليس هناك ما يلزم بإتباعها، هاجم صكوك الغفران³، وحاول في نفس الوقت أن ينشئ في بوهيميا كنيسة وطنية مستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية ولكنّه لم يستطع ذلك وتمكّن خصومه من توجيه إليه تهمة الزندقة، فقد أصدر البابا قراراً بجرمان هس، وقضى مجمع كاونستانس سنة 1414م إدانته بتهمة الهرطقة وحكم عليه بالموت. لكن هناك اختلاف في كيفية العقاب والموت بين ما ذكره "فاروق عثمان أباطة ومحمد مخزوم"، الأخير يقول: « حكم عليه بالموت فأعدم حرقاً وهو حي سنة 1415م ».

أمّا فاروق أباطة فيقول: « حكم عليه بالموت غرقاً في أوائل القرن الخامس عشر »⁴.

لكن كل من جون لوريمر وفشر يقولان: حكم عليه بالإحراق وتمّ التّنفيذ سنة 1415م.

كما يذكر جون لوريمر أنّ كلّ من ويكلييف وجون هس تحديا البابوية في أمور تتعلّق باللاهوت والسّلطة.

ويضيف أيضاً أنّ المجمع أدان "ويكلييف" وأمر أن يحرق جسده الذي سبق دفنه من مدّة طويلة⁵.

3 - حركة سافونا رولا "Savona Rola": (1452-1498):

ومن الأمثلة عن حركات الإصلاح الدّيني حركة سافونا رولا الراهب الثائر بفلورنسا أواخر القرن الخامس عشر، كانت حركته ترمي إلى إصلاح المجتمع على أساس ديني وتحقيق العدالة الاجتماعية لأكبر عدد ممكن من النّاس، وأن يشترك الشعب في حكم نفسه بنفسه بالطريقة التي تلائمها، وقد انتابه في وقت من الأوقات الشعور بالضيق من المجتمع الذي يعيش فيه، فاعتزل

1 - فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 371.

2 - فاروق عثمان أباطة: المرجع السابق، ص 215.

3 - شوقي عطاء الله الحمل، عبد الله عبد الرزاق: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص 40.

4 - فاروق عثمان أباطة: المرجع نفسه، ص 216.

5 - جون لوريمر: تاريخ الكنيسة، ج4، ص 57.

في أحد الأديرة، ثم تدرّج في سلك الرهبنة إلى أن أصبح رئيساً لدير سان مارك بفلورنسا أثناء حكم لورنزو العظيم من أسرة مدتيشي، وقد أطاحت فرنسا بحكم المدتيشي بفلورنسا أثناء غزوها لتلك المدينة، وقد أعقب هذا الغزو شعور أهل فلورنسا بضرورة تغيير نظم الحكم السائدة¹.

فراى سافونا رولا أنه من أوجه الإصلاح المزج بين الدين والسياسة في خلق نظم سياسة جديدة ومجتمع جديد، وهو بطبيعته لا يميل إلى الاستبداد. إلا أن الأمور لم تستقر، فلم تجد النجاح المطلوب، ويرجع فشل تلك الحركة إلى أسباب منها.

أ. أن سافونا رولا قد أخفق في اجتذاب أهل فرنسا إليه لفترة طويلة كما أنهم لم يهتموا بتعاليمه الدينية، فلم يكن لهم اهتمام بالمسائل الدينية، فكل ما كان يهمهم هو الحرية السياسية التي حرّموا منها في عهد أسرة مدتيشي.

ب. عندما نادى سافونا رولا بالعمو عن أنصار العهد السابق، دخل منهم عدد كبير في زمرة أنصاره، ولكنهم أخذوا بعد ذلك يتصلون للقضاء عليه². فلم يسلم من بطش الكنيسة، حيث أصدر البابا ضده قرار الحرمان، فلم يعبأ به وواصل تحديه لسلطة الكنيسة، فدبرت له مكيدة، وأصدر البابا قرار بإعدامه وأحرقت جثته وألقي بها في النهر³.

وخلصة القول أن حركة سافونا رولا قد أخفقت في تحقيق كل ما ترمي إليه، ولكنها في نفس الوقت نجحت في مهاجمتها للكنيسة، في إظهار عيوبها أمام أعين الناس، وهذا ما شجع غيره من المصلحين أمثال لوثر على أن يواصل هذا الهجوم، وأن يربط مثله أيضاً بين السياسة والدين، كما أن محاولته في إنشاء جمهورية حرّة في فلورنسا قد مهّد السبيل لقيام الجمهوريات المختلفة في العصر الحديث.

4 - حركة ارازمس "Eras Mus" (1466-1536م) :

يذكر كتاب "تاريخ الحضارات العام" بعض المعلومات عن هذه الشخصية : « إرازمس فيلسوف وكاتب هولندي، راهب وكاهن، ولد عام 1466م، كان من رواد النهضة الإنسانية، أول من طبق في دراسة رسائل القديس بولس مناهج النقد الحديث التي طبقها العلماء الإيطاليون،

1 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص 217.

2 - جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، ص 83.

3 - فاروق عثمان أباطة : المرجع السابق، ص 217.

ثم أصبح زعيم الإنسانيين الإنجيليين»¹.

يذكر محمد أبو زهرة أن ارازمس نال تقديرا كبيرا من رجال الكنيسة والأمراء والحكام على السواء رغم هجومه على الكنيسة فكان يتمتع بممتزة كبيرة بين أدباء عصره وعلمائهم. لم يلق من العنف والاضطهاد ما لاقاه غيره من المصلحين وظل إلى آخر حياته من رجال الكنيسة الكاثوليكية المخلصين لتعاليمها، فهو إذن لم يذهب إلى ما ذهب إليه غيره من المصلحين مثل ويكليف وجون هس بالمنادات بإيجاد كنائس قومية، لأن هذا العمل من شأنه أن يشجع على نمو الروح القومية المتطرفة، نادى بالرجوع إلى تعاليم الإنجيل للإهتداء بها دون الاعتماد على جهل رجال الدين².

ويمكننا القول بأن ارازمس كان من أشد المخلصين للكنيسة الكاثوليكية رغم هجومه الشديد على نقائصها، فهو إذن يريد بهجومه أن يصلح اعوجاجها، وأن يقومها حتى لا تشتت النزعة القومية الانفصالية التي تؤثر سلبا على الوحدة الدينية لأوروبا.

ومن رواد الإصلاح الداخلي :

أنت انكلترا من تدخل البابا في شؤونها، وذاقت فرنسا مرارة تحكم الكنيسة في ملوكها بالحرمان والطرده، ومع هذا : فإن شمال أوروبا يعتقد أن حصارته مرتبطة بقيم الدين، ولا مفر من التوجه إلى الكنيسة وكيف والآثار الاجتماعية تمتت رجالها، وتعلن سلوكها وتفر من تعاليمها ؟ فكانت هناك محاولات الإصلاح، وكان فجر تلك الجولة أو الموجة في القرن السادس عشر، فجرا مقترنا بالحركة العلمية والاستكشافات الجغرافية، وتقدم الاتصال الاجتماعي على المستوى العالمي بعد أن انتهت عمليات الحروب الصليبية³، وأشتهر في هذه المحاولة الإصلاحية عدّة رجال بارزين منهم :

1 - حركة مارتين لوثر :

1 - رولان مونسية : تاريخ الحضارات العام، القرنان السادس والسابع عشر، إشراف : موريس كروزيه، نقله إلى العربية :

يوسف أسعد داعر، فريد م. داغر، مج4، ج4، ط2، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 1987، ص 76.

2 - محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية، ص 218.

3 - رؤوف شليبي : أضواء على المسيحية ص 132.

أولا : التعريف بلوثر :

مارتن لوثر هو مصلح ديني، مسيحي، ألماني شهير، ومؤسس المذهب البروتستانتي ولد في إيرلين "EIESLEBEN" في نواحي "HALL" في شمال ألمانيا، في 10 نوفمبر 1483م، بمقاطعة سكسونيا¹.

أما عن ظروف الوراثة والبيئة التي صاغت راهبا مغمورا في مدينة لا يتعدى سكانها ثلاثة آلاف نسمة، كان أبوه هانز رجلا صارما، فظاً يُستشار بسهولة ومناهضا لرجال الدين، وكانت أمه حجولا متواضعة، تكرر كثيرا من أوقاتها للصلاة، وكان كلاهما مقتصدا فكان لهما ستة أطفال بالإضافة إلى لوثر².

يقول لوثر أن أباه ثابر على ضربه يوما حتى أنّهما ظلّ يناصب كل منهما العدا، كما جلدته أمه مرة حتى سال دمه، لأنّه سرق جوزة، كما أنّه اقتنع بخرافات والديه اللذين كانا يؤمنان، بوجود السحرة، العفاريت، الملائكة، والشياطين من فصائل متعدّدة، والتي كان لها أثر في تكوين عقيدته الفكرية والدينية³.

التحق مارتن بمدرسة في مانسفيلد، في سنة 1488م، حيث كان الطلبة يتلقون فيها مزايدا من العصي وكثيرا من الوعظ، وجلد فيها مارتن لوثر خمسة عشرة مرة في يوم واحد، لأنّه أخطأ في إعراب اسم⁴.

وفي سنّ الرابعة عشرة درس في مدرسة سانت جورج في إيرنياخ 1498م، وأمضى ثلاثة سنوات سعيدة تسيّبا، أقام فيها بمترل السيّدة "كوتا" المريح، ولم ينس لوثر قولها : "إنّه ليس على ظهر الأرض ما هو أئمن للرجل من حبّ امرأة فاضلة".

وكانت هذه نعمة لم يظفر بها إلاّ بعد اثنين وأربعين عاماً⁵. تعلم من اليونانية والتذر اليسير من العبرية ؛ كما قرأ أمهات الكتب الكلاسيكية باللاتينية¹.

1 – Michel Mourie : Dictionnaire Encyclopédique D'histoire, Bordas Jean Pierre De lavage, Paris, 1978, Pour le texte du Dictionnaire, P 2748.

2 – Dictionnaire pratique Guillet libraire Aristi de Guillet, Paris, 1974, Printed in France, p 1653.

3 – Grillon Hollier : La rousse universel, Moreanet librairie, Paris, 1949, p 1224.

4 – Dictionnaire Encyclopédique : Guillet librairie Aristide Guillet. Printed in France, paris, 1977, p 3954.

5 – Dictionnaire Encyclopédique la rousse librairie, 17^{ème} mont paumasse et 114 Boulevard, respail, paris, 1979, p 849.

في سنة 1505م، حصل على درجة الماجستير في الأدب، فأرسل له أبوه نسخة غالية من مجموعة قوانين البلد كهدية بمناسبة تخرّجه واغتبط عندما بدأ ابنه في دراسة القانون وفجأة تحوّل عن هذا الميدان إلى حياة الرهبنة، ووهب نفسه للكنيسة، ويعلّلون حدوث هذا التّحول المفاجئ إلى فقدان أحد أصدقائه المخلصين، وحادثة تعرّض له كاد أن يؤدي بحياته².

تتمثل في حدوث عاصفة هوجاء صادفته في باب الجامعة في 02 جانفي 1505 أرعبته رعباً شديداً، وغيّرت نظرتة للحياة وأقسم بينه وبين نفسه أن يهب نفسه للكنيسة إذا ما نجا من الموت³.

وقد وفي بوعده ودخل في سلك الرهبنة للقديس أوغسطين في 1505م، وعكف على دراسة الكتاب المقدّس⁴.

وفي سنة 1506م أقسم بأن يلتزم بالعفة والطّهارة، وكان ما درسه على الصّوفيين والألمان خاصة تاولر الذي أعطاه أملا في أن يختار بين روح تترع في طبيعتها للخطيئة، وإله مقسط قادر على كلّ شيء، كما وقعت في يده رسالة بقلم "جون هس" John Huss استهوته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحي⁵.

وفي سنة 1507م عين كاهنا، وفي الوقت نفسه كان يدرس علم اللاهوت حتّى نال شهادة الدكتوراه واستدعى للتدريس في جامعة وتنبرغ "WITTEENBERG" في مقاطعة سكسونيا⁶.
وفي سنة 1508م، لمع اسمه والتفّ حوله الرّواد من تلاميذه المعجبين بأرائه وتأملاته لاسيما في المسألة التي كانت تشغل باله مسألة الخلاص والتّطهر من الخطايا⁷.

1 - Lutherstadt Wittenberg Martin Luther <http://www.>

WWW.WITTE N BERG, DE/E/SEITEN/PERSONEN/LUTHER HTEME.

2 - ول ديورانت : قصة الحضارة الإصلاح الدّيني، ترجمة : عبد الحميد يونس، ج 2، مجلد6، ط []، بيروت، د []، ت []، ص 10.

3 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في التاريخ الأوروبي والمعاصر، ص 22.

4 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة : فتح الله المشعشع، ط 5، بيروت، منشورات مكتبة المعارف، 1985م، ص 299.

5 - ول ديورانت : قصّة الحضارة، ج2، المجلد 6، ص 267.

6 - عبد الحميد البطريق : التّاريخ الأوروبي الحديث من عصر التّهضة إلى مؤتمر فيينا، بيروت، لبنان، دار التّهضة العربية، 1971م، ص 96.

7 - عبد الوهاب الكيلاني : موسوعة السّياسة، 1990م، ص 397.

فالحلاص بالنسبة للوتر هو ثمرة الإنجيل، وقد أصبحت غاية الكنيسة بالنسبة لديه غاية تبشيرية بالدرجة الأولى، مهمتها نشر الإنجيل فحيثما وجد الإنجيل وجدت الكنيسة، لذلك يجب أن يوعظ بالإنجيل لإنقاذ الإيمان الضروي الشامل، ولكن لا حاجة في سبيل ذلك إلى الكهنة والطقوس السحرية¹.
بذلك نجد لوثر اعتقد أن الإنجيل كان ضروريا للحقيقة، باعتباره يعطي الكتاب المقدس قيمته الحقيقية.

ثانيا : مبادئ الحركة اللوثرية.

لقد كان الشغل الشاغل للوثر هو الوضع الداخلي للكنيسة الكاثوليكية حيث حملها أخطاءها ونادى بتغيرات داخلها، لأن إصلاح الكنيسة من الداخل سوف ينعكس إيجابيا على المجتمع، ويتحقق بذلك إصلاح خارجي وداخلي في نفس المستوى، وهذا سيحقق حرية الفرد واستقلاله وقدرته على الاتصال بربه مباشرة دون حاجة إلى وساطة راهب أو قسيس². إذا امتدت إصلاحات لوثر حتى المجال الموسيقي وكل مجالات الحياة وأصاب المجتمع قوة جبارة كانت جذيرة بالتغيير الفعلي³.

ويمكن تلخيص ما جاء به لوثر فيما يلي :

- 1 - إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية، ومن ثم فإن على الحكام الزمانيين أن يمارسوا سلطاتهم دون عائق أو اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيرون على البابا أو الأسقف أو القس.
- لذا يجب أن تكون سلطة الحكام أعلى من سلطة البابا وهو دعوة صريحة للخروج عن كنيسة روما⁴.
- 2 - ليس للبابا الحق في احتكار تفسير الكتاب المقدس.

1 - Marthin Luther le Magnificat, Traduit par Henri la bourge, Edition Sabator Mulhouse, Paris, Tournal, 1967, p 24.

2 - إبراهيم مذكور : دروس في تاريخ الفلسفة، ط2، بيروت، منشورات مكتبة المعارف، 1989م، ص 94.

3 - أحمد أمين، زكي نجيب محفوظ : قصة الفلسفة الحديثة، ج 1، ط5، م []، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1987م، ص 341.

4 - عبد المجيد النعيمي : في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة (1453-1848)، ط []، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1981م، ص 58.

إذ لا يمكن أن تعتبر سلطة البابا - كما يزعم - مترهة عن الخطأ فهو يمكنه أن يخطئ شأنه في ذلك شأن كل مسيحي يُعمد. لذلك أصبح لكل مسيحي الحق في تفسير الكتاب المقدس الذي يعدّ المصدر الأعلى والوحيد في الدين المسيحي¹.

3 - إباحة الزواج للقسييين :

إذا رأى لوثر أن فساد رجال الدين يرجع إلى كثير من الأحيان إلى عدم الزواج، لذلك رفض لوثر أن يحرم الزواج عن القسييين وتزوج ليكون عبرة للوثريين وأنصاره².

4 - ليس في استطاعة القس تحويل العشاء الرباني، فلا يمكن لأي قسيس أن يحول الخبز والتبند إلى جسم ودم المسيح، فليس هناك قسيس يملك هذه القدرة الصوفية. فالمسيح حاضر في العشاء الرباني عن طريق التجاسد وهو مع المسيح بجسده عند تناول هذا العشاء، ولا يمكن أن يكون حضوره عن طريق التجسيد³.

5 - تسامح لوثر في بادئ الأمر مع سرّ التوبة⁴، ولم يعترف بعد ذلك إلا بالسرّين اللذين أقرهما المسيح؛ وهما التعميد⁵ والمناولة⁶، بعرضيهما الخبز والخمر.

6 - إباحة الطلاق للمسيحيين، وإلغاء الحجّ إلى روما وتصفية الأديرة⁷.

7 - ليس للكنيسة حقّ غفران السيئات، ذلك الحقّ الذي كان عود ثقاب أشعل ثورة لوثر⁸.

ثالثاً : العوامل المساعدة على ظهور حركة الإصلاح اللوثري.

1 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصرانية، ص 315.

2 - ول ديورانت : قصة الحضارة، (الإصلاح الديني)، ج2، من المجلد 6، ص 31.

3 - أحمد شلبي : مقارنة الأديان، ج2، ص 260.

4 - سر التوبة : " Penance " : من أهم الأسرار في الدين المسيحي، الغاية منها نيل المغفرة من الخطايا التي ارتكبت بعد التعميد، وعلى التائب أن يفحص نفسه وضميره لما ارتكبه من الخطايا والذنوب، ويشعر بألم وتوبيخ الضمير، فينال المغفرة من القس، ولكي تكون التوبة مقبولة يجب أن يزور الكنيسة ويؤدّي بعض الأدعية... إلخ.

5 - التعميد " Baptism " : هو سكب الماء المقدس على الطفل لتطهيره من الخطيئة الأولى ويصبح الطفل بعد التعميد مسيحياً ويقوم القس بعملية التعميد أو التطهير.

6 - المناولة " The Holy Eucharist " : وهو تناول الخبز والتبند بحضور القس أو الأسقف أسوة بالعشاء الرباني في الأخير، فيتحول عند إشارة القس أو الأسقف إلى لحم ودم المسيح، وهذه المعجزة تسمى " Transsubstantiation "، ولأجلها نشأ القداس وما يتبعه من الزينة بالشموع والأزهار والبخور.

7 - هو المبني لمعد لسكنى الراهبات أو الرهبان، الذين كرسوا حياتهم لخدمة الدين.

8 - جلال يحي : التاريخ الأوروبي والمعاصر، ج1، ط []، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ت []، ص 481.

لقد انطلقت الشرارة الأولى لحركة الإصلاح الديني منذ أن قام لوثر بزيارة إلى روما سنة 1511م، إذ شاهد فيها مظاهر الفساد والانحلال وانغماس البابوية نفسها، ورجال الدين في حياة البذخ والمُلذات فهاله الأمر.

لقد كانت نيته من هذه الزيارة هو التّيمن بلقاء رجال الدين لكي تحلّ عليه البركات¹.

كانت روما موطن المسيحية ومقر الكنيسة المقدّسة، لكنّه ما إن وطئت أقدامه هناك حتّى رأى ما صدم حسّه، وأزعج نفسه، إذ توقّع أن يرى التّسك والعبادة والزّهادة، فوجد مدينة لاهية عابثة، ووجد رجال الدين قد نسّت بعضهم المفاسد وأحاط بهم الرّتب، وظنّت بهم الظّنون والاستهانة بأحكام الدين.

وجد الدين تحيلهم قديسين صالحين، وأنهم ملائكة تسير على الأرض قد انغمسوا في الرذيلة وارتموا في حماها زاعمين أنّ سحائب الرضوان قد نزلت عليهم وغفر لهم سابق ذنوبهم ولاحقها، وأن بيدهم مفاتيح الملكوت في السّموات والأرض وسرّ التّوبة وأبواب الغفران². يغفرون لمن يشاءون ما تقدّم من ذنبه وما تأخر³.

رأى لوثر كل هذا وهو مرهف الحسّ الديني ذو النّفس اللّوامة يرى أنّ خطايا الإنسان أكبر من أن يحسوها وأنّه لا سبيل لغفرانها إلاّ أن تسعها رحمة الله⁴.

بالإضافة إلى هذا اشتدّ ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين وبالغت في فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت إلى حدّ الغلوّ، ولم تسلك في ذلك سبيل الموعظة الحسنة والدّعوة الصّالحة والإرشاد القويم، ومخاطبة الأرواح والنّفوس تمكينها من اتباعها وهي حرّة مريدة مختارة. بل سلكت سبيل العنف، فجعلت كل رأي في العلوم الكونية يخالف رأيها كفراً، ولا تدعو معتنقها

1 - Ajutes Bloch : Vndestin Martin Luther, Imprimerie Presses universitaires de France vendame, 1455-1945, p 10.

2 - أول مبتكر لصكوك الغفران هو البابا يونيفاس السّابع 1300م. كانت هذه الصّكوك تتضمن غفران الخطايا، ومن ثمّ كانت تسعيرتها تختلف باختلاف الخطيئة. فمثلاً كانت ثمن خطيئة غفران الزنا تساوي 150 دوقة وخطيئة القتل 800 دوقة (أنظر : حسن أبو عليا، إسماعيل باغي : تاريخ أوروبا الحديث والمعاصرة، ط []، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص []، ص 990

3 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التّصراية، ص 202.

4 - محمد أبو زهرة : المرجع نفسه، ص 203.

إلى الهداية، وترشده إلى الرّشاد كما يليق برجل الدّين مع من يراه ضلّالاً، بل تكفر لأوهي الأسباب وتحرق أو تعذب من تراه كافراً بلا فراق ولا هوادة¹.

ولم تكتف الكنيسة بقتل من يهجون بآراء تخالف آراءها، بل أخذت تنقب على القلوب، وما تستكنه جنايا النفوس، وتكشف أسرار النّاس لما أسماه التاريخ بمحاكم التفتيش التي دّست تاريخ الأديان بما ارتكبه من آثام وما أزهدته من أرواح، وما سفكت من دماء، وما عذبت من أحياء².

فإذا ما أراد رجل الدّين أن يطرح فكرة حول الإصلاح يؤدّي به إلى القتل والحرق، من ذلك ما حدث لأحد العلماء مثل، أيبيلارد فقد قُتل في سبيل العلم بسبب مظالم تلك الكنيسة، حيث كان لهذا الأخير رأي في تفكير المسيح عن خطيئة آدم خالف به رأي الكنيسة فقال :
« ليست حياة المسيح وصلبه مالاقي في ذلك من تعذيب سييلاً لإرضاء الله وإنزال عفوه عن خطيئة الإنسان وعتو الله أيسر من ذلك وأقرب إنّما لاقى المسيح ما لاقاه إعلاناً لما يكنّه قلبه من حب الله وعسى أن يثير في النّاس عاطفة الشّرّ وعرفان الجميل فيعيدهم إلى طاعة الله³.
ولكنّه ما إن قال ذلك حتى انعقد مجلس محاكمته فكان نصيب كتبه الحرق ونصيبه السّجن حتّى وافته المنيّة⁴.

فالإصلاح بذلك كان عبارة عن سفينة في بحر مضطرب منتشرة القلوع تحيط بها المصائب من كل الجهات.

لذلك فقد اجتمعت مجموعة من العوامل كان لها الأثر الكبير في انتشار الحركة سواء داخل ألمانيا أو خارجها منها :

- شخصية لوثر وقوّة إيمانه بمذهبه، حتّى كان يتّصف بشجاعة لا تُقهر وقوّة عظيمة، بعثته على إقناع مريديه بالثقة الكاملة من غرضه، ممّا جعل فريقاً كبيراً من الشعب الألماني يعتقدون أنّهم

1 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التّصراية، ص 204.

2 - أحمد عبد الغفور عطار : الدّيانا والعقائد في مختلف العصور، ج3، ط1، مكة المكرمة، 1981م، ص 55.

3 - عبد الحليم محمود : أوروبا والإسلام، ط []، م []، سلسلة الثقافة الإسلامية، رقم 07، مطبعة دار الجهاد، 1959م، ص 10.

4 - عبد الحليم محمود : أوروبا والإسلام، ص 10.

بقيادة لوثر الوصول إلى الحقيقة الخالصة التي قد ظلت فترة طويلة محتفية بين طيات فساد الكثير من الكتب الكاثوليكية¹.

هذه الآمال لم تتحقق بسهولة كما تصوّر أصحابها، بل أن نجاح هذه الحركة قد كان من دعائمه تلك الآمال العريضة التي غمرت بها النفوس في ذلك الوقت².

وكذلك فإن محمد أبو زهرة لم ينكر ما قام به لوثر من تغيير في عصره فيقول: « وليس من شك في أن شخصية لوثر القويّة قد جذبت إليه النفوس فهو قد فهم الروح الألمانية فهما عميقا، فصار خير معبر عن آمالها ورغباتها³.

- أحوال ألمانيا السياسية، حيث كانت مشجعة بنمو الحركة الجديدة في انتشارها، فقد كانت ألمانيا مقسّمة تقسيما سياسيا، وكانت إمبراطورية بالاسم واتحاد فيدرالي يضمّ الولايات المستقلة التي لا تقبل التدخل في شؤونها⁴.

كما لم يكن باستطاعة الإمبراطور دون معونة دويلات ألمانيا العظمى أن يفرض الضرائب أو يجمع جيشا أو يعلن حربا.

- كما لاقت هذه الحركة رواجاً وتشجيعاً، لأنها اعتُبرت حركة تحرّرية قومية ضدّ الأجنبي، حقيقة أن ألمانيا لم تكن عندئذ أمةً موحّدة كما كان الحال لإنجلترا وفرنسا، لكن كان يسودها شعور الكراهية يتدخل الأجنبي في شؤونها، فكان الألمان يكرهون "تشارل الخامس" لأنه إسباني، والبابا لأنه إيطالي، لذلك نجح لوثر في اجتذاب عدد كبير من الألمان، لأنه كان ينادي بأن ألمانيا يجب أن تكون للألمان⁵.

- ثم عن طبيعة ألمانيا السياسية هو انقسامها إلى إمارات مستقلة جعلت أمراءها يرحبون

1 - محمد محمد الصالح : تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية 1500-1789م، ط 1، بغداد، مطبعة دار الجاحظ للطباعة والنشر، 1982م، ص 31.

2 - ميلاد الفرحي : تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب -II-، ط 2، []، الجامعة المفتوحة، 1995م، ص 76.

3 - محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية، ص 96.

4 - عمر عبد العزيز عمر : التاريخ الأوروبي الأمريكي الحديث والمعاصر، والأمريكي الحديث والمعاصر، ط []، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1998م، ص 34.

5 - زينب عصمت راشد : تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن 16 إلى القرن 18، ط []، القاهرة، دار الفكر العربي، 1948م، ص 75.

بمذه الحركة ويعشقون العقيدة الجديدة، لكي تكون خطوة في سبيل تحقيق استقلالهم السياسي، إلى جانب انفصالهم الديني، وقد ساعد هذه الحركة مالاقيه لوثر من حماية فريديريك العاقل "Fredric Thhe Wise" منتخب سكسونيا الذي قام بدوره السياسي المشجّع لحركة مارتن لوثر، ولا أدل على ذلك من إيوائه في قصره في وارترخ "Wartburg" عندما فقد حقوقه الدينية حيث بقي محتفياً عن الأنظار ما يقرب من العام¹.

- وجود جامعة ناشئة خاضعة للوثر ومخصصة لتعاليمه ألا وهي على حد قول فاروق عثمان أباطة وتبرج "Wittenburg" التي أنشأها فريديريك العاقل، وكان معترًا بها حيث أصحت المركز الرئيسي لدعوة مارتن لوثر، فقد كانت كعبة للعلماء من كل أنحاء العالم وعلى وجه الخصوص ألمانيا، فهي التي نشرت مؤلفات لوثر الأولى وكانت بلغة يفهمها الألمان².

لكن على الرغم من توفر هذه العوامل التي ساعدت على انتشار الحركة اللوثرية في شمال ألمانيا ومناطق أخرى، إلا أن هناك عوامل حالت دون انتشار اللوثرية في بعض المناطق وتمثل هذه العوامل فيما يلي :

أ. صعوبة فهم العقيدة اللوثرية التي عجز كثيرون عن تفسيرها، خصوصاً في مسائل تناول القربان والتبرير بالإيمان.

ب. اعتماد لوثر على تعضيد الأمراء فقط وأمثالهم من أهل الطبقات الوسطى والدنيا في أول الأمر، مما جعل الأعظم من الناس ينفضون من حوله.

ج. عدم اهتمام لوثر بمسألة تحديد وتعريف العقيدة الجديدة³.

د. عدم تفكيره في نشر هذه العقيدة خارجاً، وقد أدى ذلك إلى وقوع الخلاف في صفوف اللوثرين أنفسهم بعد وفاة لوثر من جهة، ثم لصعوبة التغلب على الكاثوليكية المنظمة، وخاصة عندما امتنع لوثر عن الالتجاء إلى القوّة والعنف في نشر مذهبه، وظهرت هذه النتيجة بجلاء عندما أخذت الكنيسة الكاثوليكية تنظّم شؤونها وتصلح مساوئها، وتستعد للنضال من أجل نشر مذهبها وتعاليمها بكل وسيلة⁴.

1 - عمر عبد العزيز عمر : التاريخ الأوروبي الأمريكي الحديث والمعاصر، ص 35.

2 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص 27.

3 - عبد الوهاب الكيلاني : موسوعة السياسة، ج5، ص 92 .

4 - عمر عبد العزيز عمر : التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث والمعاصر، ص 37.

٥. ظهور طائفة الجزويت "Jesuits" حيث وجدت تلك الجماعة من تشجيع البابوية ما ساعدها على القيام بنجاح كبير، فأرسلت البعث التبشيرية المختلفة إلى جميع بقاع العالم بما في ذلك الصّين، وإلى تلك يقول عمر عبد العزيز عمر، أنه : « وإلى تلك الجماعة يرجع الفضل في وقف انتشار البروتستانتية وإلى إنعاس الكنيسة الكاثوليكية، فهذه الجماعة في حقيقة الأمر تعتبر الجيش السلمي للكنيسة الكاثوليكية¹.

رابعاً : موقف الكنيسة من الحركة.

قام لوثر بتعليق احتجاجه الذي ضمّ 95 فرضية على باب كنيسة وتبرج الذي يمس بالدرجة الأولى السّلطة البابوية².

لقد كان البابا "ليو العاشر" يعتقد في أوّل الأمر أنّ ما حدث عبارة عن شجار بين الرهبان يمكن حله دبلوماسياً، لكن ظهر فيما بعد أنّ ما يقوم به لوثر هو تحدي لسّلطة الكنيسة والبابا ورفض مبادئ الكنيسة الكاثوليكية.

فيقول محمد الصالح عن ذلك : « لهذا فإنّه عمل يفرط في البعث على الانشقاق »³.

ثمّ يذكر محمد أبو زهرة في قوله : « ومنح لوثر مدّة شهرين للتراجع أو يصدر بحقه أمر الحرمان، وقد قام البابا بتوجيه دعوى للحضور لمحاكمة لوثر أمام محكمة التفتيش التي كانت تدبيراً اتخذته المحامع ذريعة للقضاء على مخالفيها »⁴.

وهنا نجد بعض الأمراء يتدخل فيوصي بأن لا يجيب طلبها، فلم يرا البابا من أن يصدر قراراً بحرمانه في 01 ديسمبر 1508م، هذا ما جعل لوثر يستند في دعوته ويهاجر بالاستهانة بأمر الحرمان، فقرّر حرقه وسط وتبرغ، أمام مجموعة من الحشود وبقي على السّلطة المدنية أن تنفذ قرار الحرمان الذي أصدره البابا عندها حرم لوثر من الحقوق المدنية والقانونية⁵.

على الرّغم من صدور قرار الحرمان من جهة الكنيسة إلاّ أنّ لوثر تمكن من المضي في

1 - عمر عبد العزيز عمر : المرجع نفسه، ص 122.

2 - عبد الغني عبود : المسيح والمسيحية والإسلام، ط1، م []، دار الفكر العربي، 1984م، ص 139.

3 - محمد محمد الصّالح : تاريخ أوروبا من عصر التّهضة وحتى الثورة الفرنسية، ص 183.

4 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التّصراية، ص 203.

5 - محمد أبو زهرة : المرجع نفسه، ص 203.

دعوته¹. وقد ردّ لوثر على قرار البابا بالحرمان بكتابة رسالة عن "الأسر البابلي" حيث أظهر فيها ضعف الكنيسة ومفاسد نظمها.

كما كتب عن البابا رسالة عن الحرية المسيحية، أظهر فيها مفاسد رجال الدين، وخذعهم للمسيحيين وضرورة مقاومتهم، فتمت القطيعة بين لوثر والكنيسة الرومانية بلا رجعة².

وقد عقد مجمع ورمز 1521م لمحاكمته، وطالب فيه لوثر بضرورة الرجوع عمّا بادر إليه، وحاول أن يقنعه بخطئه هذا إلا أنّ لوثر رفض المثول لطلب البابا، وانتهى المجمع من غير نتيجة في هذا، لكن الإمبراطور أعلن حرمانه من الحقوق المدنية، ويتدخل في هذه الأثناء أمير سكسونيا لحمايته³.

يذكر أحمد بن نعمان بقوله: « ففي أوروبا وبالتدقيق أثناء ظهور الأفكار الإصلاحية بما بزعامة المصلح الديني "لوثر" فإنه قد أقدمت الكنيسة الكاثوليكية على اضطهاد أتباعه من البروتستانتين، ولم يكن حال الكاثوليكية أحسن حالا بعد أن تولى البروتستانتيون زمام الحكم في بعض البلاد الأوروبية، فكانوا ما قاموا به هو الاضطهاد كذلك، ففي عهد إليزابيث حرّمت على الكاثوليكين إقامة الشعائر الدينيّة، وحطمت الصّور المقدّسة⁴ ».

ففي أيرلندا حيث البروتستانتية إلا في الشّمال. أمّا الجنوب الكاثوليكي، وهو ما أشعل نار التّعصب وأباح استثمار أيرلندا ومصادرة أموال الكنائس الكاثوليكية... واسترقاق الأيرلنديين واضطهادهم، وذلك بغرض الضرائب، خاصة منذ النّصف الثاني من القرن السّادس عشر، وهو التّاريخ الذي بلغ فيه التّعصب أوجّه حيث فصل فيه بين البروتستانت الممتاز، وبين الكاثوليكي المستحقر، والمستضعف إلى درجة تحريم إرثه لواحد من عائلته إن كان بروتستانتياً⁵.

- نتائج الحركة الإصلاحية لمارتن لوثر :

لقد قامت حركات إصلاحية قبل لوثر، كحركة آريوس ونسطور وغيرها، لكن آلت هاتين الحركتين إلى الزّوال والاندثار، ولم يبق لها إلاّ ضلال قليلة وإن كانت لها ظلال في ثنايا التّاريخ

1 - صالح أحمد هريدي : تاريخ أوروبا الحديث، ط []، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ت []، ص 140.

2 - جلال يحيى : التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج1، ص 482.

3 - Joseph Lortzm : Histoire de l'église, petite bibliothèque bayrot, saint germanain, paris, 1962, p 223

4 - أحمد بن نعمان : التّعصب والصّراع العرقي واللّغوي لماذا وكيف ؟، ط2، الجزائر، دار الأمانة، 1997م، ص 135.

5 - فحور عنتر : الاضطهاد الديني المسيحي للمسلمين (محاكم التفتيش نموذجاً)، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير، ص 16.

وتفكير الأذكياء الموهوبين الشجعان.

يرى كثير من الباحثين أن الحركة نجحت، بالإضافة إلى أن هذه الحركة قد ساعدها الزمن الذي ظهرت فيه، حيث صادفت اكتشاف أمريكا، فدخلت إلى هذه البلاد مع أتباعها من إنجلترا وغيرها¹.

وقد سئم الناس المظالم التي ارتكبتها محاكم التفتيش، كذلك سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية، فمنذ اللحظة الأولى جذبت دعوة لوثر الفلاحين إليها، ورأوا فيها منفذا للخلاص من ظلم الإقطاع بشكليه الروحي والزمني، كما رأوا في لوثر زعيما روحيا، ومصالحا اجتماعيا ولربما يتبنى قضيتهم ويدافع عنها².

كما أن الإنسان في بداية العصور الحديثة، بدأت تهيمن على تفكيره الآراء والأفكار الحرّة، كما شرع في استخدام عقله في الحكم على الأشياء، ولم تعد العادات والتقاليد الدينيّة مقبولة لديه، بل أنّها قد رفضت خاصة تلك العادات والتقاليد التي استجذت على المسيحية إبان العصور الوسطى³.

كذلك لم يدخل الإمبراطور فعليا لمقاومة الحركة، إلا بعد انقضاء ثلاثين سنة من قيامها وبعد أن ازدادت قوة الحركة وأنصارها.

كما أن الدول الأوروبية الأخرى لم تتدخل في شؤون ألمانيا في هذه الفترة، بل كان الصراع بين لوثر وأنصاره من ناحية والبابا والإمبراطور من ناحية أخرى، وادّعى لوثر أن ألمانيا ينبغي أن تكون للألمان فحسب، ومن هذه الزاوية تعتبر حركة لوثر ذات جانب قومي، فقد رحب الألمان لهذه الفكرة بسبب معاناتهم من التدخل الخارجي لفترة طويلة من الزمن، وقد كره الألمان البابا لأنّه إيطالي، والإمبراطور لأنّه إسباني، وساعد شعور الكراهية هذا على التفاف العناصر الألمانية حول لوثر⁴.

وهكذا لم يعد في نظر الألمان مصالحا دينيّا فقط، بل زعيما قوميا أيضا، لهذا السبب نجحت دعوته، لأنّها دعوة إلى التحرر من السّيّطرة الأجنبية.

1 - أحمد شلي: مقارنة الأديان، ج2، ط8، ص 261.

2 - سلامة موسى: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، ط []، بيروت، دار العلم للملايين، 1967م، ص 149.

3 - ميلاد القرخي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عهد النهضة إلى الحرب العلمية الثانية، ص 60.

4 - ميلاد القرخي: المرجع نفسه، ص 60.

وفي الحقيقة أن جزء كبيراً من قوّة لوثر تكمن في كونه ألمانياً، فقد انعكست في مزاجه العاطفي كل عناصر القوّة والضعف في الشخصية الألمانية، حينما هاجم صكوك الغفران لم يعبر كما كان يجول بخاطر الألمان فحسب، بل أنّه عبّر كذلك عن الرّأي الصّائب في داخل الكنيسة الرومانية ذاتها¹.

ويذكر محمد منير مرسى بعض المجالات التي نجحت فيها الحركة :

- ظهور الاهتمام باللغات الكلاسيكية، وهو أمر شاع في عصر النهضة لأهمية هذه اللغات لقراءة الكتاب المقدّس، وكتب السّالفيين باللّغة الأصلية، ومن ناحية أخرى كان هناك اهتمام باللغات المحلية لأغراض دينية أيضاً، حيث قام لوثر بنشر ترجمة للإنجيل باللّغة الألمانية المحليّة². وكان لوثر يهدف إلى ترجمة الإنجيل أكثر من التلميح، وكانت نفس الفكرة لدى قائد بروتستانت في تعليمه للجماهير بلغتهم المحليّة، ومن النّسخة المحليّة من الكتاب المقدّس. كما ترتّب عن الإصلاح الاهتمام بدراسة الدّين وتنمية عاطفة الولاء والحب للكنيسة البروتستانتية.

كما يضيف أبو الحسن الأشعري من إيجابيات الحركة بقوله : « كما انتشرت المدارس الدّينية العامّة التي تفتح أبوابها مجاناً لكل الأطفال، لكي يتعلّموا فيها قراءة الإنجيل، تفسيره وشرحه باعتبار أنّ هذا هو الطريق إلى السّعادة الأبدية، وقد قام بإنشاء هذه المدارس والهيئات الدّينية المختلفة³.

ومع هذا فقد ظلّ للكنيسة رقابتها على التّعليم، باعتبار التّربية وظيفتها لها، لاسيما في البلاد الكاثوليكية، ومنها فرنسا، إيطاليا وإسبانيا.

كما اهتم لوثر بمواصفات المعلّم بأن يكون جيّد الإعداد، ويجب احترام كرامته وأن يعمل بترخيص من الدّولة، وشهدت هذه الفترة إنشاء أول مدرسة لإعداد المعلّمين في العالم سنة 1684م في ريمز "Rheims" وقد أنشأها "دي لاسان" مؤسس مدارس الأخوة المسيحية⁴.

1 - ميلاد القرخي : تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عهد النهضة إلى الحرب العالمية الثانية ، ص 61.

2 - محمد منير موسى : تاريخ التربية في الشّرق والغرب، طبعة منقّحة مزيدة، القاهرة، مكتبة العبيكان، ص 374.

3 - أبو الحسن الأشعري : الإبانة في أصول الدّيانة، ط []، م []، دار القارئ للطباعة والنّشر، 1991م، ص 43.

4 - Pierre champion paris au temps de la renaissance paganisme et reforme fin du règne de François Henri, avec une gravière hors texte galmans, Perry éditeurs, paris, 1936, p 36.

هذا عن بعض النجاحات أو النتائج الإيجابية التي حققتها الحركة، لكن في المقابل هناك بعض النتائج السلبية التي أسفرت عن هذه الحركة، وتوضح جليا من خلال تمعننا في فهم الحركة، حيث نجد أنها فشلت من ناحيتين

1 - لم تستطع تقويم الكنائس التي كانت قائمة، ولم تفلح في التغلب على البابا وأفكاره وأتباعه، فاقتنعت بإنشاء كنائس لها تظهر فيها المبادئ الإصلاحية التي اعتنقتها، وتركت آلاف الكنائس الأخرى تسيير على النحو الذي كانت تسيير عليه من قبل¹.

2 - كما كانت الحركة إصلاحا للكنيسة لا إصلاحا للمسيحية، الفرق بين الموضوعين كبير ومعنى هذا ؛ أن مارتن لوثر ومعاصريه هو معارضة الكنيسة في ذلك العهد أما البحث في الأشياء الهامة التي أدخلت على المسيحية الأصلية فلم يكن موضوع الإصلاح عن لوثر ومعاصريه. لقد تلقى لوثر ومعاصروه من المسيحية والأجيال السابقة واعتنقوها تقريبا كما هي². ولم يثوروا إلا على ما ابتدعه الكنيسة في عهدها الأخير، كغفران النشئات، الاستحالة، حق تفسير الكتاب المقدس والتشريعات غير المكتوبة التي يتوارثها البابوات³.

وعلى هذا بقيت موضوعات ضخمة لم يتطرق لها الإصلاح وذلك مثل

1. التثليث.

2. صلب المسيح للتفكير عن خطيئة الشر.

3. ما الكتاب المقدس ؟ ومن هم مؤلفوه ؟ وما هي الصلة بين الإنجيل ومؤلفيه ؟ أين الإنجيل عيسى ؟

مدى سلطة الجامع في اتخاذ قرارات تتعلق بأسس الدين وبهذا كان نجاح الحركة الإصلاحية فيما يعتقد محدودا للغاية.

يعلق أحمد شلبي عن ذلك بقوله : « بقي القول أن الكاثوليكين يقولون : " أن لوثر من أصحاب البدع والأضاليل، وأنه هو وأمثاله عن طريق الإيمان " »⁴.

1 - أحمد شلبي : مقارنة الأديان، ج2، ص 260.

2 - Petite Encyclopédie Larousse librairie la rousse, histoire des hommes, paris, 1976, p 591.

3 - أحمد شلبي : مقارنة الأديان، ج2، ص 95.

4 - أحمد شلبي : مقارنة الأديان، ج2، ص 95.

وملخص القول هو أنه كما أن الكنيسة بقيت في واد ودعوة الإصلاح في واد آخر، كما عجزت الكنيسة عن القضاء على هذه الحركات لكن هذه الحركات أيضا عجزت عن تحويل تفكير الكنيسة وكانت نتيجة ذلك أن أنشأت الحركة الجديدة كنائس لأتباعها سميت الكنائس البروتستانتية.

1 - حركة زوينجلي أو لريخ :

لقد فشل أباطرة الرومان منذ أواخر العصور الوسطى في إحكام السيطرة الفعلية على المقاطعات السويسرية، مع أن الاتحاد السويسري يخضع لسيادة الإمبراطور الاسمية. فلقد مهدت الأوضاع السياسية والاجتماعية في المقاطعات السويسرية لخلق بذور حركة معادية للكنيسة الكاثوليكية¹.

ففي الوقت الذي كان يغالب فيه لوثر الكنيسة وأنصارها من ذوي السلطان، كان في سويسرا صوت قوي آخر ينادي بما يقارب ما نادى به لوثر، ذاك هو زوينجلي (1484-1531م)²، وهو سويسري الأصل درس اللاهوت، وآلم بفلسفة القرون الوسطى، وحصل على درجة البكالوريوس، ودرجة الماجستير من جامعة "باسيل"، ثم عُيِّن راعيا لأبروشية "جلاروس"⁴، ثم عُيِّن قسيسا مرافقا للجنود السويسريين الذين يجاربون في صفوف القوات البابوية⁵، ثم عُيِّن واعظا في إينسبدلن، وترامت شهرته في الخطابة إلى مدينة زيورخ، وبرز اسمه منذ ذلك التاريخ بروزا واضحا قويا في الأوساط الدينية والسياسية والاجتماعية في المقاطعة -على حد قول عبد العزيز محمد الشناوي-⁶.

سنة 1516م، كانت بداية وقت الإصلاح في سويسرا، ومما أثر فيه ما عرفه من البدع البابوية تأثيرا كالتأثير الذي كان في لوثر مما شاهده في رومية⁷. ابتدأت ثورة زوينجلي وأخذ الإصلاح ينتشر في سويسرا وكانت زوربخ مركز الحركة⁷. ابتدأت ثورة زوينجلي

1 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ص 127.

2 - محمد أبو زهرة : محاضرات في التصراية، ص 250.

3 - فاروق عثمان أباطة : دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص 230.

4 - مدينة في سويسرا، وهي عاصمة مقاطعة تعرف بهذا الاسم.

5 - جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، ج4، ص 163، 164.

6 - عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص 462.

7 - جميل مدبك : موسوعة الأديان في العالم، ج5، ص 113 - 124.

بالثورة على صكوك الغفران، وآراؤه في الحملة تتقارب من آراء لوثر، ولقد كان يرى أن العشاء بروحه فقط¹. كما جاء في الكتاب المقدس: « وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسّر وأعطى التلاميذ، وقال: " خذوا كل هذا هو جسدي " وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم، لأنّ هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا»².

وهو ما ذكره توماس اليسوعي، بأن زوينجلي انفصل عن لوثر في مسألة حضور المسيح في عشاء الأفخارستيا³.

إضافة إلى ذلك يذكر جلال يحيى بعض إنجازات زوينجلي فيقول: « هاجم المطالبون بإعادة التعميد وكان يسير في ذلك على خطى لوثر، في عام 1523م نشر خمسا وستين رسالة تعتمد في أساسها على الكتاب المقدس، نادى فيها بوضع حدّ لعبت رجال الدين، وذلك بإشراف الحكومة على الكنيسة، كما طالب أيضا بجل الأديرة، وهاجم تحريم الزواج على رجال الدين، وعهود الرهبنة واستعمال اللاتينية في الصلوات في الكنيسة، وغيرها من مسائل العقيدة⁴.

كما يضيف ول ديورانت إلى المبادئ السابقة؛ أنه من أهم المبادئ التي نادى بها زوينجلي أنّ الكتاب المقدس -عندهم- يجب أن يكون هو القائد والمعلم، وأكد على أنه لا أساس للسلطة الروحية التي يطلق عليها اسم (الكنيسة) في الكتاب المقدس وفي تعاليم المسيح، وأنكر عقيدة المطهر، وقال إنّها خرافة⁵.

وعمل بذلك على الانفصال التام عن روما⁶.

لكن زوينجلي سرعان ما قاد حركة إصلاح ديني انتهت إلى نتيجة مهمة لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم وهي انشقاق مقاطعات بأسرها من مقاطعات الاتحاد السويسري على كنيسة روما، وانقسام سويسرا إلى فريقين: فريق بروتستانت من أنصار زوينجلي، وفريق كاثوليكي،

1 - محمد أبو زهرة: محاضرات في التصرانية، ص 250.

2 - مت: 26 / 26 - 28.

3 - توماس ميشال اليسوعي: مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 97.

4 - جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص 484.

5 - ول ديورانت: قصة الحضارة، مجلد 6، ج3، ص 113.

6 - جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ص 484.

وقامت الحرب بينهما، وقتل زوينجلي في موقعه كايل سنة 1531¹.

مما سبق نستنتج أن الفوارق الواضحة لم تظهر بين المذهبيين الزوينجلي واللوثري في بادئ الأمر، ولكن عندما بدأ زوينجلي تحديد مذهبه تحديداً دقيقاً بدأت الفوارق تبدو واضحة بعض الشيء إلى أن انتهى الأمر بوجود خلافات أساسية بين المذهبيين مثل: اختلافهم حول مسألة العشاء الرباني، حيث أن لوثر أصر على رأيه لا يوجد أي حضور محلي أو جسدي سواء عن طريق التحول الجوهرية أو الاختلاط الجوهرية كما أن حركة مارتن لوثر كانت محافظة، بينما كانت الحركة الزوينجالية ثورة ديمقراطية وهذه نقطة خلاف بين الحركتين.

ونلاحظ في دعوة زوينجلي هذه؛ وإن كانت تتلاقى في مبادئها في الجملة مع مبادئ لوثر كانت منفصلة عنها، فلم تتوحد الدعوتان بل كانت كلتاهما تعمل في محيط إقليمها، ذلك أن زوينجلي كان أكثر تطرفاً من لوثر، وأكثر منه تنوراً وأقل منه تأثراً بآراء العصور الوسطى. فكان عقل زوينجلي مخالف لعقل لوثر في بعض الأمور، وكان أكثر ميلاً إلى حفظ الأتحد بالكنيسة العامة والبقاء على تقاليد القرون الماضية، وعلى الرغم من ذلك كان أنصار الإصلاح مع ما بينهم من الخلافات في العرضيات يبذلون الجهد في نقض البدع البابوية.

3 - حركة جون كلفن :

في الوقت الذي كان فيه الإصلاح اللوثري قد هيمن على العديد من مناطق ألمانيا، ظهرت في فرنسا مجموعة من تلاميذ ارازمس كانوا يزعمون الإصلاح من الداخل من دون الانفصال عن روما، لكنهم فشلوا نتيجة الاضطهاد والتشدد الكاثوليكي فيما بعد ظهرت حركة إصلاح أكثر فاعلية، هي حركة الإصلاح الكالفيني².

ولد كلفن³ في نوايون Noyon بمقاطعة بيكارديا في شمال فرنسا الشرقي في 10 جويلية سنة 1509م، توفي في جنيف بسويسرا في 27 ماي سنة 1564م، وكان أبوه مندوبا "Procureur" كنسيا مكلفا بالإشراف على ممتلكات الكنيسة في ذلك البلد، وفي سنّ الحادية عشر دخل كلية الكابت في بلدة نوايون⁴ فكرسه أبوه للكنيسة وأراد له تكويناً قانونياً، فكان يتابع دراسته في

1 - محمد عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص 135.

2 - Cours J monnoi : Histoire les temps modernes ferman, mathanetien, paris, 1956, p 61.

3 - كلفن : هو الزعيم الثاني للبروتستانت ولوثر الأول.

4 - عبد الرحمن بدوي : الموسوعة الفلسفية، ج2، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ت []، ص 1984.

جامعة باريس، ومن ثمّ في جامعة أورلين وبون¹.

وقد كان تحوّل كلفن من الكاثوليكية إلى البروتستانتية تحوّل مفاجئ كما صرّح كلفن بنفسه².

وفي أثناء الدراسة اتّجه كالفن إلى المسائل الدينيّة، وهي التي شغلت المفكرين في عصره، اعتنق المذهب اللوثيري، واعتزل وظيفته الدينيّة في ماي 1534م، تنقل كلفن بين مدن بال في سويسرا، وفرار في إيطاليا، وسترا سبورج في ألمانيا.

واتخذ جنيف مقراً له، وظلّ مقيماً منذ أواخر سنة 1536م، حتى توفي باستثناء ثلاث سنوات من 1538م، إلى 1541م³.

ينطلق مذهب كلفن من عقيدة لوثر المتضمن ثلاث مبادئ :

- الكتاب المقدّس هو المرجع الوحيد لجميع المسائل الدينيّة.
- السيّد المسيح وحده هو الذي يشفع للناس عند الله.
- التبرير بالإيمان فقط وليس الأعمال⁴.

ألّف كلفن كتابه الرئيسيّ نُظم الديانة المسيحيّة، ونشره باللّغة اللاتينية في سنة 1536م، والذي أورد فيه تعاليمه⁵.

إنّ أخصّ ما ميّز تعاليم كلفن القول بالقدر، مع الدّعوة إلى تأسيس (مجمع ديني رباعي منتخب) يضمّ في صفوفه مشايخ الطائفة وكبارها والمرشدين والشمامسة من صغار القسس، تكون مهمته الإشراف على تطبيق الإيمان والأخلاق النّقية المؤسسة على المرجعية الكتابية⁶.

كان كلفن مثل لوثر بإيمان مظلم، ينطلق تفكيره هو نفسه لدى لوثر. فيعتقد أنّ الإنسان لن ينجو أمام الرّب إلاّ بالإيمان وحده، وليس بالأعمال، فالإنسان كما يقول كلفن : كائن ضعيف بذاته غير قادر على الحصول على العفو الرّباني، ومن دون شك، فالإيمان وحده هو الذي ينجيه،

1 - Cours Monier : Op. cit. p 73.

2 - عبد المنعم حنفي : المعجم الشّامل لمصطلحات الفلسفة، ص 155.

3 - هوريت فشر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ص 153.

4 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النّهضة)، ص 131.

5 - عبد المنعم حنفي : المرجع السابق، ص 676.

6 - عرفان عبد الحميد فتّاح : النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ص 152.

والإيمان بجد ذاته هبة من الرب يمنحها لبعض رعاياه الذين اختارهم، وآخرون حكم عليهم بالهلل الأبدى¹.

ذهب كلفن إلى أبعد ما ذهب إليه لوثر، فقد قاده عقله المنطقي والقانوني إلى الحدود القصوى في أفكاره، فقد جرّد الكنائس من كل زينة وأبهة، بجدران عارية لا يرى فيها سوى الكتاب المقدس موضوعا على منضدة كما لم يبق سوى سرّين: التعميد والقربان المقدس².

كما يرى كلفن -على حد قول محمد أبو زهرة- «أن الكنيسة يجب أن تحكم نفسها بنفسها، وأن المسيح لا يحضر لا يشخصه، ولا بروحه في العشاء الرباني، ويعتبر تناول العناصر المادية رمزا للإيمان»³.

فلقد فصل بين الكنيسة والدولة، واعتبر أن للكنيسة مهمتها الروحية، بينما للدولة مهمتها الزمنية، ومع ذلك فالكنيسة بالنسبة للدعوة الكلفينية لا تعتبر خاصة برجال الدين فحسب، بل يجب أن تكون مؤسسة للجميع يشترك فيها العلمانيون مع رجال الدين في إدارة شؤونها، إذ أنه على الكنيسة أن تضع القواعد الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق، والدولة تدعّم وتراقب أخلاق الأفراد⁴.

ويذكر لذلك محمد عبده في قوله: «استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة، وقد أمر كلفن بإحراق (سيرفيت) في جنيف لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقية، وكان يقول: إن روح القديس يعيش الطبيعة بأسرها، فكان جزاؤه على هذا أن شوي على النار حتى مات»⁵.

توسعت الكلفينية وبرزت في جنيف، وانتشرت في أوروبا وخاصة في فرنسا هولندا وإيكوسيا، وفي البلاد المنخفضة التي كانت تابعة لإسبانيا، بينما انتشرت في إيكوسيا على يد جون نوكس⁶.

1 - Cours Jmonnai : Histoire les temps modernes, p 73.

2 - نور الدين خاطوم : تاريخ النهضة الأوروبية، ص 182.

3 - محمد أبو زهرة محاضرات في التصراية، ص 182.

4 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ص 132.

5 - محمد عبده : الإسلام والتصراية بين العلم والمدنية، تقديم وتعليق : رشيد رضا، ط []، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ت []، ص 35.

6 - نور الدين خاطوم : المرجع السابق، ص 189.

فأوجه الشبه بين تعاليم تلفن ولوثر فقد كانت حول الإيمان بالقضاء إذ لا يستطيع أحد أن ينكر أن الله عرف مصير الإنسان النهائي في المستقبل، قبل أن يخلقه أو أنه عرفه سلفاً، لأنه قد قضى به في حكمه¹.

وتتميز الكلفينية عن اللوثرية كونها المعروفة "بالمصلحة" التي تؤمن بقضاء الله الأبدي، وتختلف عن الكثلكة في أمور أساسية منها : التمسك بأن الخلاص يتم بالمختارين فقط، وأنه عطية من عند الله، ولا تكتسب بالأعمال الصالحة، وكذلك الاختلاف بين كلفن ولوثر ؛ أن لوثر كان ينادي بضرورة سيطرة الدولة على الكنيسة، بينما كلفن يرى عدم سيطرة الدولة على الكنيسة². يصرّح ول يورانت بأن كلفن يتفق مع لوثر وزوينجلي في أهم مبادئها³، وقد تفوق عليهما في انتشار آرائه، وذيوخ صيته وتأثيره القوي لدرجة أنه لقب بـ "المصلح الولي الوحيد"، صحيح أن لوثر - كما يقول جون لوريمر - هو الذي قام بأعظم مواجهة درامية مع روما ... إلا أن كلفن هو الذي نظّم وعزّز جهد الإصلاح ليتسع انتشاره ويصل إلى ما وراء حدود جنيف وسويسرا نفسها⁴.

وما نلاحظ أن الكنيسة بقيت من واد، ودعوة الإصلاح في واد آخر، وعجزت عن تحويل تفكير الكنيسة، فكان هدفها تجديد الكنيسة لكنّها أدت إلى قيام كنائس منفصلة عن الكنيسة الكاثوليكية.

- الكنائس البروتستانتية اليوم :

جاء في كتاب "موسوعة عالم الأديان" : "بين نشوء الإصلاح الديني في القرن الخامس عشر، وعصرنا الحاضر، تعدّد نشوء وتأسيس الكنائس الإنجيلية والبروتستانتية في مختلف أقطار العالم، وأبرز هذه الكنائس :

1. الكنيسة المورافية أو كنيسة الإخوة المتّحدين سنة 1457م.
2. الكنيسة الاتعليكانية أو كنيسة انجلترا 1534م.

1 - محمد مخزوم : المرجع السابق، ص 131.

2 - محمد شقيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة، مج 2، ط []، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، دار الجليل، 1955م، ص 212.

3 - ول ديورانت : قصة الحضارة، مج6، ج3، ص 214.

4 - جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، ج4، ص 264.

3. الكنيسة المصلحة الأمريكية أو الهولندية سنة 1571م.
4. الكنيسة البروتستانتية الأسقفية سنة 1607م.
5. الكنيسة المصلحة الإنجيلية 1747م.
6. الكنيسة اليونيفر سالية 1790م.
7. الكنيسة الميثودية الوسلية 1703م.
8. الكنيسة الإنجيلية للإخوة المتحدين سنة 1807م.
9. الكنيسة الميثودية سنة 1810م.
10. كنيسة يسوع لقديسي آخر الأيام سنة 1830م.
11. كنيسة اسكتلندا الحرة سنة 1843م.
12. الكنيسة المشيخية المتحدة سنة 1858م.
13. الكنيسة المصلحة الأسقفية سنة 1873م.
14. الكنيسة الميثودية المتحدة سنة 1932م¹.

- خلاصة :

- من خلال دراستنا لموضوع الإصلاح البروتستانتي خلصنا في الأخير لعدة استنتاجات منها :
- أنه حقاً كان لشخصية مارتن لوثر كبير الأثر في بعث الحركة الإصلاحية.
- إضافة إلى أن ظهور البروتستانتية كانت ربحاً للحرية الفردية لأنها وإن ظلمت إلا أنها شجعت الناس وحررت فكرهم وتولدت لهم الجرأة على دعاوى الكنيسة.
- تحرير البحث الديني نسبياً من القيود الاستبدادية التي كان يضعها البابا.
- لقد أثارت حركة الإصلاح الديني قضية هامة وهي العودة إلى الإنجيل الذي ينير الطريق المسيحيين للسير وفق العقيدة السليمة.
- كما كانت البروتستانتية لا تزال علامة من علامات عظمى حركة لوثر الإصلاحيين الذي بعث وأنشأ صرح جديد للمسيحية تحي في إطار جديد وكنيسة جديدة أيضاً.
- يمكن القول بأن أول مستفيد من خروج لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية، واستقلاله بمذهب

1 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب مفرّج : موسوعة عالم الأديان، ج 16، ط [1، 2]، بيروت، Nobilis 2004 - 2005، ص 163.

جديد، هي الكنيسة الكاثوليكية نفسها، فكنيسة روما عندما رأت الصدمات تتولّى عليها، ونصف أوروبا عندما ينشقّ عنها ويعمل على استبعادها وإزالتها من الوجود اضطرت للاعتدال، فألغت بيع صكوك الغفران وتخلّت محاكم التفتيش عن قساوتها.

— كذلك يمكن اعتبار أنّ اليهود أيضا استفادوا من حركة لوثر وثورته على الكنيسة، وذلك أنّ النصارى دمّروا بأيديهم بعضهم لبعض.

— كما أنّ لوثر أحيى العهد القديم بعد أن أصبح جثة هامدة.

كذلك يمكننا نقد هفوات الإصلاح من خلال نموذج حيّ وهو "المسيو إيتين دينيه" الفرنسي الرّسام، فقد توصل بعقليته وإحساسه المرهف إلى أنّ الإسلام هو الدّين الحقّ، وذلك عندما توصل الرّجل إلى قمّة الفن، وصارت له لوحات في جميع متاحف العالم أرادت عبقريته الفنيّة أن تختم فنّها برسم وجه الله، فأخذ الرّجل يقرأ الكتب المقدّسة، وبما أنّه مسيحي قرأ الإنجيل فما أعجبه وجه الله فيه، لأنّه رجل عجوز عاجز قد علت وجهه تجاعيد الهرم، فتوجّه إلى التوراة فوجد فيها الله أفعى تحب أن تؤذي العالم دائما، ثمّ توجه إلى القرآن، فارتحل إلى الجزائر ليتعلّم العربية، فوصل إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ فأحست عبقريته الفنيّة بأنّها وصلت إلى الحقيقة في الله، فأعلن إسلامه في المسجد الكبير بالجزائر عام 1927م. ذلك هو البحث الصّحيح، والدّراسة السّليمة ثمّ يقول رؤوف شليبي: « وعلى كلّ فما كنّا نطمع مع لوثر، ولا من كلّفن، أن يكونوا مثل المسيو إيتين دينيه، ولكن كنّا نطمع -من ناحية عظيمة بحتة- أن يكونوا مثل أولئك الدّين بحثوا عن الحقيقة فوجدوها وإن لم يدخلوا فيها، لذلك فأنا أسمي إصلاح لوثر وأصحابه بالإصلاح المبتور لأنّه لم يصل إلى نهايته العلمية كما يجب أن يكون ذلك، من أجل العلم والحق فقط الهادي وحده هو الله ربّ العالمين»¹.

— **المطلب الثاني: الإصلاح الكاثوليكي المضاد.**

الفرع الأول: ردّ فعل الكنيسة الكاثوليكية.

تزامنت الحركة البروتستانتية مع ظهور الرّغبة في الإصلاح في الكنيسة الرّومانية، وتمّت المبادرة الأولى عن يد بعض الرّهبان والعلمانيين، وأحيانا عن يد بعض الأساقفة. وفي آخر الأمر،

1 - رؤوف شليبي: أضواء على المسيحية (دراسات في أصول المسيحية)، ص 139.

توصّل الكرسي الرسولي بمشقة كبيرة إلى عقد مجمع في ترانتو (Trente) سنة 1545. ولم ينته غلاً بعد ثماني عشرة سنة، تخلّلتها توقّفات طويلة، ولم يُعمل بقراراته إلاّ شيئاً فشيئاً. وفي فرنسا، لم تدخل حيّز العمل إلاّ في القرن السابع عشر.

عندئذ تنظّمت الكنيسة الرومانية التقليدية، وحافظت على ملامحها حتّى الأيام التي سبقت المجمع الفاتيكاني، ومع ذلك، لم تخل هذه الكنيسة (الكاثوليكية) ¹ التّقليدية من معاناة الأزمات والصعوبات ².

إزاء حركة المنشقّين ومواجهة لتحديّاتها ومحاولة لمحاصرة مخاطرها السلبية، وانطلقت حركة تسعى إلى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية ³ من الدّاخل سُميت "الإصلاح المضاد" ⁴، ولقد فضّلوا تسميتها الإصلاح الكاثوليكي الروماني ⁵.

يذكر جان كمبي أنّ أوّل حركة هي إصلاح الأعضاء بأنفسهم فيقول: « لا غرو أنّ التّحمّس والقلق الدّيني خلفاً بعض رجال الإصلاح الذين انفصلوا عن رومة، لكن في الوقت نفسه أدّيا إلى القيام بعدّة محاولات إصلاحية في داخل الكنيسة الرومانية. وكثيراً ما انطلقت هذه الجهود من القاعدة، فالأمانة للدّعوة الفرنسيكانية ولدت سنة 1526 فرعاً رهبانياً جديداً، هم الكبوشيون، كما أنّ أخويّة كانت تضمّ أشخاصاً من العلمانيين والكهنة، هي "ندوة المحبّة الإلهية"، أخذت تنتشر في عدّة مدن إيطالية، منذ مطلع القرن السّادس عشر. وكان أعضاؤها يصلّون معاً ويهتمّون بالفقراء والمرضى، وانضمّ إليهم بعض الأساقفة» ⁶.

فحركة الإصلاح - كما يذكر نور الدّين حاطوم- لبثت في روما مدّة طويلة دون أن تبدي حراكاً، وذلك لأنّ الحروب المستمرة منذ 1519 حالت دون انعقاد مجمع ديني يعيد إلى الكنيسة وحدتها بإصلاح داخلي فيها وفي عقائدها فضلاً عن الكرسي الرسولي نفسه كان منهمكاً في

1 - الكنيسة الرومانية الكاثوليكية : هي التي تخضع لسلطة البابا والكرادلة الذين يعتبرون أصحاب الحقّ الأول والأخير في تنظيم الكنيسة وهي تقول بمذهب الطبيعيتين والمشيئتين ، عدد أتباعها 500.000.000 سنة (حسن علي حمد : قاموس المذاهب والأديان، ص 167).

2 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 243.

3 - عرفان عبد الحميد فتاح : النصرانية نشأتها وأصول عقائدها، ص 154.

4 - هُي نجار : موسوعة الأديان السّماوية والوضعية، ج6، ص 165.

5 - عرفان عبد الحميد فتاح : المرجع السّابق، ص 154.

6 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة.

السياسة كسائر الأمراء.

حتى أن مجمع لاتران، الذي انعقد عام 1512م، ضمّ ما يقرب من مئة حبر، لم يبد أي رغبة في تعديل الحالة الداخليّة للكنيسة، ولم يحدث أيّ إصلاح جوهرى يستحق الذكر فقد سلّم البابوات أمر إدارة الكنيسة إلى السّلطات الزمنية وتركها تغتصب وظائف ليست من اختصاصها، ففي إسبانيا مثلاً نُظمت محكمة التفتيش من قبل الملك فرديناند والملكة إيزبيل عوضاً عن أن تقوم الكنيسة بمثل هذا العمل، وفي 1516م، وقعت كونكوردات بين البابا ليو العاشر، والملك فرنسوا الأول وترك البابا إليه أمر تعيين الأساقفة والآباء¹.

أمّا توماس ميشال اليسوعي بيّن أنّ الكنيسة الكاثوليكية اضطرت إلى الاعتراف بصواب العديد من التّهم التي وجهها إليها المصلحون، ورأى الكثيرون من أبنائها أن التّجاوزات التي اعترض عليها المصلحون هي حقيقة راهنة وينبغي الكفّ عنها دون إبطاء، ومن وجهة ثانية، لاحظ الكاثوليك أنّ المصلحين أهملوا باندفاعهم الإصلاحى، عناصر أساسية من الإيمان المسيحى، ومن ثمّ انطلقت حركة تسعى إلى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية "من الداخل"، سُميت "الإصلاح المضاد"².

وإنّ ما قام به البابا بولس الثالث (1593-1549) من محاولات في تقريب وجهات النّظر بين أنصار الإصلاح والكاثوليكين، لم يؤدّ إلى حلّ يعيد المنشقّين إلى حضن الكنيسة الرومانية. وتبنّى البابا بولس الثالث هذه واتخذ لإصلاح الكنيسة ثلاثة إجراءات وهي :

1. الاعتراف بجمعية اليسوعيين.
2. تنظيم محاكم التفتيش.
3. عقد مجمع ترانت عام 1545م³.

ومع كون هذا الإصلاح المضاد قد بقي أسيراً للنّظم والتقاليد التي كانت سائدة بعكس ما اتّصفت به الحركة البروتستانتية من ثورية تناولت أسسها العقيدة نفسها. وكذلك طهر الإصلاح المضادّ الكنيسة من الشوائب، وساعد على الاحتفاظ بجموع

1 - نور الدين حاطوم : تاريخ النهضة الأوروبية، ط1، دمشق، دار الفكر، 1985م، ص 195.
 2 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 98.
 3 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي. ص 150.

الكاثوليك وعلى استرجاع الأراضي المفقودة في بعض دول أوروبا، وعلى الأخص داخل الإمبراطورية الرومانية.

الفرع الثاني : وسائل الإصلاح الكاثوليكي المضاد.

أولا : مجمع ترنت .

كان من مظاهر سياسة التراضي التي أتبعها البابوية أول الأمر لإزالة الحركة اللوثرية، إن البابا كلمنت السابع هادن الحركة اللوثرية بسبب العداوة الشديدة التي اضطرت بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس، ولما توفي انتخب مكانه إسكندر فارنيس، وأتخذ لنفسه اسم البابا بول الثالث، وباعتلائه كرسي البابوية ينتهي عهد بابوات النهضة ويبدأ عهد آخر تعاقب فيه عدد من البابوات عكف معظمهم على إصلاح الكنيسة والدفاع عن الكاثوليكية ومهاجمة البروتستانتية والكفاح ضد الأتراك العثمانيين.

وقد نبذ بول الثالث سياسة أسلافه بابوات النهضة، وكرس وقته لإصلاح الكنيسة وعين عددا من الكرادلة الجدد عرف من ماضيهم أنهم دعاة الإصلاح المخلصين، وشكل لجنة ضمت صفوف من أعلام رجال الدين لاقتراح الإصلاح المطلوبة، وأوفد في عام 1535 إلى ألمانيا مبعوثا ليعرض على الإمبراطور شارل الخامس والملك فرنسوا الأول قد أقر اجتماع المجلس، فلم يعقد جلسته الافتتاحية إلا في 13 ديسمبر عام 1545م¹. ويتحدث جان كمي عن المجمع التريدينتيني بقوله : "لدى مثل لوثر في فورمس (Worms) أمام شارل الخامس (1521)، هتف السفير البابوي : "جميع الناس يصيحون : المجمع ! المجمع !... "تريث البابوات مدة طويلة قبل انعقاد المجمع. فإن استمرار الحرب بين الإمبراطور وملك فرنسا حال دونه.

وكان البابا هدریان (Hadrien) السادس² قد اعترف بأخطاء الكنيسة الرومانية، لكن حكمه لم يدم طويلا. خلفه إقليمنضس (Clément) السابع، الذي تحالف مع فرنسوا الأول، فقامت جيوش الإمبراطور، وكان بعضها مكونا من اللوثرين، ودُمّرت روما (أيار، مايو 1527). فكانت سبعة أيام من النهب والاعتصاب وتدنيس المقدسات، أما البابا بولس الثالث (دام حكمه 1534-1549) فصمم على عقد المجمع، فشكل لجنة إصلاحية تضم كرادلة ممتازين، وفي 1542،

1 - عمر عبد العزيز عمر : التاريخ الأوروبي الأمريكي الحديث، ص 193.

2 - هولندي الجنسية وهو آخر بابا غير إيطالي قبل انتخاب يوحنا بولس الثاني، لم يدم حكمه طويلا (1522-1523).

أعاد البابا تنظيم محكمة التفتيش الرومانية، فأخذت اسم "مجمع الإيمان"، وفي آخر الأمر، توصل المجمع إلى الانعقاد في ترانتو في 13 ديسمبر 1545م¹.

أمّا توماس ميشال اليسوعي فيعلق عن المجمع التريدينيني بقوله: « كانت الخطوة الأولى في هذه الحركة - حركة الإصلاح الكاثوليكي المضاد- دعوة وجهها البابا لعقد مجمع إصلاح إنَّام بين عامي 1545 و 1563، وعرف بالمجمع التريدينيني (نسبة إلى المدينة التي استضافته) ولم يشترك فيه لا الأرثوذكس ولا البروتستانت.

ووضع المجمع التريدينيني حد الأغلبيّة التجاوزات التي ندّد بها المصلحون، كما أعلن مجدداً، ودحضا للمصلحين، التعليم الكاثوليكي التقليدي، ومن الذي عملوا بنشاط لإرساء الإصلاح المضادّ، أعضاء رهبانيات حديثة التأسيس كالكبّوشيين واليسوعيين، وسعى الجميع إلى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية من الدّاخل، بالأمانة إلى سلطة البابا لا بالخروج عنها. والبلدان التي طالها نشاط الإصلاح المضادّ هي التي يغلب فيها الكاثوليك كإسبانيا وإيطاليا وبولونيا وإيرلندا².

وبذلك دخلت البابوية المجمع عرضه للكثير من الاحتمالات، وخرجت منه منتصرة في كل قضية، واستطاعت أن تحصل خلال الجلسات الأولى على قرارات قاطعة بصدد المسائل الأساسية الثلاث: سلطة نصوص الإنجيل، ومبدأ التبرير بالإيمان وحده، وطبيعة المقدس³.

ولقد قال بعض المؤرخين الكاثوليك إنّ الكنيسة بهذه القرارات قد طبعت نفسها بطابع عصر متّسم بالتعصب واستدامة روح الفساد.

وقد تعرض المجمع المسكوني لأزمات عنيفة وتوقفت أعماله هذه عدّة مرات بلغت في إحداها عشر، واهتزّ مركزه اهتزازات شديدة وكادت أن تبدّد الآمال التي علّقها عليه أنصار البابوية⁴، مما جعل هذا المجمع من المحامع الفريدة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فقد استمرّ ثمانية عشر عاما (13 ديسمبر 1545 - 04 ديسمبر 1563)⁵. فكان "من أوّل الأمر أن المجمع يتضمّن كثلتين رئيسيتين هما الكتلة البابوية والكتلة الإمبراطورية⁶.

1 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 245، 246.

2 - توماس ميشال اليسوعي: مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 99.

3 - صلاح أحمد هريدي: تاريخ أوروبا الحديث، ص 191.

4 - صلاح أحمد هريدي: المرجع نفسه، ص 192.

5 - عمر عبد العزيز عمر: التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص 194.

6 - صلاح أحمد هريدي: المرجع السابق، ص 192.

يسرد جان كمي أحداث وأعمال المجمع بقوله: « فرض شارل الخامس الاجتماع في ترانتو، أملاً منه أن يستطيع الألمان أن يأتوا إلى تلك المدينة الإمبراطورية ذات الثقافة الإيطالية، ولم يحضر، عند افتتاح المجمع، سوى 34 عضواً من أصل 500 أسقف كاثوليكي في العالم. لكن العداوات ترفع في أثناء المجمع، حتى بلغ 237 في الاجتماعات الأخيرة. كان آباء المجمع في معظمهم من حوض البحر الأبيض المتوسط.

ترأس المجمع مندوبو البابا، ولم يكن بوسعهم أن يتخذوا أي قرار بدون الرجوع إليه، مما اضطر المجمع إلى التوقف، ثلاث مرات ثم يستأنف أعماله. في عهد البابا بولس الثالث، عُدت الاجتماعات ما بين 1545 و 1547 في ترانتو، ثم انتقل الجميع إلى بولونيا، لكن لم يتم فيها أي شيء، فدعا البابا يوليوس الثالث إلى الاجتماع مرة ثانية في ترانتو واستمر العمل في 1551 و 1552م، عندئذ حضر بعض المندوبين البروتستانت، وكان البابا بولس الرابع (1555-1559) متقدماً في السن، فقرّر أن يصلح الكنيسة بمعزل عن المجمع وبطرقه الخاصة. لكن البابا بيوس الرابع قرّر استئناف المجمع (1562-1563)، فقام الآباء الحاضرون بالموافقة على جميع القرارات التي اتخذت منذ 1545، وكان ذلك في 3 و 4 كانون الأول (ديسمبر) 1563. ثم تمّ الافتراق بالعناق والبيكاء فرحاً¹.

ففي هذه السنة 1563 يُنهي ترانت دورته الثالثة²، وكان من أولى الأزمات التي واجهها المجمع المسكوني في ترانت المناقشات الصّاحبة بين أنصار الكتلة الإمبراطورية حول جدول أعمال المجمع، وترتيب المسائل التي يتضمّن هذا الجدول وأيهما أحقّ بالأولوية في العرض والمناقشة والتصويب.

ولهذا شعر البابا أنّ مناقشات المجمع لا تسير على الوجه الذي كان يبتغيه ولأجل هذا طلب نقل المجمع إلى مدينة أخرى الذي اتّخذ من انتشار وباء الحمى في مدينة ترانت في ربيع 1547 ذريعة إلى نقل المجمع إلى مدينة بولونيا في إيطاليا، لكن هذا النّقل زاد من شدّة الخلاف بين البابا والإمبراطور، فأراد البابا أن يخفف من فورة غضب الإمبراطور فعرض مدينة أخرى ينتقل إليها

1 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 246.

2 - جان برونجيه وآخرون: أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، جان برونجيه، فليب كونتامس: موسوعة تاريخ أوروبا العام، منذ بداية القرن 14 إلى نهاية القرن 18، ترجمة: وجيه البيعي، ج 2، ط []، بيروت، باريس، ومنشورات عويدات، 1995م، ص 379.

المجمع هي فرار، ولكن رفض الإمبراطور هذا العرض وقدم في يناير 1548 احتجاجا شديدا على نقل المجمع من ترانت.

وفي هذه الأزمة طلب أعضاء الكتلة البابوية إلى البابا أن يعفيهم من عضويتهم في المجمع، وأصدر مرسوما مؤرخا في 17 سبتمبر 1549 بإيقاف جلسات المجمع؛ وعاود المجمع اجتماعاته حيث اجتمع المندوبون الإيطاليون في المكان والزمان المحددين في ترانت سنة 1551، ولكن ملك فرنسا احتج على اختيار مدينة ترانت مرة أخرى لتكون مقراً لاجتماعات المجمع، ثم طرح أمام المجلس الملكي في باريس تشريعا خطيرا هو تأسيس كنيسة فرنسية مستقلة تماما عن كنيسة روما، ولا تدين بالولاء في روما.

وبات واضحا أن الاتفاق بين البروتستانت والكاثوليك أمر بعيد المنال إن لم يكن في حكم الاستحالة. وكان موقف ترانت يموج في شتى التيارات إذ بالحرب تشتعل في 12 فبراير 1552 بين الإمبراطور شارل الخامس وهنري الثامن من ملك فرنسا¹.

لقد وضّح المجمع التريدين عددا كبيرا من القرارات التي تنقسم إلى مجموعتين² :
مجموعة تتعلق بإصلاح نظام الكنيسة ومجموعة تختص بتحديد العقيدة الكاثوليكية³.

فقد قرّرت المجموعة الأولى استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة، وعلى الصعيد الرعوي، اتخذت قرارات حول إنشاء الإكليريكيات كانت لها انعكاسات هامة لمستقبل الكنيسة⁴، وحرّمت زواج القساوسة، ومنعت أن يجتمع عدد من الأسقفيات في يد شخص واحد، وحدّدت سنّ إنشاء وفتح المدارس اللازمة لتعليم رجال الدين وواجباتهم الدينية ...

أمّا المجموعة الثانية فقد رفض المجلس عقيدة التبرير بالإيمان اللوثرية، ونفى مذهب القدرية الذي أتى به كلفن، ونصّ على بقاء أسرار الكنيسة السبعة، ورفض ما كان يدعو إليه اللوثريون والكلفينيون من حيث الاعتماد على الكتاب المقدّس وحده في تفسير العقيدة.

وقرّر المجلس أن نسخة الكتاب المقدّس اللاتينية هي وحدها النسخة المعتمدة فقط⁵.

1 - صلاح أحمد هريدي : تاريخ أوروبا الحديث، ص 193.

2 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 246.

3 - عمر عبد العزيز عمر : التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص 194.

4 - جان كمي : المصدر السابق، ص 247

5 - صلاح أحمد هريدي : المرجع السابق، ص 196.

بعض التّحديدات والقرارات في المجمع التريدينّي :

- يعلم المجمع التريدينّي أنّ الوصايا العشر تُلزم المسيحيين، وأنّ الإنسان المبرّر ملزم بحفظها¹.
- في الأسرار : « إنّ قال أحد بأنّ يسوع المسيح لم ينشئ جميع أسرار الشريعة الجديدة، وأنّ هناك أكثر أو أقل من سبعة، وأنّ أحد السبعة ليس سرّاً بالمعنى الحصري، فليكن مُبسلاً »².
- يلخّص المجمع التريدينّي الإيمان الكاثوليكي، بقوله : « بما أنّ المسيح قال لنا : إنّ ما يقرّ به تحت شكل الخبز، هو حقّاً جسده، فقد أيقنت الكنيسة دون العقيدة التي يعلنها المجمع ثانية : بتكريس الخبز والخمر يتحوّل كلّ جوهر الخبز إلى جسد المسيح ربّنا، وكلّ جوهر الخمر إلى جوهر دمه، هذا التّعير قد أصابت بتسميته التّحول الجوهري »³.

وبهذا خرجت البابوية منتصرة من مجمع ترانت، فقد جدّد هذا المجمع تعاليمها، ووطد نظامها وقضى على عدد من المساوئ التي انتشرت في مجمع الكنيسة الكاثوليكية، وتبعاً لذلك فقد تعذر على المجمع إعادة البروتستانت إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية⁴.

فكان المجمع قد عهد إلى البابا في تطبيق قراراته. فأصدر البابا بيوس الرابع القرارات وشكّل لجنة مكلفة بالتّطبيق.

أما سكستس الخامس (Sixte-Quint) جعل للكنيسة حكماً مركزياً يديره 15 مجمعا رومانيا، وهي عبارة عن وزارات تساعد البابا في إدارة شؤون الكنيسة والدولة البابوية. ووُزّع الكرادلة على تلك المجمع فبلغ عددهم السبعين، وعلى صعيد آخر، ازداد جمال روما، وظهرت بمظهر عاصمة العالم الكاثوليكي : تمّ بناء قبة كنيسة القديس بطرس سنة 1590، وأحرز الاحتفال بالسنتين "المقدسيتين" في 1575 و 1600 نجاحاً كبيراً⁵.

وهذا كلّه دلّ على وجود انتعاش حقيقي في الكنيسة الكاثوليكية. كما انتقلت من كنيسة العالم المسيحي إلى كنيسة العصور الوسطى إلى عداد الكنائس الحديثة التي صارت في مقدورها التوفيق بين واجباتها الدنيّة في العالم الحديث وبين مقتضيات الظروف التي استجدّت في هذا العالم

1 - التّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية : ص 599.

2 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 247.

3 - التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ك ص 471

4 - عمر عبد العزيز عمر : التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث : ص 196.

5 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 249.

الحديث من حيث تعدد الكنائس المصلحة، ونمو الشعور الوطني القومي، وظهور الدولة الوطنية الحديثة أو الدولة المستقلة-على حد قول صلاح أحمد هريدي¹.

يتبين لنا مما سبق أنه لم يرقم أي مجمع بالأعمال العظيمة التي أنجزها المجمع التريدينيني، فقد كشف وفسر عددًا كبيرًا من الأمور العقائدية التي لم تُحدد صراحة في الماضي، أيضا لقد فرض إصلاحات في جميع مجالات العمل الرعوي، فوضعت نصوص كانت ثمرة تفكير طويل كالتّي تبحت في التبرير والتعاون بين الله والإنسان في الخلاص.

كما وضعت نصوص أخرى كانت أشدّ تأثراً بمقاومة المذهب البروتستانتي، فشجعت بعض التصرفات، لا لشيء إلا لأن البروتستانت كانوا يمارسونها، كاستخدام اللغات القومية في الصلاة.

بالإضافة إلى أنه كان لهذا المجمع في الكنيسة الكاثوليكية فرصة كبيرة في نشر عقائدها ومحاربة ظهور تعدد الكنائس المصلحة كما ساعدها في بسط سيطرتها الكليّة في أرحاء أوروبا.

- ثانيا : منظمة اليسوعيين "الجزويت".

كانت الكنيسة، عند كل أزمة تهددها، تلقت إلى نفسها وتستجمع قواها، ويتمثل رد الفعل عندها بإنشاء الطرق الرهبانية، فمن ذلك أن رهبان كلوني واللورين في القرن الحادي عشر في عهد بابوية جريجوري السابع، أخذوا على عاتقهم إصلاح الكنيسة عندما تمت فيها المساوئ والمفاسد²، فكانت منظمة اليسوعيين من أهم الجمعيات الدينيّة التي ظهرت في أوروبا خلال القرن السادس عشر، وأسهمت في خدمة الكنيسة الكاثوليكية، وحافظت على كيانها وتفشت فيها روحا جديدة³.

أسس هذه المنظمة الإسباني اعناطيوس لويولا " De Loyola " (1491-1556)، اهتدى إلى الممارسة الدينيّة على اثر جرح أصابه في أثناء معركة، فدوّن اختباره الشّخصي في كتاب "الرياضيات الروحية"، وأخذ يعرضها على من يصادفهم في تنقلاته، ولا سيّما على الرّفاق الذين جمعهم في باريس سنة 1534 رنتو مونتمارتر (Montmartre)⁴.

1 - صلاح أحمد هريدي : تاريخ أوروبا الحديث، ص 197.

2 - صلاح أحمد هريدي : المرجع نفسه، ص 197.

3 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 244.

4 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ص 153.

عكف اغناطيوس على قراءة أعمال القديسين وانتقل من إسبانيا إلى باريس حيث حصل من جامعتها على درجة الدكتوراه في علم اللاهوت والفلسفة. وخلال إقامته في باريس استطاع أن يربط مع بعض زملائه رابطة تقوم مبادئها على خدمة الكنيسة الكاثوليكية وطاعة البابا، كما أنهم التزموا في حياتهم بثلاثة مبادئ هي التقشف والعفة والطاعة العمياء أو المطلقة للبابا¹.

وهو كذلك ما ذكره جان كمبي: " وسنة 1542، أصبح الفريق الرهبانية اليسوعية"، وبالإضافة إلى النذور الرهبانية الثلاثة، يؤدّي اليسوعيون نذرا رابعا هو نذر طاعة البابا، ويلون به على رغبتهم في تلبية جميع حاجات الكنيسة في العديد من المدارس، وفي حقل الإرشاد الروحي، والإرساليات إلى البلاد النائية. ولما توفي اغناطيوس، كان عددهم نحو الألف².

ومنذ عام 1540 أعدّ الكرسي الرسولي ميليشيا حقيقة هي "الرهبانية اليسوعية"، فلقد تأسست عام 1540 بموجب منشور البابا "بولس الثالث" تحت اسم "التنظيم العسكري الكنسي"³.

كان تنظيم الجزويت عسكريا أو توراتيا⁴، صارما فكان كل فرد ينضمّ للخضوع لأوامر رئيسه، وأن يرى في رئيسه المباشر العصمة الكاملة التي تتّصف بها الكنيسة المقدّسة⁵، وكان رئيسهم يخضع لمراقبة هيئات تتألف الأولى منها من رقيب وستة مساعدين (يمثلون ألمانيا - فرنسا إسبانيا - البرتغال - إيطاليا - بولندا)، والثانية تتمثل إقليم الستة المذكورة⁶.

فلقد نجح الجزويت في الوقوف إلى حدّ كبير في وجه تيار البروتستانتية المتدفق وخصوصا في فرنسا وبولندا أو ممتلكات أسرة الهابسبرج، وأوقفوا المدّ البروتستانت في إيطاليا وأسبانيا اللتين ظلّتا على ولائهما للكنيسة الكاثوليكية، ثم كان لهم الفضل في تدعيم موقف أولئك الذين تمسّكوا بعقيدتهم الكاثوليكية في ألمانيا وإنجلترا واسكتلندا - على حد زعم صلاح أحمد هريدي ثم يضيف أيضا- أن جماعة الجزويت لعبت دورا هاما في الحياة العامة المسيحية وتدخلوا في السياسة خدمة للكنيسة⁷.

1 - محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ص 153.

2 - جان كمبي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 244.

3 - جان بيرونجييه وآخرون: أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ج 2، ص 385.

4 - محمد مخزوم: المرجع السابق، ص 153.

5 - صلاح أحمد هريدي: تاريخ أوروبا الحديث، ص 199.

6 - محمد مخزوم: المرجع السابق، ص 153.

7 - صلاح أحمد هريدي: المرجع السابق، ص 199.

كما أسس اليسوعيون الثانويات¹. وكان توليهم لمهنة التعليم لمكافحة البروتستانتية، الجامعات في جميع أنحاء أوروبا وأصبحت مدارسهم من أنشط المدارس وأنجحها في أوروبا²، فلم يمض قرن ونصف على تأسيس هذه الجمعية حتى أصبح لها ما يزيد عن سبعمائة مدرسة³.

كذلك سرعان ما استقبلوا في البلدان المنقسمة، أبناء النبلاء البروتستانت، يهدف التوصل يوماً إلى تغيير معتقداتهم، وهكذا بدأ تغلغلهم السلمي لردّ البروتستانت إلى حظيرة كنيسة روما، ونجحوا في شغل كراسي الأستاذية في جامعة أنجولشتاد في إقليم بافاريا سنة 1549، وكان اهتمامهم منصباً على كراسي الأستاذية المخصصة لعلم اللاهوت⁴، فلم يكتف الجزويت بهذا، بل إنهم تعدّوها إلى ما وراء البحار حيث عملوا على نشر المذهب المسيحي الكاثوليكي في أنحاء أمريكا والشرق الأقصى والجزر⁵.

فقاعدة اليسوعيين الأساسية كما هي موضحة في كتاب جان كمي، نذكر منها: « من أراد أن يناضل في سبيل الله، تحت راية الصليب، في رهبانيتنا - التي نريد أن نسميها باسم يسوع - وإن يعمل للرب الواحد وللكنيسة عروسة تحت إمرة الحبر الروماني نائب المسيح على الأرض، وجب عليه، بعد النذر الاحتفالي يندروا العفة والفقير والطاعة الدائمة، أن يقتنع بأنه من أعداد رهبانية أنشئت تسعى إلى هدف رئيسي هو الدفاع عن الإيمان ونشره، وتقدم النفوس في الحياة والعقيدة المسيحية (...). أن هناك فائدة جلية في أن يرتبط كل واحد متاً بنذر خاص، بالإضافة إلى هذه الرابطة التي يتقيد بها جميع المؤمنين، حتى أنه مهما أمرنا به البابا الحالي وسائر خلفائه، فيما يتعلق بخير النفوس وانتشار الإيمان (...). سواء أمرنا بالذهاب إلى الأترار أو إلى سواهم من غير المؤمنين بلا استثناء بلاد الهند أو إلى الهراطقة والمنقذين أو إلى سائر المؤمنين »⁶.

ففي إيطاليا كان تأثير هذه المنظمة عظيماً عميقاً الذي أدى إلى خنق كل تفكير حرّ وجعلته يتقيد بالشكل أكثر من تقيده بالجوهر، وفي فرنسا لاقت مقاومة الفيلكانية (أي الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية) والبرلمان فهذا لم يمنع تأسيس مالا يقل عن 14 كلية في المملكة كانت أداة لاستبداد

1 - جان بيرونجييه وآخرون : أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ص 385.

2 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ص 154.

3 - صلاح أحمد هريدي : تاريخ أوروبا الحديث، ص 199.

4 - جان بيرونجييه وآخرون : المرجع السابق، ص 385.

5 - محمد مخزوم : المرجع السابق، ص 154.

6 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 245.

هنري الرابع¹.

ولذا نلاحظ أن الانطلاقة الكبيرة التي عرفتها الرهبانية اليسوعية تعود إلى شخصية مؤسسها، اغناطيوس لويولا؛ الذي خلف لها القوانين التأسيسية، حيث نظمت شؤونها في حكم رئاسي مركز على شخص الرئيس العام والبابا، ولأن اليسوعيين يريدون لأن يكونوا خدامًا مثاليين للكنيسة.

وعلى إثر هذا استطاعت منظمة اليسوعيين استرجاع مكانتها الدينية والصمود ضد كل المنحرفين والمخالفين للعقيدة المسيحية عامة وللكنيسة الكاثوليكية بصفة خاصة، وعلى إثر هذا كانت منظمة اليسوعيين خادمة لمصلحة الكنيسة الكاثوليكية وللإدارة البابوية.

ثالثا : محاكم التفتيش.

تعتبر محاكم التفتيش من الوسائل السلبية التي لجأت إليها كنيسة روما في حركتها الإصلاحية، ومع أن جذور هذه المؤسسة تمتد إلى القرن الثاني عشر عندما أقر مجمع فيرونا سنة 1183 ووضع لها الأسس التي بنيت عليها². فهي عبارة عن محكمة أسست في العصر الوسيط عن الهراطقة ومحاكمتهم³.

اشتد عمل هذه المحاكم في القرن الخامس عشر في إسبانيا عندما بدأت الملكية فيها تستخدمها من أجل تنفيذ أغراضها السياسية وتدعيم سلطانها المطلق في القضاء على جذور المسلمين واليهود الذين كانوا يؤخذون بتهمة "الهراطقة" أو الردة، لقد نشأت محاكم التفتيش من الناحية النظرية ضد المتهرطقين المسيحيين فقط⁴.

ولم تكن محاكم التفتيش بدعة استحدثتها البابوية في القرن السادس عشر في كفاحها ضد البروتستانت وغيرهم، فهي نظام قديم استعانت به في العصور الوسطى للقضاء على الحركات الدينية التي خرجت على تعاليم كنيسة روما⁵.

وكانت محاكم التفتيش في إسبانيا تحاكم الأفراد الذين هم على خلاف العقيدة الدينية مع

1 - نور الدين حاطوم : تاريخ النهضة الأوروبية، ص 200.

2 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ص 154.

3 - نور الدين حاطوم : المصدر السابق، ص 200.

4 - محمد مخزوم : المرجع السابق، ص 154.

5 - عمر عبد العزيز عمر : التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص 202.

المسيحية وهم اليهود والمسلمون¹، أمّا في انكلترا فإنّ إجراءات محاكمة جان دارك قد أثبتت مدى استخدام السّلطة الزمنية لمحاكم التفتيش، لقد شملت التّشريعات التي وضعت لهذه المحاكم جميع المسيحيين في إسبانيا مع أنّ هذه المحاكم قد جُددت بمراسيم بابوية متعدّدة منها مرسوم البابا سكستوس الرابع الذي أصدر سنة 1477 إلا أنّ أهمّ المراسيم التي صدرت بهذا الشأن هو المنشور البابوي الذي أصدره بولس الثالث 1542 إيماناً منه باستطاعة أمرها كما حصل في ألمانيا وسويسرا وغيرها من دول أوروبا، وقد نصّ فعلاً هذا المنشور على تعيين لجنة من ستة كرادلة يطلق عليها "اللجنة المقدّسة"².

قامت هذه المحكمة في عملها بكلّ شدّة وصرامة، ولم تكنف بمحاربة الإصلاح بالنّار بل أرادت أن تخنق الحرية العلمية الفلسفية، أسست في عام 1559م، لجنة الثبوت وظيفتها أن تنظّم قائمة بأسماء الكتب³ التي تحرّم قراءتها⁴، بالإضافة إلى استخدامها وسائل التّكليل والتّعذيب، ومصادرة الممتلكات لإكراه المتّهم على الاعتراف لكون محكمتها سرّية، أمّا عن ضحايا المحاكم فقد بلغت حدّاً يكاد يوازي ما خسرتة المسيحية في حروبها الصّليبيّة المنّظمة، ولهذا أطلق عليها اسم "أفراح الموت"⁵، فقد أثارت محاكم التفتيش بإجراءاتها الشّاذة وأحكامها القاسية مزيداً من الضغائن والعداوة في نفوس البروتستانت في شمالي أوروبا وغربيها.

يقرّر معظم المؤرخين أن جهود جمعية الجزويت وقرارات مجمع ترانت هي الذي أسهمت إلى حدّ كبير في التّجّاح الذي حققته حركة دعم الكنيسة الكاثوليكية في نهاية القرن السّادس عشر⁶ كما استطاعت محكمة التفتيش أن توقف المدّ البروتستانت في كل من إسبانيا وإيطاليا فلقد كانت إحدى الوسائل القوية لتثبيت مراكز الحكام الزمانيين الذين استغلّوها كأداة لقمع المناوئين السياسيّة، وخاصة تلك الطبقات الاجتماعيّة التي كانت تشعل نار الثورة ضد الإقطاعيين بين فترة وأخرى⁷.

1 - صلاح أحمد هريدي : تاريخ أوروبا الحديث، ص 203.

2 - محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر التّهضة)، ص 156.

3 - نور الدّين حاطوم : تاريخ التّهضة الأوروبيّة، ص 205.

4 - نور الدّين حاطوم : المصدر نفسه، ص 201.

5 - محمد مخزوم : المرجع السّابق، ص 156.

6 - عمر عبد العزيز عمر : التّاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص 203.

7 - محمد مخزوم : المرجع السّابق، ص 160.

ومن خلال ما سبق يتّضح أنّ الإصلاح الكاثوليكي كان هدفه بقاء الوحدة والسّلطة في الكنيسة وإصلاح المبادئ البابوية الفاسدة والانحرافات داخل الكنيسة، بالاعتماد على الكتاب المقدس، وإصلاح المنظمات الدنيّة والرجوع بها إلى مبادئها الأولى.

جامعة الأمير عبد القادر للقانون والعلوم الإسلامية

المبحث الثاني : البابا قبل المجمع الفاتيكاني الثاني

- المطلب الأول : المجمع الفاتيكاني الأول.

يعتبر الإعلان عن عقد مجمع يوم 26 جويلية 1867، بحسب كلمة للويس فويوه، "حدثاً"، فقد مرّت ثلاثة قرون منذ انتهاء المجمع التريدينيني، وعرف العالم تغييرات كثيرة.

استقطب "الموضوع الروماني" انتباه الأوساط الفاتيكانية، فقد انحصرت الدّول البابوية داخل نطاق روما ومحيطها لكنّ بيّوس التّاسع رفض قبول الأمر الواقع. وفي نفس الوقت اتّسعت آفاق البابوية لتشمل أبعاد العالم كلّه الذي تغلغل فيه تدريجياً التأثير الأوروبي : وأدى تطوّر الاقتصاد والتّقل إلى انطلاق الرّسالة من جديد.

ما زالت غالبية الأوروبيين باستثناء إنجلترا تعيش في الرّيف. ولكن بدأت خطوط السّكك الحديدية في اختراقها، وبدأت مناطق متزايدة الدّخول في الاقتصاد الصّناعي ذي الطّابع الرّسمالي، وأدّت هذه الظّاهرة إلى تكريس سيطرة بورجوازية رجال الأعمال على الاقتصاد والسياسة والتي لم تكن تقبلها إلّا كقوّة تحافظ على النّظام وعلى الملكية. استعاد الليبراليون هجومهم على تفوّق الكنيسة وأخذوا يدينون الكليريكالية الرّومانية التي كانت قد أعادت للقيم الدّينيّة شأنها، وحاربت الماسونية الفرنسية -والتي أصبحت أكثر تأثيراً في العالم السّياسي- حاربت الكنيسة واقتمتها بأنّها تمثل عائقاً للتحرير الأخلاقي والعقلي¹.

أمّا بالنّسبة لبيّوس التّاسع، فلو أنّه اتّخذ قراراً بدعوة مجمع مسكوني، فذلك من منظور دفاعي ضدّ قوي الشر - كما جاء في كتاب المجمع المسكونية- التي أطلق عليها "الثورة" والليبرالية²، وهي أجواء متوتّرة من العلاقات بين الكنيسة والعالم المعاصر، ومن الخلافات الفكرية القائمة في داخل الكنيسة، وقبل استعمار معركة الحداثة، قرّر بيّوس التّاسع أن يدعو إلى انعقاد المجمع الفاتيكاني الأول (1869-1870) بهدف "مقاومة المبادئ اللادينيّة التي تسربت إلى النفوس في العصر الحديث، وإعادة تنظيم الكنيسة"³. بحيث أجمع الكاثوليك على واجب الدّفاع عن سلطة البابا الزمّنيّة وتشكيل جبهة مشتركة لمقاومة التّعالم الشيوعية. لكنّهم انقسموا في الموقف

1 - بيير كاميللو وآخرون : المجمع المسكونية، ص 273.

2 - بيير كاميللو وآخرون : المصدر نفسه، ص 273.

3 - مجموعة من كبار الباحثين ط.ب. مفرّج : موسوعة عالم الأديان، ج 10، ص 139.

الواجب اتّخاذه من مجتمع زمنهم المتأثر بالليبرالية. الكاثوليك كان في ودهم أن تستعيد الكنيسة نفوذها وامتيازاتها السابقة.

فكان لا بدّ لهم من تنظيم جهودهم ضدّ كل ما يهدّد الكنيسة، كحرية نشر أي شيء كان. أمّا الكاثوليك الليبراليون، فكانوا أكثر واقعية، لقد أدركوا ما هناك من تطوّر اجتماعي وتراجع ديني¹.

ويذكر كتاب "موسوعة عالم الأديان" أنّه بعد أن دار التّقاش حول "العلاقة بين العقل والإيمان"، أدان المجمع المبادئ الفلسفية العامّة المنافية للدين، وحدّد وجود إلى شخصي يستطيع العقل أن يدركه، مؤكّدا في الوقت نفسه، على ضرورة الوحي، وعلى أنّه لا مجال للنزاع بين العقل والإيمان. واعتبرت دوائر الفاتيكان أنّ ذلك كان بمثابة الرّد على أضاليل العقلانية والحلولية والتّزعة التّقويّة².

ثمّ يدلي جان كمي بمكانة البابا في الكنيسة في ذلك الوقت. فيقول: « لم يقبل الكاثوليك أن يروا البابا مجرداً من دولته، ظلّنا منهم أنّ السّلطة الزّمنية ضمان لاستقلال البابا الرّوحي. فكان الكثير من الكاثوليك يودّون لو يحدّد عصمة البابا عن الخطأ. ويوم أعلن البابا، سنة 1854، عقيدة الجبل بلادنس، أكّد بوجه غير مباشر عصمته عن خطأ، على أنّ إكرام البابا كاد يبلغ السّخرية بتلقيه "نائب الله لدى البشرية"³. أي أنّ هذا المجمع يحاول إعادة الاعتبار للبابا بصفة كونه رئيساً أعلى للكنيسة.

- انعقاد المجمع :

انعقد المجمع بتاريخ 08 ديسمبر 1869م، وكانت الأهداف المقترحة غامضة وعامّة، لكن الجميع كانوا يعتقدون بأنّ الموضوع الأساسي هو تحديد عصمة الباب عن الخطأ. من أصل ألف أسقف يشغلون مناصبهم⁴، شارك في المجمع أكثر من 700 أسقف. كان العالم كلّه ممثلاً، لكن بأساقفة أوروبيين فقط، وكانت اللّجان قد أعدّت عدد كبيراً من الملفّات في جمّ من المواضيع.

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 311.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج 10، ص 139.

3 - جان كمي : المصدر السّابق، ص 312.

4 - بيير كاميللو : الجامع المسكونية، ص 275

لكن الظروف السياسيّة والعسكرية قصرت أعمال المجمع على مجالين¹.

- أعمال المجمع :

يضيف "جان كمبي" حول أعمال المجمع فيقول : « تمّ التصويت على الدستور "ابن الله" "Dei filius"، بتاريخ 1870/04/24م وكان كنتيجة المناقشات حول العلاقات بين العقل والإيمان. فتجاه أضاليل العقلانية والحلولية والتزعة التّقويّة ... حدّد المجمع وجود إلى شخصي يستطيع العقل أن يدركه، مؤكداً في الوقت نفسه ضرورة الوحي، ولا مجال للنزاع بين العقل والإيمان² ».

ثمّ جاء في كتاب "موسوعة عالم الأديان" أنّ عصمة البابا لم تكن من القضايا المدرجة في المشروع المتعلّق بالكنيسة، لكنّ أكثرية الأساقفة طلبوا أن تُدرج في النقاش، في حين أنّ الأقلية عارضت ذلك، معتبرة الأمر غير ملائم. كان بين المعارضين عدّة أساقفة الألمان وفرنسيّون، منهم المطران دينلو، عادروا قاعة المجمع لثلاثين يوماً الكاثوليك. فصدّ الآباء على الدستور "Pastor Aeternus"، بتاريخ 1870/07/18، وسط هتاف وجليّة. الوثنية في جوهرها تأكيد لرئاسة البابا وعصمته عن الخطأ في العقائد التي يعلنها بسلطان رسولي³.

- توقف المجمع :

يرجع بيير كاميللو أسباب توقف المجمع إلى الحرب الفرنسية الألمانية انهيار الإمبراطورية الثانية وإعلان جمهورية فرنسا. ثمّ يقول : « كلّ ذلك سمح للقوات الإيطالية باحتلال روما يوم 20 سبتمبر 1870م. ورأى بيوس التاسع أنّ حرية المجمع يوم 20 أكتوبر. ولم يستأنف مرة ثانية بالرغم من بعض المحاولات⁴ ».

ثمّ يضيف "جان كمبي" أنّ نابليون سحب من روما الجيوش التي كانت تحمي البابا، واحتلها، فأصبحت روما عاصمة مملكة إيطاليا فأجل المجمع إلى أجل غير مسمى⁵.

1 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 311.

2 - جان كمبي : المصدر نفسه، ص 313.

3 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 139.

4 - بيير كاميللو وآخرون : الجامع المسكونية، ص 295.

5 - جان كمبي : المصدر السابق، ص 312.

فكان "مونسنيور ديشان" قد اقترح -ولكن بلا جدوى- استئناف أعمال المجمع في مالينيس، مادحا موقع المدينة المركزي وسهولة الوصول إليها ومناخها وإمكانيات الاستضافة¹.

- نتائج المجمع :

كان الترحيب بقرارات المجمع عامّة، ولم يرفضها إلا بعض الجامعيّين الألمان. ترك المجمع الفاتيكانى الأول انطبعا من عدم التوازن. فبسبب ضيف الوقت، تحدّث المجمع عن البابا، ولم يتحدّث عن الأساقفة، ولعلّ ضيق الوقت هذا جاء في وقته تدبيرا من العناية الإلهية. فالنتائج المترتبة على إعلان العصمة كانت في نهاية الأمر أقل من النتائج المترتبة على رئاسة البابا. بالمعنى المقصود، لم يستخدم البابا عصمته إلاّ حين أعلن "عقيدة انتقال العذراء"، سنة 1950. وبالمقابل، بتأكيد رئاسة البابا، اعترف المجمع له "بولاية عادية مباشرة أسقفية على الكنيسة بأسرها".

فالرئاسة عزّزت المركزية الرومانية، ورفعت من شأن الكرسي البابوي، وقدرته في الوقت نفسه الذي فقد سلطته الزمنية. فكان لابدّ من التوفيق بين هذه الرئاسة وسلطة الأساقفة. إنّ تأكيدات الجماعة تمّ في المجمع الفاتيكانى الثاني².

- المطلب الثاني : الحرب العالمية الأولى والثانية

الفرع الأول : الحرب العالمية الأولى.

لم يكن المتصارعون على المسرح السياسي -الاجتماعي- الفكري في فرنسا يتطلّعون إلى ما يحيط بأوروبا من بين علماني وكنيسي. فلقد كانت قطائع الحربين العالميتين الأولى الزمن، لا تزالان عصفاً بأوروبا والعالم في غضون ربع قرن من دون سواهم. ففي تلك الحقبة القصيرة من الزمن، وقعت أهمّ أحداث القرون الحديثة الحرب العالمية الأولى (1914-1918م)، والثورة الروسيّة الشيوعية (1918م)، والحرب العالمية الثانية (1939-1945م) وسوف تمتد الثورة الشيوعية إلى دول شرق أوروبا، ويرافقها ظاهرة تصفية الاستعمار، وما رافقها من تبدّلات دراماتيكية في الخرائط الجيولوتيكيّة، والفكريّة والديموغرافية للعالم قاطبة³.

1 - بيير كاميللو وآخرون : الجامع المسكونية، ص 295.

2 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 314.

3 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 351.

جاءت ويلات الحرب العالمية الأولى، منذ بدايتها في العام 1914م، لتبيّن للفرنسيين، وسائر الأوروبيين كم كان من العوامل المصيرية المشتركة التي تجمع بين أبناء الوطن الواحد، والتي كانت كامنة في النفوس في فورة بروز المباحكات الفلسفية والسياسية، وسرعان ما تماجرت آلام الناس من مختلف التيارات وأحلامهم في مختلف بلدان أوروبا¹. وأضحى التنافس في خدمة البلاد السمة البارزة إبان تلك المرحلة المؤلمة من التاريخ القريب، فراح أكثر المواطنين يبذل كل تضحية وفداء من أجل أبناء المجتمع ككل، من دون التفرقة بين تياراتهم الفكرية والسياسية، وشغلت الحرب الدول، فلم يعد الصراع بينها وبين بابا روما أو الكنيسة الكاثوليكية، ودون أصوات الأساقفة والكهنة الداعية إلى الصلاة لتحقيق انتصار الأمة، وشارك الرهبان في حمل السلاح، مع جيش الدولة ومواطنيها، دفاعا عن أوطانهم. وكان هذا الشعور الوطني الجارف قد أذاب ازدواجية الإنسان الفرنسي، وتحوّلت فرنسا إلى جبهة واحدة تقاوم عدو الحرية والاستقلال. أمّا البابا في روما، فقد كان في موقف حرج، ذلك أن المتحاربين جميعا مسيحيون، ولم يكن بوسعه السيطرة على الحرب، وقضى البابا بيوس العاشر في السنة الأولى من الحرب ليخلفه البابا بينديكتس الخامس عشر (1914-1922م) الذي كان عليه أن يعاش سنوات الحرب الأربع مع تداعياتها في خلال سنوات أربع إضافية².

رفع البابا الجديد الصلوات من أجل شعوب العالم، وفي محاولة يائسة، سعى لمنع إيطاليا من الدخول إلى ساحة القتال، وعرض وساطته بين المتحاربين، وأظهر ميلا إلى المصالحة وإقامة جسور من التفاهم بين جميع الدول، ولكن عروضه قوبلت بالرفض من جانب بعض الدول، وبالاستنكار من جانب بعضها الآخر، فذهبت نداءاته هباء، فراح يعمل على الصعيد الإنساني ساعيا لتخفيف الآلام عن طريق مبادلة الجرحى والأسرى بين القوى المتصارعة، ونظّم المساعدات لمنكوبي الحرب وضحاياها وسجّل له التاريخ بشكل لافت عنايته بالأسرى المسلمين³. وأخيرا انقشع غبار معارك. السنوات الأربع عن خريطة جديدة لدول أوروبا، فقد تمزّق شمل دولة النمسا الكبرى، واستعادت بولندا حريتها، وكذلك دول البلطيق، كما حققت إيرلندا الكاثوليكية حريتها، ولكن محاولة البابا التقرب من روسيا السوفياتية، من خلال إرساله معونات لضحايا الحرب، لم توقف تيار اضطهاد الكنيسة ورجالها هناك من قبل النظام الجديد، حيث لم يسلم بعض رجال

1 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 268.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 164.

3 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 270.

الإكليروس من أساقفة وكهنة من القتل، وقبل نهاية عهد بنديكش، عادت العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والفاثيكان سنة 1920م، وكان بإعلانه جان دارك¹ قديسة في تلك السنة نفسها، قد أعطى انطبعا عن تقديره العميق لمن فدوا أوطانهم بدمائهم، وقد اشترك في حفل التّوطيب، الذي جرى في روما، مندوب فرنسي "فوق العادة" أمّا البابا بيتوس الحادي عشر خليفة بنديكتس (1922-1939م)، فقد سلك طريق سلفه في محاولات التّقريب بين وجهات نظر الدّول. وفي عهد تمّ تثبيت الوضع القانوني لنشاط الكنيسة في فرنسا سنة 1924م، وتوّجت مساعي التّقارب والمصالحة بين الدّول الأوروبية والكنيسة الكاثوليكية بـ معاهدة اللاتران² سنة 1929م، والتي وقعها "موسوليني"³، واعترف عبرها الكرسي الرّسولي بدولة إيطاليا، وبروما عاصمة لها⁴. كما أقرّت حكومة إيطاليا سيادة البابا على مدينة الفاتيكان، وهي أصغر دولة، إذ لا تتجاوز مساحتها 44 هكتار.

بين صحوة أوروبا من كابوس الحرب العالمية الأولى، ودخولها في جحيم الحرب العالمية الثانية، بدا أن تقدير "الحداثة" الذي هزّ قلب المجتمع المسيحي قبل أن تزلزله الحرب، كان مبالغاً فيه جدّاً من قبل مريديه ومعارضيه في آن. ذلك أو ويلات الحرب قد حسرت قدرة العلم العجائبيّة. فالعلم لم يجب على أهمّ تساؤلات الإنسان، فظهرت إذ ذاك عودة إلى الرّوحانية وغالبا إلى المسيحية.

وكانت إدانات الحداثة قد أعمقت، إلى حين مفسّري الكتاب المقدّس الكاثوليك عن الأبحاث إذ سوف يُصدر البابا بيوس الثاني عشر (1939-1958م) البراءة البابوية نفضة الرّوح القدس سنة 1943م، التي سوف تُريح العقول وتشجّع أبحاث المفسّرين. ذلك أن الجوّ كان قد هدأ

1 - جان دارك (Jeanne D'Arc) (1412-1431م) : بطلة فرنسية حاربت لتحرير بلادها من الانكليز فأُسرّت وأُحرقت في روان، أصبح عيدها في فرنسا عيداً وطنياً يُحتفل به الأحد الثاني من أيار (مايو).

2 - نُسبت إلى قصر "Latrab" في روما الذي كان مقرّاً للبابوات طول حوالي عشرة قرون بالقرب منه كنيسة ماريو حتّى اللاتراني التي شيّدها الأمبراطور قسطنطين 324م، عُقدت فيه خمسة مجامع مسكونية بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر.

3 - (1883-1945م) : من رجالات الدّولة في إيطاليا، أسس الحزب الفاشي 1919م، واستولى على الحكم 1922، تقرب من ألمانيا وتحالف مع هتلر ودخلا معا الحرب 1940م، هرب بعد هزيمة "المحور" فقتله الشّعب.

4 - روبري كليمان اليسوعي : موسوعة المعرفة المسيحية، ج3، ص 10.

بالنسبة إلى علم التاريخ والأهوت العقائدي، وارتاح العلم والكنيسة للعلاقات بين الكنيسة و"الحدثة"¹.

فكان عهد البابا بيوس الحادي عشر (1922-1939م) حقبة فاصلة بين الحربين العالميتين بدا من خلالها هدوء عاصفة فصل الدولة عن الكنيسة، ومعركة "الحدثة" وسوى ذلك من مخلفات القرن التاسع عشر، وسارت الأمور على نسق هادئ متوازن دون صراع أو عنف. فقد تصالح البابا مع الدولة الإيطالية بعقد اتفاقية اللاتران التي وقّعها موسوليني سنة 1929 كما سبق أن ذكرنا، وهي التي اعترفت بسلطة البابا على الفاتيكان، واستقلاله عن الحكومة الإيطالية، ذلك الاستقلال الذي منح البابا تامّة للقيام بمهامه الدينية الشاملة وعندما قامت موجة جديدة من موجات اضطهاد الكنيسة في فرنسا سنة 1924م، في خلال رئاسة "إدوار هيريو"² للحكومة الفرنسية، تخلّلتها إغلاق سفارة الفاتيكان، وتشديد الرقابة على أيّ نشاط ديني، اتّخذ الكاثوليك موقفا حاسما، فسارع وجهأؤهم وقادة الرأي إلى عقد سلسلة من الاجتماعات في أنحاء متفرّقة من فرنسا، وتحت ضغط الأزمة الاقتصادية، استقالت حكومة إدوار هيريو، وتبيّن أن الشعب الفرنسي كان قد أصبح غير متجاوب مع الدّعوة العدائية للكنيسة، حتّى اعتبرت سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين حقبة ذهنيّة لنشاط الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا³.

على صعيد آخر، برزت في تلك الحقبة حركة "العمل الكاثوليكي" التي وصفها "جان كمي" بأنّها محاولة لإعادة الروح والملاحم المسيحية إلى مختلف الأنشطة "السياسية والاجتماعية والفردية".

وعندما أدان البابا "حركة العمل" بحزم، وحرّم "حركة العمل" بحزم، وحرّم على الكاثوليك الانضمام إليها، لاحت ردود فعل متألمة عند بعض أبناء الكنيسة، إذا رأوا في ذلك نوعا من القسوة والظلم الفادح، وسرعان ما هدأت الأمور بعد اتّضاح حقائقها وعاد الحماس إلى النشاط الكاثوليكي⁴.

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 352.

- عمر الديراوي : الحرب العالمية الأولى، ط []، بيروت، دار العلم للملايين، 1982م، ص 47.

2 - غدوار هيريو : (1872-1957) : سياسي و كاتب فرنسي، رئيس لحزب الاشتراكي الرديكالي، محافظ ليون، تأس مجلس

الوزراء مرارا، رئيس الجمعية الوطنية، 1947-1954م، رئيس مجلس النواب، 1936-1940م.

3 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 168-169.

4 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 323.

وفي الوقت نفسه شهدت أوروبا إثر الحرب العالمية الأولى نشوء حركات سياسية خطيرة، لاح لروما أنها تنذر بعواقب دموية خطيرة، وكان أبرز تلك الحركات الفاشية¹، وقد بدأت هذه الحركة بتجمع جماعة المحاربين القدامى الذين كونوا رابطة في ما بينهم، دفعتهم حماسة وطنية غامرة لإنقاذ إيطاليا بعد أن أخفقت في حروبها ولم يحقق مآربها وتراكت عليها الصعاب الاقتصادية² وقد نادى هذه الحركة بحرب السياسات والمثل والقيم الإيطالية القديمة والترويج لها. وللفاشية صفة الوطنية والقومية الإقليمية، تهدف إلى جعل الشعب الإيطالي متعلق بوطنه إيطاليا (إيطاليقي) (Italic) نشأت في إيطاليا على شكل جماعات أو فرق من الجنود المسرحين من الجيش، بقيادة بنيتو موسوليني، أطلق عليها الفرق الفاشية إذ دعت بجملة من المبادئ السياسية والاقتصادية³، ونادت بتمجيد الدولة "كل شيء للدولة، ولا شيء ضد الدولة، ولا شيء خارج إطار الدولة أسس وترغم هذه الحركة الفاشية موسوليني في 1919م، إذ وصفها مؤسسها بأنها فكرة سياسية دينية قومية، ولا تزال كلمة الفاشية تطلق على التطرق القومي أو العنصري في دولة معينة من الدول نسبة إلى الفاشية الإيطالية إبان عهد الزعيم الإيطالي المذكور.

وقد لعبت الفاشية الإيطالية التي ترغمها موسوليني وعدت نفسها نصيرة النظام والقانون، والمحافظة على الأخلاق المسيحية وظهرت بمظهر الخصم لحكم الغوغاء والمخربين⁴. ظلّ موسوليني على أنّ الفاشية لا تؤمن بإمكانية ولا بفائدة السلم الدائم، واعتبرته ظاهرة متعفنة وبالمقابل، دعمت فكرة إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة وطمحت لتوسيع مناطق نفوذ إيطاليا، حتى بداية الحرب العالمية الثانية، وإقامة محور برلين - روما - طوكيو، كانت إيطاليا قد احتلت إثيوبيا (1935م)، وحاربت مع نظام فرانكو الفاشي في إسبانيا (بين الأعوام 1939م - 1936م)، واحتلت ألبانيا (1939م)⁵.

وجاءت الثورة "البولشفية" في روسيا سنة 1917م، والثورات العمالية التي اندلعت في ألمانيا

1 - الفاشية أو الفاشيستية Fascisme : من الإيطالية Fascio. بمعنى عصبة، وهي حركة فكرية وسياسية ترفض المجتمع الليبرالي الذي كان قد تأسس في القرن التاسع عشر في أوروبا.

الفاشية تكره الديمقراطية كرها شديدا ولا تؤمن بها، ولأنها عبارة عن نظام ضعيف في نظر الفاشيين.

2 - الموسوعة العربية الميسرة، ج3، ط2، بيروت، دار الجيل، 2001م، ص 2365.

3 - دافيد رودغنو: الإمبراطورية الفاشية الأوروبية، ط []، مطبوعات جامعة كامبردج، 2006م، ص 528.

4 - الموسوعة العربية، ج3، ص 2366.

5 - دافيد رودغنو: الإمبراطورية الفاشية الأوروبية، ص 530.

وإيطاليا لتثير التخوف عقب الحرب العالمية الأولى. وامتزج الاضطراب الاجتماعي في إيطاليا بالسخط العام على الأسلاب الضئيلة التي نالتها من وراء دخولها الحرب فانتهاز موسوليني الفوضى العامة التي سادت إيطاليا جرّاء عجز الحكومة الإيطالية عن ضرب المشاغبين المأجورين، فتظاهر بأنّه المخلص القويّ لإيطاليا من الفوضى والشيوعية، وأيده حسن تنظيمه لحزبه الذي ضمّ "شباب القمصان السوداء" والعاطلين عن العمل، وقد جعل موسوليني شعار حركته "عصا السلطان" في عصر الرومان القديم¹.

استطاع موسوليني كسب الكاثوليك إلى جانبه من خلال عقد "معاهدة لاتران"² على أنّ الفاشية لم تلبث، وزعيمها موسوليني، إلا قليلا حتى بدأت تكشف عن أهدافها الحقيقية، وقد عبّر عن ذلك زعيمها بقوله: "إنّي آخذ الابن من مولده ولا أتركه للكنيسة إلا لحظة وفاته وهي لحظة على البابا أن يهتم بها..."³. وهكذا اتضح أن الفاشية أرادت أن تضم إلى حزبها كل إنسان من مولده إلى وفاته. حتّى حسم البابا بيوس الحادي عشر الموقف في وثيقة أصدرها بعنوان "لسنا بحاجة NONABBIAMO BIOSOGNO" سنة 1931، أعلنت رفضه للنظام الشمولي وللحكم الدكتاتوري، وطالبت بحريّة الكنيسة، ولم تخل وثيقة البابا من الرغبة في التفاهم بين الكنيسة والسلطة.

ومثلما مهدت الظروف الناتجة عن تداعيات الحرب العالمية الأولى لنشوء الفاشية في إيطاليا يمكن القول إن هزيمة ألمانيا في تلك الحرب قد أدّت إلى ظهور النازية⁴ فيها -وقد تبلور الفكر النازي في كتاب هتلر: "كفاحي"، وهو الكتاب الذي تبني تحقيق ما جاء فيه "الحزب الوطني الاشتراكي" في ألمانيا⁵. ويرتكز على تفرقة عنصرية صارخة، وتدمير المسيحية، فقد أعلن الأساقفة

1 - رمضان لاوند: الحرب العالمية الثانية، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1996م، ص 11.

2 - معاهدة لاتران: وقعت هذه المعاهدة بين البابا بيوس الحادي عشر (كرسي البابوية) وبنيتو موسوليني في جانفي 1929 أنهت مرحلة العداء بين الكرسي الرسولي والدولة الإيطالية وشملت معاهدة كنسيّة ومعاهدة سياسيّة بين دولة الفاتيكان والدولة الإيطالية اعترفت بموجبها الحكومة الإيطالية بسيادة حاضرة الفاتيكان والحرر الأعظم هو رئيس الدولة ويسكن الفاتيكان 700 نسمة منهم 400 يتمتعون بالمواطنة الفاتيكانية، وتمّ اتخاذ الكاثوليكية كديانة رسمية لإيطاليا.

3 - مجموعة من كبار الباحثين: موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 173.

4 - النازية: Nazisme: نسبة إلى نازي Nazi: الحروف الرّمزية Abréviation لعبارة National - Sozialist الألمانية التي تعني "الاشتراكية الوطنية".

5 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 324.

بأنه لا يمكن للمسيحي أن يكون نازياً، ولكن عندما قفز هتلر إلى السلطة إبان أزمة سنة 1933م الخانقة.

التي أملت بألمانيا، رغم أنه لم يحضباغلبية مطلقة، أيده الكاثوليك، ولم يلبث هتلر طويلا حتى حل جميع الأحزاب وكشف عن عدائه للدين. فشهر الأساقفة الكاثوليك في وجه حربه النازي سيف الحرمان الكنيسي، ولكن الزعيم النازي نجح في أن يوقع معاهدة دينية بين ألمانيا والفايكان سنة 1933¹ وظن الكاثوليك أن الفرصة قد سحقت بقدر من الحرية، ولم يدركوا إلا بعد فوات الأوان، أن المعاهدة قد سحقت كل حقوق الكنيسة، وأن هتلر لم يضع في اعتباره أي احترام بنودها، وفشلت جهود الكاثوليك والبروتستانت في وقف تدمير النازية. فكان للبابا بيوس الحادي عشر موقف صريح من الحركة النازية، إذ أعلن رفضه الواضح والحاسم للتفرقة العنصرية التي نادى بها، كما وقف ضد تأليه الدولة والموجة العارمة التي تعتدي على حرمة الأديرة والكنائس. وتوفي البابا قبل أن ينشر خطابه الذي شبه فيه الاضطهاد النازي بالاضطهاد النوروني. إلا أن خطر النازية لم يكن قد تكشف للكثيرين في أوروبا وقد شغلهم المد الشيوعي².

ويضيف "جان كمي" أن الشيوعية تقدمت في شبه خطوات منسقة لتسيطر على روما. فمذ سنة 1917 حتى 1920، نجحت في الوصول إلى شدة الحكم الروسي، وأضحى لها وطن، وازداد القلق عقب إعلان الجمهورية في إسبانيا سنة 1931م، وقد صحب ذلك الإعلان اتجاه عنيف لاضطهاد الكنيسة ورجالها، فخربت الأديرة ونُهبت مؤسسات الكنيسة حتى برز الجنرال "فرنشيسكو فرانكو"³ كرجل وطني مسيحي، وكرمز للمقاومة، واستعلت الحرب الأهلية في إسبانيا وراح ضحيتها أكثر من مليون شخص، وأحرق نحو ألفي كنيسة، واغتيل سبعة آلاف كاهن. وحمل فرانكو لواء الدفاع عن الدين. وفيما أعلن جميع الأساقفة الولاء لفرانكو سنة 1937م، ناهض كثيرون من المفكرين والكتّاب الكاثوليك سياسة فرانكو بسبب الحالة الدموية التي صاحبت حركته⁴.

1 - وقع تلك المعاهدة عن الفاتيكان الكارينال باشيلى، الذي أصبح البابا بيوس الثاني عشر (1939-1958م).

2 - رمضان لاوند : الحرب العالمية الثانية، ص 12.

3 - فرانثيسكو فرانكو : (1892-1975)، جنرال إسباني ورئيس الدولة، أبعده إسبانيا عن الحرب العالمية الثانية بالرغم من تحريض موسوليني وهتلر أعاد نظام الملكية الإسبانية بموجب قانون تولّى العرش 1947م محتفظاً بمنصب الوصي وأعلن تنصيب الأمير خوان كارلس وريثاً لعرش إسبانيا 1969م.

4 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 270.

- تداعيات الحرب العالمية الأولى على الرسالة العالمية :

أدت الحرب العالمية الأولى إلى خمود جذور الحماسة التبشيرية، ويعزو باحثون الأسباب في ذلك إلى تجنيد الشباب، بمن فيهم المرسلون. وإلى أن تلك الحرب قد شوّعت صورة الكرازة المسيحية، إذ رأى المسيحيون الجدد، من شعوب البلدان التي كانت مقصد المبشرين، شراسة الحرب بين البلدان التي يغدو منها المبشرون، وهكذا فقد أشعلت تداعيات الحرب العالمية الأولى، في وجدان الشعوب، نزعة العودة إلى القومية الوطنية، بعد أن اهتزت صورة الحضارة المسيحية الغربية، وقد تطرّق البابا بندكتس الخامس عشر إلى هذه المعاني في رسالة نقد ذاتي لبنيان الكنيسة الجديدة في مناطق الإرساليات، أصدرها سنة 1919م، وعبر فيها عن حزنه العميق إزاء الخلط بين رسالة الإنجيل ومصالح الدول المستعمرة، وتعجّب البابا كيف يمكن أن نفهم وضع الكنائس الجديدة وقد مضى عليها قرون من الزّمان وليس لها إكليروسها المحلي من أبنائها¹.

وكان هذا البابا قد اهتم بالكنائس الشّرقية، وأسس سنة 1917م، "مجمع الكنائس الشّرقية"².

وجاء البابا بيّوس الحادي عشر ليحقّق رغبة سلفه بندكتس سنة 1926م، من خلال وضع إطار رسولي لتعليم الكنيسة في مجال الكرازة، وقد شجّع هذا البابا حركات "العمل الكاثوليكي" ونظّمها، ونشط الإرساليات التبشيرية.

وتابع في مختلف النواحي خطة البابا لاون الثالث عشر وذلك في وثيقة تحت عنوان شؤون الكنيسة، تقول بالفصل بين رسالة الكنيسة والعمل السياسي، جاء فيها :

"لقد عصفت حرب 1914-1918 بالإرساليات المسيحية،... أن المسيحية ليست دين غرباء، بل هي ديانة الأمم قاطبة، « تضم في نور إيمانها جميع الأجناس الذين يعبدون الله بالروح والحق، ليس فيها يوناني أو يهودي، ولا ختان أو قلق، ولا أعجمي،... بل المسيح الذي هو كل شيء وفي كل شيء » قول (11/3).

وأرسل البابا مندوبين إلى مختلف البلدان "كرجال الدين"، لا كرجال سياسة³.

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 335.

2 - بيتيم وديك : تاريخ الكنيسة الشّرقية، ص 270.

3 - جان كمي : المصدر السابق، ص 335.

وهكذا نلاحظ أنّ بعض التدايعات السّلبية للحرب العالمية الأولى على موضوع الكرازة، قد نُبّهت الكنيسة الرّومانية إلى وجوب تخلّصها من نزعة الاستعمار الغربيّة، التي كانت، إلى حدّ بعيد، قد تأثرت بها من منطلق أنّها من صميم أوروبا الاستعمارية.

- الفرع الثاني : الحرب العالمية الثانية.

عندما عُيّن بيّوس الثاني عشر ليكون رأس الكنيسة الكاثوليكية سنة 1939 خلفا للبابا الراحل بيّوس الحادي عشر الذي تتسم الكرسى الرّسولي في حقبة فاصلة بين حربين (1922-1939م)، كانت الحرب العالمية الثانية تنذر بشرّها، وكان البابا الراحل قد قام بين الحربين بمحاولات كثيرة لتوطيد السّلام. غير أنّ السياسة العدوانية التي اتّبعها هذه الدّول : ألمانيا، إيطاليا واليابان، قد بلغت ذروتها باستيلاء الألمان على يوهيميا في مارس 1939. وهكذا فإنّ الدّولتين الغربيتين : فرنسا وانكلترا، اللّتين حاولتا إتباع سياسة التهدئة بتوقيعها معاهدة ميونيخ سنة 1938م، راحتا تجرّان في إعادة التّسلح في المقابل، طالب هتلر باستعادة "دانزغ"¹، وعقد ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السّوفياتي. في أوت 1939م، فأصبح حرّاً في قطع مفاوضاته مع الغرب ثمّ هاجم بولندا في 01 سبتمبر 1939، فأعلنت فرنسا وانكلترا الحرب على ألمانيا، وهكذا بدأت الحرب العالمية الثانية التي سوف تترك بصماتها على المسيحيين وعلى الكنيسة في البلدان المعينة بالحرب، بدرجات متفاوتة².

فقد واجه المسيحيّون، كسائر مواطنيهم، نتائج الحرب، دمارا ومجازر في أوروبا التي وقعت بنسبة 75% تحت الحكم الألماني النّازي. إذ سرعان ما انتصرت ألمانيا على بولندا بإتباعها تكتيكات الصّاعقة. تابعت ألمانيا الغزو في أبريل 1940م، فاحتلت الدانمارك والنرويج. وانقضّت على شمال فرنسا وقضت على الحلفاء³ الذين أسرعوا بالانسحاب من "دنكرك"⁴ إثر معركة جرت فيها.

1 - دانزغ : Danzig : مدينة في بروسيا الغربية، احتلّها الفرنسيّون، 1807، مدينة حرّة 1919، ضُمت إلى الرّايخ في 01 سبتمبر 1939م، أصبحت بولونية 1945م.

2 - جرقية دوميج اليسوعي : الإيمان الكاثوليكي، ص 100.

3 - الحلفاء : اصطلاح يعنى به التّحالف الإنكليزي الفرنسي الذي انضمّت إليه الولايات المتحدة وسائر الدّول التي حاربت ضدّ حلف المحور في الحرب العالمية الثانية.

4 - دنكرك : Dankerque : مدينة ومرفأ في شمال فرنسا على بحر الشمال.

ودخلت القوات الألمانية إيطاليا في 10 جويلية حربا. وسلّمت فرنسا للنّازيتين في 22 من الشهر نفسه، بينما وقفت انكلترا وحدها في معركة بريطانيا، واستمرّ القتال في شمال إفريقيا بين الإيطاليين والبريطانيين، وعندما غزا هتلر روسيا في 22 جوان 1941م، اقتربت الولايات المتحدة من دخول الحرب، وسرعان ما احتلت الولايات المتحدة "جرينلاند"¹. وأدّى اعتداء اليابان على الهند الصينية إلى توتر الموقف فهاجمت اليابان "بيدل هارير"² و "الفلبين"³ في ديسمبر 1941م، فأعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على اليابان؛ وأعلنت ألمانيا الحرب على الولايات المتحدة⁴. واحتلت اليابان الفلبين وعدة جزر في المحيط الهادئ وكل جنوب شرق آسيا.

ونزلت قوات ألمانية، بقيادة "إيزنهاور"⁵ في "النورماندي"⁶ في 06 جوان في غرب فرنسا وهنا بدأ الدوران المعاكس للجولة الأولى من الحرب العالمية الثانية، فتحرّرت فرنسا وبلجيكا في أواخر سنة 1944م، من الاحتلال الألماني، واتّجه القتال إلى قلب ألمانيا التي أيدت مؤسستها الصناعيّة العسكرية، ودُكت المقاومة الألمانية في أبريل 1945م، وفي 07 ماي سلّمت ألمانيا دون شروط، وفي أوت أسقطت الولايات المتحدة الأمريكية أول فتيلة ذرية على "هيرو شيما"⁷. أعلنت اليابان التسليم في 14 أوت ووقّعت شروط التسليم في 02 سبتمبر 1945 وانتهت الحرب...⁸.

وكانت الخسائر البشريّة والماديّة كارثية: فقد بلغت خسائر القوّات المسلّحة للولايات المتحدة الأمريكية حوالي 292 ألف جندي، ولبريطانيا حوالي 545 ألفا، وللاتحاد السوفياتي حوالي مليون 750 ألف، وفرنسا 210 آلاف، وألمانيا 850 ألفا، وإيطاليا 300 ألف، وللصّين مليونين و200 ألف، وللإيابان أكثر من مليون ونصف.

- 1 - غرينلاند: جزيرة دائمة كبريّة معظمها داخل في الدائرة القطبيّة بين كندا غربا وإيسلندا شرقا.
- 2 - بير هارير: مرفأ في جزيرة "أواهو" إحدى جزرها هاوي في الأرخيبيل الهادي، من الجزر التي ألحقت بالولايات المتحدة أواخر القرن التاسع عشر.
- 3 - الفلبين: دولة مستقلة تتألف من أرخبيل بركاني يقع في بحر الصّين عاصمتها السّابقة كويزون والحالية "مانيلا".
- 4 - دوايت ايزنهاور: (1890-1969م): عسكري وسياسي وبطل قومي أمريكي، قاد قوّات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، رئيس الولايات المتحدة 1953-1961م.
- 5 - النورماندي: مقاطعة قديمة في شمال غرب فرنسا، تتألف من خمس محافظات.
- 6 - محمود صالح منسي: الحرب العالمية الثانية، ط []، م []، د []، 1989م، ص 16.
- 7 - هيرو شيما: مدينة ومرفأ في اليابان جنوب جزيرة "هونشو".
- 8 - رمضان لاوند: الحرب العالمية الثانية، ص 30.

وفي النهاية أوقعت معاهدات الصلح سنة 1947م، بين إيطاليا ورومانيا، وترتب على التنازل بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة تأخير توقيع الصلح مع ألمانيا واليابان، وكان من أهم نتائج الحرب، على صعيد النظام الدولي إنشاء الأمم المتحدة¹.

في خضم ذلك الواقع المرير، وجد الضمير المسيحي ذاته أمام خيارات صعبة، وكان من الطبيعي أن تختلف المواقف باختلاف البلدان وعلى عكس البابا بند يكتس الخامس عشر (1914-1922)، الذي كثيرا ما انتقد لدعوته إلى السلام إبان الحرب العالمية الأولى، فإن بيوس الثاني عشر استحق الثناء شبه التام، في حياته، على مواقفه طوال الحرب العالمية الثانية. فهو الذي عمل في السلك الدبلوماسي ثم سكرتير دولة الفاتيكان، قبل أن يصبح بابا، وكان على علم تام بقضايا ألمانيا، وهو الذي وقع على الاتفاقية بين هتلر والفاتيكان سنة 1933، كما شارك في كتابه رسالة باباوية هو ألمانيا²، وهكذا يتضح أن مواقف البابا بيوس الثاني عشر في خلال الحرب العالمية الثانية، جاءت وليدة سياسة مدروسة مبنية على الدبلوماسية الواعية والرؤية الشاملة للأمر، والحرص على عدم التسبب بردات فعل من قبل أي من الدول المتحاربة ضد أبناء الكنيسة في ذلك الزمن، لذلك أراد أن يكون في خلال الحرب العالمية الثانية مثلما بنديكتس الخامس عشر في الحرب الأولى محايدا وفوق المعركة.

يرى ويتم وديك أن المنظرين، الكاثوليك وغير الكاثوليك، الذين استفاقوا بعد عشرين عاماً على انتهاء الحرب، ليوجهوا اللوم إلى البابا بيوس الثاني عشر لأنه لم يدن صراحة اليهود على يد النازيين. إما أنهم غير بريئين وغير منصفين، أو أن بعضهم كان "يحارب بالتظاهرات" بعد انقضاء نحو عشرين سنة على الحرب، من دون أي شعور بخطورة المسؤولية التي كانت تترتب على كل كلمة تصدر عن رأس الكنيسة في مثل تلك الظروف الصعبة.

أما في الواقع، فبعد أن حاول البابا بيوس الثاني عشر، منع إعلان الحرب سنة 1939م، من خلال نشاطه الدبلوماسي الحثيث الداعي الأطراف الأوروبية إلى حل مشاكلهم بالتفاوض. ولطالما لعب بيوس الثاني عشر دوراً هاماً إبان الحرب العالمية الثانية في محاولاته توطيد العدل والسلام، فلم يتوقف، طوال زمن الحرب، عن الدعوة إلى وقف العنف والاحتكام إلى الأخلاق والدين عبر خطبه المكثفة.

1 - الموسوعة العربية الميسرة، ج2، ص 967-968.

2 - ول ديورانت : قصة الحضارة، تقديم : محمد الدين صابر، ترجمة : فؤاد أندراوس، ج 30، 29، ط8، بيروت، تونس، دار

الجيل، 1998م، ص 50.

وكثيرا ما لجأ عدد من اليهود المتهمين إلى المؤسسات البابوية والأديرة¹.

ويذكر أيضا أن البابا بيوس الثاني عشر بذل قصارى جهده في محاولاته لحماية روما عند وصول الحرب إلى إيطاليا 1943-1944م، وفي ما يختص بنفي اليهود وإبادتهم، فقد التّوضيحات التي تدارسها الباحثون على مدى عقدين بعد الحرب، أن المعلومات التي وصلت إلى الفاتيكان في وقت مبكرة، لم تكن واضحة، ورغم ذلك، فقد ألح البابا على إداة الإبادة العرقية سنة 1942م، وجد بيوس الثاني عشر أنه ليس بمقدوره عمل شيء، لكنّه أشار إلى وحشية ما يجري في خطاب وجهه إلى الكرادلة في 02 جوان 1943م، وفي إيطاليا بقي البابا صامتا يوم توقيف اليهود في 16 أكتوبر 1943م، ولكنّه "تدخله الصّامت" منع أعمال نفي جديدة².

سادت سنوات صعبة في الحرب العالمية الثانية. ففي بعض البلدان، أُصيب المسيحيون في أعماقهم، وفي كل مكان طُرحت أسئلة على الضّمير المسيحي فيما يتعلّق بخياراته. ففي فرنسا، في عهد المارشال "بيتان"³ أصبح النظام مواليا للكنيسة، وصار يوسع الرّهبان والراهبات أن يرتدوا زيّهم التقليدي، وتكاثرت الزيارات إلى المقامات الروحية، ونعمت المدارس الخاصّة بالمساعدات المالية، وبالإجمال، كان أساقفة فرنسا، وجلّهم من جنود الحرب العالمية الأولى، وفي بولونيا قام الأمانيون التّازيون باضطهاد كنيستها التي لم يعد لها وجود شرعي في نظرهم، فتمّ إقفال الكنائس وعندما التجأ كاثوليك بولونيا إلى البابا ليسألوه رأيّه بما يجب أن يقوموا به، خاف من التورط في التّوجيه، خشية أن يزداد مصيرهم سوء⁴.

هذا يعني أن الكنيسة لم تكن بعيدة عن المقاومة بالقدر الذي تصوّره بعض المجتهدين، أضف إلى ذلك ما تناقلته المدونات التاريخية عن أن كهنة ومجاهدين علمانيين قد التقوا مباشرة في المعتقلات والمنفى والمقاومة رجالا ونساء لم يكونوا قد إنقوهم من قبل في رعاياهم فشكّل ذلك "اكتشافا" لكثيرين.

وكان الكاثوليك قد أصبحوا أكثر جدية بالنسبة إلى الدروس الكتابية، مع ظهور البراءة

1 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 271.

2 - بيتم وديك : المصدر نفسه، ص 271.

3 - فيليب بيتان : (1856-1951م)، عسكري وسياسي فرنسي، من كبار القادة في الحرب العالمية الأولى، 1914-1918م،

اشتهر خاصة في معركة فردان، حكم عليه بالإعدام 1945م، بعد التحرير بتهمة تعاونه مع العدو، توفي في المنفى.

4 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة : فؤاد اندراوس، عصر لويس الرابع عشر، ج 31، 32، ص 189.

البابوية نفحة الروح القدس سنة 1943م.

راح علم الكنيسة يتطور في ما بين الحربين ولا يزال يتطور فحاول بعض الباحثين إيجاد جذور الكنيسة في التاريخ وصوروا الكنيسة، لا كمجتمع كامل تنبأ المسيح عن كل تفاصيل تنظيمه، بل كسر النعمة وكمركز لقاء المسيح¹.

كان من الطبيعي أن تنشأ بعد الحرب العالمية الثانية خريطة جيوبو ليتيكية جديدة فقد كان هناك منتصرون ومهزومون، فكانت النتائج خطيرة على صعيد الديموغرافيا الدينية، إذ إن كثيرين من المسيحيين أصبحوا عرضة للاضطهاد، مباشرة، من قبل النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي². وفي ألمانيا، أصبح المسيحيون في حالة شتات كاثوليكيون يعيشون في مناطق بروتستانتية، وبروتستانت في مناطق كاثوليكية. فكان لذلك التشتت تأثيره المباشر على التزام الناس بالممارسة الدينية.

خرج الكاثوليك من تفوقهم حيث كان العلمنة التي كانت قد حشرتهم في أقبنتها منذ بداية القرن العشرين، وعندما شكلت الحكومة المؤقتة في فرنسا (1944-1945م)، ضمت ستة أعضاء من جماعة العمل الكاثوليكي³.

غير أن ما درج من حديث يومذاك عن "أوروبا فاتيكانية" يديرها البابا والأساقفة، لم يكن صحيحا - على حد قول جان كمي - ذلك أن تلك الأحزاب قد أسست في زمن المقاومة النازية والفاشية بعيدا عن وصاية الأساقفة⁴.

كما ذكر "بيتم وديك" أن البابا بيوس الثاني عشر أكد على أن الكنيسة فوق القوميات، وأنها ليست إمبراطورية مرتبطة بأوروبا، ولكن البابا عبر عن خوفه من الشيوعية التي تتهم الكنيسة ظلما بأنها استعمارية. حيث كان آخر باباوات النصف الأول من القرن العشرين (1939-1958م)، والذي عاصر الحرب العالمية الثانية وتداعياتها، وقد اشتهر بتوجيهاته الحكيمة لحل المشاكل الجديدة الناشئة عن تقدم العلوم والاختراعات والتطورات الاجتماعية، وفي عصره بعد الحرب العالمية الثانية، نشطت الحركة اللاهوتية والفكرية وتطورت علوم الكتاب المقدس،

1 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج23، 24، ص 128.

2 - محمود صالح المنسي : الحرب العالمية الثانية، ص 80.

3 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 201.

4 - جان كمي : المصدر السابق، ص 368.

وأخذت كنائس افريقية وآسيا الحديثة مكانا مرموقا بين الكنائس القديمة، ونشطت الكنائس الكاثوليكية الشرقية والحركة المسكونية لتقارب المسيحيين وقويت الكتلكة في الولايات المتحدة، وبدأت الكنيسة في دول أمريكا اللاتينية تنهض من سباتها¹.

ذلك لأنه على الصعيد العالمي، تفسّخت، في خلال السنوات العشرين التي تلت الحرب، الإمبراطوريات الاستعمارية التي أسستها الدول الأوروبية على مدى العصور وبخاصة في القرن التاسع عشر، ونالت الشعوب المستعمرة استقلالها، وظهرت المسيحية كديانة المستعمرين المستوردة من الغرب².

بيد أن سنوات بيوس الثاني عشر الأخيرة، قد تعرّضت على سلسلة من التوترات والأزمات المتداخلة ذلك أنها جاءت بنتائج عدم تفاهم ومخاوف عدّة، ودليلا على أن هناك في عدّة ميادين، حدود ومصاعب لا بدّ منها.

وفي شهر أوت 1950م، نشر بيوس الثاني عشر الرسالة البابوية "الجنس البشري" حول بعض آراء خاطئة تهدد أسس العقيدة الكاثوليكية، ولكن الرسالة لم تذكر قائمة الأخطاء³. بل انتقدت ما اسموه "اللاهوت الجديد" أي التفكير اللاهوتي المنسجم مع الفكر المعاصر والذي يعير التاريخ أهمية كبرى، وبصدد العلاقات بين المسيحيين، حذر البابا في رسالته من التّضحية بالعقيدة في سبيل الوحدة من دول أن يسمّى أحداً⁴.

وهكذا نجد أن في نهاية حرية البابا بيوس الثاني عشر، تلك الحرية الغنيّة بالمبادرات، ظهر بعض المعوّقات. بيد أن الدّعوة إلى المجمع الفاتيكاني الثاني في بداية الحرية الجديدة، ستسمح لهذه الجهود التي ظهرت بعد الحرب أن تؤتي كل ثمارها⁵.

1 - بيتيم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 270.

2 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ج33، ص 14.

3 - بيتيم وديك : المصدر السابق، ص 273.

4 - ول ديورانت : قصة الحضارة، ج34، ص 23.

5 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 210.

المبحث الثالث : البابا في المجمع الفاتيكاني الثاني.

إن معالجة التاريخ القريب خطيرة دائما، إذ ينقصنا البعد الزمني لكي نقدّر الأحداث حقّ قدرها، فالمطلوب هنا هو فقط إبراز بعض أحداث ذات مغزى ظهرت في العقود الأخيرة. فالمجمع الفاتيكاني الثاني يبدو نتيجة عشرين سنة من الأبحاث الشرعية واللاهوتية، ونقطة تحوّل في فكر الكنيسة اللاهوتي الذي كان يستوحي المجمع التريدينتيني. فإنّ المجمع الفاتيكاني قد حقّق تجديد الكنيسة في عالم يتطورّ بسرعة، وأيقظ آمالا كبيرة، من جهة أخرى يبدو أنّ سوء التفاهم القائم بين الكنيسة والعالم قد انقشع.

- المطب الأول : التهيئة للمجمع

خلف البابا بيوس الثاني عشر، على سدة الكرسي الرسولي، في 28 أكتوبر 1958، الكاردينال "رونكالي"، متّخذا اسم البابا يوحنا الثالث والعشرين (1958-1963م)، وإذا كان له من العمر سبع وسبعون سنة، حسبوه بابا انتقاليا، والبابا الجديد من أصل ريفي، مرّ بالسلك الدبلوماسي في مراكز مختلفة أراد يوحنا الثالث والعشرين -على حسب ذكر جان كمي- طبقا لروح الإنجيل، أن ييسّط الأمور المعقّدة، فتبّنى نمطا جديداً. فكان أوّل بابا خرج من الفاتيكان منذ 1870، حيث زار سجن روما، وحجّ إلى لوريتو¹ واسيزي²، لكنّه بقي تقليديا في بعض النواحي، إذ لم يكن ممكنا تغيير كل شيء دفعة واحدة³.

ثم يشير بيتم وديك إلى أنّه لم يكن قد مضى ثلاثة أشهر على انتخاب البابا يوحنا الثالث والعشرين، عندما فاجأ الجميع إكليروسا وحكومات وشعوبا، في ختام أسبوع الصلاة لوحدة المسيحيين في 25 يناير 1959، بإعلانه عن بيته الطموحة "المثلثة" في أن يدعو إلى : سينودس أبرشية روما، وإلى تجديد الحقّ القانوني، وإلى مجمع مسكوني للكنيسة الجامعة، يلتزم فيه جميع أساقفة العالم الكاثوليك للتداول في الأمور التي تمم الكنيسة ودورها في العالم⁴، فتمسك الناس

1 - لوريتو : LORETO : مدينة في إيطاليا، فيها مزار شهير لمريم العذراء.

2 - أسيزي : ASSISE : مسقط رأس القديس فرنسيس الأسيزي 1182-1226، مؤسس رهبانية الفرنسيسكان، كان أثره الديني كبيرا في الغرب طوال القرون الوسطى، لا يزال صريحة مزارا.

3 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 377-378.

4 - بيتم المطران ميتشل والارشمندريت أغناطوس ديك : تاريخ الكنيسة الشرقية وأهم أحداث الكنيسة الغربية، ط 4، بيروت :

منشورات المكتبة البولسية، 1999م، ص

بالنقطة الأخيرة. ذلك أن كلا من بيوس الحادي عشر وبيوس الثاني عشر كان قد فكر في هذا الأمر من دون أن تسمح لأيّ منهما الظروف بتحقيقه، كل ذلك في وقت لم يكن ثمة من أزمة تستدعي عقد المجمع، وكان يُظنّ أنّ عهد المجمع قد ولى، نظراً لإعلان عصمة البابا الفردية في المجمع الفاتيكاني الأول عام 1870م، ولسهولة الاتصال التي أصبحت مؤمنة بروما. ولاقى إعلان البابا ارتياحاً كبيراً في معظم الأوساط، ولدى المسيحيين من مختلف المذاهب، وفتح آمالاً جديدة لمزيد من الانفتاح والتوازن في حياة الكنيسة¹.

وإذ لم يكن ليوحنا الثالث والعشرين أفكار واضحة حول مضمون المجمع، إلاّ أنّه كان قد عايش آخر عهد البابا بيوس الثاني عشر الذي اتّسم بشيء من الانغلاق والجمود.

ثم يرى أيضاً ويتم وديك أنّه إزاء تباعد العالم عن الكنيسة وتنشيط الحركة المسكونية، كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تحدّد ذاتها، وتفتح على سائر الكنائس، بحيث تمهّد لإعادة الوحدة بين جميع المؤمنين بالمسيح. وإنّ الهدف الذي عينه البابا يوحنا الثالث والعشرون للمجمع هو تجديد الكنيسة والسّعي إلى الوحدة المسيحية².

توصّل البابا يوحنا الثالث والعشرون بصيره وحكمته إلى أن يكسر مقاومات الفئات المحافظة من دون مجابهة صريحة، ويحقّق الانفتاح الذي يقول جان كمي أنّ ذلك بتعيين هدفين كبيرين للمجتمع: تجديد الكنيسة والرّسالة في عالم يتبدّل بسرعة، والعودة إلى وحدة المسيحيين التي كان ينتظرها وشيكة، كما كان المسيحيّون الأوائل ينتظرون عودة الرّب فهمّ الكنيسة برأيه، يجب ألاّ يكون محاربة الخصوم بل إيجاد لغة تخاطب بها العالم الذي تعيش فيه والذي يجهلها، يجب تغض الغبار الإمبراطوري الذي يغطّي وجه الكنيسة³.

يوجز باحثون كنسيّون قرار يوحنا الثالث والعشرين في عقد المجمع الفاتيكاني الثاني برغبته في تجديد أنظمة الكنيسة، وتعميم التّقدّم الديني، القائم في بعض الأقطار، على العالم الكاثوليكي بأجمعه، وهيئة الكنيسة الكاثوليكية لأنّ تلتقي، يوماً ما، سائر الكنائس المسيحية في الوحدة التامة التي أرادها السيّد المسيح.

وما يؤكّد على هذه الغاية الأخيرة أنّ هذا البابا قد خلق، منذ أن ارتقى السّدة الرّسوليّة،

1 - بيتيم المطران ميشيل والأرشمندريت أغناطيوس ديك: تاريخ الكنيسة الشرقية وأهم أحداث الكنيسة الغربية، ص 374.

2 - بيتيم وديك: المصدر نفسه، ص 375.

3 - جان كامبي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 378.

جواً ودياً بين الكاثوليك وسائر المسيحيين، وبين الكنيسة والحكومات الملحدة نفسها، ونشر رسالتين عامتين موضوعهما العدل الاجتماعي والسلام العالمي، بمعنى آخر، كان الهدف، من عقد المجمع الفاتيكاني الثاني، تهيئة الكنيسة للقيام بواجباتها تجاه العالم الجديد، وإزالة العقبات التي تراكت عبر الأجيال أمام وحدة المسيحيين¹.

أعدت استشارات عامة وأرسلت إلى جميع الأساقفة والجامعات، وتألّفت اثنتا عشرة لجنة للإعداد، تتسع منها على عدد المجمع الروماني وظنّ بعضهم أن المجمع الروماني ستنظم وتدير المجمع، لكن كان هناك أوجه جديدة: لجنة لرسالة العلمانيين وأمانة سرّ الاتحاد المسيحيين يرأسها الكردينال بيا "Bea"، ومساهمة لاهوتيين وأساقفة من بلدان عدّة لتهيئة سبعين موضوعاً كأساس للعمل، وأعدّ النظام ثلاثة أنواع من الحلقات: اللجان (الأساقفة واللاهوتيون الخبراء) هيئات نصوصاً وقدمتها للجمعية العمومية (جميع الأساقفة)، حيث كان بإمكان كل أسقف أن يتكلم (عشر دقائق باللاتينية)، ثم الجمعيات العامة، برئاسة البابا، التي تتبنّى النصّ نهائياً².

الدورة الأولى (حريف 1962م): مجمع يوحنا الثالث والعشرين: من أصل 2800 مدعو من أساقفة ورؤساء عامين، حضر 2400. إنّه أوّل تجمع كاثوليكي عالمي. كل القارات والأعراق ممثلون. بيد أن أساقفة عديدين من البلدان الشيوعية لم يتمكنوا من الحضور.

التّحديد البارز للعيان، بالنسبة إلى المجمع السّابقة، هو وفقاً لإرادة يوحنا الثالث والعشرين، وجود مراقبين مسيحيين أرثوذكس، وأنكليكان وكاثوليك قدامى وبروتستانت... وقد ازداد عددهم من 31 في بدء المجمع إلى 93 عند نهايته... وفي الدورات التالية كان هناك 36 علمانياً من بينهم يسع نساء. يوم الافتتاح الرّسمي (11 أكتوبر 1962)، طالب الكردينال تسّران، الذي كان يرأس الاجتماع العام، بانتخاب لجان جديدة للمجمع، ممّا يعي الاستغناء عن اللجان التي هيأت المجمع ويحمل على الظن أن المجمع ستديره آليا الإرادة الرومانية³.

ظهر اتجاهات: غالبية في خطّ يوحنا الثالث والعشرين، يهّمها تكيّف الكنيسة مع العالم والحوار المسكوني، والعودة إلى ينابيع الكتاب المقدّس... وأقلية، غالبيتها من المجمع الروماني وأساقفة بلدان ذات طابع مسيحي قديم (إيطاليا، إسبانيا)، همّها الحفاظ على وديعة الإيمان، طوال

1 - مجموعة من كبار الباحثين: موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 213.

2 - روبرت كليمان اليسوعي: موسوعة المعرفة المسيحية، ج3، ص 40.

3 - مجلة الرابطة الإسلامية، ع 432، 2001م، ص 13.

انعقاد المجمع، كان من المهمّ التّوفيق بين الاتّجاهين لكنّه قاد إلى إضعاف بعض النّصوص إلّا أن الدّورة الأولى إلى أيّ نصّ نهائيّ. ففهم المجتمعون أنّهم لن ينهوا السّبعين موضوعاً وقرّروا حصرها في عشرين¹. على كل حال، نرى أن المجمع بدا مؤثّر أناس أحرار لاعتماد نصوص معدّة سلفاً.

- المطلب الثاني : بولس السّادس يخلف يوحنا الثالث والعشرين.

في أبريل 1963م، عرفت الرّسالة البابوية التي أصدرها يوحنا الثالث والعشرون (السّلام على الأرض) تأثيراً كبيراً، خاصة وإنّ البابا يكلّم "كلّ النّاس ذوي الإرادة الحسنة" -على حد قول جان كمي-، لا المسيحيين وحدهم. بعد ذلك بقليل، كان العالم بأسره يتتبع بتأثر نزاع البابا الطويل. وقد توفي في 03 جوان 1963م، وفي 21 جوان انّخب بابا الكردينال مونتيني، فأخذ اسم بولس السّادس².

قرّر بولس السّادس متابعة أعمال المجمع سريعاً، فتطرّقت الدّورة الثانية إلى عدّة مواضيع (خريف 1963م) : عمل الأساقفة الجماعي والمسكونية والحرية الدّينية.

في جانفي 1964م، زار بولس السّادس الأراضي المقدّسة -منذ زمن بعيد لم يكن قد خرج بابا من إيطاليا- لذلك تعتبر مبادرة مسكونية، إذ التقى البابا بطريرك القسطنطينية أتيينا عوراس. في الدّورة الثالثة (خريف 1964م)، دار الجدل بين الآباء على الحرية الدّينية، واقتنعوا على عدّة نصوص وأعلنوها : الكنيسة والمسكونية والكنائس الشّرقية. عرض المجمع تكوين مجمع أساقفة يستشير البابا دورياً³.

وفي ديسمبر 1964م، في رحلة إلى بومباي⁴ بالهند، تعرّف البابا إلى العالم الثالث.

1 - حرفيه دوميح اليسوعي : الإيمان الكاثوليكي، ص 422.

* - كان هذا البابا الجديد رئيس أساقفة ميلانو وعمل قبلاً في الأمان العامّة لدولة الفاتيكان، وكان خجولاً بعض الشيء، غير أنّه متوقّد الذّكاء ونشيط متصوّف، وبخلاف يوحنا الثالث والعشرين، كان يبدو ضعيف البنية.

2 - من رسالة "السّلام على الأرض" 11 أبريل 1963م : "إنّ تطور العلوم واختراعات التّقنيّة يقلعنا بأنّ هناك نظاماً رائعاً يكمن في الكائنات الحية وفي قوى الطبيعة... إننا نعتبر إعلان حقوق الإنسان العالمي خطوة نحو خلق منظّمة شرعية سياسية للمجتمع العالمي..." (جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 380).

3 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 379.

4 - بومباي "Bambay"، مدينة في غرب الهند على بحر عمّان، عاصمة مقاطعة بومباي سابقاً، عدد سكانها نحو 16 مليون نسمة، من كنائسها كنيسة الملابار التذي ارتبطت تاريخياً بالكلدانية الكاثوليكية، والمقول إنّ تلك الكنيسة ترقى إلى الرّسول القديس توما.

أمّا الدّورة الرّابعة والأخيرة في ديسمبر 1965م انتهت بالافتراع وإعلان كلّ النّصوص المدروسة سابقا.

سافر بولس السّادس إلى نيويورك إلى منصّة الأمم المتحدة حيث تركت صرخته "لا حرب بعد اليوم" انطبعا قوياّ ونهار 04 ديسمبر في احتفال مشترك، الأوّل من نوعه في تاريخ البابوات، ودّع الجمع المراقبين غير الكاثوليك.

وفي 07 ديسمبر في كنيسة القديس بطرس في روما، رفع بولس السّادس والبطيريك أثينا غوراس الحُرّم المتبادل بينهما سنة 1054 تعدّ هذه المبادرة مرحلة هامّة على طريق الوحدة، وفي 08 ديسمبر 1965م، اختتم الجمع احتفاليا وانتهى كل شيء في جوّ من الأمل، بعد أن اتّخذت المقرّرات بالافتراع، وإعلان كافة النّصوص المدروسة سابقا¹.

ويشير كتاب موسوعة عالم الأديان أنّ البابا حرص على نشر تلك المقرّرات، وهو أوّل من عمل على تطبيقها، فأسس سينودس الأساقفة الذين يجتمعون حوله بشكل دوري لتدارس أمور الكنيسة الجامعة، ونظّم المجالس الأسقفية في مختلف الأقطار وأعطاهم سلطات واسعة، كما وسّع الدوائر الرومانية وفتحها على جميع العناصر والشعوب، وأسس أمانات السرّ الدائمة لوحدة المسيحيين، وللعلاقات مع سائر الأديان وللحوار مع غير المؤمنين. كما عمل على الإصلاح الطقسي في الكنيسة الغربية وشكّل اللّجان لوضع الحقّ القانوني الجديد.

وأبدى البابا حكمة كبيرة في حقبة ما بعد الجمع لإجراء الإصلاحات الضرورية والانفتاح على عالم اليوم، متغاضيا على انتقادات المحافظين المتشدّدين كاجما حجاج التقدّميين المتهوّسين، وأظهر البابا اهتمامه بالقضايا العالمية في رحلاته وفي دفاعه على حقوق الإنسان والعدالة، فولدت الفروع الوطنيّة للجنة "عدالة وسلام" سنة 1967، وهي تركز عملها لهذه القضايا.

نرى على وجه العموم أنّ الجمع أراد أن يكون مجمعا رعويا يتوجه بالكلام إلى إنسان اليوم وبالرغم من عمق التفكير العقائدي، فلم يأت الجمع بأيّ تحديدات أو إدانات كما أنّه لم يصدر أيّ حرم كما كانت الحال في الجامع السابقة².

1 - فجور عنتر : الاضطهاد الدّيني المسيحي للمسلمين، محاكم التفتيش نموذجا، رسالة الماجستير، ص 115.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 221-222.

- المطب الثالث : مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني.

إنّ المجمع الفاتيكاني الثاني وحده بين المجمع السّابقة، لم يُعقد ليُحرم أو يدين، بل كان للانفتاح والحوار، حوار مع الفكر المعاصر، حوار مع العالم، مع سائر المسيحيين، مع سائر الديانات مع كل البشر حتّى غير المؤمنين، وكان له أبعاد لاهوتية ومسكونية ورعائية في غاية الأهمية، ولم يعط بعد جميع نتائجه لأنّ هناك أوساطا لم تنجز تطبيقه، وهناك من أساءوا فهمه وانحرفوا عن روحه، وقد أدخل في الكنيسة روحا جديدة، ونمطا جديدا يتجاوب مع عقلية اليوم وحاجات العصر، بدون أن يقطع مع الماضي ومتطلبات الإنجيل، وكانت غايته الأساسية راعويّة حسبما ردّد ذلك مرارا البابا يوحنا الثالث والعشرون¹، أي أنّ يعبر عن العقيدة الثابتة والتي لا تتغيّر، بكلام يتلاءم وروح العصر، يفهمه رجل اليوم وهو في خضم سريع وتبدل لم يره عصر من قبل، وأنّ يقدم التوجيهات العملية التي تراعي الظروف الرّاهنة، بغية تحقيق رسالة الكنيسة في العالم وهي خدمة الإنسان وتوطيد.

تناولت قرارات المجمع مسائل عميقة في الشأن الإيماني، وقد أصدرها البابا بولس السّادس رسميا بعد أن صوّت عليها الآباء، وحظيت بشبه الإجماع وكان من أهمّ القرارات ما يتعلّق بموضوع "الوحي الإلهي"، فشددت على وحدة الوحي، حيث "لا يجوز التّمييز بين الكتاب المقدّس والتّقليد الشفوي. فالوحي ليس مجمّدا في نص، بل إنّ محفوظ في الشعب المؤمن الذي يكتشف دوما غناه الجديد". والعودة إلى كلمة الله تحمل على إعادة الاعتبار، في الكنيسة الكاثوليكية إلى وجهات نظر تقليديّة كادت أن تُنسى بسبب الجدل بين البروتستانت أو الأرثودكس، كـ "كهنوت المؤمنين العام" فالكنيسة شعب الله أكثر منها مؤسسة قانونية. أمّا عبارة "عمل الأساقفة الجامعي" التي تضمّنتها القرارات، فتعني أنّ الأساقفة يحملون، مع أسقف روما، مسؤولية الشعب المسيحي المشتركة. وكان إعداد القرارات في "الحرية الدّينية" من أصعب النّصوص، إذ كان مثقلا بوطأة قرون من الجدل² وكما كان في عهد غريغوريوس السّادس عشر (1841-1846) الذي أدان "تجاوزات" العقلانية والاشتراكية الليبرالية، كانت الأقلية في المجمع الفاتيكاني الثاني تريد الانطلاق من الدّفاع عن الحقيقة وعن الكنيسة كديانة حقيقية واحدة، فرفضت الأكثرية هذا الطريق المسدود، وطلبت الانتقال من الشّخص البشري ومن حقوقه التي لا

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 380-381.

2 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 389.

ثُمَّس، ومن بينها حقّ الوصول بحريّة إلى الحقيقة التي يقرّها الضمير. فالحرية "قيمة شاملة لا يمكن أن يطالب بها الكاثوليك العائشين في محيط كاثوليكي"¹.

أمّا القرار حول "المسكونية" فطلب إلى الكنائس المسيحية المختلفة لأن تنظر، أولاً، إلى الجوهر المتمثل في الإيمان المشترك، بالمسيح والإنجيل. "فلا يجوز اتهام المسيحيين غير الكاثوليك بخطيئة الانفصال، بل فليعترف الكاثوليك أيضاً بنقائصهم ومسؤوليتهم التاريخية إزاء الانفصالات"². وهناك إصلاحات أجراها المجمع في نظام الأسرار (بند 12-18) والعبادة (19-23) والعلاقات مع الإخوة المنفصلين (بند 24-29) وأبرزها الاعتراف بصحة الزواج المختلط المعقود بحضور خادم الكنيسة الأرثوذكسية، وتسهيل الاشتراك في القدسيّات مع الأرثوذكس³. وجاء القرار حول الـ "ليتورجيا" ليشكل نقطة انطلاق لنهضة ليتورجية، إذ قال باستعمال لغة البلاد في كل إقليم وبإمكانية المناولة "تحت الشكلين"، وبإظهار أهمية ليتورجية الكلمة، وبالقدّاس المشترك.

وكان "من أجدّد جديد المجمع"⁴، القرار بخصوص "الديانات غير المسيحية" فقد حاول المجمع الفاتيكاني الثاني، هنا، اكتشاف ما تحتفظ به سائر الديانات من معرفة الله، بدءاً بالديانات المسماة بدائية حتى التي تشترك في تراث الوحي التوحيدي كاليهودية والإسلام، فجاء في القرار أنّ "الكنيسة تأسف للبعوض والاضطهادات ولكلّ مظاهر محاربة السامية التي مهما كانت حقباها وفاعلها ووجهت إلى اليهود"، وجاء تأسيس أمانة عامة لغير المسيحيين (أفريل 1965)، ليؤكد على نيّة الكنيسة الكاثوليكية متابعة الاهتمام بموضوع الديانات غير المسيحية⁵.

وبالاختصار من مراحل المجمع تمّ تكوين لجان تحضيرية للمجمع بتاريخ 05 جويلية 1960م، وافتتحت أعماله يوم 11 أكتوبر 1962م، واختتمت بتاريخ 08 ديسمبر 1965م، وحضره أكثر من 2600 أسقفاً من مختلف أنحاء العالم، إضافة إلى مراقبين من الكنائس البروتستانتية والأرثوذكسية الشرقية والمشرقية.

1 - جرفية دومينغ اليسوعي : الإيمان الكاثوليكي، ص 423.

2 - القرار الصادر في 08 ديسمبر 1965، عن بولس السادس وأثينا غوراس.

3 - بيتيم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 382-383.

4 - هذا المقطع مر بصعوبة في إطار الشرق الأوسط.

5 - أليكسي جورافسكي : الإسلام والمسيحية، ترجمة : خلف محمد الجراد، ط []، الكويت : م. و. ث. ف. م، 1996م، ص 98.

-المرحلة الأولى : بدأت بتاريخ 11 أكتوبر 1962م، كان فاتحتها كلمة للبابا يوحنا الثالث والعشرون. انتهت تلك المرحلة بوفاة البابا بتاريخ 03 جويلية 1963.

-المرحلة الثانية : اشتملت على الجلستين الثانية والثالثة من 29 سبتمبر 1963م، حتى 04 ديسمبر من نفس العام.

نتج عنها دستور الليتورجيا الكنيسة ومرسوم حول إعلام التواصل الاجتماعي¹.

-المرحلة الثالثة : ضمت الجلستين الرابعة والخامسة من 14 سبتمبر 1964 إلى يوم 21 نوفمبر من نفس العام. خرج عنها الدستور العقائدي حول الكنيسة، ومرسوم عن المسكونية وعن الكنائس الكاثوليكية الشرقية، وأعلنت فيها مريم العذراء "أما للكنيسة".

-المرحلة الرابعة : بدأت بتاريخ 14 سبتمبر 1965 مع الجلسة السادسة، وانتهت بتاريخ 07 ديسمبر 1965 مع جلسة التاسعة.

افتتح بولس السادس هذه المرحلة بإعلانه عن عمله على تشكيل مجمع أسقفي مهمته مساعدة البابا بإدارة الكنيسة، كما صدر عنها أيضا دستور عقائدي حول الإعلام الإلهي ودستور عوني عن الكنيسة في العالم المعاصر. بالإضافة لمراسيم تتعلق بوظيفة الأسقف الرعوية.

وبالتحديد المناسب للحياة الدينية، وأيضا مراسيم تتحدث عن التثقيف الكهنوتي وعن خدمة وحياة القساوسة وعن رسولية العلمانيين، وكذلك عن الأنشطة التبشيرية للكنيسة. كما تمخضت المرحلة عن تصريحات تناولت التربية المسيحية والحرية الدينية وعن علاقة الكنيسة مع الأديان الأخرى، وحتى قبل أن يتم اختتام المجمع قام البابا بتشكيل لجان لتضع القرارات المتخذة في حيز التنفيذ. احتفل باختتام المجمع بتاريخ 08 ديسمبر 1965².

وفي قراره "نور الأمم"، أظهر المجمع الفاتيكاني الثاني الكنيسة في سرها، حيث جاء أن شعب الله مدعو إلى القداسة، حيث الأساقفة والعلمانيون والرهبان يجدون مكانهم المميز، وتظهر مريم في علاقتها بسر الكنيسة.

وفي قراره "فرح ورجاء" حول "الكنيسة في عالم اليوم"، وهو أطول القرارات نصا، وضع المجمع الكنيسة في حالة حوار مع العالم، حيث "عليها أن تأخذ بعين الاعتبار تغييرات هذا العالم

1 - www.google.com.

- الموسوعة المسيحية :

2 - www.google.com.

- الموسوعة المسيحية :

التي كانت أساس عدّة نزاعات وأخطاء في الماضي" ¹. ودعا المجمع إلى اعتبار الإلحاد كما هو، والبحث عن أسبابه". كما بُحث بعض مشاكل العصر بطريقة مميّزة، ومنها: الزواج والعائلة، الثقافة، الاقتصاد، المجتمع السياسي وبناء السّلام ².

لقد أوحى مقرّرات المجمع الفاتيكاني الثاني بأنّ عصرا جديدا قد بدأ في الكنيسة، أنهى عصر المجمع التريدينيني، ودرج القول بـ، "قبل المجمع" و "بعد المجمع". وساد الانطباع بأنّ الكنيسة، التي عاشت أربعة قرون تبعا لاعتبارات المجمع الفاتيكاني الثاني، ومع أنّ البعض يرى أنّه كان بالإمكان الاستفادة بشكل أفضل من المقرّرات البالغة الأهمية للمجمع الفاتيكاني الثاني ³.

فإنّ الوقائع تدلّ على أنّ المؤسسات التي نادى بها نصوص المجمع قد بدأت تظهر للوجود بسرعة في السنين اللاحقة، إذ أسّست المجالس الأسقفية في كافة البلدان، وإن اقتصرنا أحيانا على تنظيم تجمّعات كانت موجودة، فالمجلس الأسقفي الفرنسي أخذ يجتمع سنويًا في مدينة "لورد" منذ 1966، ويتوزّع الأساقفة على عدّة لجان تجتمع مرّات في السنة، وجاء مظهر آخر من مظاهر العمل الجماعي الذي قرّره المجمع، وهو سينودس الأساقفة الذي أصبح يعاون البابا في إدارة الكنيسة الجامعة. وأسست، وإن بصعوبة، مجالس راعوية في الأبرشيات. وعملت الرهبانيات على تحديد قوانينها وفق ما تتطلبه حياة العصر، وانطلاقا من القرار حول تجديد وتكييف الحياة الرهبانية.

واحتفل في الطقوس باللغات الحيّة، أي بلغات أهل البلاد في كلّ من الكنائس المنتشرة في العالم ⁴، وبالرغم من أنّ هذه التّغيرات قد قوبلت برضى عام، فإنّ بعض الذين يحنّون إلى اللاتينية قد أطلق أولى، التّهجمات ضدّ الكاردينال "لركارو" رائد عن هذه التّهضة، غير أنّ البابا قد انبرى ليدافع عن الكاردينال، في الوقت نفسه، أخذت الكنيسة بعدًا عالميًا، إذ أصبحت شريكة في أهمّ قضايا العالم، واكتسبت رحلات البابا بولس السادس لقاءاته وأعماله حبّ المسيحيين وغير المسيحيين. فقد ذهب إلى مقرّ الأمم المتّحدة في نيويورك سنة 1965، إلى البرتغال وإلى اسطنبول

1 - مجموعة من كبار الباحثين: موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 223.

2 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 382.

3 - يرى باحثون أنّه كان يكفي لتحقيق هذه الآمال أن تطبق التّصوص، بيد أنّ الأمور الأزمة الحضارية، أظهرت حاجة الكنيسة إلى الثبات حيث تجد اختلافات الرأي فيها تعابير أكثر حرية. جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة،

ص 383.

4 - أليكسي جورافسكي: المرجع السّابق، ص 111.

حيث التقى البطريرك أثينا غوراس مرة ثالثة سنة 1967، ثم إلى "جنيف" ¹ و "أوغندا" ² سنة 1969، و "كولومبيا" ³ و "الفيلبين" سنة 1970م، وكان قد التقى رئيس أساقفة "كشربري" في سنة 1966، ولم تقتصر علاقات الكنيسة الكاثوليكية في عهد بولس السادس على الكنائس البيزنطية. فالكنائس الشرقية القديمة هي أيضا كانت موضوع اهتمام ⁴. وقد زار كاثوليكوس الأرمن الأرثوذكس "خورين"، الذي مقره في أنطلياس - لبنان، البابا بولس السادس عام 1967م، وتبعه كاثوليكوس الأرمن الأعلى "فاسكين" عام 1970م، ثم كانت زيارة البطريرك السرياني مار أغناطيوس يعقوب الثالث عام 1971، والبطريرك شتودا القبطي عام 1973، وكان هذا أول تلاق رسمي منذ قرون. وإذ كان لاستقبال يوحنا الثالث والعشرين لصهر الزعيم السوفييتي نيكيتا خروتشوف أثره الإيجابي البالغ، فتح بذلك بابا على الشرق، تبعه فيه بولس السادس، الذي أسند المضي قادمًا بهذه المهمة إلى المطران "كازارولي".

كما عادت العلاقات الدبلوماسية بين الفاتيكان و"يوغوسلافيا" سنة 1970، ولاقت قضية الكاردينال "مندزني"، رئيس أساقفة المجر حلاً سنة 1971م ⁵. وقد استقبل البابا بولس السادس مراراً مسؤولين سيوفياتيين. وعندما توقّف في هونغ كونغ سنة 1970م، حيّال الصين "فالمسيح هو لها أيضا الفادي الحنون". كما جعل بولس السادس إدارة الكنيسة المركزية إدارة علمية تتألف من مختلف الجنسيات فأصبح الأساقفة الطليان منذ ذاك أقلية. وقد أكد البابا بولس السادس، في رسالته "ترقي الشعوب" لسنة 1967م، على أن القضية الاجتماعية أصبحت شاغلا عالمياً. وقال "بوجوب أن يشمل التطور كل القطاعات الاقتصادية والثقافية والروحية". و "بوجوب توجيه العلاقات الاقتصادية للدفاع عن البلدان الضعيفة ضد المنافسة الظالمة". فكان لرسالته تلك تأثير

1 - جنيف : مدينة في سويسرا على بحيرة ليمان، فيها مركز الصليب الأحمر الدولي كانت مركزاً لجمعية الأمم التي خلقتها الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، وجعل مركزها في نيويورك.

2 - أوغندا : جمهورية في وسط إفريقيا الشرقي بين السودان وبحيرة فكتوريا جنوباً، عاصمتها "كامبالا"، وديانة السكان المسيحية والإسلام.

3 - كولومبيا : جمهورية في شمال غربي أميركا الجنوبية بين فنزويلا والبرازيل والبيرو، تجاوز شواطئها بحر الكاريبي والمحيط الهادي، عاصمتها بوغوتا أكثر سكانها كاثوليك.

4 - جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، ج4، ص 250.

5 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 385.

هامّ في المجالس الأسقفية، وفي سينودوس سنة 1971م. كما أنّ بعض مسيحيّ البلدان الشماليّة أخذوا ينتقدون المجتمع الاستهلاكيّ وتبديد الموارد العالميّة¹.

وقد سعى البابا بولس السادس لتعزيز أوضاع الكنيسة في البلاد النامية، بعد أن تحرّرت من الاستعمار، فأخذت طابعاً وطنياً بأنظمتها وطقوسها ورجالها، كما بدأت تلعب دوراً له أهميته في الكنيسة الجامعة، وانفتحت بدورها على الرّسالة المسيحيّة في الخارج.

1 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 272.

المبحث الرابع : البابا بعد المجمع الفاتيكاني الثاني.

- المطلب الأول : نتائج المجمع.

بدأت المؤسسات التي نادى بها نصوص المجمع تظهر للوجود بسرعة في السنين اللاحقة، والمجالس الأسقفية، وهي إحدى علامات العمل الجماعي، تأسست في كل البلدان، وقد اقتصرنا أحيانا على تنظيم تجمعات كانت موجودة. فالجلاس الأسقفية الفرنسي أخذ يجتمع سنويا منذ 1966م، ويتوزع الأساقفة على عدة لجان يجتمع مرات في السنة.

مظهر آخر من مظاهر العمل الجماعي : سينودس الأساقفة الذي يلتقي حول البابا يعاونه في إدارة الكنيسة الجامعة.

جاء القرار حول الليتورجية نقطة انطلاق لنهضة ليترجية : استعمال لغة البلاد، إمكانية المناولة تحت الشكين، إظهار أهمية ليترجية الكلمة، القداس المشترك ... هكذا في سنة 1967، احتفل بالطقوس باللغات الحية. قوبلت هذه التغيرات برضى عام، بيد أن الذين يجنون إلى اللاتينية أطلقوا أولى تهاجماتهم، فكان على البابا أن يدافع عن الكاردينال لركارو المسؤول عن هذه النهضة¹.

إضافة إلى ذلك فإن الكنيسة تبدو أنها أخذت بعدا عالميا، إذ أصبحت شريكه في أهم قضايا العالم، ورحلات البابا ولقاءاته وأعماله اكتسبت حب المسيحيين وغير المسيحيين. فقد ذهب إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك سنة 1965م وإلى اسطنبول حيث التقى البطريرك أثينا غوراس مرة ثانية 1967م، ثم على جنيف² وأوغندا. 1969م، وإلى الشرق الأقصى سنة 1970م³.

يرى جان كمي أنه على البعد، تبدو سنة 1968 سنة فاصلة، لا في المجتمع الفرنسي فقط، بل في كنيسة ما بعد المجمع أيضا. ماي 1968م، فرنسا وسواها.

ولدت اضطرابات ماي 1968م، في فرنسا، في الجماعة، وامتدت إلى المصانع حتى انتهت إلى المجتمع كله بما فيه الكنيسة.

1 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل العقيدة إلى العقيدة المسيحية ، ص 101.

2 - جنيف "Genève" : مدينة في سويسرا على بحيرة ليمان، فيها مركز الصليب الأحمر الدولي ومكتب العمل الدولي، كانت مركزا لجمعية الأمم التي هافتها الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وجعل مركزها في نيويورك.

3 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 226.

فانتقدت المؤسسات الكنيسة وشرع المسيحيون يتناولون الكلام في الكنيسة "ها هو الشارع دخل الشارع" و "الروح القدس اعتلى الحواجز".

وقد أعلن أسقف باريس يومها، الكاردينال "مارتي" أن "الله ليس محافظات". "تلك الاضطرابات جعلت الكهنة يجتمعون للتحاور، وظهرت بنتيجة ذلك اتهامات للكنيسة بأنها ضامنة للنظام القائم.

وعندما زار بولس السادس كولومبيا (بوغوتا ومدلان) في شهر أوت 1968م، بمناسبة انعقاد مجلس أساقفة أميركا اللاتينية، أعلن هناك أن "للسلام اسم هو الإنماء"، ولكنه، في الوقت ذاته، أدان حركات التحرير بعمق، بيد أن فلسفة الإنماء، في نظر الكثيرين تقود إلى الفشل، لأنها تدعم رأسمالية الشركات العالمية المتمركزة في أميركا الشمالية والتي تدعمها أنظمة أميركا اللاتينية العسكرية.

علما بأن الكنيسة متهمه دائما بأنها محافظة وملتزمة مع هؤلاء، مع أنه، في سنة 1966، مات الأب "كاميليو تورز" الكولومبي في حرب العصابات في معارك التحرير¹، ويقول "لاهوتيو التحرير" إن على المسيحيين أن يشاركوا في هذه الحروب بغية الحصول على العدالة في سبيل الفقراء، من دون أن يقتصر هذا الجهاد على الحروب المسلحة، وبرأي أولئك اللاهوتيين أنه إذا كان هناك من ظلم، فلأن البنى السياسية والاقتصادية هي التي تفرضه، لذا يجب مقاومة هذه البنيات. وقد كان لتلك الآراء المعارضة ردود فعل لدى المحافظين والأصوليين الذين يحملون المجمع الفاتيكاني الثاني مسؤولية هذا الغليان. أمام هذا الواقع، شعر بولس السادس بالألم، وعبر عنه مرّات عديدة في السنين التالية بترداده "تجديد، نعم، تبديل، لا". و"كان ظننا أن ما بعد المجمع سيكون أياما مشمسة، ورأى البعض، في غمرة تلك الاضطرابات الاجتماعية، أن تطبيق مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني لا يسير بالسرعة المطلوبة، وطالب بحث الخطي، وكان نهار العنصرة سنة 1968م، قد جرى احتفال من قبل عدد كبير من المسيحيين والكهنة بأفخارستيا مشتركة للإسراع في وحدة الكنائس، في حين ترك كهنة عديدون الكهنوت بحجة "العودة به إلى خضم الحياة البشرية في الزواج والعمل والالتزام السياسي"²، وما يجب ذكره في هذا المجال أن آباء المجمع الفاتيكاني الثاني لم يبحثوا في المجمع موضوع تنظيم النسل، والمقول إن البابا أراد أن يحتفظ بهذا

1 - جان كمي : دليل إلى قراءة، تاريخ الكنيسة، ص 385-387.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 228-229.

الموضوع لنفسه، وقد أسند دراسته إلى لجنة تميل على الحدّ من الموقف التقليدي في الكنيسة بخصوص منع الحمل، لكن البابا لم يأخذ بكلّ نصائح تلك اللجنة، وفي رسالته الحياة البشرية" في جويلية 1968م، رفض كل الطرق غير الطبيعية لمنع الحمل، فلقبت الرسالة تدميراً لا من قبل غير الكاثوليك فقط، بل ومن قبل العديد من الكاثوليك في البلدان المتطورة. أمّا العالم الثالث فاستقبلها بطريقة أفضل وقد أخذ الاعتراض أوجهاً عديدة¹.

إذ بينما رأى الكثيرون في الرسالة أنّ السلطة في الكنيسة لم تطبق جماعياً كلّ المواضيع الدقيقة من مثل "تحديد النسل، ورعاية المطلقين وتبئ الكهنة...، وأنّ تلك المواضيع لم يخضع لدراسات المجمع وللتطبيق الجماعي، عبر بعض الأساقفة، ومنهم الكاردينال "سوانتس" عن تحفظه.

كما أخذ على الرسالة أنّها لم تنطلق من الشّخص البشري، بل من وجهة بيولوجية وفكرة "الطبيعة" التي يتركز عليها الموقف الروماني لا تخلو من اللبس. وطرح التساؤل: هل توقّف الإنسان يوماً عن تحسين الطبيعة وهو غالباً ما يجاهد ضدها كما في أحوال الكوارث الطبيعية، والأمراض، والموت؟ من هنا فإنّ كثيرين من الكاثوليك لم يقرّوا بأنّ الرسالة موجهة إليهم، فكان في ذلك إشارة إلى تراجع في السلطة البابوية. فالمسيحيون، بأولى حجة غير المسيحيين، يستصعبون، يوماً بعد يوم، قبول سلوك محدّد عن طريق سلطة خارجية. والبعض يرفض إسناد حقّ الكلام إلى "شيوخ عازبين" يتكلمون في أمور لا همّهم².

وبينما كان آباء المجمع الفاتيكاني الثاني يتوقّعون من نتائج ذلك المجمع، جعل الكنيسة أشدّ جاذبية، جاءت نتائج السنوات اللاحقة لتبيّن العكس، إذ ظهر تراجع خطي في الممارسة الدينية وفي التمسك بالسلوك المسيحي، أقلّه في الغرب، ففي فرنسا مثلاً، كانت نسبة الذين يشاركون في قدّاس يوم الأحد، في خمسينات القرن العشرين، 30% من مجموع عدد الفرنسيين، وقد هبطت تلك النسبة إلى 23% سنة 1966، وإلى 17% سنة 1972م، فيلّى 12% في ثمانينات القرن العشرين³. وظهر هبوط حادّ في عدد الزيجات الدينية وقفزت نسبة الطلاق من 10% سنة 1963م،

1 - جرفيه دوميغ اليسوعي: الإيمان الكاثوليكي، ص 513.

2 - مجموعة من كبار الباحثين: موسوعة عالم الأديان، ج 10، ص 229.

3 - تختلف هذه النسب بين منطقة وأخرى، والتراجع أنّ هذه الإحصاءات تقريبية ولكنها تعكس الواقع الأقرب إلى الحقيقة، وقد استقيناها، كما الإحصاءات التالية. (كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 387).

إلى 20% سنة 1979م، وإلى 33% 1985م، ناهيك عن تنامي ظاهرة المساكنة بين الشبان والشابات من دون عقد قران كنيسي أو مدني. كما ظهر هبوط في عدد الأطفال المعمدين، ولكن بنسبة أقل، ولكن الهبوط في نسبة سماع التعليم المسيحي كان أكثر بروزاً. أما عدد الكهنة فقد تدنّى من 40 000 كاهن أبرشي في فرنسا سنة 1965 إلى 36 000 سنة 1975، و 27 000 سنة 1985م¹.

هذا التّقهقر في السلوك الدّيني في أوروبا، كان موضوع دراسات علماء الاجتماع قبيل انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني، وقد رأى البعض أنّه نابع من انتشار ظاهرة "روح العالم" المتصاعدة من القرن التاسع عشر. وبينما يرى "علم الاجتماع الدّيني"، الذي بدأ أعماله قبل المجمع بزمن على يد "لوربرية" Lebreton و "بولار" Boulard، أنّ "الكنيسة لم تفهم المجتمع الجديد الذي اتّخذ بناه خارجاً عنها ...

يرى باحثون، اجروا دراساتهم في حقبة لاحقة لانعقاد المجمع، "أنّ الانحطاط بدأ بسرعة في الستينات، فكأن الأزمة آنذاك قد جاءت ثمرة مبادرة تعيسة، أي ثمرة المجمع. ذلك أن قلة الناس يدعون أنّهم تقدّميون، سواء كانوا لاهوتيين أو علماء طقوس أو علمانيين من أعضاء حركات العمل الكاثوليكي، قد عكروا صفاء الكنيسة، ما جعل الناس يفقدون ثقتهم بها".

ويرى هؤلاء، وهم لاشك أصوليون تقليديون، "أنّ تبديل ليتورجيا آباءنا القويمة بخزعبلات عقلانية قد أدّى إلى هذه النتائج". وقالوا: "بأنّ ردّات الفعل الشعبيّة، ليست دليل فقدان الجمهور لإيمانه المسيحي، إنّما هي ظاهرة ابتعاد عن الكنيسة أو إبعاد عنها"². وقد بلغت مواقف بعض الأصوليين، مثل المطران لوفافر "Lefebvre" حدّ رفض المجمع رفضاً باتّاً، ورأوا في الأزمة الكنسيّة "بمجرد قضية كنسيّة داخلية، تميّزت بهدم ذاتي من دون أن يكون هناك أيّ علاقة بقضايا المجتمع المعاصر العامّة، وفي المقابل، ردّ لاهوتيون كانوا فاعلين في المجمع بالقول بأنّ هؤلاء إنّما يتكلّمون من منطلق تفسير خاطئ لقرارات المجمع، وأنّ عليهم بتقبّل صحيح له". ولكن آباء المجمع هؤلاء يُقرّون بأنّ الكنيسة قد فقدت شيئاً من هيمنتها على المجتمع، وأنّ المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي حرّر الكلمة، سمح بقيام أنشطة في الكنيسة آتية من الخارج، وهكذا فإنّ "ما كانت المؤسسات السابّقة للمجمع تتمسّك به بداعي الخوف والضغط المعنوي، لم يتمكّن زمن ما بعد المجمع من

1 - روبري كليمان اليسوعي : موسوعة المعرفة المسيحية، ج4، ص 37.

2 - جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 388.

الإبقاء عليه بقوة الإقناع الداخلي¹. ويتساءل باحثون: "هل بدأت المؤسسات الجمعية تعمل بسرعة وبطريقة سلطوية في نظر مسيحيين لم يُعدوا كفاية للأمر؟". ويجيبون: "إنّ انعدام البعد الزمني لا يسمح لنا بحكم نهائي. فهذه الأزمة لم تدرس كفاية بعد.

غير أنّ هناك ظاهرة إيجابية بدأت منذ سبعينات القرن العشرين، في مقابل تقلص الممارسات الدينيّة، تدعو للتفكير العميق وإعادة تقييم الواقع من أساسه - تلك الظاهرة هي العودة إلى التدين التي برزت منذ سنة 1968م، في فرنسا - ذلك أنّ العلوم والفلسفة الاجتماعية، ولاسيما الماركسيّة والسياسة والأنشطة الرّسميّة، لم تعط أجوبة مُرضية لتساؤلات الناس وقلقهم². فبرزت عودة إلى الروحانية³، ولكن تلك العودة جاءت أحياناً بعيدة كلّ البعد عن الدين المسيحي، إذ رافقها إتباع بدع تقوم على العرّافة والتنجيم، وممارسة العلوم الخفيّة، وسواها من البدع، كما قامت حركة حول شخص يسوع لا علاقة لها بالكنائس.

- بعد عشرين عاماً :

عُقدت دورة -خارقة للعادة- لسينودس الأساقفة في روما من 24 نوفمبر إلى 08 ديسمبر 1985م، -على حدّ تعبير كتاب تاريخ الكنيسة الشرقية- بمناسبة مرور عشرين عاماً على انتهاء أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني، وغايتها الاختفاء بذكرى المجمع، وتقويم الثمار التي حقّقها، وإعطاء دفع جديد لتطبيق مقرّراته، وجاء في التقرير حول نتائج المجمع :

النّقاط الإيجابية : هناك شبه إجماع في تقبل الإصلاح الليتورجي ؛ وتركيز أكبر على دور الكتاب المقدّس، وتفهم أعمق للكنيسة ولمشاركة العلمانيين في الأعمال الكنيسة ؛ وإدراك أعمق لعلاقة الكنيسة مع العالم ... شهادة الكنيسة تجاه حقوق الإنسان، والحوار مع العلم والثقافة العصرية، وتحسّن في علاقات الأساقفة والكهنة، وتفهم للحياة الرّهبانية، وتنشيط التعاون المسكوني، وإدراك أعمق لمسؤولية الأساقفة الجماعية في الكنيسة، ومفهوم الكنيسة كشركة⁴.

النّقاط السّلبية : في مجال الليتورجيا كان هناك أحياناً تجديد ارتجالي وسطحي، فنسي بعض الكهنة أنّ الخدمة الليتورجية هي صلاة الكنيسة، وليست مجرد تعبير عن عواطف الذات

1 - ليفي أساقفة فرنسا : الإيمان المسيحي، ص 128.

2 - كيرلس سليم، يوحنا منصور وآخرون، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص 331.

3 - استعمل تعبير "الروح الدينية"، ولكن الحقيقة أنّ تلك الرّدة كانت روحانية أكثر ممّا هي "روح دينية".

4 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 383-384.

الشخصية ؛ والكتاب المقدس فصل أحيانا عن تقليد الكنيسة وتعليمها الرسمي ؛ كما بعضهم وضع إسفين بين الكنيسة والسر والكنيسة المؤسسة، ثائرين على كل الأنظمة، ومستندين إلى مفهوم منحرف للكنيسة شعب الله ؛ وفي مجال علاقة الكنيسة والعالم، كان المجمع قد أعلن عن استقلالية أمور هذه الدنيا عن أمور الدين، فراح بعضهم، ولاسيما في البلاد المتقدمة، يشيد بالعلمنة الكاملة التي تنفي البعد القدسي للإنسان، وتحول دون تأثير الإلهيات على شؤون البشر، وكان المجمع قد أعلن ضرورة الالتزام بالجهاد في سبيل العدالة والرقى، فراح بعضهم ولاسيما في البلاد النامية يتبعون في نضالهم الأساليب المنافية لروح الإنجيل.

وبعد التقرير العام، أوضح الأساقفة المشاركون في السينودس، كل بدوره، وجهة نظر الدوائر المسؤولين عنها، أو البلاد التي يمثلونها، وركز رؤساء الكنائس الشرقية بشكل خاص على ضرورة الإسراع بصياغة الحق القانوني الشرقي، بحيث يراعي ارتباط أبناء الكنيسة الشرقية المغتربين بالكنيسة الأم¹. وفي اليوم الأخير من الاجتماعات، ألقى الخبير الأعظم يوحنا بولس الثاني² خطابا شاملا قوم فيه أعمال السينودس، وكان أبرز الاقتراحات الثلاثة التي وردت في تقرير السينودس النهائي :

"إنشاء كتاب تعليم مسيحي رسمي مستوحى من روح المجمع ومرتكز على الكتاب المقدس والليتورجيا، يكون نموذجا للكتب التعليمية في مختلف الأقطار والكنائس المحلية، توضيح دور المجالس الأسقفية وطبيعتها اللاهوتية وصلاحتها ؛ الإسراع في إنجاز دستور الحق القانوني للكنائس الشرقية، وفق تقاليد هذه الكنائس ومقررات المجمع الفاتيكاني الثاني³.

- تقارب بين روما وسائر الكنائس أو (الحركة المسكونية) :

كان لنتائج المجمع الفاتيكاني الثاني أشد التأثير على انفتاح الكنيسة الرومانية على الحركة المسكونية من خلال التقارب الذي ولده بين ممثلي الكنائس، فبالإضافة إلى التقارب الذي نشأ بعد المجمع بين الكنائس الكاثوليكية ومجمع الكنائس العالمي"، نشأت علاقات مميزة بين الكنيستين الكاثوليكية المتحددة والكنائس الأرثوذكسية، وقد بدأ ما سُمي "حوار المحبة" بالمراسلات الودية بين البابا يوحنا الثالث والعشرين والبطريرك المسكوني أتيينا غوراس، وتابعه البابا بولس السادس،

1 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 234.

2 - يوحنا بولس الثاني : سيأتي التعريف به لاحقاً.

3 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 385.

فكان لقاءه التاريخي مع أثينا غوراس عند قبر المسيح مطلع عام 1964 وما تمّ في 07 ديسمبر 1965 ليلة انقضاء المجمع الفاتيكاني، من رفع للحرم المتبادل منذ عام 1054 بين الكنيستين الرومانية والقسطنطينية، وقد جرى الاحتفال بذلك في آن واحد في كنيسة القديس بطرس في روما وفي "الفنار"¹. في اسطنبول².

وكانت زيارة البابا بولس السادس للبطريك المسكوتي أثينا غوراس في مقرّه في اسطنبول في 25-26 جويلية 1967م، وردّ الزيارة في العام نفسه من قبل البطريك أثينا غوراس إلى الفاتيكان في 26-27 أكتوبر وجمعت المراسلات والخطب التي تبودلت بهذه المناسبات في كتاب سُمي "كتاب المحبة"³، وتبع تحسين العلاقات على مستوى القمة، تقارب ملموس بين الكاثوليك والأرثوذكس على مختلف المستويات وفي كافة المناطق. ومن بوادر تحسين العلاقات بين الكنيستين الرومانية الكاثوليكية والبيزنطية الأرثوذكسية، إعادة الاعتبار والثقة للكنائس الشرقية، من خلال إرجاع عدّة ذخائر ثمينة من روما وإيطاليا إلى البلاد الشرقية.

- المطالب الثاني : البابا ومهامه.

الفرع الأول : يوحنا بولس الثاني رسول الانفتاح.

إذا كان البابا يوحنا الثالث والعشرون قد افتتح مسيرة التقارب بين الكنائس في النصف الأول من القرن العشرين، والبابا بولس السادس قد أكمل درب سلفه بامتياز، من خلال إدارة المجمع الفاتيكاني الثاني وبالتالي العمل بطريقة فريدة على إنجاحه، وعلى تنفيذ مقرّراته، وبخاصة تلك التي تختص بالتقارب والتلاحم بين الكنائس فبالإمكان وصف البابا يوحنا بولس الثاني بأنه رسول الانفتاح ، ليس بين الكنائس وحسب، بل وبين الأمم جمعاء⁴. -حسب رأي يتيّم وديك. بعد وفاة بولس السادس من أوت 1978م، انعقد مجمع الكرادلة الانتخابي في روما وانتخب في السادس والعشرين من الشهر نفسه. يوحنا بولس الأول خلفا له في اليوم الأول للمجمع الكاردينالي الانتخابي، وتوّج في الثالث من سبتمبر 1978م. غير أن هنا البابا سرعان ما اكتسب قلوب الجميع بانتفاخه ومحبتة، وعقدت عليه الآمال، سرعان ما توفي فجأة في 29 سبتمبر 1978م،

1 - الفنار : حيّ في اسطنبول فيه البطريك المسكوتي الأرثوذكسي

2 - روبري كليمان اليسوعي : موسوعة المعرفة المسيحية، ج4، ص 38.

3 - حرفة دومبج اليسوعي : الإيمان الكاثوليكي، ص 263.

4 - يتيّم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 398.

ودفن في 04 أكتوبر 1978م، وبعد اثني عشر يوماً إلتأم مجمع الكرادلة الانتخابي من جديد وانتخب الكاردينال "كارول فويتيلا" خلفاً له في 16 أكتوبر 1978م. فأتخذ اسم البابا يوحنا بولس الثاني، ونُصّب في 22 من الشهر نفسه، وهو الخليفة الخامس والستون بعد المائتين للقديس بطرس الرسول على كرسي روما. وُلد بمدينة "كراكون" ببولندا سنة 1920م، وعمل في بداية شبابه في المناجم دخل السلك الكهنوتي وسرعان ما أصبح لاهوتياً وخطيباً وواعظاً مميّزاً، كان من أبرز المتحدثين باسم الكنيسة الكاثوليكية في الدول الشيوعية السابقة، عايش مآسي بلاده بولندا وملاحم مقاومتها في خلال الحرب العالمية الثانية، عيّن كاردينالاً 1967م، وهو أوّل بابا يُنتخب من خارج إيطاليا منذ سنة 1542، وقد اعتبر انتخاب هذا الكاردينال الآتي من الشرق الأوروبي نتيجة للتوزيع العالمي الجديد للكرادلة، ما يعني استقلال الكنيسة عن السياسة الإيطالية وعن الكنائس الغربية¹.

يعتبر يوحنا بولس الثاني البابا الأكثر تجوالاً في العالم بتاريخ الكنيسة فقد تابع منهاج أسلافه الذين اتّصفوا بالانفتاح على العالم المعاصر والكتلة الاشتراكية والدول التامية والكنائس الأخرى. زار عشرات البلدان داعياً إلى المحبة والسلام بين الشعوب². وفي 30 نوفمبر 1979 توجه إلى اسطنبول لزيارة البطريرك ديمتريوس الأوّل، خليفة أثينا غوراس، ليشارك بأعياد القديس إندراوس شفيع الكنيسة القسطنطينية، وعلى أثر الزيارة أعلن الحبران بدء الحوار اللاهوتي الرسمي بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية البيزنطية، وعيّنت كل من الكنيستين ثلاثين مندوباً للقيام بهذا الحوار، وعقدت اللّجنة المشتركة اجتماعها الأوّل التمهيدي عام 1980م، ووضعت أسس عملها ومنهاجها وبرنامج إيجائها، ثمّ عقدت اجتماعها الثاني في ميونيخ بألمانيا سنة 1982م، فأصدرت أوّل نص لاهوتي مشترك حول "سرّ الكنيسة والأفخارستيا على ضوء سرّ الثالوث الأقدس"، وفي عام 1984م عقدت اللّجنة المشتركة اجتماعها الثالث في جزيرة "كريث"، ولم تتمكن من إنهاء برنامج عملها حول أسرار الكنيسة، وتوبعت أعمال الاجتماع إلى أن نشر في نهاية أعمال الاجتماع الخامس في جويلية 1988 النص المشترك الثالث وعنوانه "سرّ الكهنوت في نظام الكنيسة الأسراري"، ولاسيما أهميّة الخلافة الرّسولية في تقديس الله ووحدته³.

1 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 236-237.

2 - مجلة الدّعوة : إسلامية أسبوعية، ع 1148، 1988م.

3 - حرقه دوميج اليسوعي : الإيمان الكاثوليكي، ص 482-483.

- الفرع الثاني : مهام البابا.

قال البابا يوحنا بولس الثاني أمام وفد كنيسة القسطنطينية الرسمي الذي اشترك في احتفالات أعياد القديسين بطرس وبولس في روما عام 1986م.

إن الحوار اللاهوتي يقتضي دوما تضحيات حقيقية للتجاوز يعني أن نأخذ بعين الاعتبار الآخر بوضعه المتشابك اللاهوتي، التاريخي الثقافي، وهذا يعني أن هناك احتمالا واقعيًا للعثور على صعوبات تعرقل أحيانًا مسيرة نريدها أكثر سرعة وحرية، إلا أننا نريد أن نسير حتى النهاية إلى مذبح المشاركة... إن شفاء الجرح الذي يسببه انفصال الشرق والغرب للجماعة المسيحية سيعود بالفائدة، ليس فقط على الكاثوليك والأرثوذكس، ولكن على جماعة المسيحيين بأسرها، وسيساهم مساهمة كبرى في إعلان إنجيل المسيح للعالم. الوحدة خير للجميع، ولا تحمل أي تهديد لأحد. الوحدة ليست امتصاص جماعة لأخرى بل شركة كاملة في الإيمان ضمن احترام تنوع التقاليد، بمقدار ما هي تعبير عن الإيمان الواحد وتجسد الإنجيل الواحد ضمن مختلف الثقافات¹.

وفي هذه الأثناء، شملت زيارات البابا يوحنا بولس الثاني الرسولية كافة أقطار العالم، وقد قام حتى اليوم بنحو 60 زيارة إلى خارج إيطاليا، وقد تعرض في 13 ماي 1981م لمحاولة اغتيال في ساحة القديس بطرس، نجا منها بمعجزة وفي 25 جانفي 1983 أصدر التشريع الجديد للكنيسة الغربية الذي أعيد النظر فيه على ضوء روح المجمع الفاتيكاني الثاني وقراراته. وفي نوفمبر 1985م عقد في روما سينودوسا خارفا للعادة، بمناسبة مرور عشرين عاما على انتهاء المجمع الفاتيكاني الثاني، لدراسة ما أنجز في هذه الحقبة من مقررات المجمع، ومن أهم توصيات ذلك السينودوس، التعجيل في إنجاز التعجيل في إنجاز التشريع الخاص بالكنائس الشرقية الكاثوليكية، ووضع كتاب تعليم مسيحي للمؤمنين يكون قاعدة لكتب التعليم في سائر الأقطار، وتكريز المجالس الأسقفية الإقليمية، وقد صدر رسميًا التشريع الجديد للكنائس الشرقية الكاثوليكية في 25 أكتوبر 1990م².

ودعا يوحنا بولس الثاني سينودوس الأساقفة إلى جمعية خاصة من أجل لبنان في جويلية 1991م، عُقدت في 26 نوفمبر 1995م، بعنوان "المسيح رجاؤنا" : بروحه تتجدد ومعا للمحبة تشهد"، نتج عنها ما سُمي بالإرشاد الرسولي "رجاء جديد للبنان"، الذي وجهه البابا بعد السينودوس إلى البطارقة والأساقفة والإكليروس والرهبان والرهبات وجميع المؤمنين في لبنان، وزار

1 - يتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 398، 400.

2 - كيرلس سليم ويحنا منصور وآخرون : التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ص 301.

البابا لبنان في ماي 1997م حيث وقّع على الإرشاد الرسولي وسط مهرجان رسمي وسعي قل نظيره وبعد سنتين زار دمشق حيث لاقى استقبالا تاريخيا حافلا، اشترك فيه رسمييون ورجال دين مسيحييون ومسلمون من مختلف المذاهب¹.

إضافة إلى ذلك، أصدر البابا يوحنا بولس الثاني عدّة رسائل هامة، منها "العمل الإنساني"، و"الأسرة البشرية"، و"الألم الفادي"، و"الروح القدس الربّ المحيي"، و"أمّ الفادي"، و"الاهتمام بالمعضلة الاجتماعية" و"كرامة المرأة"، وفي رسالة أصدرها في أوّل من ماي 1991م، بمناسبة الذكرى المئة لرسالة البابا لاون الثالث عشر الاجتماعية، استخلص العبر من انهيار الأنظمة الشيوعية وأعاد تنظيم الكنيسة الكاثوليكية بفرعيها الشرقي واللاتيني في بلاد أوروبا الشرقية بعد أن عادت إليها الحرية الدينية سنة 1991م، وأعدّ الكنيسة لبلوغ الألف الثالث².

من مهامه أيضا :

- الحوار الإسلامي المسيحي :

في بداية الاستعداد لهذه المحطة الهامة في تاريخ البشرية، طرح البابا يوحنا بولس الثاني : كيف سيحتفل العالم بنهاية الألف الثاني للمسيحية ؟ وكيف يتطلّع الفاتيكان إلى ولوج الألف الثالث ؟ .

وبدأ في خطبه أن التكاثر السكاني في العالم يقلقه. ذلك التكاثر الذي لم يعد قائما على التمايز بين المسيحية والإسلام، بقدر ما أصبح قائما على الاختلال في نسبة الذين يؤمنون بالإله الواحد، من مسيحيين ومسلمين ويهود تضاؤلا أمام تزايد الذين لا يؤمنون بالله، وهم الشعوب التي يتضاعف عددها في كل عقد، في بلدان العالم الثالث والقارات التي كانت بعيدة عن الحضارات القديمة، في خلال الألف الثاني. إنّه صدمة وعي لأبناء الرسالتين المسيحية والإسلامية بتوحيد الرؤية والمواقف لمواجهة تكاثر الذين لا يؤمنون بالله، والذين سيصبحون الأكثرية الغالبة من سكان الأرض³. وللتقارب بين الذين يؤمنون بالإله الواحد، باشر الفاتيكان سلسلة من الحوارات بين أهل الديانات السماوية، إلى جانب السعي لتوحيد الكنائس المسيحية في مختلف فروعها، حوارا بين المسيحية والإسلام على محاور عديدة منها المحور الإعلامي الذي هو الفعل في

1 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 101.

2 - جرفيه دوميج اليسوعي : الإيمان الكاثوليكي، ص 513.

3 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 240.

علمنا الحديث، وقد تمّ حتّى الآن عقد ندوتين : الأولى في ليبيا بين 03-06 أكتوبر 1993م، الثانية في قينا بين 07 و 08 أكتوبر 1994م، حول الدّين ووسائل الإعلام، ودور الإعلام في الحوار المسيحي الإسلامي، وقد شارك في كل منهما إعلاميون من مختلف بلدان العالم يمثلون وسائل الإعلام المكتوبة والسّمعية البصريّة¹.

ندوة طرابلس - ليبيا، جاءت تحت عنوان الدّين ووسائل الإعلام، وقد نظّمها "جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية"، و "المجلس البابوي للحوار بين الأديان بالفاتيكان"، وجاءت مواصلة لندوات سابقة عُقدت بين الجانبين، أثمرت نتائج إيجابية ملموسة في تعزيز التقارب المسيحي الإسلامي، وقد تمّ من خلال الندوة عرض ومناقشة أوراق الجانبين المسيحي الإسلامي، حول ثلاثة محاور :

- 1 -الإعلام ودوره في بناء الإنسان الملتزم دينيا وخلقيا.
- 2 -الإعلام وأثره في تشويه عقائد الآخرين ومعتقداتهم .
- 3 -المؤسسات الدينيّة ودورها في تصحيح الانحرافات الإعلامية حيال الدّين².

وخُصّ المشاركون في الندوة إلى التوصيات التالية :

- 1 -ضرورة تعاون المؤسسات الدينيّة مع وسائل الإعلام لتكون في خدمة القيم الإنسانيّة.
- 2 -التأكيد على أهمية الموضوعية والتزاهة في الأعمال الإعلامية والأدبيات الدينيّة من أجل تعزيز التفاهم والتعايش المشترك بين أتباع الأديان.
- 3 -ضرورة ترشيد الإعلام ليساهم في تعزيز قيم الفضيلة والاستقامة والحفاظ على الروابط الأسريّة، ومواجهة التزعات المادية والعنصرية، وتجنّب إثارة الفتن بين المؤمنين.
- 4 -ضرورة تطوير الخطاب الديني والبرامج الإعلامية الدينيّة لمواكبة متطلبات العصر والتأثير في الرأي العام.
- 5 -التأكيد على الدور الهامّ الذي تلعبه المؤسسات التربوية في تعزيز روح التسامح والمحبة بين أتباع الأديان، وتعميق المعرفة المتبادلة في ما بينهم من أجل إزالة الأحكام المسبقة والتعصب والتطرف.

1 - سكاف جورج : صفحات من لبنان، منشورات دار نوبليس، المجلد 08 بيروت، 2002م، ص 187.

2 - أليكسي جورافسكي : الإسلام والمسيحية، ص 190.

- 6 - أهمية عقد اللقاءات بين الإعلاميين المسلمين والمسيحيين والمساهمة المشتركة في أديبات الجانبين والإنتاج الإعلامي.
- 7 - ضرورة إتاحة المجال للأقليات الدينية والعرقية للتعبير عن آرائها ومواقفها والمطالبة بحقوقها.
- 8 - التأكيد على أهمية مواصلة لقاءات الحوار المسيحي الإسلامي وانتهاج منهج المفاوضات في حلّ الأزمات بين الدول.
- 9 - ضرورة التعاون بين المؤسسات الإعلامية المسيحية والإسلامية لتصحيح الانحرافات حيال الدين وتشجيع المبادرات الإعلامية الإيجابية، وذلك عن طريق تشكيل لجنة مشتركة لمتابعة الأعمال ضمن الإمكانيات المتاحة¹.
- أمّا ندوة فيينا فقد ضمتّ إعلاميين من لبنان والولايات المتحدة وكندا وبلجيكا وليبيا وأندونيسيا وبريطانيا، ومثل روما في الندوة وفد برئاسة الكاردينال مايكل فيتز جيرالد، أمين سرّ دائرة الحوار بين الأديان في الفاتيكان.
- تركز البحث على النواحي السلبية والإيجابية لتعاطي وسائل الإعلام في القضايا الدينية أو التي لها تفاعلات دينية. لوحظ أن وسائل الإعلام، كثيرا، ما تقع في أخطاء غير مقصودة لعدم توفر المعلومات الصحيحة فيما يتعلق بالقضايا الحساسة، إمّا لأنّ الإعلامي غير مطلع على القضايا الدينية بدقّة، أو لأنّ المصادر التي يفترض فيها أن تزوده بالمعلومات الصحيحة تتأخر في الإجابة، أو أنّ سرعة العمل الإعلامي لا يمكن الصحافي من انتظار ورود الأجوبة التي تأخذ وقتها وطرقها الروتينية². ولوحظ التباين أيضا في أساليب عمل وسائل الإعلام. فهي في الغرب المسيحي متطورة جدا تقوم بما مؤسسات خاصة لا سيطرة لرجال الدين أو للمؤسسات الدينية عليها. وهي تتعاطى مع الأحداث من حيث أهميتها الإخبارية، لا من حيث أهميتها الدينية الروحية والأخلاقية. بينما يرتبط معظم وسائل الإعلام في الشرق الإسلامي، بالدول ذات الأنظمة الدينية، أو يخضع، بطريقة أو بأخرى، لتأثير رجال الدين والحركات الدينية.
- وفي الحالتين فإنّ وسائل الإعلام في الغرب، لا تعبّر عن وجهة نظر الكنيسة عندما تتناول

1 - آية الله السيّد محمد حسين فضل الله: في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي، ط []، دار الملاك، 1994م، ص 198.

2 - غسان سليم سالم: محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام، سلسلة أديان مقارنة، ط []، بيروت، دار الطليعة، 2004م، ص 135.

قضايا دينية، وكذلك في الشرق، فقد تتعصّب لبعض القضايا الدينيّة دون أن نعبر حتماً وبصورة دقيقة عن رأي رجال الدين، وعلى كلّ حال، تبقى وسائل الإعلام في الشرق أقلّ حرّية، منها في الغرب¹.

وفي سبيل الوصول إلى مواقف أقرب إلى الحقيقة وأبعد عن التّجني، مع مماشاة العصر، لا بدّ من إعطاء الإعلام أهميته في التأثير على الناس وعلى تفكيرهم وعلى مواقفهم، بسبب سرعة وصول المادة الإعلامية إليهم، وبالأسلوب المناسب والمتوافق مع السياسة الخاصة للوسيلة الإعلامية. لذلك يجب تزويد الإعلام القائمة، بالمادة الإعلامية الصّالحة التي تعبّر عن الحقيقة بكلّ صدق، ومتابعة الأحداث وتبادل الأفكار والمعلومات وإجراء الأحاديث التي تجيب عن كل الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الناس. كما تشدّد المنتدون على عدم تجاهل هذه الوسائل الإعلامية، إذ بالرغم من أنّ للفاتيكان وسائل إعلامية متطورة تتوجّه إلى جميع الناس بكل اللغات، فهي تعجز عن منع تحريف مواقف الكنيسة في وسائل الإعلام الخاصة، وعليها أن تتعامل معها بسرعة لتصحيح هذه المواقف، وتحسّب لأي تحريف يمكن أن يحصل وذلك بالإسراع في الإعلان عن الموقف الصّحيح قبل أن يسبقه إعلام انفعالي متسرّع يتعمّد الإساءة وكذلك بالنسبة إلى وكالة الأنباء الإسلامية².

وارتأى المنتدون أن لوسائل الإعلام تأثيراً كبيراً على الأشخاص والجماعات، إيجاباً وسلباً. فلا بدّ من التّركيز على الدور الإيجابي :

- 1 - العمل على تطوير الأشخاص والحضارات واحترام هويّة الناس وحرّيتهم.
- 2 - العمل على إنعاش العلاقات بين الأشخاص والجماعات.
- 3 - العمل على تشجيع الحوار داخل الجماعات في سبيل توضيح حاجات أفرادها وتطلعاتهم.
- 4 - تطوير سبل أفضل لخدمة القيم الروحية.

ومن الناحية السلبية لوحظ أنّ وسائل الإعلام تنتقص، في كثير من الأحيان، من احترام كرامة الإنسان وحرّيته، وتساهم في تطوير حضارة المادة الاستهلاكية واللاإنسانية وتُخضع قيما إنسانية للإرهاب الفكري، ولا تؤمّن الحقّ بالإعلام للجميع فتصبح حرّية الإعلام رهناً للثورة والتّفوذ السياسي.

1 - محمد الشاهد: المسيحية والإسلام من الحوار إلى الحوار، ط []، مصر، دار الأمين، 2001م، ص 95.
2 - جورج خضر المطران: أفكار وآراء في الحوار المسيحي والعيش المشترك، ج 2، ط []، لبنان، المكتبة البوليسية، 2000م، ص 201.

وقد استخلص بعض المشاركين المسلمين في أعمال الندوة، أن الحوار بين الأديان هو روح الإسلام، ومما يحث عليه القرآن الكريم أن يكون الحوار بالتّي هي أحسن، وبحيث أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن هذه الندوة كانت ذات جدوى وفائدة، لأننا نعيش الآن في عالم يعرف العداء الكثير للإسلام والمسلمين¹، وإذا دخلنا نحن في حوار يُظهر تعاليم الإسلام وانفتاح الإسلام ونهجه التعددي فيما يتعلّق بتنوّع الحضارات والأديان في العالم².

- المطلب الثالث : الحركة المسكونية.

كلمة "مسكونية" تعني بحسب ما هو متعارف عليه، إرادة التقارب بين مختلف الجماعات المسيحية، والحركة المسكونية هي روح جديدة نشطت في الكنيسة، لمعالجة الانقسامات التي تفصل بين جميع المؤمنين بالمسيح، بغية التّوصل إلى الوحدة التي أرادها المسيح³.

تساءل باحثون : أين هي الكنيسة الواحدة الجامعة الرّسولية ؟ ويشرحون :

إنّ البروتستانت بنوع الإجمال يقولون : إنّ كنيسة المسيح حقيقة غير منظورة ستتجسّم في آخر الأزمنة، وإنّ الجماعات المسيحية هي مجرد تجمع نعمد أفراد في المسيح، ولكن الكنيسة ليست حقيقة واقعة كوسيلة خلاص توزّع كلام الله⁴.

وفي نظر الأرثوذكس التقليديّة أنّ الكنيسة الأرثوذكسية هي دون سواها، كنيسة المسيح الواحدة الجامعة المقدّسة الرّسولية وأنّ الخلافات التي فصلت عنها سائر المسيحيين لم تبدّل من حقيقة وضعها. هذه التّظيرة بدأت تتطور إثر تجدد العلاقات مع الكنيسة الكاثوليكية⁵.

وفي نظر الكاثوليك أن كنيسة المسيح الواحدة تنسجم بملاء أبعادها وفعاليتها في الكنيسة الكاثوليكية. أمّا سائر المسيحيين فمنهم من يتمتعون حقيقة بصفة كنائس، إذ حافظوا على الخلافة الرّسولية وهم يعطون الأسرار بشكل صحيح، وإن كان ينقصهم بعض من يؤهلهم ليكونوا في شركة تامّة مع كنيسة المسيح كما أرادها الكنائس الأرثوذكسية الشرقيّة، ومنهم من هم مجرد

1 - جورج سكاف : إعلامي وسياسي، وزير سابق، نائب نقيب الصحافة اللبنانية، عضو المجلس المّلي الكاثوليكي، له مؤلفات، عضو الوفد اللبناني إلى الندوة.

2 - سكاف جورج : صفحات من لبنان، المجلد الثامن، ص 188.

3 - معجم اللاهوت الكتابي ، ص 300.

4 - فاضل سیداروس : من أنت أيتها الكنيسة، ص 126.

5 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 102.

جماعات مسيحية تنعم بكثير من الخيرات التي سلّمها المسيح لكنيسة (كالمعمودية الكتاب المقدس)، إنّما تنقصها المقوّمات الأساسية لبُنية الكنيسة¹.

لكن بيتيم وديك" يردّ على وجهات نظر هذه برأي كنيستين منفتحين : بأنّ هذا الوضع، مناف لإرادة المسيح التي أراد أن يكون جميع المؤمنين به واحد، ليس فقط في علاقتهم الحميمة مع الله، ولكن أمام الملائ في شهادتهم المشتركة أمام العالم. وهو ناجم عن ضعف العقل البشري إزاء تفهّم سرّ المسيح وعجز اللسان عن التعبير كما هو ناجم عن عوامل حضارية وسياسية، ولاسيما عن فتور المحبة وعن الخطيئة، وهو يضعف من فعالية الكنيسة في نفوس أبتائها، لذا لا يمكن أن تقبل هذه الانقسامات كواقع لا مناص منه. ويجب السعي لتقليص الانقسامات وتضييق شقّة الخلاف والعودة إلى الوحدة التي أرادها المسيح².

يرى بعض المفكرين الباحثين الكاثوليكين في مسألة انفصام الكنيسة إلى أرثوذكسية وكاثوليكية من خلال حركة 1724، أنّ تلك الحركة لم تُبحث حتى اليوم بجدية، ولم يتطرق لها بإسهاب أحد من الباحثين، ولم يقيّمها أحد من المؤمنين تقييماً علمياً وموضوعياً.

وفي هذا المجال يقول باحث : صحيح أنّ انفصام الكنائس الشرقية، إلى كنائس أرثوذكسية وأخرى كاثوليكية، يعتبر طعنة في صميم الحركة المسكونية بمفهوم العصر، إلا أنّ خطّ الكرسي الرسولي الواحدوي ظلّ حتّى المجمع الفاتيكاني الثاني، مبيناً على أساس انضمام كلّ الكنائس إلى كرسي روما، تحت رئاسة قداسة البابا، وإنّ هذا الخطّ ظلّ غالباً على مسيرة الكنيسة العالمية بالرغم من محطات مع بعض الباباوات الذين نظروا إلى الكنائس الشرقية نظرة أخوة واحترام³.

- تمايز الحركة المسكونية الحديثة -

وفي محاولة لاستجلاء ما يميز الحركة المسكونية المعاصرة عن المحاولات السابقة، للقضاء على انفصامات الكنيسة والمبادئ التي تسيّرهما، أوضح باحثون كنسيون معاصرون أنّ معضلة الوحدة المسيحية ليست بنت اليوم، وقد اتّبع في الماضي أساليب مختلفة لمعالجتها منها : أسلوب القمع والعنف للقضاء على الخارجين عن المعتقد الرسمي، أو حرمانهم من الحقوق المدنية والمساواة، غير

1 - فاضل سيداروس : من أنت أيتها الكنيسة، ص 127.

2 - بيتيم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 390-391.

3 - مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب. مفرّج : موسوعة عالم الأديان، ج 11، ط 1، بيروت، نوبيليز، 2005م،

ص 280-281.

أن هذا الأسلوب قد عمّق الخلافات، وجعل المواقف تزداد صلاته ؛ أسلوب الجدل والمهاترة الذي ظلّ عميقاً، لأنّ كلّ فريق كان يبغى أن يجرّ إلى نظرتة الفريق الآخر بدون أن يتفهّم موقفه وما يبغى حقيقة التعبير عنه¹.

أسلوب الحملات التبشيرية بين أفراد الشعب، لحملهم على الإهتداءات الفردية، وقد أعطى هذا الأسلوب بعض الإيجابيات الجزئية قبل تصلّب المواقف².

ففي القرن السادس توصل البطريرك الأنطاكي "غريغوريس"³ إلى إرجاع الكثير من القبائل العربية بالوعظ والإقناع إلى الكنيسة الملكية، كما توصل القديس "فرانسوا دي سال"⁴ في منطقة الـ "يافوا"⁵ إلى إرجاع الكثير من البروتستانت إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية. هذا الأسلوب قد يقلّص رقعة الانقسامات في بعض المناطق، أو بالعكس، قد يزيدّها، بانتقال أفراد من كنيسة إلى أخرى ؛ ولكن لا يحل مشكلة الانقسام بل يعمّق القوّة بين الكنائس.

بعد تلك المحاولات، برزت عقلية جديدة وروح جديدة في علاقات الكنائس ببعضها البعض وسعيها إلى الوحدة، بعيدة عن روح الجدل العقيم والتدخلات السياسية، وقد استنبطت تسمية جديدة بالتعبير عن هذه الظاهرة الثقافية والروحية الجديدة هي : "الحركة المسكونية"⁶. فما هي جذور هذه الحركة وميزاتها ؟

فيجب ويتم وديك عن ذلك : "هناك عمل الرّوح القدس، روح العنصرة الذي يتعلّب على بلبله الألسن والشّقاق، والرّوح الذي هو رابطة الوحدة بين الأب الابن، هو الذي يقودنا إلى الوحدة. إنّ وحدة الكنيسة سرّ من أسرار النعمة، والحركة المسكونية المعاصرة من ثمار أعمال الرّوح القدس. إلاّ أنّ عمل الرّوح هذا يرافقه تطوّراً تاريخياً وحضارياً وثقافياً يمهد له يؤهل الإنسان لتقبّله، إذ إنّ النعمة لا تتجاهل الطبيعة. فهناك انفصال الكنيسة عن الدولة وتحرّرها من العوامل السياسيّة والقوميّة. وتقدّم علوم الكتاب المقدّس، والآباء وتاريخ الكنيسة، وهناك الانفتاح العالمي الذي يميّز إنسان القرن العشرين، وتلاقى، الثقافات واحترام الشّخص الإنساني وحرّيته،

1 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 256.

2 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة ، ص 350.

3 - غريغوريس يوسف الأوّل سيّور : بطريرك الكنيسة الملكية الكاثوليكية (1864-1897).

4 - فرانسوا دي سال (1567-1622) : وُلد في "السّافوا" فرنسا، أسقف جنيف، أسّس رهبانية "الزيارة" للنساء.

5 - سافوا : بلاد جبلية من جنوب شرقي فرنسا على الحدود الإيطالية، كانت دولة مستقلة صمت إلى فرنسا، 1860.

6 - روبرت كليمان اليسوعي : موسوعة المعرفة المسيحية، ج4، ص 09.

... ومن البديهي أنّ الرّوح المسكونية نشطت أكثر بهذه العوامل، وهي شبه معدمة في المناطق التي ظلت عقليّتها ملتصقة بالقرون الغابرة¹.

إنّ الموقف المسكوني يعتمد نظرة جديدة، مبنية على الاعتبار والتّفهم، وتركز على ما لديهم من قيم إيجابية. إنّ موقف يرفض التّعصب الذي لا يرى في الغير إلا الأخطاء، كما يرفض عدم المبالاة والنسبيّة العقائديّة التي تعتبر أنّ جميع المذاهب تتساوى².

فالميزة الثانية للحركة المسكونية، علاوة على إعادة النظر تجاه الآخرين، هي في نظرهما إلى معضلة الانقسام بجمليتها. إنّ الاهتداءات الفرديّة لا تتعارض مع الحركة المسكونية، وإن كانت ليست من أهدافها، ولا تسعى إليها بشتّى الطرق. فالمطلوب ليس جرّ الآخرين إلى تغيير مذهبهم، بل التقارب الرّوحي واللاهوتي بين مختلف المذاهب، بغية الوصول إلى ملء الوحدة والكمال الإنجيلي. هذا التقارب يفترض أولاً، تهيئة الجوّ بإزالة عوامل الانقسام غير اللاهوتية، وكل ما تراكم عبر الأجيال من انعزال ومنافسات وعداوات، ثم تطّلب من الكنيسة إزالة ما كان مدعاة للشقاق، بتجديد أنظمتها ولاهوتها والتقوى الشعبيّة، لإمكان إيجاد تعبير لاهوتي مشترك بغية التيسر نحو نمو أكبر في الحقائق المشتركة، حتّى الوصول إلى الاتفاق الكامل. هذه المهمة المسكونيّة منوطة بجميع أبناء الكنيسة³.

من هنا فإنّ الجمع الفاتيكاني الذي عُقد بغية تجديد الكنيسة وتنشيط المساعي الوحدويّة، اصدر بتاريخ 21 نوفمبر 1964 مرسوماً خاصاً بالحركة المسكونيّة يوضّح المبادئ الكاثوليكية للعمل المسكوني. وهو إذ يدعو إلى التعاريف المتبادل والعمل المشترك والصلاة، يقرّ بما يترتب على الكنيسة الكاثوليكية، رغم كونها كنيسة المسيح الحقيقية، من تجدد في حياتها الداخليّة وفي لاهوتها في سبيل إعادة الوحدة⁴.

لذلك فإنّ الحركة المسكونية لم تقتصر على جماعة مسيحية واحدة، بل شملت جميع الفئات المسيحية، وقد نشطت الحركة أولاً خارج الكنيسة الكاثوليكية بين الجماعات البروتستانتية - التي يعود لها الفضل في تأسيس مجلس الكنائس العالمي -.

1 - جرفيه نوميح اليسوعي : الإيمان الكاثوليكي، ص 306.

2 - بولس إلياس اليسوعي : خلاصة الدّين المسيحي ، ص 99.

3 - روبري كليمان اليسوعي : موسوعة المعرفة المسيحية، ج3، ص 42-43.

4 - روبري كليمان اليسوعي : المصدر نفسه، ص 42.

أ - ولادة الحركة المسكونية المعاصرة :

من مميزات الحركة المسكونية المعاصرة أنها لم تقتصر على جماعة مسيحية واحدة، بل شملت جميع الفئات المسيحية إلا بعض الفئات الصّغيرة المتطرّفة، وقد نشطت الحركة أولاً خارج الكنيسة الكاثوليكية بين الجماعات البروتستانتية التي يعود لها الفضل في تأسيس "مجلس الكنائس العالمي".

لم ينتظر المسيحيون القرن العشرين لكي يعرفوا أن انقساماتهم حال مرضية، وقد لاحت بوادر فكرة "المسكونية" عندما أراد مسيحيو المذهب الواحد أن يحافظوا على الوحدة وسط التشتت العالمي. فقام اتحاد إنجيلي عالمي، سنة 1846م، تجمع البروتستانتت يصرف النظر عن مللهم المختلفة. وقد جمع مؤتمر لمبث¹. الأول، الذي جرى في هذا الإطار سنة 1867م، ممثلين من كافة الكنائس الإنكليكانية في العالم². ثم المؤتمر العالمي للكنائس المتحدّدة. فالمؤتمر المعمداني العالمي، فالرابطة اللوثرية العالمية، مر في سنة 1910، جمع مؤتمر "إدينبرغ"³ لأول مرة، ممثلين عن كافة الإرساليات البروتستانتية. وهكذا تبين للمؤتمرين آفة الانقسامات على العمل التبشيري، وشدّد التقرير النهائي على "ضرورة تأسيس كنيسة منقسمة في كل بلد غير مسيحي"، وعلى أنه "سيأتي يوم تحلّ فيه الكنائس المحليّة مشكلة الوحدة بنفسها بمعزل عن رغبات المرسلين الغربيين". وإذا كان المؤتمرون لم يتمكنوا من إقامة احتفال موحد طوال المؤتمر، فقد وُلدت آنذاك فكرة "المسكونية"، وتقرّر عقد اجتماعات منتظمة، وأعطيت لجنة المؤتمرين اسم "المجلس العالمي للإرساليات"⁴، الأسقف الإنكليكاني الأمريكي الأصل "برانت"، الذي وعى أهميّة المسائل العقائدية، على إنشاء حركة "الإيمان والنظام" للتقارب العقائدي والتنظيمي بين سائر الفئات البروتستانتية⁵.

وقد اعتبر أكثر الباحثين أن ذلك المؤتمر كان نقطة انطلاق للمسكونية التي انتهت إلى نشوء مجلس الكنائس المسكوني. في هذه الأثناء، كان "فرنان بورتال"⁶. اللّغازاري، قد التقى صدفة في

1 - لمبث : ضاحية في لندن، فيها قصر لمبث رئيس أساقفة كانتربري حيث يُعقد مؤتمر لمبث الدولي للأساقفة الأنكليكان كل عشر سنوات.

2 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج16، ص 158.

3 - إدينبرغ : مدينة اسكتلانديّة، عاصمة أسكو تندا، فيها قصر أتري، وجامعة شهيرة، منحها نشاطها الثقافي الميّز لقب "أثينا الجديدة".

4 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 354-355.

5 - بيتيم ديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 395.

6 - فرنان بورتال : (1855-1926) : بادري لعازري فرنسي.

"ماديرا"¹ سنة 1890م، اللورد "هاليفاكس"² الأنكليكاني فتصادقا. لم يكن بورتال يعرف شيئا عن الانكليكانية ففكر أولا بالعمل على ارتدادات فردية لبعض الأنكليكان إلى الكتلركة. واعتبر أن الكنيستين، الكاثوليكية والانكليكانية، ستوحدان قريبا، أي بعد اتفاق الرؤساء الروحانيين، ظنا منه أن الانكليكان قد حافظوا على أهم ما في التقليد الكاثوليكي، لاسيما التعاقب الرسولي للأساقفة، لكن، في سنة 1896، أعلنت روما أن الرسامات الأنكليكانية باطلة³. فأحبط حلم هذه الوحدة. وظن بورتال، عندئذ، أن الوحدة لن تأتي إلا من القاعدة، أي من تغيير داخلي لدى المسيحيين. واعتبر أنه يجب العمل ببطء على تقريب الذهنيات وعلى البحث الفكري. فأسس مجلة تهدف إلى هذا العمل باسم "المجلة الكاثوليكية للكنائس". ثم وسع آفاقه نحو الأرثوذكس والبروتستانت. وبالرغم من إبعاده سنة 1908م، ظل بورتال يعمل في الخفاء، بين 1921م و 1925م، حيث استؤنفت المحادثات مع الأنكليكان في "مالين"⁴ بقيادة الكاردينال "مرسييه"⁵. لكن موت بورتال ومرسييه سنة 1926م وضع حدا لهذا المبادرة⁶ من ناحية أخرى، كان الأب كوتوريه (ت 1953م) قد نظم في مدينة ليون أسبوع صلاة لوحدة المسيحيين على أسس جديدة، وقد أصبح هذا الأسبوع مسكونيا حقا. وفي مقال ظهر سنة 1935م، أكد الأب كوتوريه على أن الوحدة لن تأتي نتيجة حملة تبشيرية تقوم بها الكنيسة لكسب الآخرين... لن تأتي الوحدة إلا من الله، ويجب أن تتحقق عن طريق صلاة جميع المسيحيين يجب أن يطلبوا الوحدة التي يريدتها المسيح وبالوسائل التي يريدتها. فعلى كل واحد، في كنيسة، أن يقر بأخطائه إلى الوحدة، على مدى العصور. فإذا بقيت كل كنيسة أمينة لتقاليدتها وللصلاة، فلا يستطيع الله أن يرفض الوحدة التي صلي المسيح من أجلها".

وإذ راق هذا الكلام غير الكاثوليك، دعا الأب كوتوريه إلى التعارف المتبادل، فأسس جماعة "دومب" سنة 1937م، من قسوس وكهنة يجتمعون كل سنة في دير دومبي، في رياضة

1 - ماديرا : جزيرة برتغالية في الأطلسي غربي المغرب، قاعدتها "فوتشال".

2 - هاليفاكس : (1881-1959) : سياسي بريطاني، الحاكم العام في الهند 1926-1931، وزير الدولة لشؤون الحرب، 1935م.

3 - صدر هذا الإعلان في عهد البابا لاون الثالث عشر (1878-1903م) الذي اشتهر برسائله في الشؤون الاجتماعية حول القضايا الحديثة

4 - مالين : مدينة بلجيكية اسمها الفلمندي Mechelen ، مركز رئيس أساقفة بلجيكا.

5 - مرسييه : (1851-1926م) : أسقف مالين و كاردينال، له أعمال بالغة التبيل في خلال الاحتلال الألماني، بلجيكا إبّان الحرب العالمية الأولى.

6 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 102-103.

مسكونية يتغذون فيها روحياً معاً. وقد توسّع الأب كوتورييه، في أواخر حياته، بدراسة هذه المسكونية الروحية التي أسماها "الدير غير المنظور"¹.

وفيما بعد، بدأت هذه الجماعة تدرس اللاهوت المقارن أسس، جميع الطوائف المسيحية. وكان "دوب لمب بودوان" قد أسس، في بلجيكا، سنة 1925، ديراً خصّصه للتقرب من المسحيين الشرقيين، حيث يُحتفل بالليتورجيا في الطقس اللاتيني والبيزنطي، ثم أسس رهبانة مجلة تابعت هذا الخطّ وفي العام نفسه، عُقد في "ستوكهولم"². المؤتمر الأول لحركة "المسيحية العلمية" بمهمة أسقف أوبسالا³. وكان برنامج الحركة "التعاون في شتى المجالات العلمية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية".

وفي عام 1927 عُقد في "لوزان"⁴ المؤتمر الأول لحركة "الإيمان والنظام" ذات البرنامج العقائدي؛ وفي عام 1928 عُقد في القدس المؤتمر الأوّل لمجلس الرسائل العالمي، الذي كان قد أسس سنة 1921م، وفي عام 1937م، عُقد في "أوكسفورد"⁵ المؤتمر الثاني لحركة المسيحية العلمية، وفي "إدنبرغ"، "اسكوتلندا"⁶، المؤتمر الثاني لحركة "الإيمان والنظام"⁷. وكان تزامن اجتماع المؤتمرين مناسبة لإنشاء لجنة تمهيدية لدمج الحركتين في ما يسمى "مجلس الكنائس العالمي". كما قرّر "مجلس الرسائل الدولي" في العام التالي، إقامة لجنة ارتباط مع مجلس الكنائس الناشئ ثم كانت الحرب العالمية الثانية⁸.

وفي الختام، فإنّ مجموعة دومب كلاً من الكنائس، الكاثوليكية والمنتمة إلى الإصلاح البروتستانتي إلى القيام بأعمال اهتداء، تتقدّم فيها كل كنيسة، من دون أن تفقد هويّتها الخاصة، نحو الوحدة التي يريدها المسيح. لم يكن في المجموعة أعضاء أرثوذكس، فلم تنطرق بوجه خاص إلى الشرق المسيحي.

1 - روبري كليمان اليسوعي : موسوعة المعرفة المسيحية، ج4، ص 20.

2 - ستوكهولم : عاصمة السويد، تقع في جنوب شرقي البلاد، شهيرة بالجامعة العلمية والمتاحف والمعاهد العسكرية.

3 - أوبسالا : مدينة في شرق السويد شهيرة بجامعتها.

4 - لوزان : مدينة في جنوب غربي سويسرا على بحير "ليمان" عُقدت فيها معاهدة الصلح بين تركيا والحلفاء 1923م.

5 - أوكسفورد : مدينة في انكلترا عند ملتقى نهري "التاميز" و"يشرول".

6 - أسكوتلندا : المنطقة الشماليّة من بريطانيا العظمى عاصمتها إيدنبرغ.

7 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 357-358.

8 - روبري كليمان اليسوعي : موسوعة المعرضة المسيحية، ج4، ص 21.

ب - مجلس الكنائس العالمي :

سهّلت الحرب أسباب اللقاءات في المحن المشتركة : جمعيات مسيحية عديدة وحدثت المسيحيين في خدمة اللاجئيين غير المسيحيين. سنة 1948م، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، عُقدت اجتماعات عديدة تمهيدية، وكان عام 1948م سنة المولد الرسمي لـ "مجلس الكنائس العالمي"، إذ عُقد مؤتمره الأول في "أمستردام"، وكان قد انضم إلى الكنائس البروتستانتية العديد من الكنائس الأرثوذكسية.

مجلس الكنائس العالمي ليس سلطة عليا تؤلف بين أعضائها، بل هي حسب تحديده الرسمي "رابطة أخوية لكنائس تعترف بالرّب يسوع إلهاً وخلصاً وفق ما جاء في الكتب، وتسعى للاستجابة معاً لدعوتهما المشتركة لمجد إله الأوحاد، الآب والابن والروح القدس" - هذا حسب تعريف ط.ب. مفرّج-¹.

وهناك قاعدة إيمانية مشتركة هي الحد الأدنى المطلوب من الأعضاء المنتسبين إلى المجلس، برنامج عمل يتابع مهام الحركات الثلاث التي نشأ عنها. فهو ينشط التعاون بين الكنائس، ويساعدها على تحقيق رسالتها التبشيرية والاجتماعية في المسيحية، ويضمّ "المؤتمر العام لمجلس الكنائس" ممثلي جميع الكنائس الأعضاء، وهو أهم سلطة في المجلس، يلتزم كل سنة أو سبعة أعوام، وقد عُقد حتى الآن سبعة مؤتمرات عامة : الأول في أمستردام سنة 1947م، ودار موضوعه حول "خلل الإنسان وخطّة الله" ؛ الثاني في "أفانستون"² عام 1954م، وموضوعه "المسيح رجاء العالم الأوحاد" ؛ الثالث في "نيودلهي"³ عام 1961م، وموضوعه "المسيح يسوع نور العالم" ؛ الرابع في أو بسالا (السويد) عام 1967م، وموضوعه "ها إني سأجعل كل شيء جديداً" ؛ الخامس في "نيروبي"⁴ عام 1975م وموضوعه "المسيح يسوع يحرّر الجميع"، السادس في "فانكوفر"⁵ عام

1 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج10، ص 264.

2 - أفانستون : مدينة في شمال شرقي ولاية إلينوي الأمريكية، على بحيرة ميتشيغان شمال مدينة شيكاغو، أسست 1826 وأعلنت مدينة 1892، جعلها موقعها الجميل على الشاطئ البحيرة من أشهر مدن التزهة والاصطياف، مقر جامعة "نورث وسترن".

3 - نيودلهي : عاصمة الهند الجديدة، تقع شمال البلاد شرقي مدينة دلهي.

4 - نيروبي : عاصمة كينيا، أنشأت 1899م، أعيد بناؤها على نسق التخطيط الحديث 1920م، مقر جامعة وعدة معاهد فنية، والعديد من المنظمات الدولية مثل "برنامج الأمم المتحدة للبيئة".

5 - فانكوفر : جزيرة كندية في كولومبيا البريطانية على المحيط الهادي، ومرفاً في غرب كندا على المحيط تجاه الجزيرة.

1983م، وموضوعه "المسيح حياة العالم"؛ والسابع "في "كابنيرا"¹ عام 1991م، وموضوعه "نعال أيها الروح القدس وجدّد الخليقة كلّها". وينتخب المؤتمر العام سبعة رؤساء، ولجنة مركزية مؤلفة من مئة عضو. وتجتمع اللجنة المركزية مرة في السنة، وهي تنتخب من بين أعضائها لجنة تنفيذية تشرف على الأعمال.

وللمجلس أمانات دائمة مركزها، حنيف، وفيها الأمانة العامة، وأقسام الدّراسات، والتّربية والمعونات الاجتماعية والتّبشير والعلاقات الدّولية ودوائر الماليّة والإعلام².

ويضمّ المجلس حاليا 300 كنيسة موزعة على 105 أقطار، أي معظم الكنائس الأرثوذكسية والبروتستانتية، وهو يمثل زهاء 400 مليون مسيحي، وليست الكنيسة الكاثوليكية عضوا في المجلس، إنّما يتعاون لاهوتيوها بشكل رسمي مع لجنة الإيمان والنّظام فيه، ويشتركون مع اللاهوتيين الأرثوذكس والبروتستانت في الأبحاث. وكان من ثمره هذه الجهود ما عُرف بوثيقة "ليما"³ لعام 1982م، حول المعمودية والأفخارستيا والخدمة الرّعوية. وقد حاز هذا النص موافقة جميع اللاهوتيين الأرثوذكس والبروتستانت والكاثوليك الأعضاء، وهو يدور حول مواضيع شائكة كانت تقسم مختلف المسيحيين... ويعدّ هذا النصّ نصرا للحركة المسكونية، وتوتيجا لجهود بُذلت خلال عشرين عاما.

ويقول باحثون كنسيون ظلّت التّحفظات الكاثوليكية تجاه الحركة المسكونية قائمة. وبقي التّجاذب بين القائلين بعودة الإخوة المنشقين إلى الكنيسة الحقيقيّة، أي كنيسة روما وبين القائلين بالمسكونيّة، أي بحوار بين شركاء متساوين. ففي الكنيسة الكاثوليكية، التي تعتبر أنّها وحدها تمتلك الحقيقة، لم يكن من رأي الباباوات مشاركة سائر المسيحيين تبادل الآراء على قدم المساواة⁴. فإن البابا بندكتس الخامس عشر (1914-1922) رفض أن يشترك في حركة توحيد التّربية، كما دعا جميع المسيحيين إلى الانضمام إلى "الكنيسة الحقيقيّة"، وفي براءته "نفوس الأموات" سنة 1928م، منع البابا بيوس الحادي عشر (1922-1939م) الكاثوليك من المشاركة في أيّ حركة مسكونية، من منطلق أن "الحقيقة تسبق المحبة"⁵، لم يكن الكاثوليك يرون آنذاك في

1 - كابنيرا : العاصمة الفدرالية لأستراليا ، تقع في الجنوب الشرقي لغاليا الجنوبية الجديدة.

2 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 396-397.

3 - ليما : عاصمة "البيرو"، تقع غربي البلاد، تشهيرة، بجامعتها.

4 - جان كمي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 357-373-374.

5 - توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 102.

البروتستانتية سوى الآراء المتحررة التي تمهما الدقة العقائدية. رغم ذلك، فقد سمح البابا بيوس الثاني عشر عام 1949م بالمحدثات اللاهوتية بين الكاثوليك وغير الكاثوليك بشيء من التحفظ¹. وفي شهر مارس 1950م، اعترف "مجمع الإيمان" بأن "الحركة المسكونية، عمل رائع. ثمرة من ثمار الروح القدس"، كما حوّل الأساقفة السّماح بقيام اجتماعات بين سائر الطوائف. فالكاثوليك يستطيعون أن يصلّوا "الأبنا" مع غير الكاثوليك².

إن افتتاح الكنيسة الكاثوليكية الرّسمي على الحركة المسكونية نشط حضور صامح البابا يوحنا الثالث والعشرين (1963م). فالكنيسة لم تعدّ تكتفي بدعوة "الإخوة المنفصلين" إلى الرّجوع إليها، بل سعت بروح جديدة من التفاهم والحوار.

والمجمع المسكوني الذي نادى به البابا يوحنا في ختام أسبوع الصّلاة لوحدة المسيحيين في مطلع حبريته في 25 جانفي 1959م، كان هدفه الرئيسي السّعي لتجدد الكنيسة الكاثوليكية بغية تقارب سائر المسيحيين، وإن الأمانة العامّة لاتّحاد المسيحيين، التي أنشئت، بادئ الأمر، لجنة من لجان المجمع الفاتيكاني الثاني التحضيرية، أصبحت جهازا دائما في الفاتيكان مسؤولا عن العلاقات بين المسيحيين غير الكاثوليك، وعن تنشيط الحوار المسكوني³.

وقد فتح المجمع الفاتيكاني الثاني أمام الكاثوليك طريق المسكونية واسعة. فقد دُعيت مختلف الكنائس غير الكاثوليكية لإرسال مراقبين إلى المجمع، والتي معظمها الدّعوة، وأُحيط المراقبون بكثير من الاهتمام والتكريم، وكان لحضورهم تأثير كبير، إذ أطلعوا كنائسهم على مواقف الكاثوليك الحقيقيّة. فأزالوا الكثير من الالتباسات، كما أنّهم ساعدوا آباء المجمع في اتّخاذ مواقف أكثر توازنا وأكثر انسجاما مع سائر المسيحيين. وقد التقى بولس السّادس عددا كبيرا من مسؤولي الكنائس المسيحية: بطريرك القسطنطينية، بابا الأقباط، رئيس أساقفة كانتربري، وغيرهم. فتلطّفت القوانين الكاثوليكية بخصوص الزوايا المختلطة، فلم يعدّ الزوج غير الكاثوليكي يشعر بنوع من الإذلال كما في الماضي، ومن دون أن تكون الكنيسة الكاثوليكية عضوا في مجلس الكنائس العالمي، فإنّها ترسل مراقبين إلى اجتماعات المجلس الكبرى وتتابع أعماله بانتباه، فإنّ مشاكل هذا المجلس تربية من مشاكل الكاثوليك: إنّه يدعم الشعوب المجاهدة في سبيل التّحرير،

1 - بيتيم وديك: تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 398، 400.

2 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 373-374.

3 - مجموعة من كبار الباحثين: موسوعة عالم الأديان، ج 10، ص 267.

لذا أُتهم بالتسييس وتركه بعض أعضائه. كما أن المجلس لاقى اعتراضات من الشباب في "أويسالا" سنة 1968م، حيث طرح شعار: قليل من الأوراق والخطب وكثير من الأعمال¹.

لقد بدأ التعاون الحقيقي يُعيد المجمع الفاتيكاني الثاني مع "مجلس الكنائس العالمي" في المجالات العقائدية والاجتماعية، كما بدأ الحوار اللاهوتي مع عدّة كنائس بروتستانتية، وأخذ يعطي نتائج ملموسة².

فعلى مستويات عدّة وفي بلدان مختلفة، أُعدت وثائق مشتركة بين الكنائس. ففي سنة 1973، نشر المجلس الدائم لأساقفة فرنسا "ومجلس اتحاد البروتستانت" مذكرة مشتركة لموقفها من تجارة السّلاح، وفي سنة 1972 لاقى الترجمة المسكونية للكتاب المقدس نجاحا باهرا. ونشرت مجموعة "دومب" عدّة وثائق تعرض اتفاقا لاهوتيا بين البروتستانت والكاثوليك حول أكثر من موضوع: نحو إيمان افخارستيا واحد (1971-1972م)، حو اتفاق الخدمات (1973م)، والخدمة الأسقفية (1976م). والروح القدس ثم الكنيسة والأسرار (1979م)، وخدمة المناولة في الكنيسة الجامعة (1986م). ومع ذلك فهناك شعور باستنفاد الطّاقة على صعيد المسكونية الفكرية³.

وفي 12 جويلية 1984م، زار البابا يوحنا بولس الثاني، أثناء رحلته إلى سويسرا، مقر مجلس الكنائس العالمي، ودار حوار صريح بينه وبين الأمين العام للمجلس، وقال البابا في خطابه: نحن الآن في زمن العنصرة، الروح القدس دعا الجميع إلى الوحدة، وجودي بينكم دلالة على رغبة الوحدة. الكنيسة الكاثوليكية ملتزمة بالعمل الواحدوي، وهي تشعر أنّها تحمل رسالة الشهادة للإيمان غير المتزعزع، وهي تنزعم الكنيسة التي خطبها دمّ الرّسولين بطرس وبولس.

الشركة مع كنيسة روما ضرورية. هذه قناعتنا، وأنا أعلم أنّ هذا يشكل صعوبة لأغليتيكم، يجب أن نتباحث في ذلك بصراحة وبمودة، وإذا كانت الحركة المسكونية يقودها الروح فستتوصّل على ذلك بين الكنيسة الكاثوليكية وبين الكنائس أعضاء المجلس، تاريخ طويل تشويه أحداث ومنازعات صدّعت الوحدة. والآن أخذنا نكتشف من جديد مالا يزال يجمعنا: المعمودية - كلام الله - نفهم دور الروح القدس. هذا الروح ينبوع حرية يتيح التجدد في الأمانة، لما تسلّمنا

1 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 373-374.

2 - جرفيه دوميغ اليسوعي: الإيمان الكاثوليكي، ص 304-305.

3 - جان كمي: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص 391.

من الأجيال السالفة، وينتكر سبلا جديدة في سيرنا نحو الوحدة، ضمن الأمانة للحقيقة واحترام غنى التنوع في القيم المسيحية الحقيقية المتأصلة في التراث المشترك¹.

في الحقيقة نفسها، كانت كنيسة روسيا تعيش آخر أيامها، تحت حكم القياصرة، الذي كان يمنع كل تطوّر في المؤسسات. غير أنّ ذلك لم يتمكن من الحدّ من حرّية المفكرين، ونرى، في هذا الصّد، الروسي سولوفييف² يعتنق الكتلركة ويعمل جاهدا في سبيل وحدة الكنيسة. وتولستوي³ يعرض مسيحية إنجيليّة لا عنف فيها، ما حمل السيّنودس المقدّس على حرمة.

وقد أدّت تطورات أواخر القرن التّاسع عشر وبدء القرن العشرين، إلى نزوح مسيحيين شرقيّين إلى سائر أقطار الدّنيا، إلى أوروبا الغربية والولايات المتّحدة وكندا وأستراليا، لتتلاقى في عوالم جديدة، حيث تجد الكنيسة كنائسا، ما دفع أتباع الكنائس المختلفة إلى اللّقاء والعيش في محيط واحد. فتساءل بعضهم: لماذا هذا التمزّق في المسيحية في عالم أصبح فيه المسيحيّون أقلّيات؟⁴.

وجاء تقارب أجزاء العالم بعضها من بعض بواسطة وسائل النقل المتعدّدة، وانتشار الحضارة الأوروبية لتجاوز الحضارات المتنوّعة، ليجعله يتمخض اليوم عن مدينة جديدة لها طابع عالمي شامل⁵، لاسيما بعد أن اُفّارت عامي 1989 و 1990م، النّظم الشيوعية في شرقي أوروبا وزالت الحرب الباردة القائمة بين العملاقين: "الولايات المتّحدة والاتّحاد السّوفياتي".

- بابا الفاتيكان اليوم : (بندكتس السّادس عشر) :

ولد بندكتس السّادس عشر، جوزيف راتزينغر، في بلدة "ماركتل أم إن" بأبرشية باسا الألمانية في السّادس عشر من نيسان من عام 1997م، وكاهنا في التّاسع والعشرين من حزيران من عام 1951م، ودرس اللاهوت، ودرس في بون، ميونسترو توينغا، بن عامي 1959م، 1969م، قبل أن يعيّن أستاذ المادة اللاهوت العقائدي في جامعة راتيسبوننا، ونائبا لرئيس الجامعة المذكورة. شارك في عام 1962م في أعمال المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني بصفته مستشارا لاهوتيا

1 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 397.

2 - فلاديمير سولوفييف : (1853-1900)، مفكر وفيلسوف روسي.

3 - لاون تولستوي : (1828-1910)، كاتب قصصي روسي كبير، حاول إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبة وعدم العنف.

4 - مجموعة من كبار الباحثين : موسوعة عالم الأديان، ج 10، ص 270.

5 - بيتم وديك : تاريخ الكنيسة الشرقية، ص 397.

لرئيس أساقفة كولونيا السابق الكاردينال جوزيف فرينغر، وقدم إسهاما قيما في أعمال الجمع. في الرابع عشر من شهر آذار من عام 1977م، عينه البابا بولس السادس رئيس أساقفة على ميونيخ (أونفرايزن)، وفي الثامن والعشرين من أيار من العام نفسه نال الأسقفية وفي السابع والعشرين من حزيران من عام 1977م اعتمر القبة وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني من عام 1981م، عينه سلفه البابا يوحنا بولس الثاني عميدا لجمع عقيدة الإيمان، ورئيسا للجنة الحبرية البيبلية واللجنة الحبرية اللاهوتية الدولية¹.

في السادس من تشرين الثاني من عام 1998م، انتخب نائبا لعميد مجمع الكرادلة، ثم عميدا للمجمع في الثلاثين من تشرين الثاني من عام 2002م.

ترأس اللجنة المكلفة بإعداد كتاب "التعليم الديني للكنيسة الكاثوليكية". وقدم الكتاب، بعد عمل استغرق ست سنوات (بين 1986م و 1992م)، إلى البابا يوحنا بولس الثاني، انتخب مجمع الكرادلة الكاردينال الألماني جوزيف راتزينغر خليفة ليوحنا بولس الثاني في التاسع عشر من نيسان سنة 2005م، واتخذ اسم "بندكتس" أي "مبارك" السادس عشر.

وقد اصدر العديد من الرسائل البابوية الموجهة إلى الكنيسة في العالم أجمع منها :

يوم المريض العالمي 2009م "كرامة الحياة البشرية خوف كل اعتبار.

الرسالة الرسولية الأولى : "الله محبة".

اليوم العالمي لـ 41 للسلام : "الأسرة البشرية، جماعة سلام".

واستقبل العديد من ملوك ورؤساء الدول في العام، ومن الوطن العربي، فذكر منهم :

محمد حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية : 2006/03/13م.

الملك عبد الله الثاني : ملك المملكة الأردنية : 2006/09/12م.

الملك عبد الله عبد العزيز، ملك المملكة العربية السعودية : 2007/11/06م².

- موقع الفاتيكان :

تقع الفاتيكان في شمال غرب العاصمة الإيطالية روما بعيدة فقط عدّة مئات من الأمتار عن

1 - بندكتس السادس عشر http://www.goole.com - جريدة الدستور : تاريخ العدد 2011/02/21.

2 - البابا. http://www.goole.com -

نهر تير، يبلغ مجمل طول حدودها مع إيطاليا 3,2 كم، الذي يشكله سور المدينة الذي بُني لحماية البابا من الاعتداءات الخارجية، مدخل المدينة هي ساحة القديس بطرس أمام كنيسة القديس بطرس، مدينة الفاتيكان هي أصغر دولة ذات سيادة في العالم، حيث تبلغ مساحتها ما مجموعه 0,44 كم²، وهي أصغر دولة في العالم.

- النظام السياسي في الفاتيكان :

هو معقد بعض الشيء ؛ البابا هو رأس الدولة وأعلى سلطة في الكنيسة الكاثوليكية، فالبابا هو أسقف روما، هو رأس الكنيسة المنظور كما يرتبط هذا بمدينة الفاتيكان مقر البابا، البابا الحالي هو بنديكتس السادس عشر، وهو البابا رقم 274 كان هذا اللقب يعطى في السابق لكل أسقف في الكنيسة إلا أنه حفظ مع الوقت لرأس الكنيسة مع احتفاظ بعض الكنائس بهذا اللقب كالكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

يتولى البابا منصبه عن طريق الانتخاب من قبل الكرادلة ولانتخابه طقوس خاصة، حيث يتجمع الكرادلة في الكنيسة السيستينية في الفاتيكان، ويقون فيها حتى انتخاب البابا الجديد ويعلنون عن ذلك عن طريق دخان أبيض يتصاعد من المدخنة، أما في حال فشلهم في انتخابه فيتصاعد دخان أسود بدل أبيض.

البابا يتمتع بسلطات تنفيذية، تشريعية، قضائية مطلقة، كما أنه يعين الطاقم الإداري لمساعدته القيام بإدارة الدولة كل خمس سنوات، وزير الدولة هو كاردينال معين من البابا أيضا، يكون مسؤولا عن العلاقات الخارجية للفاتيكان والكرسي البابوي.

- السياسة الخارجية للفاتيكان :

للفاتيكان سفراء معتمدون في معظم دول العالم وخاصة الكاثوليكية منها، كما أن لهذه الدول سفراء في الفاتيكان عادة يكونوا سفراء أيضا لبلادهم في إيطاليا ومقيمين في روما لضيق مساحة المدينة، تتمتع الفاتيكان بصفة مراقب في الأمم المتحدة، كما أن عضويتها في كثير من الاتفاقات الدولية ليس إلا لترسيخ الفكر الديني والسلمي والتعاوني مع الدول الأخرى، على سبيل المثال عضويتها في منظمة الوحدة الإفريقية أو معاهدة عدم انتشار الأسلحة الكيميائية¹.

ومن هنا نرى أنّ البابا أصبح في الفاتيكان حاكماً شبه سياسي، مستقل في إدارة دولته عن إيطاليا، بعد أن كادت الدولة البابوية أن تنتهي بإنشاء الدولة الأوروبية المعاصرة إلا أن الدولة الإيطالية ضمت لها الفاتيكان عام 1870، ووافقت على إعطائها مساحة معينة من أراضيها ضمن عاصمتها - روما - وأطلق عليها اسم دولة الفاتيكان. فكان لهذه الأخيرة دوراً سياسياً ودينياً لا يمكن إغفاله، لذلك نرى تسابق جميع رؤساء العالم إلى مقابلة البابا أو دعوته أو أخذ تصريح منه بقضية معينة، إذ أنّ العامل الديني لا زال يلعب دوره عالمياً وتصريحات البابا لها دور كبير في تحوير ذلك العامل الديني.

- بعض أفكار البابا :

1 - الانترنت فرصة لعيش الرسالة :

يعرض الانترنت من خلال قدرته على تجاوز المسافات وتوفير فرص اللقاء المتبادل، إمكانيات كبيرة للكنيسة ورسالتها، هذا ما أكدّه البابا في حديثه بجمع التربيّة الكاثوليكية، مؤكداً أيضاً على تنشئة الإكليريكيين في هذا الجانب، فمن خلال استخدامه بطريقة ذكية وحذرة، يمكن للانترنت أن يخدم ليس لغرض الدراسة فحسب، بل في حقل العمل الرعوي لكهنة المستقبل أيضاً وفي مختلف المجالات الكنيسة.

وفي هذا الصدد يعتبر الاعتماد على مشيئتين كفوئتين أمراً بالغ الأهمية، وفي حديثه توقّف قداسته عند التّحديات التي لا بدّ من مواجهتها لتقديم وسائل التنشئة الضرورية للكهنة وطلاب الجامعات الكاثوليكيين، ولتطوير الدراسات العليا واللاهوتية التي يهتم المجتمع بتقديمها.

2 - الإيمان ليس شيئاً من الماضي :

يقول البابا : "أنتم مدعوون لرمي شبكة الإنجيل في بحر هذا الزمن الهائج من أجل صيد البشر إلى المسيح، وجذبهم خارج مياه الموت والظلام التي لا يخرقها نور السماء".
بهذه التّوصيات منح بندكتس السادس عشر السيامة الأسقفية لخمسة كهنة في بازيليك القديس بطرس¹. في مختلف أنحاء العالم، يظهر الإنسان وقد أدار ظهره لله مع ذلك يبقى التّوق بأن تثبت العدالة والحب والسلام.

1 - بندكتس السادس عشر - <http://www.goole.com>

ودعا البابا الأساقفة الجدد لتحرير المجتمع من فقر الحقيقة " وأن يحافظوا على تعاليم الرّسل

والشركة في كسر الخبر والصلوات"، وأكد بأن الغنى بالإرث الذي تركه الرّسل الإثنا عشر واعتباره كقاعدة أمينة عليها يُبنى بيت الإيمان، وفي عظته ذكر أن الصلاة هي "الصعود من الوجود إلى سمو الله" وختم البابا قائلا: "الراعي لا يجب أن يكون مثل قصب المستنقعات ينحني مع الريح أي خادما لروح العصر، بل عليه أن يكون مقدما في مسيرة الطاعة للحقيقة والله".

قال البابا أن المسيحية سلاح روحي في الصراع ضدّ الشرّ، أيضا البابا دعا أوباما رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لبناء عالم يسوده السلام¹.



■ الخاتمة :

مما سبق ذكره يمكننا استخلاص ؛ أن روما خاضت أشواطاً كبيرة من أجل الوصول إلى الرّعاية الدّينية بدءاً بالصّراعات التي كانت تحدث من حين لآخر، بين الأسقفيات الكبرى سواء في شرق الإمبراطورية والمتمثلة أساساً في أسقفيات أنطاكية والقسطنطينية وأورشليم والإسكندرية أو في غرب الإمبراطورية والمتمثلة في روما وقرطاجة، ولقد احترم الصّراع أولاً بين الإسكندرية وأنطاكية، حيث أنّ كل منهما كانت تريد الانفراد في قيادة العالم المسيحي مستدلة بأدلة وحجج تمنحها تلك المكانة، ونتيجة لهذه الاختلافات تحصلت روما على حقّ ومبدأ الأسبقية، لأنّها زعمت أنّها تملك الدليل الكافي لتزعمها هذه المكانة والمتمثل في السّبب الدّيني، والذي يرجع بالدّرجة الأولى إلى أنّ المسيح عيسى اصطفى القديس بطرس على سائر الحواريين واختاره ليكون خليفته، وبما أنّه نشر دعوته في روما واستشهد هناك، فكانت الأولوية لكرسي روما للحصول على هذا التّشريف.

وهنا دخلت روما في صراع كبير مع القسطنطينية، حيث أنّ القسطنطينية، تعتبر نفسها مقرّ الأباطرة، ويحكم انتماء القديس أندراوس لها فهي تعتبر نفسها صاحبة الحقّ في هذه المكانة، ونتيجة لهذه الصّراعات الثنائية بين أسقفيات الشرق والغرب، اصدر الأباطرة فلنتيان -II- مرسوماً يقضي بخضوع كل الأساقفة إلى البابا في روما.

وهكذا أصبح البابا يتمتّع بزعامة العالم المسيحي، ولقد لعب بابوات القرنين الرابع والخامس دوراً مهماً سواءً في المجال الدّيني ؛ حيث عملوا على نشر المسيحية في مختلف أنحاء أوروبا والقضاء على الوثنية في إيطاليا، وانجلترا خاصة، كما قاموا ببناء الكنائس الفخمة في مختلف أنحاء الإمبراطورية، وكان لهم دور في مساعدة الفقراء والمحتاجين.

أمّا من الناحية السياسية، فقد لعب البابوات دوراً بارزاً تمثّل في الدّفاع عن المسيحيين إثر الغارات الجرمانية، وإيقاف زحف البرابرة والتّفاوض مع الغزاة، وكان أشهر هؤلاء البابوات ؛ البابا ليون الأوّل الذي قام بالتّفاوض مع أتيليا ملك الهون، كذلك أتنوست -I- الذي تفاوض مع الرّيك ملك القوط الذي احتاج روما عام 410م، ومن الشخصيات المهمة كذلك جريجوري الكبير، والذي لُقّب بخليفة القديس بطرس، هذا الذي قام بوقف زحف اللامباردين على إيطاليا.

وهكذا أصبحت البابوية تتمتع بالسلطتين الدينية والزمنية.

ومن خلال ما سبق نخلص إلى النقاط التالية :

- 1 - حصرت الكنيسة "في بداية عهدها" اهتمامها بالجانب الروحي -الذي يعدّ وظيفتها الحقيقية- لأنها كانت بحاجة إلى أنصار للقضاء على الديانة الوثنية، وكسب تأييد السلطة السياسيّة، وقد ساعدها تمسك الآباء الأوائل بالمبادئ المسيحية على نشر الديانة المسيحية، وبروزها كقوة منافسة للسلطة السياسية.
- 2 - عاش المجتمع الأوروبي -في بداية العصور الوسطى- تحت ازدواجية السلطتين السياسيّة والدينية كلاً ضمن حدود صلاحياته، في إطار التعاون الذي فرضته حاجتهما لبعضهما البعض، فالكنيسة كانت ترغب في تقوية نفوذها من خلال ما تحوّله لها الدولة من امتيازات، والدولة أرادت المحافظة على ما تبقى لها من سلطة، وذلك بمباركة الكنيسة لها، لكن في النهاية تمكنت الكنيسة من اكتساب نفوذ اجتماعي وسياسي بفضل الهيبة والقداسة التي وضعها المسيحيون في رجال الدين باعتبارهم هم خلفاء المسيح.
- إضافة إلى استغلال كنيسة روما الفراغ السياسي الذي تركه سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب منذ القرن الرابع ميلادي.
- 3 -حققت البابوية نجاحاً سياسياً من خلال مناطق نفوذها، وكذا تطوّر أنظمتها الإدارية التي استمدتها من الإدارة الرومانية دام هذا النجاح إلى غاية القرن الثالث عشر، لكنّها في المقابل فقدت هيبتها الروحيّة وثقة المسيحيين بها.
- 4 -احتكر البابوات سنّ القرارات وتنفيذها، وكلّ عمل فكري كحقّ تفسير الإنجيل دون أن يكون لأيّ شخص الحقّ في توجيه النّقد وتقديم البديل، فلم يكن للفرد الأوروبي في هذه الفترة أدنى قيمة.
- 5 -عندما خرجت البابوية منتصرة من صراعها الطويل والدّامي مع الأمبراطورية التي كانت تمثل السّلطان الزمني، وهي بذلك سيّدة أوروبا الدينيّة والزمنيّة دون منازع. وهكذا تعدّت البابوية السّلطة الدينيّة -السلطة المفترضة- إلى السلطة السياسيّة. إلا أن الواقع أثبت صراع البابوية مع الأمبراطورية وفشل الحروب الصليبية في تحقيق الأهداف

التي حددتها لها الكنيسة في الأساس، قد أفقدها الكثير من قدراتها وطاقاتها وإمكاناتها، كما أنّ الرغبة في الاستفادة من الثروة السلّطة التي أصابت كبار رجال الدين والبابوات واهتمامهم بالمظاهر الدنيوية أكثر من تركيزهم على تحقيق أغراض كنيسة المسيح الحقيقية.

- 6 مع اقتراب القرن الخامس عشر ظهرت أفكار جديدة نادت بفصل الدين عن الدولة للقضاء على تسلّط البابوية الاجتماعي والسياسي، وتحرير العقل البشري، وإعطاء الحرية للعقريات الفردية، فظهرت حركة الاستنارة، وحركة المحتجّين، وجاء مارتن لوتر بالإصلاح الديني الذي مسّ بالخصوص العقيدة المسيحية ذاتها.
- 7 إن طموح البابوية في الكنيسة الجامعة أخرج دول أوروبا العربية من عالم العصور الوسطى إلى عصر النهضة، في حين بقيت الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية خاضعة للسيطرة العلمانية لأباطرة الشرق في القسطنطينية.
- 8 إنّ البابوية في الكنيسة شابهت الدولة إلى حدّ كبير لذلك يمكن أن نطابق المراحل التي مرت بها بالمراحل التي تمرّ بها الدولة، كما يراها ابن خلدون، حيث يرى أنّ للبابوية في الكنيسة أعماراً طبيعية كما للإنسان وهي التزايد (النشأة)، الوقوف (القوّة)، ثمّ التراجع (الهرم)، وتمثل مرحلة التزايد أو النشأة عند البابوية في ظهورها كمؤسسة دينية مهمتها إرشاد المسيحيين لمبادئ الدين الجديد، ثمّ مرحلة القوّة، حيث أصبحت البابوية قوة سياسية، وصحّ أن نطلق عليها اسم الدولة، لها حدود وعلاقات، مناطق نفوذ، سيادة وشعب مسيحي خاضع لها، وتأتي مرحلة التراجع (الهرم) كمرحلة حتمية حيث أصيبت البابوية بأزمات أدّت إلى تراجع نفوذها مع التطور الذي شهدته أوروبا الغربية بظهور تنظيم بديل هو الدولة الحديثة التي حازت على ولاء الفرد المسيحي، وهكذا أصبح الأخير أكثر حرية وإبداعاً، ونهوضه بواجبه نحو الدولة والمجتمع الذي يعيش فيه.
- 9 أمّا في الوقت الحالي فقد استرجع البابا دوره السياسي بالإضافة إلى العامل الديني الذي لازال يلعب دوره عالمياً.

ومن هنا نجد أن البابا في العصور الأولى بمكانه رفيعة في إطار مهمته المحددة له -
الدينية- وبعد ذلك تعدى هذه المهمة إلى السياسة فازداد نفوذه الذي أدى به إلى البغي وسنّ
محاكم التفتيش، وصكوك الغفران، ومع بداية عصر النهضة وارتفاع الصيحات الإصلاحية،
حارصة في ذلك على إصلاح الكنيسة ؛ لكنها انتهت بانقسام المسيحية وتراجع مكانة البابا.
أمّا في العصر الحالي فقد استعاد البابا مكانته وذلك بفضل إعطاء إيطاليا للدولة البابوية
مساحة معينة من أراضيها أطلق عليها اسم دولة الفاتيكان وبذلك أصبح للبابا في الفاتيكان
دورا دينيا
سياسياً لا يمكن إغفاله.

وعموماً هذه بعض النتائج المتوصل إليها في البحث، والتي تعكس جوانباً من -مكانة
البابا في الكنيسة الكاثوليكية- وتبقى هذه المحاولة مساهمة متواضعة، تأمل أن نتقدم مستقبلاً
بدراسات أكثر عمقا ودقة.

وفي الختام نحمد الله تعالى على عونه ونسأله سبحانه الثبات والتوفيق.

الفهارس

فهرس

- قائمة المصادر والمراجع
- فهرس الكتاب المقدس.
- فهرس الأعلام.
- فهرس الأماكن.
- فهرس الموضوعات

قائمة المصادر والمراجع

■ بالعربية :

- المسيحية :

1. إبراهيم خليل أحمد : محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، ط []، دار المنار، 1989م.
2. إبراهيم مذكور : دروس في تاريخ الفلسفة، ط2، بيروت، منشورات مكتبة المعارف، ت [] .
3. ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق : محمد إبراهيم النَّصر وعبد الرحمن عميرة، ط 1، جدّة، شركة عكاظ، 1982م.
4. ابن قيم الجوزية : هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ط 3، المدينة المنورة، مطبعة الجامعة الإسلامية، ت [] .
5. أبو الحسن الأشعري : الإبانة في أصول الديانة، ط []، م []، دار القارئ للطباعة والنشر، 1991م.
6. أحمد أمين، زكي نجيب محفوظ : قصة الفلسفة الحديثة، ج 1، ط 5، م []، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1987م.
7. أحمد شلبي : مقارنة الأديان، المسيحية، ج2، ط8، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1988م.
8. أحمد عبد الغفور عطار : الديانات والعقائد في مختلف العصور، ج3، ط1، مكة المكرمة، 1981م.
9. إدوارد جولو : الفلسفة الوسيطية، ترجمة : علي زيغود، ط []، 1، 2، 3، بيروت، لبنان، دار الأندلس، 1984-1992م.
10. ألبير أبونا : تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية من انتشار المسيحية حتّى مجيء الإسلام، ج 1، ط3، بيروت، دار المشرق، 1992م.
11. أليكسي جورافسكي : الإسلام والمسيحية، ترجمة : خلف محمد الجراد، ط []، الكويت، م.و.ث، ف.م، 1996م
12. أندروملر : مختصر تاريخ الكنيسة من البداية إلى القرن العشرين، ج 1، القاهرة، مكتبة كنيسة الأخوة، 1971م.
13. أندروملر مختصر تاريخ الكنيسة، ط4، مصر، مكتبة الأخوة، 2003م.
14. آية الله السيّد محمد حسين فضل الله : في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي، ط []، دار الملاك، 1994م.

15. برنا سيسوييه : الإنجيل الحي في الكنيسة، تعريب : الأب جرجس المارديني، ط 3، بيروت، دار المشرق، ش.م.م.، 1997م.
16. بطرس البستاني : دائرة المعارف، مجلد5، ط []، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ت []، مادة البابوية.
17. بولس إلياس اليسوعي : خلاصة الدين المسيحي (تعليم مسيحي للصفوف العليا والجامعيين)، ط 3، بيروت، لبنان، دار المشرق، 1978.
18. بولس إلياس اليسوعي : يسوع المسيح، ط2، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ت [] .
19. بيير كاميللو ، بيير مارافال، بول كريستوف : الجامع المسكونية، الألفية الأولى والثانية، نقله إلى العربية : السيّد بولس عطا الله، إشراف : الأب الدكتور كاميللو باللين، ط 1، القاهرة، شقيقات للنشر والتوزيع، 2005م.
20. التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية : عربّه عن الطّبعة اللاتينية الأصلية المتروبوليت حبيب باشا، المطران كيرلس سليم بسترس، المطران يوحنا منصور، الأب حنا الفاخوري، ط []، لبنان، المكتبة البولسية جونية، 1999م.
21. توماس ميشال اليسوعي : مدخل إلى العقيدة المسيحية، ط []، بيروت، دار المشرق، 1992م.
22. الجاحظ : المختار في الردّ على النّصارى، تحقيق : عبد الله الشّرقاوي، ط 2، القاهرة، دار الصّحوة، 1984م.
23. جان كمبي : دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ط []، بيروت، المشرق، ت [] .
24. جرفيه دوميج اليسوعي : الإيمان الكاثوليكي، نصوص تعليمية صادرة عن السّلطة الكنيسة، نقل أهمّها إلى العربية : صبحي حموي اليسوعي، ط 1، بيروت ، لبنان، دار المشرق ش.م.م.، 1999م، هنري بولا : اليسوعي : منطق الثالوت.
25. جورج خضر المطران : أفكار و آراء في الحوار المسيحي والعيش المشترك، ج 2، ط []، لبنان، المكتبة البولسية، 2000م.
26. جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، ترجمة : عزرا مرجان، ج4، ط1، القاهرة، دار الثقافة، 1990م.
27. جون لوويمر : تاريخ الكنيسة، ج2، دار الثقافة المسيحية، نقلا عن كتاب أحمد على عجبية، ج6.
28. جون هارمان وانداال : تكوين العقل الحديث، ترجمة : جورج طعمة، مراجعة : برهان دجاني، تقديم : محمد حسنين هيكل، ج1، ط2، بيروت، دار الثقافة، 1965م.
29. حنا جرجس الخضري : تاريخ الفكر المسيحي، يسوع المسيح عبر الأجيال، مجلد 1، ط []، القاهرة، دار الثقافة، ت [] .

30. الخوري يوحنا الحلو : اعترافات القديس أوغسطينوس، ط []، بيروت، دار المشرق، 1996م.
31. دون كويت، ميكائيل عولدر : أسطورة تجسّد الإله في السيد المسيح، تحرير جون، ترجمة : نبيل صبحي، ط []، الكويت، دار القلم، 1985م.
32. رؤوف شلي : أضواء على المسيحية، دراسات في أصول المسيحية، ط []، صيدا، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1975م.
33. رؤوف شلي : يا أهل الكتاب تعالوا، ط []، م []، دار التوحيد، ت [] .
34. رحمت الله الهندي : إظهار الحق، تحقيق : أحمد ملكاوي، ج 3، ط []، الرياض، دار الوطن للنشر، دار أولي النهي، 1991م.
35. روبر كليمان اليسوعي : تاريخ الحركة المسكونية الأولى قبل المجمع الفاتيكاني الثاني، ترجمة : صبحي اليسوعي، ط1، بيروت، دار المشرق، 1991م.
36. روجيه أرندلير : رسل ثلاثة لإله واحد، وديع مبارك ط []، بيروت، منشورات عويدات، 1988م.
37. سكاف جورج : صفحات من لبنان، منشورات دار نوبليس، المجلد 8، بيروت، 2002م.
38. شارل جينييز : المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة : عبد الحليم محمود، ط 3، القاهرة، دار المعارف، 1988م.
39. صابر طعيمة : الأسفار المقدّسة قبل الإسلام، ط1، بيروت ، عالم الكتب، 1985م.
40. صبحي حموي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي، ط1، بيروت، دار الفكر، 1994م.
41. صبحي البخاري : صلح 11-01، ط []، بيروت، دار الفكر، ت [] .
42. عبد الغني عبود : المسيح والمسيحية والإسلام، ط1، م []، دار الفكر العربي، 1984م.
43. عبد القادر صالح : العقائد والأديان، ط2، بيروت، لبنان، دار المعرفة، 2006م.
44. عبد الحميد الشرفي : الفكر الإسلامي في الردّ على التّصارى إلى نهاية القرن 14، ط2، بيروت، لبنان، دار المدار الإسلامي، 2005م.
45. عبد المنعم فؤاد : المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، ط 1، الرياض، مكتبة العبيكان، 2002م.
46. عرفان عبد الحميد فتّاح : التّصرانية نشأتها التّاريخية وأصول عقائدها، ط 1، عمّان، دار عمّار، 2000م.
47. العقّاد : حياة المسيح، ط []، القاهرة، دار الكتاب المصري، ت [] .

48. علي إبراهيم الحمد التَّملة : التَّنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسُبل مواجهته، ط 2، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1419هـ.
49. غسان سليم سالم : محاور الالتقاء ومحاور الاقتراف بين المسيحية والإسلام، سلسلة أديان مقارنة، ط []، بيروت، دار الطليعة، 2004م.
50. فؤاد عبد المنعم : أبحاث في الشرائع واليهودية والنصرانية والإسلام، ط []، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1994م.
51. فاضل سيداروس : بين وحي الله وإيمان الإنسان، ط2، بيروت، دار المشرق، 1996م.
52. فاضل سيداروس : من أنت أيتها الكنيسة ؟، ط3، بيروت، دار المشرق، 2005م.
53. فاضل سيداروس : يسوع المسيح في تقليد الكنيسة، دراسات لاهوتية، محاضرات أُلقيت في معهد الدراسات اللاهوتية - السكاكيني - القاهرة، ط 3، مزيد عليها، بيروت، دار المشرق، ش.م.م.، 1999م.
54. فليسان شالي : موجز تاريخ الأديان، ترجمة عن الفرنسية : حافظ الجمالي، ط1، دمشق، دار طلاس، 1999م.
55. القرافي : الأجوبة الفاخرة، ط []، بيروت، دار الكتب، 1986م.
56. ليف أساقفة فرنسا : الإيمان المسيحي، ترجمة : أنطون موصللي اللعازاري، تنسيق : الأب غبريل دوفيل من الآباء البيض، ط []، باريس، مطبوعات دار باريس، 2001م.
57. لويس غرديه، ج. قنواقي : فلسفة الفكر الدريني بين الإسلام والمسيحية، نقله إلى العربية : صبحي الصالح، فريد جبر، ج1، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1967م.
58. مجلس أساقفة كنيسة ألمانية : المسيحية في عقائدها، نقله من الألمانية إلى العربية : المطران كيرلس سليم بسترس، ط1، بيروت، منشورات المكتبة البولسية، 1996م.
59. مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية، مناظرة بين الإسلام والنصرانية، ط 1، الإمارات، مكتبة الصحابة، 2007م.
60. محمد بو الروايح : مختصر تاريخ الأديان، ط []، قسنطينة، 2007م.
61. محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية، تبحث في الأدوار التي مرّت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم ومجامعهم المقدسة وفرقهم، ط [1، 2، 3]، مصر، دار الفكر العربي، 1949-1961م.
62. محمد الشاهد : المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، ط []، مصر، دار الأمين، 2001م.

63. محمد ضياء الرحمن الأعظمي : دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ، ط [] ، المملكة العربية السعودية، مكتبة الرشد، 2003م.
64. محمد عبد الحميد الحمد : الرهبة والتصوّف في المسيحية والإسلام، ط 1، دمشق، مديرية الرقابة في وزارة الإعلام، 2004م.
65. محمد عبده : الإسلام والتصرانية بين العلم والمدينة، تقديم وتعليق : رشيد رضا، ط [] ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ت [] .
66. محمد عزّت الطهطاوي : التصرانية والإسلام في مقارنة الأديان، ط [] ، مصر، مكتبة النافذة، 2004م.
67. محمد منير موسى : تاريخ التربية في الشرق والغرب، طبعة منقّحة مزيدة، القاهرة، مكتبة العبيكان، ت [] .
68. محمود محمد حمّودة : التّبيان في الفرق والأديان، ط1، عمان : مؤسسة الورّاق للنّشر، 2001م.
69. مصطفى شاهين : التّصرانية تاريخاً وعقيدة ومذاهب، دراسة تحليلية ومناقشة، ط [] ، م [] ، دار الاعتصام، ت [] .
70. معجم اللاهوت الكتابي ، ط5، بيروت ، دار المشرق، ش. م. م. ، 2004م.
71. ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ، ترجمة : فتح الله المشعشع، ط 5، بيروت منشورات مكتبة المعارف، 1985م.
72. ولز : معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، مجلد 3، ط3، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، 1972م.
73. يتيم المطران ميتشل والأشمندريت أغناطيوس ديك : تاريخ الكنيسة الشرقية وأهم أحداث الكنيسة الغربية، ط4، بيروت، منشورات المكتبة البولسية، 1999م.
74. علي عبد الواحد وافي : الأسفار المقدّسة في الأديان السّالفة السّابقة للإسلام، ط 1، م [] ، مكتبة التّهضة المصرية، 1964م.

■ التاريخية :

1. إبراهيم أحمد العدوي : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ط []، القاهرة، دار المعرفة، 1961م.
2. أحمد بن نعمان : التعصّب والصراع العرقي واللغوي لماذا وكيف .، ط2، الجزائر، دار الأمة، 1997م.
3. أحمد رضا بك : وثائق الحروب الصليبية، ترجمة : محمد بورقيبة، محمد الصادق الزملي، تقديم : محمد العروسي المطوي، ط3، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، ت [] .
4. إدوارد بروي وآخرون : تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ترجمة : يوسف داغر، فريد داغر، المجلد 3، ط []، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 1982م.
5. أندريه إيمار، جانين أو بوايه : تاريخ الحضارات العالم، روما وإمبراطوريتها، نقله إلى العربية : يوسف أسعد داغر وفريد داغر، ج1، ط1، بيروت، لبنان، منشورات عويدات، 1964م.
6. ج. كرامب جاكوب : تراث العصور الوسطى، ترجمة : محمد مصطفى زيادة، محمد بدران، ج 1، ط []، م []، مؤسسة سجل العرب، 1965م.
7. ج.ج كولستون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة : جوزيف نسيم يوسف، ط 1، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1930م.
8. جرناتان ويلى سميث : الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة : محمد فتحي الشاعر، ط2، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.
9. جرناتان ريلي سميث : ما الحروب الصليبية، ترجمة : محمد فتحي الشاعر، ط 1، القاهرة، دار الأمين، 1999م.
10. جلال يحيى : التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج 1، ط []، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ت [] .
11. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج 3، ط []، بيروت، دار الجيل، 1991م.
12. خاشع المعاضيدي : سرادي عبد محمد، دريد عبد القادر خوري : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ط2، جامعة الموصل، مديرية دار الكتاب، 1986م.
13. دافيد رودغنو : الإمبراطوية الفاشية الأوروبية، ط []، مطبوعات جامعة كامبردج ، 2006م.
14. رمضان لاوند : الحرب العالمية الثانية، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1996م.

15. رولان مونسييه : تاريخ الحضارات العام، القرنان السادس والسابع عشر، إشراف : موريس : كروزيه، نقله إلى العربية : يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، مجلد 4، ط 2، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 1987م.
16. زكي التّغاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ط []، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1946م.
17. زينب عصمت راشد : تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن 16 إلى القرن 18، ط []، القاهرة، دار الفكر العربي، 1948م.
18. سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، التاريخ السياسي، ج 1، ط []، بيروت، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، 1976م.
19. سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ط 1، لبنان، مكتبة المدرسة، 1983م.
20. سلامة موسى : حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، ط []، بيروت، دار العلم للملايين، 1967م.
21. السيّد الباز العريبي : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ط []، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية للنشر، 1968م.
22. شوقي عطاء الله الحمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم : تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ط 1، القاهرة، دار الثقافة، 1993م.
23. صالح أحمد هريدي : تاريخ أوروبا الحديث، ط []، الإسكندرية، دار الوفاء، لدينا الطباعة والنشر، ت [] .
24. عبد الحليم محمود : أوروبا والإسلام، ط []، م []، سلسلة الثقافة الإسلامية، رقم، مطبعة دار الجهاد، 1959م.
25. عبد الحميد البطريق : التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية، 1971م.
26. عبد العزيز المشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ط 4، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1982م.
27. عبد القادر أحمد اليوسفي : العصور الوسطى الأوروبية، 1476-1500م، ط []، بيروت، المكتبة المصرية، 1967م.
28. عبد الحميد التّعيني : في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة، 1453-1848، ط []، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1981م.

29. علي إبراهيم الحمد النملة : التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، ط 2، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنيّة، 1419هـ.
30. عليّة السّميع الجتزوري : الحروب الصّليبيّة (المقدّمات السياسيّة) ، ط [] ، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1999م.
31. عمار بوحوش : تطوّر التّظريّات الأنظمة السياسيّة، ط [] ، الجزائر، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، 1977م.
32. عمر الديراوي : الحرب العالميّة الأولى، ط [] ، بيروت، دار العلم للملايين، 1982م.
33. عمر عبد العزيز عمر : التّاريخ الأوروبي الأمريكي الحديث والمعاصر، ط [] ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعيّة، 1998م.
34. فاروق عثمان أباطة : دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ط [] ، الإسكندرية، دار المعارف الجامعيّة.
35. فرديناند شيغل : الحضارة الأوروبيّة في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة : منير البعلبكي، ط 1، بيروت، دار العلم للملايين، 1952م.
36. قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصّليبيّة (الإيديولوجية - الذرائع - التّائج) ، ط [] ، م [] ، دار روتا برينت، 1993م.
37. كريستوفر دوسن : تكوين أوروبا، ترجمة : محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، ط [] ، القاهرة، مطابع سجل العرب، 1967م.
38. محمد العروسي المطوي : الحروب الصّليبيّة في المشرق والمغرب، ط 2، بيروت، دار العرب الإسلاميّ، 1982م.
39. محمد مخزوم : مدخل لدراسة التّاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، ط 1، لبنان، مكتبة المدرسة، 1983م.
40. محمد فؤاد الشبل : الفكر السياسي، ج1، مصر، مطابع الهيئة العامّة للكتاب، 1974م.
41. محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصّليبيّة والغزو الغربي للعالم الإسلاميّ، ط 2، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982م.
42. محمد محمد الصّالح : تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتّى الثورة الفرنسيّة، 1500-1789م، ط [] ، بغداد، مطبعة دار الجاحظ للطباعة والنّشر، 1982م.
43. محمد محمد مرسي الشيخ : الممالك الجرمانيّة في أوروبا في العصور الوسطى، ط [] ، القاهرة، دار الكتب الجامعيّة، 1975م.

44. محمد محمد مرسي الشيخ : النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ك []، مصر دار المعرفة الجامعية، 1996م.
45. محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ط []، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1988م.
46. محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ط []، بيروت، دار المعرفة الجامعية، 1986م.
47. محمود صالح المنسي : الحرب العالمية الثانية، ط []، م []، د []، 1989م.
48. ميلاد القرحي : تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية، ط 2، م []، الجامعة المفتوحة، 1995م.
49. نعيم فرح : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ط []، دمشق، حقوق التأليف والطبع والتشريح محفوظة، 1977م.
50. نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ط 1، بيروت، لبنان، دار الفكر المعاصر، 1993م.
51. نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ط []، دمشق، دار الفكر، 1982م.
52. نور الدين حاطوم : تاريخ النهضة الأوروبية، ط 1، دمشق، دار الفكر، 1985م.
53. هـ. أ. ل. فيشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، نقله إلى العربية : محمد مصطفى زيادة، الباز العربي، ج 2، ط 5، مصر، دار المعارف، ت [] .
54. هـ. سانت ل. ب. موسى : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة الباز العربي، ط []، القاهرة، عالم الكتب، 1967م.
55. هـ. مولس سانتال : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة الباز العربي ط []، القاهرة، عالم الكتب، 1967م.
56. هوبرت فيشر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، نقله إلى العربية : زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، ط []، مصر، دار المعارف، 1965م.
57. ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة : فؤاد اندراوس، عصر لويس الرابع عشر، ج 31، 32، ط 8، بيروت، تونس، دار الجيل، 1998م.

58. " " : قصة الحضارة، تقديم : محمد الدّين صابر، ترجمة : فؤاد، أندلوس، ج 30، 29، ط8، بيروت، تونس، دار الجيل 1998م.
59. " " : قصة الحضارة (الإصلاح الديني)، ترجمة : عبد الحميد يونس، ج 2، من المجلد 6، ط []، بيروت، د []، ت [] .
60. " " : قصة الحضارة، ترجمة : عبد الحميد يونس، مج، ج 3، ط []، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1996م.
61. " " : قصة الحضارة، ترجمة : محمد بدران، مج 4، ج5، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1973م.
62. " " : قصة الحضارة، ترجمة : محمد بدران، مج، ج 4، (عصر الإيمان)، بيروت، دار الجيل، 1998م.
63. " " : قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة : محمد بدران، مجلد 7، ج3، بيروت، دار الجيل، ت [] .
64. " " : قصة الحضارة، النهضة والإصلاح الديني، ترجمة : عبد الحميد يونس، ج 1، مجلد 6، بيروت، دار الجيل، 1988م.
65. " " : قصة الحضارة، عصر الإيمان والنّهضة، ترجمة : محمد بدران، ج 1، مجلد 5، بيروت، دار الجيل، 1987م.
66. " " : قصة الحضارة، عصر الإيمان والنّهضة، ترجمة : محمد بدران، ج 4، مجلد 4، ط []، بيروت، دار الجيل، 1988م.
67. " " : قصة الحضارة، عصر الإيمان والنّهضة، ترجمة : محمد بدران، ج 1، مجلد 4، ط []، م []، جامعة الدّول العربية، ت [] .
68. " " : قصة الحضارة، عصر الإيمان والنّهضة، ترجمة : محمد بدران، ج 16، بيروت، لبنان، دار الجيل، 1988م.
69. يجي الحمل : الأنظمة السياسيّة المعاصرة، ط []، بيروت، دار النهضة العربية، 1968م.

■ الموسوعات والمعاجم :

1. مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط.ب مفرّج : موسوعة عالم الأديان، كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم، كنيسة روما، ج10، ط [1، 2]، بيروت، Nobilis، 2004-2005م.
2. مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرّج : موسوعة عالم الأديان، نشوء المسيحية واضطهادها وانتشارها، ج8، ط [1، 2]، بيروت، Nobilis، 2004-2005م.
3. مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرّج : موسوعة عالم الأديان، والمذاهب والفرق والبدع في العالم، ج16، ط [1، 2]، بيروت، Nobilis، 2004-2005م.
4. مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرّج : موسوعة عالم الأديان، والمذاهب والفرق والبدع في العالم، ج11، ط 1، بيروت، Nobilis، 2005م.
5. بيار غريمار، جاك بيار ميّوت ومارسيل ياكو : موسوعة تاريخ أوروبا العام، أوروبا، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 1995م.
6. سعدون محمود السّاموك : موسوعة الأديان المعتقدات القديمة، ج 2، ط1، الأردن، دار المناهج، ت [] .
7. نهي نجار : موسوعة الأديان السّماوية والوضعية، ج6، ط1، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1995م.
8. أحمد علي عجيبية : موسوعة العقيدة والأديان، ج6، ط1، القاهرة، دار الآفاق الغربية، 2004م.
9. الموسوعة العربية العلمية، المجلد 4، ط2، السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999م، مادة بابوية.
10. ويليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم، ترجمة : مصطفى زيادة، ج 2، ط []، م []، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1959م.
11. مفيد الزّيدي : موسوعة تاريخ الحروب الصّليبية، الأسباب، الحملات، الآثار، ط []، عمّان، دار أسامة، 2004م.
12. م. روزنتال. ب. يودين : الموسوعة الفلسفية، ترجمة : سمير كرم، ط5، بيروت، دار الطليعة، 1985م.
13. عبد الحلو : معجم المصطلحات الفلسفية، ط []، لبنان، المركز التربوي للبحوث والإيماء، 1994م.
14. لويس معلوم اليسوعي : المنجد في اللغة والأدب، ط1، بيروت : المطبعة الكاثوليكية، 1927م.
15. جروان السّابق : مجمع اللّغات، ط1، م []، دار السّابق للنشر، ت [] .
16. ابن منظور : لسان العرب، ج3، ط []، م []، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1290م.

17. عبد الوهاب الكيلاني : موسوعة السياسة، ج 5، ط2، بيروت، مؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990م.
18. الموسوعة العربية الميسرة، ج2، ط1، القاهرة، دار الثقافة، مؤسسة فرانكلين، 1965م.
19. حسين علي حمد : قاموس المذاهب والأديان، مذاهب، أديان، فرق، أساطير، بدع، ط 1، بيروت، دار الجيل، 1998م.
20. كميل الحاج : الموسوعة المميّزة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ط1، لبنان، د []، 2000م.
21. عبد المنعم حنفي : المعجم الشامل المصطلحات الفلسفية، ط3، القاهرة، مكتبة مدبولي، 2000م.
22. أحمد علي عجيبية : موسوعة العقيدة والأديان، أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي، ج 8، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2004م.
23. عبد الرحمن يدوي : الموسوعة الفلسفية، ج2، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ت [] .
24. محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة، مجلد2، ط []، الجمعية المصرية لنشر المعرّضة والثقافة العالمية، دار الجيل، 1955م.
25. الموسوعة العربية الميسرة، ج3، ط2، بيروت، دار الجيل، 2001م.
26. جميل مديك : موسوعة الأديان في العالم، ج6، ط []، دار كريس أنترناشيونال، 2000م.
27. إميل يعقوب : بسّام بركة وآخرون : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، ط 1، بيروت، دار المعارف للملايين، ت [] .
28. كريستيان الحلو : موسوعة الأديان الميسرة، إشراف : سعد الشهراني، ط 2، بيروت، دار النفائس، 2002م.

■ الرسائل :

1. فجور عنتر : الاضطهاد الديني المسيحي للمسلمين (محاكم التفتيش نموذجاً)، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في مقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2006-2007م.
2. مسعود حايفي : حوار الأديان الإسلامي المسيحي نموذجاً، رسالة دكتوراه، قسنطينة (الجزائر)، جامعة الأمير عبد القادر، 2006-2007م.

■ المجلات :

1. مجلة الرابطة الإسلامية، العدد، 432، 2001م.
2. مجلة الدّعوة إسلامية أسبوعية، العدد، 1148، 1988م.

■ بالفرنسية :

1. Kuiper, B.R : The church in history, Michigan, 1964.
2. René Mety : Histoire des conciles, presses universitaires des Frances, vord double saint, Germain, Paris, 1964.
3. André Beaugé : les évangiles oublieux surtes des dualisme de platan l'harmattan, paris, 1997.
4. Franco Bolgiani : dieu Revel dans l'esprit, les quatre fleures, cahier 09.
5. La rouse le grand encyclopede, compresseur design, 06 librairie
6. Saint augustin : la cité de dieu, 7 places st-pièvre, maison Aubanel père : 1930.
7. Louis Bertrant : saint augustin, paris : « dit, Fayard, 1913 ».
8. Ronald frohlich : histoire de l'église panorama et chronologie, t4, bibliothèque d'histoire de christianisme des clé.
9. Théo-nouvelle encyclopédie catholique droyuet, arddant Fayard, 1989.
10. Françoise ladoues : Brève histoire de l'église catholique petite encyclopédie moderne de christianisme de clé, France, 1983.
11. Jean Gau démet : l'église dans l'empire Romain (IV.V. Siècles) Sirey, Paris.
12. Marcel Simon, André Benoit : le Judaïsme et le christianisme antique, presses, universitaire de France, paris, 1968.
13. Encyclopédie universals, vol 12 édition à Paris matière papauté.
14. Jean bartiste duroselle, Jean marie moyen : Histoire du catholicisme, presses universitaire de France, 1999.
15. Juan dacio : Dictionnaire du papes, présente par ventila haria, édition France empire, 1962.
16. M. J. Tissot : Histoire de l'église, entièrement refondue par le R.P. paul sywave, Paris, 1934.
17. M. D. Knocules et D.Obolensky : le moyen Age T2, traduit par louvent Jezequel et André crépin, édition du seuil, Paris, 1968.
18. Dacio Juan : Dictionnaire de papes, traduit par louis Hernandez, édition France, empire, paris, 1958.
19. Pierre Bernard : Histoire de l'église catholique, des clé ; paris, 1972.
20. Chabaud Gerrard, Mousset Soplue : 2000 ans de christiente, édition de chef, paris, 1984.

21. Dictionnaire encyclopédique de Jules Trousset, quatrième volume, Paris, à la Librairie illustrée.
22. [http://www. Geocities.com/Heatland/cabin/2855/catholiqueet-protestant-htm](http://www.Geocities.com/Heatland/cabin/2855/catholiqueet-protestant-htm).
23. Michel Mouné : Dictionnaire Encyclopédique d'histoire, Bordas Jean Pierre Délavage, Paris, 1979.
24. Dictionnaire pratique Guillet Librairie Aristide Guillet, Paris, 1974, printed in France.
25. Dictionnaire Encyclopédique : Guillet Librairie Aristide, printed in France, Paris, 1977
26. Dictionnaire Encyclopédique la Rousse Librairie, 17^{ème} du Mont Parmasse et 114 Boulevard Raspail, Paris, 1979.
27. Gillon Hollier : la Rousse universel, Moreanet, Librairie, Paris, 1949.
28. Luthers tadt Wittenberg, Martin Luther [http://www.WITTENBERG-DE/E/SEITTEN/PERSONEN/LUTHER HTML](http://www.WITTENBERG-DE/E/SEITTEN/PERSONEN/LUTHER-HTML).
29. Martin Luther : le Magnificat, traduit par Henri Labouge, Edition Sabator Mulhouse, Paris, Tournai, 1967.
30. J. Briout : Dictionnaire pratique de connaissances religieuses, t5 Librairie Letozey et Ané, Paris, 1927.
31. Dictionnaire des antiquités chrétiennes, Paris, 1971. Matière papauté.
32. Gustave Bardy ; L'église et les derniers Romains édition Robert Loffont.
33. Georges Sufferat : tu es pierre, édition de Falois, Paris.
34. Daniel : l'église des temps barbares Librairie Art Hème Fayard, Paris, 1956.
35. Charlois Pichon : Histoire du Vatican, société d'édition Françaises et Internationales, Godot de Moroy, Paris, 1946.
36. Henri Ficheman, L'empire carolingien traduit par A. Barbey et Fvaudov, Paris, 1958.
37. Françoise Ladoués : Brève Histoire de l'église catholique, Dextée Brouwer, Paris, 1988.
38. Genicot et P. Houssiau : le moyen âge ; Castermane, 1962.
39. J. M. Moyeur, Histoire du christianisme, des origines à nos jours tomes 5, opogée de la papauté et expansion de la chrétienté (1074-1274) de clé, Paris, 1993.

فهرس الكتاب المقدس

■ أسفار العهد الجديد :

الصفحة	الإصحاح والعدد	السفر	الصفحة	الإصحاح والعدد	السفر
23	22/5	تث	18	35-34-32/4	أع
23	10-9/1	أف	18	46-44/2	أع
23	14/1	أف	15	14-13/3	مر
24	18/16	مت	16	16/10	لو
24	6-4/2	1 بط	16	20/17	يو
24	9/7	يو	16	9/2	غل
25	6/15	رو	16	6-4/3	2 كو
25	9/2	1 بط	18	17-10/13	مت
25	20/19/28	مت	18	32/12	لو
25	27-25/5	أف	18	19-13/3	مر
26	2/1	1 كو	18	2/4	يو
26	16/3	1 كو	18	13/7/6	مر
28	21/12	كو	18	35/9	مر
28	29-25/22	أع	18	6/10	مت
28	3/9	أع	19	7	أع
29	10/1	غل	20	17/15	كو
29	18-15/1	غل	20	5/2	بط
31	31-30/4	غل	21	22-21/2	أف
31	44/5	مت	21	29، 16-15/8	روف
41	15	أع	21	2/11	2 كو
70	21/19	مت	21	19-18/16	مت
70	12-11/19	مت	22	10/4	تث
72	4/3	مت	22	30/31	تث

الصفحة	الإصحاح والعدد	السفر	الصفحة	الإصحاح والعدد	السفر
99	19-18/16	مت	76	21/19	مت
125	16-15/21	يو	77	9/11	مت
146	22-21/22	مت	77	10/1/2	يو
161	80/20	أع	77	38/7	1 كو
185	39/37/8	يو	78	5/9	1 كو
193	15/16	مر	83	18/16	مت
212	27-26/26	مت	83	18-15/21	يو
236	28-26/26	مت	84	28، 23-22/15	أع

■ أسفار العهد القديم:

الصفحة	الإصحاح والعدد	السفر	الصفحة	الإصحاح والعدد	السفر
23	16/12	خر	23	2/20	قض
197	41/1	تك	23	8/28	1 أخ
			23	2/2	يع

فهرس الأعلام

الصفحة	العلم	الصفحة	العلم
268	26 - داويت إيزنهاور	73	1 - أنثاسيوس
117	27 - دومينيك	74	2 - الأرثوذكس
137	28 - الرخبيون	46	3 - اريوس
09	29 - زينون	17	4 - الأفخاريستيا
166	30 - سحسمند	78	5 - أندروملر
84	31 - الأسقف	09	6 - أنستين
202	32 - السيمونية	80	7 - أنطونيوس
225	33 - سرّ التوبة	145	8 - أوتو
08	34 - سويتون	73	9 - العمودي
19	35 - شارل جينيبيز	04	10 - أوغسطس
139	36 - شارلمان	80	11 - أوغسطين
84	37 - الشماس	72	12 - أمونيوس
156	38 - العلماني	79	13 - باخوميوس
16	39 - العنصرة	138	14 - بين
262	40 - غدوا رهيريو	43	15 - بطريك
299	41 - غريغور يوس الأول	110	16 - البندكتين
263	42 - الفاشية	165	17 - البورنوز
299	43 - فراسنوادي سال	276	18 - بولس السادس
117	44 - فرانسس	225	19 - التعميد
265	45 - فرانثيسكو فرانكو	205	20 - التيقراطية
301	46 - فرنان بورتان	03	21 - ثنيسرون
138	47 - الفرنجة	261	22 - جان دارك
308	48 - فلا ديمير سولوفيتق	149	23 - جريجوري السابع
270	49 - فليب بيتان	297	24 - جورج سكاف
199	50 - القدّاس	267	25 - الحلفاء

الصفحة	العلم	الصفحة	العلم
261	66 - موسولينج	32	51 - قسطنطين
264	64 - النازية	137	52 - القوط
58	65 - نستوريوس	237	53 - كلفن
264	66 - معاهدة لاتران	83	54 - الكنيسة
149	67 - النيقولاوية	243	55 - الكنيسة الكاثوليكية
245	68 - هديران السادس	167	56 - كونستانس
109	69 - الهرطقة	308	57 - لاون تولستوي
09	70 - هيرقليطس	72	58 - مارون
46	71 - الهيلينية	55	59 - مازيوس
142	72 - هيو كايه	73	60 - مبارك الترسى
137	73 - الوندال	302	61 - مرسيه
168	74 - يوجينيوس الرابع	72	62 - مكارىوس
		225	63 - المناولة

فهرس الأماكن

الصفحة	المكان	الصفحة	المكان
299	18 - سافوا	49	1 - نيقية
301	19 - لمبث	163	2 - أفنيون
301	20 - إدينزغ	218	3 - بوهيميا
302	21 - ماديرا	235	4 - جلاروس
302	22 - مالين	267	5 - داترغ
303	23 - ستوكهولم	267	6 - دنكرك
303	24 - أوبسالا	268	7 - غرينلاند
303	25 - لوزان	268	8 - بير هاربر
303	26 - أسكوتلندا	268	9 - الفيلبين
304	27 - أفانستون	268	10 - النورماندي
304	28 - نيودلهي	273	11 - لوريتو
304	29 - نيروبي	273	12 - أسيزي
304	30 - فانكوفر	276	13 - بومباي
305	31 - كابينرا	282	14 - جنيف
305	32 - ليما	282	15 - أوغندا
302	33 - هاليفاكس	282	16 - كولومبيا
		268	17 - هيروشيما

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

أ المقدمة ♦

♦ الفصل الأول : الكنيسة في العصور الأولى من القرن 1 م إلى 5 م. 02

■ المبحث الأول : نشأة الكنيسة. 02

● المطلب الأول : الإمبراطورية الرومانية. 02.....

- الفرع الأول : نبذة عن تاريخ روما. 02.....

- الفرع الثاني : الإمبراطورية والإنجيل. 06

● المطلب الثاني : زمن الرّسل. 15

● المطلب الثالث : الكنيسة في الكتاب المقدس 20

- الفرع الأول : معان الكنيسة. 20

- الفرع الثاني : الكنيسة العالمية. 24

- الفرع الثالث : الكنيسة المحلية. 25

- الفرع الرابع : العلاقة بين الكنيسة العالمية والكنيسة المحلية. 27

■ المبحث الثاني : الكنيسة في الإمبراطورية المسيحية 32

● المطلب الأول : عصر قسطنطين.. 32

- الفرع الأول : لمحة عن حياة قسطنطين. 32

- الفرع الأول : تأسيس مدينة

القسطنطينية..... 36

- الفرع الثالث : المباحثات الدوناتية والأريوسية وموت قسطنطين. 37

● المطلب الثاني : ما بين المجمع النيقاوي والخلقيدوني 40

- الفرع الأول : مجمع نيقية سنة 325م. 45

- الفرع الثاني : المجمع القسطنطيني الأول سنة 381م. 55

- الفرع الثالث : مجمع أفسس الأول سنة 431م. 58

- الفرع الرابع : مجمع خلقيدونية سنة 541. 62

● المطلب الثالث : نشأة الحياة الرهبانية. 66

- الفرع الأول : الرهبانية. 66

- الفرع الثاني : نشأة الرهبانية المسيحية. 68

- المبحث الثالث : التنظيم الكنسي والروابط بين الكنائس 83
- المطلب الأول : الأساقفة والمطارنة... 84
- المطلب الثاني : البطريكيات الخمس. 90
- الفرع الأول : أصل البطريكيات الخمس. 90
- الفرع الثاني : الصّراع بين الأسقفيات الكبرى. 91
- المطلب الثالث : تأكيد الأولوية الرومانية. 97
- الفرع الأول : مبدأ الأسبقية "أسبقية كنيسة 97
- الفرع الثاني : الصّراع الثنائي بين أسقفيات الشرق (القسطنطينية)، أسقفيات الغرب (روما) 104
- الفرع الثالث : تدخّل الإمبراطور في حسم الصّراع لصالح روما. 105
- ◆ الفصل الثاني : البابوية في العصور الوسطى من القرن 6 م إلى 16 م 108
- المبحث الأول : الرّهبانية والديرية في العصور الوسطى. 108
- المطلب الأول : الرّهبانية 108
- المطلب الأول : الديرية 111
- الفرع الأول : الرّهبة والديرية خارج مصر. 115
- الفرع الثاني : مدارس رهبانية وانحراف الأديرة. 118
- المبحث الثاني : عهد الزّعامة البابوية 120
- المطلب الأول : ظهور البابوية 123
- المطلب الثاني : مهام البابا. 127
- المطلب الثالث : علاقة البابوية ببعض ممالك أوروبا الغربية. 137
- المطلب الرابع : القانون والتنظيم الكنسي. 154
- المطلب الخامس : تراجع نفوذ البابوية. 163
- الفرع الأول : الأسر البابوي (1305-1377م) : CAPTIVITE BABYLONE 163
- الفرع الثاني : الانشقاق الكبير وظهور المجالس الدينية LE GRAND SCHISME ET LES 165 CONCILES
- الفرع الثالث : ترف بابوات النهضة 168
- الفرع الرابع : ظهور الأفكار والعقائد الجديدة. 169
- المبحث الثالث : البابا والحروب الصليبية 173
- المطلب الأول : مفاهيم الحركة الصليبية. 173
- المطلب الثاني : دوافع الحروب الصليبية 176
- المطلب الثالث : موجز عن مراحل الحروب الصليبية. 186
- المطلب الرابع : نتائجها. 190

◆ الفصل الثالث : البابوية في العصور الحديثة بداية من القرن 16 م 195

- المبحث الأول : حركة الإصلاح الديني. 195
- المطلب الأول : الإصلاح البروتستانتي 196
- الفرع الأول : مفهوم الإصلاح. 196
- الفرع الثاني : البروتستانتية 198
- الفرع الثالث : عوامل قيام حركة الإصلاح. 201
- الفرع الرابع : أبرز قادة الإصلاح البروتستانتي. 217
- المطلب الثاني : الإصلاح الكاثوليكي المضاد. 242
- الفرع الأول : رد فعل الكنيسة الكاثوليكية. 242
- الفرع الثاني : وسائل الإصلاح الكاثوليكي المضاد. 245
- المبحث الثاني : البابا قبل المجمع الفاتيكاني الثاني 256
- المطلب الأول : المجمع الفاتيكاني الأول. 256
- المطلب الثاني : الحرب العالمية الأولى والثانية 259
- الفرع الأول : الحرب العالمية الأولى. 259
- الفرع الثاني : الحرب العالمية الثانية. 267
- المبحث الثالث : البابا في المجمع الفاتيكاني الثاني. 273
- المطلب الأول : التهيئة للمجمع 273
- المطلب الثاني : بولس السادس يخلف يوحنا الثالث والعشرين. 276
- المطلب الثالث : مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني. 278
- المبحث الرابع : البابا بعد المجمع الفاتيكاني الثاني. 284
- المطلب الأول : نتائج المجمع. 284
- المطلب الثاني : البابا ومهامه. 290
- الفرع الأول : يوحنا بولس الثاني رسول الانفتاح. 290
- الفرع الثاني : مهام البابا. 292
- المطلب الثالث : الحركة المسكونية. 297
- ◆ الخاتمة 314
- ◆ قائمة المصادر والمراجع 319
- ◆ فهرس الكتاب المقدس 334
- ◆ فهرس الأعلام 336
- ◆ فهرس الأماكن 338
- ◆ فهرس الموضوعات. 339